

شريعة

أصول العقائد

تأليف: الشيخ عبد الجليل علي الأعمير

تقريب

آية الله الحكيم الإلهي والفقير الرباني
الميرزا عبد الله الإصقائي دام عزه

الجزء الثاني

منشورات

دار الوعاظ الإسلاميه

بيروت - لبنان



شرح
أصول العقائد
(ج ٢)

شرح أصول العقائد

تأليف

الشيخ عبد الجليل علي الأمير

تقريظ

آية الله الحكيم الإلهي و الفقيه الرباني

الميرزا عبد الله الإحقاقي دام عزه

الجزء الثاني

منشورات

دار الوعظ الإسلامي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

(الباب الثاني)
في العدل و فيه فصول

الفصل الأوّل [العدل من الصفات الذاتية]

اعلم أن العدل من الصفات الثبوتية الذاتية، وهو وإن كان داخلاً في باب التوحيد، وبيانه في ضمن بيانه، لكن لما جرت سيرة العلماء على بيانه وذكره بعنوان مخصوص، جرّينا على أثرهم وجعلنا له عنواناً خاصاً وباباً مخصوصاً، ولما كان من الصفات الذاتية، وعرفت سابقاً أنها عين ذات الواجب تعالى لا فرق بينها وبين تلك الصفات، وليس فيها تكثر وتعدد، كان معرفته والتكلم فيه محالاً، والقول بمقتضياته عبثاً ❁

❁ سبب إفراد صفة العدل عن الصفات الذاتية

من المعروف أن العدل من الصفات الذاتية الآنفه الذكر سابقاً، مثل السمع والبصر والقدرة والقدم، لأنه لا يجوز سلبه عن الذات، ولا تتصف الذات بنقيضه وهو الظلم والعياذ بالله تعالى، وإفراد صفة العدل بعنوان مستقل عن بقية الصفات الذاتية لأمرين هما:

الأمر الأول

جرت سيرة العلماء في ذكر بيان أصول الدين، فجعلوا العدل الأصل الثاني من أصول الدين الخمسة، وهي التوحيد - والعدل - والنبوة - والإمامة - والمعاد. وهذه الأصول الخمسة بهذا الترتيب ليس مروياً عن المعصوم عليه السلام بعينه، بحيث

توجد رواية عن المعصوم عليه السلام يقول: أصول الدين خمسة، بل علماء الشيعة رضوان الله عليهم قديماً وحديثاً اتفقت آراؤهم على أن أصول الدين خمسة أمور، مستنبطة من روايات المعصومين عليهم السلام.

وأما أخواننا السنة فعندهم أصول الدين ثلاثة فقط وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد، باستثناء العدل والإمامة، حيث إن بعض المذاهب الإسلامية ممن يقول بالجبر كالأشاعرة وغالب المسلمين من إخواننا السنة فهم لا يعتقدون بالأئمة الاثني عشر من أمير المؤمنين إلى الإمام الحجة عجل الله فرجه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

بل يكتفون بالسنة في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقط، فيرون أمير المؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهما السلام كبقية الصحابة لا أكثر، خلاف معتقد الإمامية الشيعة الاثني عشرية، فإنهم يعتقدون بإمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم التشريع الطبيعي بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلهم ما للنبي من العصمة والتسيد من الله سبحانه وتعالى بآية الولاية ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

أجمع المفسرون من السنة والشيعة على أنها نزلت في علي أمير المؤمنين عليه السلام خاصة، فالولاية الثابتة لله تعالى على جميع الخلق، ثابتة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والثابتة لرسوله ثابتة للوصي والإمام من بعده، وهو الذي تصدق بالخاتم وهو راع، وهو أمير المؤمنين عليه السلام في المسجد بحضور الصحابة الموجودين في المسجد، وبعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن والحسين إلى صاحب العصر والزمان عليه السلام وأن الصديقة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الإمام المصلح آية الله الميرزا حسن الإحقاقي (هي معصومة مثلهم في كل شيء، إلا الخلافة بين الناس فهي مختصة للرجال)^(٢) وهي سلام الله عليها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وأنها لا تقاس بأحد من الخلق عدا أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويعلمها

(١) سورة المائدة، آية (٥٥).

(٢) حطب الإمام المصلح الميرزا حسن الإحقاقي.

أمير المؤمنين وأولادها الطاهرين عليهم السلام، قال رسول الله ﷺ ((لولا علي لم يكن لفاطمة كفو))^(١).

وأيضاً حديث الغدير المتواتر من الطرفين من العامة والخاصة عن رسول الله ﷺ يوم غدير خم، في رجوعه من حجة الوداع، قال للمسلمين جميعاً في ذلك اليوم وعددهم يتجاوز المائة ألف مسلم، قال رسول الله ﷺ ((الست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حين دار))^(٢).

وما ثبت لأمير المؤمنين عليه السلام من الولاية بعد رسول الله ﷺ على جميع الخلق من تعيين ونص رسول الله ﷺ من الله تعالى، يثبت للأئمة من بعده بالنص أيضاً من الله تعالى، إلى مولانا صاحب العصر والزمان، الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه، لأن الأرض لا تخلو من حجة، لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها، ولا يكون الحجة على جميع الخلق إلا بأمر الله تعالى لا من الخلق أنفسهم.

فلو جاز اختيار الوصي من الناس، لجاز اختيار النبي أيضاً من الناس، كما قالت قريش ((وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم))^(٣) القريتان مكة والمدينة ورجلان هما الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، وهذا محال والتالي مثله.

فالحجة والولي والإمام بعد رسول الله ﷺ لا بد أن يكون من الله تعالى، وإلا لفسد الدين والإسلام، فالكل يرى برأيه قد يصيب وقد يخطئ، وإذا أخطأ يصاب دين الله تعالى بالخطأ، ويكون هناك اختلاط بين الحق والخطأ، فيتساوى المحق والمبطل.

(١) البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٤٣ / ١٤١.

(٢) الهداية للشيخ الصدوق ٢٠٢، نهج... للسيد محسن الحكيم ٢٩٧، مسند أحمد للإمام أحمد بن حنبل ١ / ٨٤.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١.

وهذا بعينه ما حدث عند من يرى أن التشريع وقف بعد وفاة النبي ﷺ، عندما حارب معاوية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قيل لمعاوية اجتهد فأخطأ، وعلي اجتهد فأصاب، فعلى ذلك كانت الحسنه سيئة، والسيئة حسنة فبطل الثواب والعقاب، والحساب والمعاد وفسد الدين، وسوغ لكل من يعصي الله تعالى إلى يوم القيامة، فكل من عصى وقتل وزنى وسرق وظلم، أنه اجتهد وأخطأ، ثم أنت أيها القارئ احكم على دين يكون هذا أساسه والعياذ بالله تعالى، هنا ليس قصدي التفصيل ولكن ذكرته سياقاً للشرح وبالله التوفيق.

الأمر الثاني

لأهمية فصل العدل بالنسبة لله سبحانه وتعالى لأنه الواجبه لمعرفة الخالق جل جلاله، هل خلقهم بمقتضى العدل على حسب اختيار الخلائق، أو خلقهم على طريق الجبر والإكراه.

فمذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية أجمعوا على أن الله سبحانه عالم في جميع أفعاله وأحكامه، فخلق الخلق باختيارهم وكلفهم أيضاً باختيارهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١).

بيد أن بعض الفرق الإسلامية كالشاعرة تقول إن الله تعالى جبر الخلائق على الطاعة والمعصية والمفوضة من المعتزلة يقولون إن الله تعالى فوض الأمر إلى نفس الخلائق، في فعل الطاعة وترك المعصية، فهو معزول على فعل العبد للطاعة والمعصية.

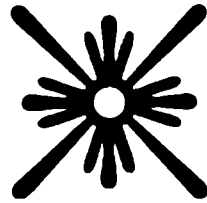
فرد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عليهما بقوله: ((لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين))^(٢) فلما كان هناك خلاف فيه، أفرد له باب مستقل عن بقية الصفات الذاتية لله جل جلاله.

(١) سورة الإنسان، آية (٣).

(٢) الهداية للشيخ الصدوق ٨، الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٦٠.

الفصل الأوّل [العدل من الصفات الذاتية] ١١

إذن العدل من الصفات الذاتية للحق تعالى مثل السمع والبصر والقدرة وغيرها، فالصفات شيء واحد والاختلاف من باب الأسماء المترادفة كما ذكرناه سابقاً، فالكلام في العدل كيف؟ ولم؟ وأين؟ يقتضى الكلام في ذات الواجب تعالى، والكلام في ذات الواجب سبحانه محال عقلاً ونقلًا كما ذكر من قبل في باب التوحيد فراجع.



إذ الذات المقدسة بذاتها ليس فيها اقتضاء وميل وإرادة، وإلا لزم في الذات مراتب ثلاث: الإقتضاء، والمقتضي «بالكسر»، والمقتضى «بالفتح».

وهي إما مركبة من هذه الثلاثة، وإما الثلاثة الأمور خارجة متحققة، ففي الصورة الأولى لزم الإحتياج، وفي الثانية تعدد الآلهة كما أشرنا سابقاً، فلا يتصور في مرتبة الذات تكثر بوجه من الوجوه وإلا لزم النقص*

* عدله القديم عين ذاته سبحانه

لو فرض أن عدله سبحانه للمخلوقات كعدلنا نحن الخلق للزم حدوثه وذلك بعدة أمور:

الأمر الأول

إن العدل بالنسبة للعدل لا بد له من ثلاثة موارد:

المورد الأول: وجود المقتضي بالكسر وهو الفاعل للعدل.

المورد الثاني: وجود المقتضى بالفتح وهو الواقع عليه العدل.

المورد الثالث: إذا وقع المقتضي بالكسر على المقتضى بالفتح يحصل الإقتضاء وهو العدل، ويقال له عادل ومثال ذلك النار بالنسبة للخشبة اليابسة، فالنار هي المقتضي بالكسر الفاعل للإحراق، والمقتضى بالفتح الخشبة اليابسة الواقع عليها النار، فإذا وقعت النار المقتضي بالكسر على المقتضى بالفتح وهي الخشبة اليابسة حصل الإقتضاء وهو الإحتراق للخشبة.

فلو قلنا إن عدل الله سبحانه مثل عدلنا نحن البشر لزمه محذوران هما:

المحذور الأول

أن تكون الذات العادلة مركبة من هذه الأمور الثلاثة، المقتضي بالكسر

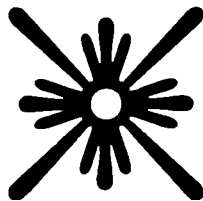
والمقتضى بالفتح والإقتضاء، الحالة الحاصلة من المقتضى والاقضاء وهي العدل، فتصبح الذات مركبة من هذه الثلاثة، وكل مركب محتاج، وكل محتاج حادث مخلوق.

المحذور الثاني

أن تكون هذه الأمور الثلاثة المقتضى بالكسر والمقتضى بالفتح والاقضاء أمور خارجة عن الذات البات جل جلاله فيلزم تعدد القدماء.

لأنه حسب الفرض أن العدل قديم، وإذا كان له مراتب يلزم أن تكون مثله في القدم، وتعدد القدماء تبطله أدلة التوحيد الآنفه الذكر في باب التوحيد كما تقدم.

فلا يمكن في الذات سبحانه وتعالى تكثر وتعدد واختلاف، لأنها صفات المخلوقين، وصفات المخلوقين في الذات الواحد الأحد تعد نقصاً، فكما أنه لا يمكن إدراك الصفات الذاتية من السمع والبصر وغيرها، كذلك العدل لا يمكن إدراكه، لأنه عين الذات.



إن قلت : إذا لم تدرك أنت الذات الواجبة وحقيقتها ، فكيف تنفي عنها الكثرة؟ فربما تكون هناك كثرة وأنت لا تعلم ، قلنا نحن مكلفون بسلب النقايس واللوازم الإمكانية عن الذات المقدسة ، وأثبتنا سابقاً أن ما في الإمكان محال في الأزل والواجب وبالعكس ❁

❁ كل نقص نسبه عن الله تعالى

قد البعض يعترض على ما تقدم ويقول : إذا كان ذات الواجب سبحانه لا يدرك بأي وجه من الوجوه ، ولا يمكن الإحاطة به ومعرفته ، فكيف ننفي عنه الكثرة ونحن لا نحيط به ، علّه يكون متصفاً بالكثرة ، وعله لا : ! فكيف ننفي شيئاً ونحن لا نعلم به؟ أجاب السيد كاظم مؤلف هذا الكتاب قدس الله نفسه المباركة ، بأننا نحن الخلق مكلفون بسلب جميع النقائص عن ذات الله سبحانه ، والكثرة من النقائص ، لأنها تقتضي التركيب ، والتركيب يقتضي الإحتياج ، والإحتياج من صفة المخلوق لا الخالق القديم الغني المطلق .

وذكر المؤلف أيضاً في باب التوحيد أن كل ما في الواجب محال في الممكن ، وكذا كل ما في الممكن محال في الواجب القديم جلّ جلاله ، لأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) فالله سبحانه غير خلقه في كل شيء ، قال الإمام الرضا عليه السلام ((كنهه تفريق بينه وبين غيره))^(٢) .

فحقيقة الله سبحانه غير حقائق الموجودات أجمع ، فسبحان ربك رب العزة عما يصفون .

(١) سورة الشورى ، آية (١١) .

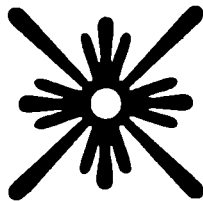
(٢) عيون أخبار الإمام عليه السلام للشيخ الصدوق ٢ / ١٣٦ ، الاحتجاج للشيخ الطبرسي ٢ / ١٧٦ ، البحار للشيخ المجلسي ٤ / ٢٢٨ .

لأنه لا شك أن الآثار كما تدلنا على معرفة الصّانع، كذلك تدلنا على سلب النّقايس عنه، إذ لو لم يكن كاملاً من كل جهة لما صدرت منه هذه الأفعال المحكمة المتقنة، فما كان منافياً للكمال من النّقايس سلباه عنه، والكثرة من النّقايس قطعاً ❁

❁ الآثار تدلنا على وجود الصانع وكماله

كما تدلنا الآثار على وجود الصانع، كذلك تدلنا الآثار على كماله وسلب النّقايس عنه سبحانه، فلو لم يكن كاملاً مطلقاً في كل شيء، لما أمكن صدور هذه الأفعال والمفاعيل من السموات والأرض في نهاية الدقة والحكمة، مما يعجز العقل عن إدراكها ومعرفتها، ليل ونهار، شمس وقمر، شتاء وصيف، بر وبحر، حجر وشجر، سماء وأرض، أنس وجن، ملك وشيطان..... الخ.

فهذه المفاعيل تدل أولاً على وجود صانع، ثانياً تدل على كمال وقدره هذا الصانع، وأن جميع النّقايس مسلوبة عنه، فلو اتصف بصفة واحدة من النّقايس، للزم اتصافه بجميع النّقايس وإلا لزم الترجيح بلا مرجح، فالله سبحانه هو الخالق المصور الحكيم العليم الكامل الغني المطلق على جميع ما سواه، فكل ما كان منافياً لكماله تعالى من النّقايس يجب سلبه، والكثرة من النّقايس المقتضية للتركيب والاحتياج، فيجب سلبها عنه سبحانه.



واعلم أيضاً أن العدل كالعلم وأمثاله له لحاظان :

ملاحظة باعتبار الذات، تقول علم وتريد منه عين الذات الواجبة،
وملاحظة باعتبار تعلقه بالمعلومات، فالأول قديم، والثاني حادث ❁

❁ العدل عين ذاته تعالى

تقدم الكلام في باب التوحيد أن الصفات الذاتية عين الذات، بلا اختلاف لا في المفهوم ولا المصداق ولا الإعتبار، ومنها العدل الذاتي هو عين ذاته تعالى، قل عدل أو ذات شيء واحد، وأيضاً تقدم الكلام أن الصفات الذاتية لله سبحانه لها لحاظان :

اللحاظ الأول

أنها عين ذاته تعالى كما لا يجوز التكلم في الذات، لا يجوز التكلم في الصفات.

اللحاظ الثاني

أنه توجد صفات قبال الصفات الذاتية تكون مقترنة بالحوادث والمخلوقات، فالعلم القديم الذي هو ذاته يوجد في قبالة علم حادث مخلوق يدل على علمه القديم، وهذه الدلالة صفة استدلال عليه لا صفة تكشف عن حقيقة العلم القديم، هو الذي يقترن بالمعلومات ويقع عليها، وأيضاً القدرة القديمة التي هي ذاته تعالى، توجد قدرة تمسك الموجودات كلاً وطراً حادثه، تقترن بالمخلوقات وتمسكها وتسيرها، وهنا العدل الذاتي الذي هو عين الذات، يوجد عدل يقترن بالمخلوقات بحيث يعطي كل ذي حق حقه، ويسوق إلى كل مخلوق رزقه.

وهذا مصداق حديث الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، كما في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن خالد الطيالسي، عن صفوان بن يحيى، عن ابن

مسكان، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور))^(١).

أمعن النظر في هذا الحديث الشريف تجد أن الله تعالى صفات ذاتية هي عين ذاته المقدسة، ولما خلق وأحدث الأشياء لا من شيء، وقع العلم الحادث بحدوث المعلوم، ووقع على المعلوم، والسمع الحادث وقع بحدوث المسموع واقترن به، والقدرة الحادثة بحدوث المقدور فأمسكته، والبصر الحادث بحدوث المبصر واقترن به.

ومن هذه الصفات الذاتية العدل الذاتي الذي هو عين ذاته المقدسة، وعدل حادث بحدوث الأشياء كليها وجزئها، سمائها وأرضها، وبحرها وبرها، سهلها وجبالها، غيبها وشهودها. الخ.

وهذه الصفات الحادثة في قبال الصفات الذاتية، تعد مظهراً من مظاهر صفات الله سبحانه، و مترجماً لوحيه، وأركاناً لتوحيده، وهذه الصفات الحادثة لا فرق بينهما وبين الصفات الذاتية في التعريف والتعرف، بل هي علم الله وسمعه ويده ولسانه وجنبه وقدرته وعدله، ومظهر هذه الصفات الحادثة المقابلة للصفات الذاتية، يجب في الحكمة أن تكون عند أفضل الحوادث والمخلوقات مطلقاً، غير أنه لا يوجد في الحوادث والمخلوقات أفضل من محمد وآل محمد عليهم السلام.

لذا روى في الكافي والبصائر عن أحمد بن محمد، عن ابن عمر، وعمن رواه، عن ابن أبي عمير، عن جعفر بن عثمان، عن سماعة، عن أبي بصير ووهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إن الله علمين، علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه ونحن نعلمه))^(٢).

(١) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٠٧، التوحيد للشيخ الصدوق ١٣٩، البحار ٥٤ / ١٦١.
(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٤٧، بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار =

ورد في الزيارة السادسة لأمر المؤمنين عليه السلام ((السلام عليك يا باب الله، السلام عليك يا عين الله الناظرة، ويده الباسطة، وأذنه الواعية، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة، ونقمة الدامغة، السلام على قسيم الجنة والنار، السلام على نعمة الله على الأبرار، ونقمة على الفجار))^(١).

وروى أيضاً في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ((السلام على يعسوب الإيمان، وكلمة الرحمن، وكهف الأنام، وسلام على ميزان الأعمال، ومقلب الأحوال، وسيف ذي الجلال، وسلام على صالح المؤمنين، ووارث علم النبيين، والحاكم يوم الدين، سلام على شجرة التقوى، وسامع السر والنجوى، ومنزل المن والسلوى، سلام على حجة الله البالغة، ونعمته السابغة، ونقمة الدامغة، سلام على إسرائيل الأمة، وباب الرحمة، وأبي الأئمة، وسلام على صراط الله الواضح، والنجم اللائح، والإمام الناصح، سلام على وجه الله الذي من آمن به أمن، سلام على نفسه القائمة فيه بالسنن، وعينه التي من رعته اطمئن، سلام على أذن الله الواعية في الأمم، ويده الباسطة بالنعم، وجنبه الذي من فرط فيه ندم))^(٢).

وروى في زيارته أيضاً ((السلام عليك يا عين الله الناظرة في العالمين، ويده الباسطة، ولسانه المعبر عنه في بريته أجمعين... السلام على اسم الله الرضي، ووجهه المضيء، وجنبه القوي، وصراطه السوي))^(٣).

فالمعصومون الأربعة عشرة كلهم مظاهر فعل الله تعالى فهم أذنه الواعية، وعينه الناظرة، ويده الباسطة، وجنبه العلي، ووجهه المضيء، وعدله في العالمين، فالله سبحانه يرى كل ما سواه من المخلوقات، وعينه الناظرة في العالمين هم عليهم السلام كما في الزيارة، السلام عليك يا عين الله الناظرة في العالمين، كما قال مولانا الإمام علي بن

= ١٣٠، اتلبحا للشيخ المجلسي ٤ / ١١٠.

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ٤٤٦، البحار ٩٧ / ٣٠٥.

(٢) المزار لمحمد بن المشهدي ١٨٥.

(٣) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس ٣ / ١٣٣.

محمد الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة ((المظهرين لأمر الله ونهيه))^(١).

وأمر الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

فالمظهرون لإرادة الرب سبحانه هم عليهم السلام كما في زيارة الإمام الحسين عليه السلام
((إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم))^(٣).

إرادة الرب يعني إرادة الله سبحانه أول ما تنزل لتكوين أو تشريع، تهبط إليهم
وتصدر من بيوتهم سلام الله عليهم.

إذن كل صفة ذاتية لله تعالى توجد صفة في قبالتها ومظهر لها حادثة، تقترن
بالحوادث والمخلوقات كي يعرف الحق تعالى باتصافه بها، ولولا هذه الصفة الحادثة
من السمع والبصر، وهما العين الناظرة، والأذن الواعية كما تقدم، لما عُرف الحق
سبحانه باتصافه بالسمع والبصر وهكذا العلم والعدل وبقية الصفات الذاتية، لأن
معرفة ذات الله تعالى محال، والطريق إلى معرفته عن الآثار وأكبرها محمد وآل
محمد عليهم السلام.

روى أحمد بن موسى، عن الحسن بن موسى الخشاب، عن علي بن حسان،
عن عبد الرحمن بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((نحن ولاة أمر الله،
وخزنة علم الله، وعيبة دين الله، وأهل دين الله، وعلينا نزل كتاب الله، وبنا عبد الله،
ولولانا ما عُرف الله))^(٤).

وروي أيضاً عن الحسين بن محمد، عن معلي بن محمد، عن محمد بن
جمهور، عن علي بن الصلت، عن الحكم وإسماعيل ابن حبيب، عن بريد العجلي

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) سورة يس، آية (٨٢).

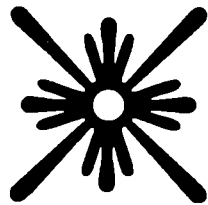
(٣) الكافي للشيخ محمد الكليني ٤ / ٥٧٧، كامل الزيارات للشيخ جعفر بن محمد بن قوليه ٣٦٦،
تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ٦ / ٥٥، رسائل الشيعة (آل البيت) للشيخ الحر العاملي ١٤ /
٤٩٢، البحار للشيخ المجلسي ٩٨ / ١٥٣.

(٤) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار ٨١.

٢٠ شرح أصول العقائد (ج ٢)

قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ((بنا عبد الله، وبنا عرف الله، وبنا وحد الله تبارك وتعالى))^(١).

فلولا هذه الصفات الحادثة من العين الناظرة، والأذن الواعية، والوجه المضي، والجنب العلي، وعلمهم الذي وسع السماوات والأرض لما عرف الله تعالى بالصفات الكمالية، لأنه لا يُدرك ويتوهم ولا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة كما ذكر في باب التوحيد.



لقوله تعالى شأنه ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١). فرد الله سبحانه بقوله هذا الكفار والمشركين الذين أثبتوا لله شريكاً، ولا شك أن الصفات الذاتية كما قلنا عين الذات، فلا يجوز سلبها عن الذات، وإلّا لزم سلب الذات، لأنّ الصّفة هي الذات، فبانتفاء الصّفة التي هي الذات، تنتفي الذات وهو كفر وزندقة، فلذا قالوا إن الصفات الذاتية هي التي لا يصح سلبها عن الذات، فثبت أن هذا العلم وهو المتعلق بالمعلومات غير الذات وحادث وعين المعلوم ❀

❀ رفع إشكال في نفي علمه تعالى

ذكر المؤلف السيد كاظم الرشتي قدس سره أن الصفات الذاتية هي عين الذات، فلا يمكن نفيها ولا ضد لها.

وقد البعض يورد إشكال وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ تَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى بما لا يعلم هنا نفي العلم وقلنا: إن العلم الذاتي لا ينفي، فكيف هنا الله تعالى نفي علمه في هذه الآية الكريمة؟

الجواب

أولاً: إن العلم المنفي في هذه الآية الكريمة هو العلم الحادث لا القديم الأزلي، لأن العلم القديم نفي للذات سبحانه وتعالى كما ذكرنا من قبل، من إيراد الرواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، بأن الله علمين، علم قديم لا يعلمه إلا هو، وعلم علمه ملائكة ورسله وأنبياءه ونحن نعلمه انتهى، لأنهم عيبة علم الله، وتراجمة وحيه، وأركان توحيده سلام الله عليهم.

أما علمه القديم فهو ذاته فنفية نفي للذات كما ذكر من قبل ، فالعلم المنفى بقوله تعالى (لا يعلم) أي بالعلم الحادث المخلوق ، والله تعالى نفى علمه بوجود شريك ، كما يدعيه ويزعمه المشركون ليس أنه متحقق موجود في الخارج والعيان ، بل نفاه لأنهم تصوروا وجود شريك لله تعالى مخلوق في أذهانهم .

كما قال سبحانه في أول الآية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمَّوْهُمْ أَمْ تَنْتَوْنَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(١) .

فالحق تعالى لما يقول بما لا يعلم ، لا يعني أنه موجود شريك متحقق وهو لا يعلمه ، بل إن هذا التصور محض الباطل ، لأنه لا يوجد في الوجود لله جلّ وعزّ شريك له سبحانه وتعالى ، والموجود في أذهان المشركين إنما هو محض تصور من أمور مخلوقة على حسب ما يروونه من المخلوقات ، قال الإمام محمد الباقر عليه السلام ((كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه ، مخلوق مصنوع مثلكم ، مردود إليكم))^(٢) .

إذن هذا التصور الذي عند المشركين بوجود شريك إنما هو أمر مخلوق لا شريك لله جلا وعز ، فعلمه الحادث لما لم يتعلق به ، لأنه ليس بشيء أصلاً ، وإذا لم يكن شيئاً ، بطل تعلق العلم بالمعلوم ووقوعه عليه ، لأن العلم الحادث حتى ما يكون علماً لا بد له من معلوم وإلا لم يسم علماً .

وهنا كذلك لما لم يكن شريك معلوم لله جلّ وعزّ في الوجود مطلقاً ، لم يكن هناك علم حادث ، وهذا أمر واضح معلوم عند الجميع ، إذا لم يكن معلوم لم يكن علم ، لأن العلم لا بد له من معلوم والمعلوم من علم ، فإذا انتفى أحد الأمرين انتفى الآخر ضرورة .

فالمراد من العلم المنفى في الآية : ﴿أَمْ تَنْتَوْنَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ ، (لا يعلم) ، هو العلم

(١) سورة الرعد ، آية (٣٣) .

(٢) البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٦٦ / ٢٩٣ ، نور البراهين الساطعة للسيد نعمه الله الجزائري ١ / ٩٣ ، اللعة البيضاء للتبريزي الأنصاري ١٦٩ .

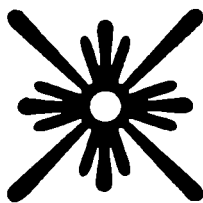
الحادث لا القديم الأزلي، لأن العلم القديم الأزلي هو عين ذات الواجب تعالى،
فنفيه نفي للواجب جلا وعز.

وثانياً: إن القضية سالبة بانتفاء الموضوع، وذلك أنه لا يوجد شريك لله عزَّ وجلَّ
لا في الخارج ولا في الذهن حتى يصح تعلق العلم به أو لا يتعلق به، فإذا انتفى
المعلوم انتفى العلم بالطريق الأولى، فالمتصور في أذهان المشركين وغيرهم من
شريك لله عزَّ وجلَّ وهو قديم باطل، لأن المتصور المزعوم هو أمر مخلوق لا قديم.

لذا روي في التوحيد للشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه عن الإمام الحسين
بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن يهودياً سأل علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: أخبرني
عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلم الله.

فقال عليه السلام ((أما ما لا يعلمه الله عزَّ وجلَّ، فذلك قولكم يا معشر اليهود إن عزيزاً
ابن الله، والله لا يعلم له ولداً، وأما قولكم ما ليس لله، فليس لله شريك، وأما قولكم
ما ليس عند الله، فليس عند الله ظلم، فقال اليهودي أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله))^(١).

فالرواية واضحة أن اعتقاد الناس المخلوقين بأن عزيزاً ابن الله عزَّ وجلَّ باطل،
لأنه لا يوجد ولد له سبحانه وتعالى، فعدم علمه به سبحانه ليس نقضاً لعلمه تعالى،
بل لأن القضية سالبة بانتفاء الموضوع لا أكثر، لا أنه موجود وهو لا يعلمه عزَّ وجلَّ.



(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٧٧، عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ٢/
١٢٩، البحار للشيخ المجلسي ١٠ / ١١.

خلاصة الكلام ومختصر المقام، أنك تارة تقول إن الله عالم وليس معلوم قط، وقادر وليس مقدور قط، ورب وليس مربوب قط، وسميع وليس مسموع قط، وبصير وليس مبصر قط، وولي وليس متولى عليه قط وأمثالها، ومرة تقول: سميع حين وجود المسموعات، وبصير وقت وجود المبصر، وعالم حين وجود المعلوم، وقادر حين وجود المقدور، وولي حين وجود المتولى عليه، ورب حين وجود المربوب وأمثالها ❀

❀ وجود صفات فعلية قبال الصفات الذاتية

هنا كما ذكر مراراً أن الله تعالى صفات فعلية قبال الصفات الذاتية، فله سمع حادثة وهي أذنه الواعية، وبصر حادث وهو عينه الناظرة في خلقه، وقدرة حادثة هي قدرته الدامغة، وكرم حادث هو يده الباسطة، وحكمة حادثة هي حكمته البالغة، ووجه حادث هو وجهه المضي، وجنب حادث هو جنبه العلي، إلى آخرها كما ذكرنا من قبل.

وهذه الصفات الحادثة المظهر لها محمد وآل محمد ﷺ، كما قال مولانا الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة ((والمظهرين لأمر الله ونهيه))^(١).

فالمظهرون لأمر الله تعالى الفعلي في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) وأمره المفعولي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣).

فأمر الله تعالى الفعلي والمفعولي الذي قامت به السموات والأرض هم ﷺ، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾^(٤).

قال مولانا الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه في دعاء شهر رجب في وصف

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) سورة يس، آية (٨٢).

(٣) سورة النساء، آية ٤٧.

(٤) سورة الروم، آية (٢٥).

مقام أهل البيت عليهم السلام ((فبهم ملأته سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت))^(١).
فالصفات القديمة الذاتية هي عين ذاته تعالى، كما أنه لا كيف له، كذلك صفاته لا كيف لها، التي منها العدل، فالله سبحانه عالم ولا معلوم في ذاته، وقادر ولا مقدور في ذاته، وكذا سميع وبصير ولا مبصر ومقدور في ذاته المقدسة، وكذا عادل ولا معدول، أي واقع عليه العدل في ذاته المقدسة.

فلما خلق الله تعالى الخلق، وقع العلم الحادث الذي خلقه بفعله على المعلوم، ووقعت القدرة الحادثة على المقدورات، وكذا العدل الحادث على جميع ما سواه جلا وعز.

قال مولانا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، كما في الكافي، عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن خالد الطيالسي، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ((لم يزل الله عزَّ وجلَّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور...))^(٢).

فأمعن النظر في هذا الحديث الشريف تجد ما ذكر حقاً صافياً، أن صفات الله الذاتية هي عين ذاته المقدسة فلا كيف لها، وأما الصفات المتعلقة بالخلق مما سوى الله تعالى، فالمظهر لها المعصومون الأربعة عشرة عليهم السلام، كما ذكر من قبل، وإن كانت الأرض والسماء وبقية الخلق كله مظهر له سبحانه إلا أنه ناقص، أما المظهر التام الكامل فهو محمد وآل محمد عليهم السلام كما في زيارة أمير المؤمنين ورواياتهم وأدعيتهم عليهم السلام، وللکلام تنمه إن شاء الله تعالى.

(١) مفاتيح الجنان ١٩٢، مصباح المتهجد للشيخ محمد الطوسي ٨٠٣، إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس الحسني ٢١٤.

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٠٧، التوحيد للشيخ الصدوق ١٣٩، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٤ / ٧١.

فالقسم الأول:

تعبير عن الذات البحت المجرد عن كل اعتبار، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام:
 (كان الله ولم يكن معه شيء)^(١) ولما سمع عارف هذا الحديث قال (الآن كما
 كان)^(٢) ومعلوم وبديهي أن في رتبة الذات ليس وراءها شيء قط، فالآن عالم
 ولا معلوم، وقادر ولا مقدور، وكذا ساير الصفات الذاتية*

* ليس في ذات الله تعالى إلا ذاته لا غير

يعني إن الله سبحانه وتعالى قبل خلق العالم هو سميع بصير قادر حي قيوم قديم
 عادل، ولما خلق الخلائق هو على ما هو عليه من قبل بلا اختلاف وتغيير.

فكما هو سبحانه قبل الخلق لم يكن معه شيء في ذاته، فبعد خلق الخلق لم يكن
 أيضاً شيء في ذاته جلّ وعزّ.

فلم تختلف أحواله قبل الخلق وبعد، لأن الإختلاف والتغيير من حال إلى حال
 يوجب الحدوث المنفي عن القديم جلّ وعزّ، كما قال الإمام جعفر بن محمد
 الصادق عليه السلام ((كان الله ولم يكن معه شيء))^(٣).

والآن على ما هو عليه كما قال مولانا الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام
 ((وهو الآن كما كان))^(٤) فالقسم الأول من الصفات، أي الصفات الذاتية هي عين
 ذاته جلا وعلا.

(١) الرواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (كان الله ولم يكن معه شيء) في الفصول
 المهمة في أصول الأئمة ١ / ١٥٤، البحار للشيخ المجلسي ٥٤ / ٢٣٨.

(٢) قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (إن تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان
 وهو الآن كما كان) التوحيد للشيخ الصدوق ١٧٩، البحار للشيخ المجلسي ٣ / ٣٣٧.

(٣) الفصول المهمة في أصول الأئمة عليهم السلام ١ / ١٥٤، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥٤ / ٢٣٨.

(٤) التوحيد للشيخ الصدوق ١٧٩، البحار ٣ / ٣٣٧.

والقسم الثاني .

هو مرتبة الفعل ، لأنّ المتعلق بالخلق هو الفعل ، وذات الواجب لا تقع ولا تتعلق بشيء ، إذا عرفت هذا فقس عليه العدل ، لأنك إن قصدت به الذات كان من الصفات الذاتية ، فلا نعرف له معنى ولا ندركه ولا نتعقله كالذات ، لأنه سبحانه لم يخبرنا به ، وإلا لزم معرفة الذات ، وهي محال كما عرفت .

وإن قصدت به العدالة المتعلقة بالخلق ، والمنسوبة إلى الموجودات فهو من الصفات الفعلية الحادثة ، نعرف معناه ونتمكن من بيانه ، إذ أخبرنا الله سبحانه به ، ونجد علامته في ذواتنا ، ووصفه في كلام الله المجيد ، وأحاديث الأئمة الظاهرين ، وبالعدالة الفعلية نستدل على العدالة الذاتية ❁

❁ الصفات الفعلية المتعلقة بالخلق

القسم الثاني من الصفات الفعلية ، المظهرة لصفات الذات من السمع والبصر والقدرة ، والعلم والقدم وغيرها المتعلق بالخلق ، لأن الخلق فيه معلوم فلا بد أن يتعلق بعلمه ، وفيهم مقدور لا بد أن يتعلق بقدرته ، وفيهم مسموع ومبصر لا بد أن يتعلق ببصره وسمعه ، وهذا السمع والبصر والقدرة والعلم لا يمكن أن تكون الذاتية له تعالى ، لأن صفاته الذاتية عين ذاته ، لا يمكن للتقديم أن يباشر ويقترن بالمخلوق ، قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح ((وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته ، وجلّ عن ملاءمة كفياته))^(١) فجميع الصفات المتعلقة بالخلق كلها صفات فعلية حادثة تناسب الخلق .

لذا ترى أن الذي يتولى الموت هو عزرائيل ، والخلق ميكائيل ، والنفخ إسرافيل ،

(١) البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٨٤ / ٣٣٩ ، مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي .

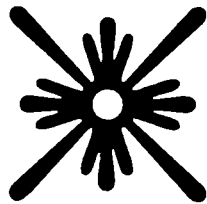
والرزق ميكائيل، والمدبرات للوجود هم الملائكة، هم الذين يسيرون الأفلاك والأملاك.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (١).

من المعلوم أنه لولا الزوجان لما تخلق الطفل في رحم الأم، فالمباشر والمسبب لتخلق الجنين هما الأبوان، مع العلم أن الخالق هو الله تعالى سبحانه عن طريقة فعله ومفعوله.

فمن الصفات الفعلية المظهرة للصفات الذاتية العدل الفعلي المخلوق، المظهر لعدل الله تعالى.

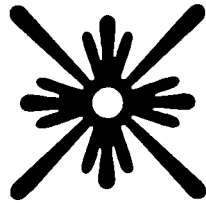
لذا ترى العالم أجمع قائم على العدل والحكمة، من العالم الصغير وهو الإنسان، إلى العالم الكبير وهو هذا الوجود المترامي الأطراف، كله قائم على العدالة والعدل والحكمة، لا يزيد شعره ولا ينقص شعرة سبحانه الخالق العادل.



(صفة استدلال لا صفة تكشف عنه) وذكرنا سابقاً أن الحادث لا يدرك إلا ما هو حادث مثله، فالآن نبدء في بيان معنى العدل الذي نحن بصدده ❁.

❁ صفة استدلال لا صفة تكشف عنه

أي إن هذه الصفات الفعلية، من الأذن الواعية، والعين الناظرة، واليد الباسطة، والجنب العلي، والصراط السوي، والوجه المضي، والقدرة الدامغة، والنعمة السابغة، كلها صفات تدل على الله سبحانه وتعالى مثل السماء والأرض، والبحار والأنهار، والنبات والحيوان والأنس وغيرها من الموجودات، تدلنا ونستدل بها على الله تعالى، لكن هذه الصفات المخلوقة لا تكشف عن ذاته الأحدية الصمدية التي ليس كمثله شيء، لأن معرفة الذات عز وجل لا يدركها إلا هو، فلا يعلم بما هو إلا هو سبحانه وتعالى، ولكنها تدلنا على صفات الذات تعالى.



الفصل الثاني [العدل اللغوي والإصطلاح] حي

العدالة في اللغة خلاف الظلم والجور، يقال بسط الوالي عدله ومعدلته يعني رفع الظلم والجور عن الرعايا، وعمل معهم بمقتضى الحكمة، وسلك معهم بالعطوفة والرافة ❀.

وأما في اصطلاح الفقهاء، ففيه خلاف بينهم، فكل ذكر له حداً ومعنى، لسنا نحن بصدده ولا حاجة لنا به ❀❀، والمقصود في المقام هو المعنى اللغوي.

❀ العدل اللغوي

يقول ابن فارس في مقاييس اللغة لكلمة العدل ((أصلان متضادان، الأول: يعني الإستواء، والآخر بمعنى الإعوجاج).

فالأول العدل من الناس: المرضي المستوى الطريقة. يقال: هذا عدل وهما عدل، وتقول: هما عدلان أيضاً، وهم عدول، وإن فلاناً لعدل بين العدل والعدولة، والعدل الحكم بالإستواء.

ومن الباب العَدْلان: حملا الدابة، سميا بذلك لتساويهما. والعديل: الذي يعادل في المحمل.

والعدل نقيض الجور، تقول عدل في رعيته، ويوم معتدل إذا تساوى حالاً حره

فأما الأصل الثاني فيقال في الإعوجاج: عَدَل، وانعدل، أي انعرج^(١).
فالعدل المراد به في هذا الباب هو المعنى الأول من العدل بين الناس، بأن يعطي كل ذي حق حقه من المكلفين، ويعاملهم بالعطف والرفقة.

❁❁ العدل الإصطلاحي عند العلماء

معنى العدل عند أهل البيت عليهم السلام، والقرآن الكريم هو إعطاء كل ذي حق حقه، وسوق إلى كل مخلوق رزقه، كل على حسبه وقدره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾^(٢) ﴿وَأَنْتُمْ مِّنْكُمْ مَّن سَأَلْتُمُوهُ﴾^(٣).

من خير وشر بقدر الله تعالى، وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين))^(٤) وإن شاء الله سنشبع المقام في الفصول الآتية.

وأما عند بعض العلماء من العامة والخاصة، فوقع فيه اختلاف كثير، كما يذكر الرازي في تفسيره.

((إن العدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول: لا إله إلا الله.

البعض يقول: العدل إثبات إله موجود متحقق بشرط أن يكون منزهاً عن الجسمية والجوهرية والأعضاء والأجزاء والمكان.

البعض يقول: بأن جلا وعلا صفاته حادثة متغيرة.

البعض يقول: بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار.

البعض يقول: بأن العبد مستقل بأفعاله.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس.

(٢) سورة الزلزلة، آية (٧ - ٨).

(٣) سورة البقرة، آية (٦١).

(٤) الكافي للشيخ محمد الكليني / ١ / ١٦٠.

البعض يقول: إن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب.

البعض يقول: إنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة.

البعض يقول إنه تعالى يُخرج من النار كل من قال واعتقد أنه لا إله إلا الله . .

فهذه الأمثلة المذكورة في معنى العدل في الاعتقاد، . . . وأما العدل فيما يتعلق

بأفعال الجوارح ففيها مذاهب، منها:

١ - أن قوماً نفوا التكليف ويقولون لا يجب على العبد الإشتغال بشيء من

الطاعات ولا يجب عليه الإحتراز عن شيء من المعاصي، وليس لله عليه تكليف أصلاً.

٢ - وقال قوم من الهند ومن المناوية: أنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل

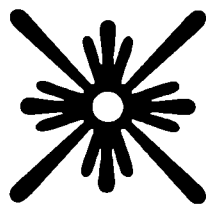
الطيبات، وأن يبالح في تعذيب نفسه، وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه، حتى أن المناوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزويج، ويحترزون عن أكل الطعام الطيب.

٣ - الهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل^(١).

انظر إلى هذه الكلمات المتناقضة، المخالفة للفترة قبل أن تكون مخالفة

للشرع، وهذا الاختلاف والتناقض طبيعي، لأنه مأخوذ من غير أهل العصمة محمد

وآل محمد ﷺ.



(١) تفسير الرازي للفخر الرازي ٢٠ / ١٠٢، مع تصرف في بعض الكلمات للإختصار.

ونقول إن الله عادل وحكيم، يعني لا يظلم أحداً، والظلم هو وضع الشيء في غير محله وموضعه، وعدم إعطائه للخلق ما يستحقه، بل يعطى لطالب الشيء خلاف ما يريد ويطلبه، مثلاً يعطى لطالب الخير الشر، وطالب الشر الخير، وطالب العلم الجهل، وطالب الجهل العلم وأمثاله، هذه الأمور تسمى بالظلم، وفاعلها ظالماً، والله سبحانه عادل حكيم، يعني يضع كل شيء في موضعه، ويعطي كل أحد مقتضى قابليته، ويجعل الحسن في محل الحسن، والقبح في المحل القبيح، ويكرم لكل أحد ما يراه مستحقاً له، فعلى هذا يلزم الليل أن يكون مظلماً، والنهار مضيئاً، والنار حارة، والماء بارداً، والحديد صلباً، فلو خلق النار باردة، والماء حاراً، والهواء سيالاً، وأمثالها فقد ظلم، وهذا مقتضى الرحمة الواسعة، وهذه الرحمة هي العدل، وإليه أشار بقوله عز وجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١) يعني أعامل مع كل أحد بمقتضى العدل والحكمة، فأدخل الكافر في جهنم وأخلده فيها، والمؤمن في الجنة وأسكنه فيها دائماً، وأجعل البعيد عن ساحة عزي بعيداً، والقريب قريباً، وقلوب المؤمنين منيرة بإيمانهم، وقلوب الكافرين مظلمة بكفرهم، لأنني لو فعلت غير هذا لكنت ظالماً، وكان فعلي خلاف الحكمة ولا يجوز ذلك لي، لأنني أرحم الرّاحمين، وهذا يعني الرّحمة الواسعة، التي هي صفة الرّحمن ﴿

• العدل الإلهي

العدل الإلهي هو المعنى اللغوي، بمعنى إعطاء كل ذي حق حقه، والسوق إلى كل مخلوق رزقه كما بين في التعريف اللغوي.

(١) سورة الأعراف آية (١٥٦).

فالعدل الإلهي هو عبارة عن الرحمة العامة، التي وسعت كل شيء مما سوى الله تعالى، وذلك لأن الحق تعالى له رحمتان، رحمة خاصة، ورحمة عامة:

الرحمة العامة

هي عبارة عن إعطاء كل شيء ما يريد من الخير والشر، والعلم والجهل، والنور والظلام، والحسن والقبیح، والعلو والسفل، والكثيف والغليظ، والمؤمن والكافر. . . . الخ.

فإنه تعالى بالرحمة العامة يعطي كلاً على حسب طلبه من الخير والشر، فلو خالف الحق تعالى في العطاء، بأن أعطى طالب الخير الشر أو الشر الخير، للزم الظلم من الله تعالى للعباد وحاشاه ذلك.

لأنه أجبرهم على ما لا يريدون من الطلب، فالعدل الإلهي أن يعطي المؤمن الإيمان والنور والهداية بطلبه، ويعطي الكافر الختم على القلوب والأسماع والأبصار بطلبه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

وقال تعالى للكافرين: ﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) ﴿وَأَتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ﴾ (٣).

فالرحمة العامة التي أشار إليها سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٤).

تشمل جميع الخلائق ما سوى الله جلا وعلا، بأن يعطي كلاً على حسب طلبه من الخير والشر، والنور والظلمة، والعلو والسفل، واللطيف والكثيف، والحسن والقبیح. . . . الخ.

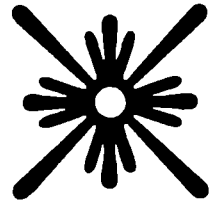
(١) سورة الحديد آية (١٢).

(٢) سورة الجاثية آية (٢٣).

(٣) سورة البقرة آية (٦١).

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٦).

فلو أعطى لطالب الخير الشر أو لطالب الشر الخير، أو لطالب العلم الجهل أو لطالب الجهل العلم، أو أعطى للنهار الظلمة والليل النور، لأصبح جلّ وعزّ ظالماً للخلق وحاشاه، لأنه أعطاهم بخلاف ما طلبوا، فيكون جابراً لهم، وهو سبحانه العدل العظيم، فيعطي كلاً على حسب طلبه.



وأما الرحمة المكتوبة، فهي رحمة فضل وإحسان مختصة بالمؤمنين يوم القيامة، فالله سبحانه بفضلته ورحمته يعطيهم الأجر والثواب، ويعلي درجاتهم ويكرمهم من النعم والموائد ما لا تتناهى، لا عين رأت ولا أذن سمعت، وليس هذا كله بعدله، إذ بعدله لا يستحقون هذا الثواب العظيم، لقلّة عملهم وتقصيرهم في دار الدنيا، بغلبة الشهوات النفسانية عليهم، لكن لما رأى المحل قابلاً للفيض، وطالباً له، غفر لهم وزاد في قابليتهم، وأعطاهم من الأجر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اللهم اجعلنا منهم بالنبي وآله الطاهرين، وهذا معنى الرحمة المكتوبة، التي صفة الرحيم، فظهر أن الرحمة الواسعة هي العدل بعينه والرحمة المكتوبة المختصة بالمؤمنين هي الفضل بعينه* (اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك).

✽ الرحمة المكتوبة

هي رحمة الفضل والإحسان وهذه مختصة للمؤمنين فقط، وهذه الرحمة مثال: رئيس مؤسسة عنده عدة عمال، نجد صاحب ورئيس المؤسسة يخص العمال المخلصين في عملهم، المواظبين على أوقاتهم، بزيادة في الراتب والتسهيلات في الإجازة والقروض وغيرها.

كذلك الحق سبحانه يخص المؤمنين المخلصين له سبحانه، بعناية خاصة، فيعاملهم إذا قصرُوا في بعض الشيء بالعفو ويتغاضى عن سيئاتهم، ويعطيهم أكثر مما عملوا، فيعطيه جنة عرضها السموات والأرض، ويعطيهم من النعم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، مع العلم أن أعمالهم أقل القليل، لكن لما كانت قلوبهم قابلة لولاية أهل البيت عليهم السلام، والبراءة من أعدائهم، وعلم الوفاء بذلك أبد الأبد من المكلفين، الله سبحانه عاملهم بفضلته لا بعدله، لأنه بعدله لا يسحقون هذا النعيم

المقيم الأبدي، ولكن لما كانت قلوبهم قابلة لهذا النعيم بولايتهم للمعصومين عليه السلام أعطاهم ما أعطاهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((حب علي إيمان وبغضه كفر))^(١) وقال صلى الله عليه وآله: ((حب علي حسنة لا تضر معها سيئة))^(٢) لذا قال تعالى في هذه الرحمة المكتوبة، رحمة الفضل ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

الذين يتقون، أي يوالون المعصومين محمداً وآل محمد عليهم السلام، ويؤتون الزكاة، أي يتبرون من أعدائهم، والذين هم بآياتنا يؤمنون، الآيات التي ملئت السموات والأرض، هم محمد وآل محمد عليهم السلام.

فالرحمة الواسعة هي العدل، أي يعطي الحق تعالى كلاً من الخلائق ما طلب من الخير والشر، هي التي وسعت كل شيء، والرحمة المكتوبة بقوله: ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

هي رحمة الفضل، فلو يحاسب الله سبحانه المؤمنين بعدله، بحيث يزن أعمالهم الصالحة ونعمه التي لا تحصى، لا يدخل أحد الجنة قال تعالى في نعمة واحدة لا يمكن عدها، فكيف بنعم كثيرة قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٤).

إذا الحق تعالى يدخل المؤمنين الجنة التي عرضها السموات والأرض بفضلها لا بعدله، اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك آمين رب العالمين.

لذا يروى (أن عبداً يوم القيامة يأمره الله تعالى أن يدخل الجنة بفضلها فيقول العبد يا رب أدخلني الجنة بعدلك لا بفضلك، لأنني أطعتك فيما تأمر، وانتهيت عنا تنهى عنه).

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ١٥٠.

(٢) كشف الغطاء للشيخ جعفر كاشف الغطاء ١ / ١٧.

(٣) سورة الأعراف، آية (١٥٦).

(٤) سورة إبراهيم، آية (٣٤).

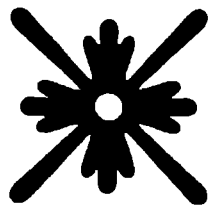
فقال الحق تعالى: يا ملائكتي زنوا حسناته مع نعمة البصر التي أعطيتها لياها، بعدما رجحت كفة نعمة البصر على جميع أعماله التي قدمها لله تعالى، بعدما قال يا رب أدخلني الجنة بفضلك لا بعملك) قال تعالى: ﴿قُلْ لَا فَضْلَ أَقْوَعَيْنَكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَائِبِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ أَقْوَعَيْنَكُمْ وَرَحْمَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَشَكَرْتُمْ مِمَّا أَنْصَرْتُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام ((اللهم فصل علي محمد وآله، واحملي بكرمك على الضمير، ولا تحملني بعملك على الإمتحان))^(٣).

وعنه عليهما السلام، في دعاء أبي حمزة الثمالي ((يا محسن يا مجمل يا منعم يا مفضل، لست أتكل في النجاة من عفاك على أعمالنا، بل بفضلك علينا))^(٤).

إذن رحمة الفضل خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، أي كما أنها فضل في الآخرة كذلك فضل في الدنيا، بأن يحفظ المؤمنين من الأخطار وموارد السوء، بالخصوص فيما يضر بالآخرة، كإفطار المؤمن لمصلحته فلو أهناه لفسده الغنى، وكذا العكس يخيه فلو أفقره لأفسده الفقر.



(١) سورة البقرة، آية (٦٤).

(٢) سورة النور، آية (١٤).

(٣) الصحيفة السجادية ص ٥٨ الدعاء ١٣.

(٤) مصباح المتعبد للشيخ الطوسي ٥٨٥.

الفصل الثالث [الحق تعالى لا يصدر عنه القبيح]

لَمَّا عرفت أن الله سبحانه منزّه ومبرء من جميع النقايس الإمكانية، ومتصف بكل الأوصاف الكمالية الأزلية، عرفت أنه لا يصدر عنه القبيح، إذ كلّ شيء من الظريف ظريف، فكيف يصدر عنه القبيح❀؟

❀ كل شيء من الظريف ظريف

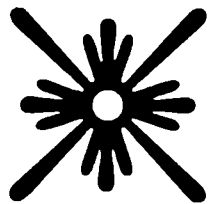
لما أثبت السيد كاظم رضوان الله عليه، أن الحق سبحانه كامل من كل جهة في جميع صفاته وأفعاله، بحيث لا يتصور النقص فيه مطلقاً ولو بالإعتبار، أي لا يمكن لنا أن نفرض النقص في حقه جلّ وعزّ إعتباراً من دون مصداق خارجي له في ذاته، لأن من صدق عليه النقص الإعتباري، صدق فيه النقص الحقيقي، وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وهو باطل.

فلما كان النقص الإعتباري منفي في حقه سبحانه، كان من اللازم ألا يتصف بالنقص الحقيقي، ومن أهم وأعظم النقص الحقيقي فعل القبيح منه سبحانه، لأنه من أعظم النقائص وأشنع الأمور.

فالكامل لا يصدر عنه إلا كامل مثله، كما أن النور لا يصدر عنه إلا نور، والنار لا يصدر عنها إلا الحرارة، والطيب لا يصدر عنه إلا الرائحة الطيبة، فالظريف في ذاته لا يصدر عنه إلا ظريف، لأن الأثر يشابه صفة مؤثره، فحكاية الأثر لمؤثره قاعدة كونية، فلما كان الخالق سبحانه كاملاً من كل وجه، كانت آثاره كاملة من كل وجه،

٤٠ شرح أصول العقائد (ج ٢)

فالظلم وفعل القبيح عنه سبحانه ليس من ذاته، ولا من صفات ذاته، لأنه الكامل الغني المطلق هذا أولاً، وثانياً يأتي الكلام عليه.

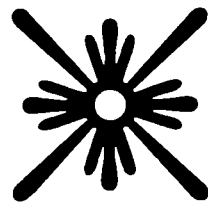


والحال أنه فعل الناقصين وعمل الضالين ❁

❁ عمل القبيح فعل الناقصين

أي أنه لا يفعل القبيح، لأن فعل القبيح إنما هو فعل الناقصين، بيد أن الكامل المستغني عن سواه، لا تدعوه الحاجة لفعل القبيح.

وثانياً: فعل القبيح من أعمال الضالين عن طريق الحق، الجاهلين عن معرفة الصواب، والحق سبحانه هو الحق، وهو الهادي إلى الصواب، فلا يمكن في حقه فعل القبيح جل وعلا.



وفاعل القبيح لا يخلو من أنه إمّا جاهل للقبيح، ويزعم في فعله أنه حسن، وإمّا عالم للقبيح لكن دعت الحاجة إلى فعله، كي يسد به مقاصده وحوائجه الدنيويّة، وإمّا عالم به وفعله لا حاجة إليه بل ارتكبه عبثاً.

ففي الصّورة الأولى لزم الجهل للفاعل، والله سبحانه متعال عن ذلك، وفي الثّانية لزم الإفتقار والحاجة وهما صفتا الممكن، وفي الثّالثة السفه والدناءة، إذ العاقل لا يترك الحسن ويفعل القبيح مع علمه به، وعدم الحاجة والدّاعي إليه*

* فاعل القبيح لا يخلو من محاذير ثلاثة

فاعل القبيح والعياذ بالله تعالى مثل السرقة والظلم وغيرها، لا يخلو من أمور ثلاثة وهي:

الأمر الأول

أنه جاهل بالقبيح سواء أكان جاهلاً بالموضوع، بأن السرقة مضرّة للآخرين، أو جاهلاً بالحكم، أي جاهل أن السرقة حرام، لذا تجد كثيراً من النساء السافرات، لا يعلمون أن رفع الحجاب حرام.

فهذا الأمر منتقص عند الناس الضعفاء، فكيف يجري على الخالق جلّ وعلا، فالحق سبحانه هو العالم بكل شيء مما سواه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، لأنه العالم، والعلم ذاته سبحانه، فلا يكون جاهلاً والعياذ بالله، لأن الجهل من صفات المخلوق لا الخالق تعالى.

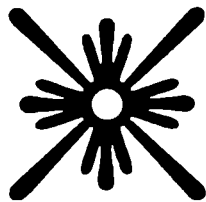
الأمر الثاني

من موجبات فعل القبيح الحاجة، فالسارق حين يسرق دعاه الفقر والإحتياج، للتوسع على نفسه وملذاته وعياله واحتياجاته، والفقر والإحتياج من صفات

المخلوقين، أما الخالق فهو الغني المطلق من كل شيء، فلو كان محتاجاً فقيراً للزم احتياجه إلى الغير، والإحتياج إلى الغير هو عين الإمكان والحدوث.

الأمر الثالث

ففاعل القبيح إذا لم يكن جاهلاً ولا فقيراً محتاجاً إلى فعله، يكون الموجب له السفاهة والدناءة والحقارة، كحال بعض الحكام الظلمة، يظلمون الناس لا لحاجة، بل سفاهة وحقارة وتفكهاً، كما نقل عن الحجاج بن يوسف الثقفي، إذا أراد أن يروح عن نفسه، يأمر بأحد من السجناء ويذبح أمامه، ويتلذذ بدمه وصراخه من الموت، فالسفاهة والدناءة منبوذة من الخلق، فكيف بالخالق الحكيم الذي لا يجري عليه النقص مطلقاً سبحانه وتعالى.



فظهر أن القبح في حق الواجب لا ينبغي بوجهه ❀ ومن أقسام القبح الظلم والجبر وفعل خلاف الحكمة ❀❀.

إذ ليس يخفى على كلّ عاقل أن إعطاء الشرّ لطالب الخير، وإعطاء الخير لطالب الشرّ، وتعذيب من هو مستحق الجنة والتّعيم، وتنعيم مستحق العذاب والنّار قبيح، ولا يخفى على كلّ ذي لب قبح هذا، وحسن خلافه، ومن ليس له بصيرة لا حظ له في المعرفة ❀❀❀.

❀ لا ينبغي في حقه تعالى القبيح

أي مما تقدم من المحاذير الثلاثة من عامل القبيح وهو الجهل، أو الحاجة، أو السفاهة، وكلها منفية عنه تعالى، لأنه الكامل الغني المطلق من كل وجه، فلا يتصور في حقه جلّ وعلا نقص من النواقص الإمكانية، ولو بالإعتبار والفرض، سبحانه من تقدست أسماؤه وجلّ ثناؤه.

❀❀ مصاديق القبيح

القبيح جنس يندرج تحته كل ما كان خلاف الحكمة والمصلحة والعقل السليم، فمنه الجبر والظلم، والفساد والتهور والتسرع، وعدم إعطاء الشيء ما يستحقه من الإحسان والإساءة، إلى غير ذلك.

❀❀❀ العقل هو الحاكم على خلاف الحكمة

الحاكم على حسن الأفعال وقبحها، هو العقل السليم المستنير، بنور الشرع السماوي، فالعقل يقبح مجازاة المذنب المقصر بالجنة والقرب إليه، كما أنه أيضاً العقل يقبح مجازاة المطيع الممثل للأوامر، المنتظم في أداء الحقوق بالعقوبة والخذلان والبعث، فلو فرض - والعياذ بالله تعالى - أن الحق يجازي المطيع بالنار، والعاصي بالجنة، للزم القبح عقلاً في فعله، بيد أنه الحكيم الغني عن جميع ما سواه،

فالعقل السليم يوجب مكافأة المطيع بالجنة، والعاصي بالنار، وفعل خلاف هذا يوجب القبح، فالخالق سبحانه كامل مطلق وغني مطلق غير محتاج إلى الغير، والغير محتاج إليه في كل شيء، فهو لا يفعل القبيح بجميع أنواعه وأقسامه.

فثبت بالدليل والبرهان أن الله سبحانه عادل، ولا ينبغي له الظلم والقبح، والآيات القرآنية والشواهد الفرقانية كثيرة في المقام، صريحة في المرام، منها قوله عزّ من قائل ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).
يعني أن الله سبحانه لم يظلمهم بعذابهم وتعذيبهم بل عاملهم بمقتضى عدله، هم ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب بمقتضى عدله ❀

❀ الله تعالى عادل لا يظلم أحداً

مما تقدم يظهر أن الحق سبحانه وتعالى عالم في جميع أفعاله التكوينية والتشريعية، لا يفعل القبيح ولا يفعل خلاف الحكمة والمصلحة، بل عامل الخلائق بعدله، أي برحمته العامة، أو الخاصة، فعامل الكفار والعصاة من الخلائق بعدله من العذاب، وعامل المؤمنين المطيعين بفضله، بأن يتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ويعاملهم بفضلهم من الغفران، لكونهم مطيعين مؤمنين.

لذا قال سبحانه مخاطباً الكفار والمشركين، بأن العذاب النازل بهم ليس من عنده، لأنه ليس له فائدة راجعة إليه، وإنما هذا العذاب بسبب أعمالهم، وعصيانهم فهم الذين ظلموا أنفسهم، بعدم الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

فالعذاب النازل بهم بسبب عصيانهم وعنادهم عن الحق، فبموجب العدل حاسبهم بعدله بالرحمة العامة، لأنه لو عاملهم خلاف ذلك كان عمله قبيحاً، وخلاف الحكمة بأن يعطي صاحب الشر الخير، فيتساوى المطيع والعاصي في الدرجة، وهذا عين القبح والعياذ بالله تعالى.

(١) سورة النحل، آية (٣٣).

(٢) سورة النحل آية (٣٥).

ومنها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١). وأن الله عز وجل أتى بصيغة المبالغة، حتى يتبين أن الظلم الواحد في حقه كثير، لا أنه سبحانه لا يظلم كثيراً وأما القليل من الظلم فيرتكبه، وهذا من قبيل (كرّار غير فرّار)^(٢) فان أدنى الفرار بالنسبة إله يعد كثيراً، ومنها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾^(٣). وأمثال هذه الآيات كثيرة، وهذا المختصر ليس محل استقصائها.*

* الظلم الواحد في حقه تعالى كثير

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٤) فيها نكته عجيبة، وهي قولك لميثم مثلاً، أنت ليس ظالم لأهلك، وقولك مرة ثانية أنت ليس بظلام لأهلك. ففي الجملة الأولى تفيد عدم الظلم لأهلك، ولكن ليس مطلقاً، فقد تكون ظالماً لهم مرة أو مرتين، ولو في السنة أو في العمر، وأما الجملة الثانية ففيها نفي الظلم مطلقاً، يعني أنت لم تظلم أهلك حتى مرة واحدة في العمر. لأن ظلام على وزن فعال المفيد للمبالغة، فلما تقول ليس بظلام تفيد المبالغة في نفي الظلم مطلقاً، قليلاً وكثيراً.

فلو فرض ظلم واحد بقدر تحرك شعرة واحدة عن موضعها إلى مكان آخر، بلا سبب يكون ظلماً كثيراً، وهذا من قبيل قول النبي ﷺ، لأمر المؤمنين ﷺ، يوم خيبر

(١) سورة يونس آية (٤٤).

(٢) على وزن فعال المفيد للمبالغة، فلو يفر والعباد بالله أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، مرة واحدة في الحرب عد كثيراً إليه، ولزم تحدث التاريخ عن انهزامه في الحروب، بيد أن صلوات الله عليه، شهد له المخالف والمؤلف من العامة والخاصة والنواصب له، أنه لم يفر ولو مرة واحدة في الحروب مطلقاً.

(٣) سورة يونس آية (٤٤).

(٤) نفس المصدر.

((لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كزار غير فرار))^(١).

لذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: ((والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها))^(٢).

والسيرة والتاريخ خير شاهد على ثباته وإنهزام غيره في الحروب، ونعم ما قال ابن أبي الحديد المعتزلي في علوياته السبع في مدح أمير المؤمنين عليه السلام.

القصيدة العلوية لابن أبي الحديد المعتزلي

فكان زنجياً هناك يجده
أتراك تعلم من بأرضك مودع
عيسى يقفيه وأحمد يتبع
فيل والملا المقدس أجمع
لذوي البصائر يستشف فيلمع
المجتبى فيك البطين الأنزع
بالخوف للبهمة الكمات يقنع
واد يفيض ولا قلب ينزع
ومفرق الأحزاب حين تجمعوا
حتى تكاد له القلوب تصدع
شرب الدماء بقللة لا تنقع
يعلوه من نفع الملاحم برقع
أردى به كسرى وفوز تبع
عدم وسر وجوده المستودع

قد قلت للبرق الذي شق الدجى
يا برق إن جئت الغرى فقل له
فيك ابن عمران الكلیم وبعده
بل فيك جبريل وميكال وإسرا
بل فيك نور الله جل جلاله
فيك الإمام المرتضى فيك الوصي
الضارب الهام المقنع في الوغى
والمترع الحوض المددع حيث لا
ومبدد الأبطال حيث تألبوا
والحبر يصدع بالمواعظ خاشعاً
حتى إذا استعر الوغى متلظياً
متجلبباً ثوباً من الدم قانياً
زهد المسيح وفتكة الدهر الذي
هذا ضمير العالم الموجود عن

(١) رسائل المرتضى للشريف المرتضى ٤ / ١٠٤، الكافي للشيخ محمد الكليني ٨ / ٣٥١.

(٢) نهج البلاغة ٣ / ٧٣، الأمالي للشيخ الصدوق ٦٠٤، حلية الأبرار للسيد هاشم البحراني ٢ /

١٦٩، البحار للشيخ المجلسي ٢١ / ٢٦.

هذي الأمانة لا يقوم بحملها
 تابى الجبال الشم عن تقليدها
 هذا هو النور الذي عدبانه
 وشهاب موسى حين أظلم ليله
 يا من له ردت ذكاء ولم يفز
 يا هازم الأحزاب لا يثنيه عن
 يا قالع الباب الذي عن هزها
 لولا حدثوك قلت انك جاعل
 لولا مماتك قلت إنك باسط
 ما العالم العلوي إلا تربة
 ما الدهر إلا عبدك القن الذي
 أنا في مديحك أكن لا أهتدي
 أقول فيك سميدع كلا ولا
 بل أنت في يوم القيامة حاكم
 ولقد جهلت وكنت أهدق عالم
 وفقدت معرفتي فلست بعارف
 لي فيك معتقد سأكشف سره
 هي نفثة المصدور بظفي بردها
 والله لولا حيدر ما كانت الدنيا
 والله لو علقت ثمود وتبع
 من أجله خلق الزمان وضوئت
 علم الغيوب إليه غير مدافع
 وإليه في يوم المعاد حسابنا
 هذا اعتقادي قد كشفت غطاءه
 يا من له في أرض قلبي منزل

خلقاء هابطة وأطلس أرفع
 وتضج تيهاء وتشفق برقع
 كانت بجبهت آدم تنطلع
 رفعت له لالاؤه تتشمشع
 بنظيرها من قبل إلا يوشع
 خوض الحمام مدجج ومدرع
 عجزب أكف أربعون وأربع
 الأرواح في الأشباح والمنتزع
 الأرزاق تقدر في العطاء وتوسع
 فيها لجئتك الشريفة موضع
 بنفوذ أمرك في البرية مولع
 وأنا الخطيب الهزبري المصقع
 حاشا لمثلك أن يقال سميدع
 في العالمين وشافع ومشفع
 أغرار عزمك أم حسامك أقطع
 هل فضل علمك أم جنابك أوسع
 فليصغ أرباب النهى وليسمعوا
 حر الصبابة فاعدلوني أو دعوا
 وما جمع البرية مجمعوا
 بفنائه لنجت ثمود وتبع
 شهب كنسن وجن ليل أدرع
 والصبح أبيض مسفر لا يدفع
 وهو الملاذ لنا غداً والمفزع
 سيضر معتقداً له أو ينفع
 نعم المراد الرحب والمتربع

أهواك حتى في حشاشة مهجتي
وتكاد نفسي أن تذب وصبابة
ورأيت دين الإعتزال وأنني
ولقد علمت بأنه لابد من
تحميه من جند الإله كتائب

نار تشب على هواك وتلذع
خلقاً وطبعاً لاكمن يتطبع
أهوى لأجلك كل من يتشيع
مهديكم وليومه أتوقع
كاليم أقبل زاخراً يتدفع

فعدم ظلم الحق سبحانه للعباد من ضروريات الدين المبين، والقول بخلافه
يخرج المكلف من ربة الإيمان والعياذ بالله، لأنه قول بخلاف العقل قبل أن يكون
بخلاف النقل.

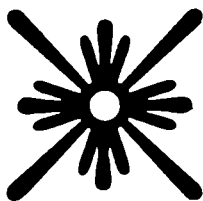
الفصل الرَّابِع [اللَّهُ تعالى لم يخلق الخلق عبثاً]

لَمَّا عرفت أن الله سبحانه منزّه ومبرء من أن يصدر منه القبيح، عرفت أنه لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يجعلهم مهملاً، لأنّ الحكيم لا يصدر منه العبث، وإلاّ لم يكن حكيماً*.

* الحكيم لا يفعل العبث

لما ثبت في الفصل المتقدم أن الله سبحانه لا يفعل القبيح، لأن فاعل القبيح لا يخلو من أمور ثلاثة: إما الجهل، أو للفقير والحاجة، أو السفاهة والدناءة، وكلها منفية عنه سبحانه.

ومن مصاديق القبيح العبث واللغو من دون فائدة، فالحق سبحانه لما أراد أن يخلق الخلق خلقهم لعله وفائدة ومصلحة راجعة إلى نفس الخلائق، فلم يخلقهم عبثاً ولغواً بلا فائدة، لأن العبث واللغو من مصاديق القبح والعياذ بالله تعالى، أما الحكيم العليم القدير فإنه يخلق لفائدة ومصلحة راجعة إلى نفس المكلفين، فلو لم يخلق الخلائق لفائدة ومصلحة لم يكن حكيماً، بيد أنه حكيم قادر على كل شيء.



ونحن قلنا سابقاً إن فعله سبحانه في غاية الإحكام، ونهاية الإتقان، فلم يكن إيجاده للموجودات عبثاً وبلا علة ومنفعة، كما قال عزّ من قائل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) ﴿^(١) وفي الحديث القدسي) كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي اعرف^(٢)﴾ (إياك ثم إياك أن تتوهم أنه يحصل لله كمال من معرفة الخلق وعبادتهم إياه يعني أنه سبحانه كان ناقصاً العياذ بالله وبسبب إيجاد الموجودات صار كاملاً حاشا وكلاً تعالى ربّي عن ذلك علواً كبيراً، وهو كامل أبداً لا يعتربه نقصان قط، وهو على حال واحد لا يتغير من حال إلى حال، حاله قبل إيجاد الخلق وبعده وحينه على حدّ سواء، لا يتغير بتغير المخلوق ولا يتجدد بتجدده، بل هو الأوّل والآخِر والظاهر والباطن، أوليته عين آخريته، ومعلوميته عين مجهوليته، وخفاؤه عين ظهوره، وظهوره نفس خفائه، قربه عين بعده، وبعده نفس قربه، لا يدركه أحد، كيف هو سبحانه في كلّ وقت بوجه؟

نعم نعرف أنه كامل في كلّ وقت، وهو أجلّ وأعظم من أن يحصل له كمال بسبب الخلق، أو يعرف به، كما تدل عليه الأحاديث الكثيرة، وتشهد له العقول المستنيرة، ففائدة المعرفة في العبادة راجعة وعايدة إلى الخلق، حتّى يدركوا حظ أنفسهم من الوجود، فالعلة الغائية إنتفاع الخلق

(١) سورة الذاريات، آية (٥٧).

(٢) رسائل الكركي للمحقق الكركي ٣ / ١٥٩، شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١ / ٢٢، عوالي الآلي لابن أبي جمهور الإحسائي ١ / ٥٥.

وإنتشاء الرَّحمة فيهم، واستكمالهم لإستكماله عن ذلك ❁

❁ الفائدة من خلق الخلق راجعة إليهم

ذكر في الفصول السابقة وبالخصوص في باب التوحيد، على أن الخالق سبحانه لما خلق الخلق خلقهم في غاية الكمال والحكمة والإتقان، لا يوجد فيه خلل وعطل ولو بقدر الذرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾^(١) فجميع ما في هذا الوجود من السماوات والأرضين، والأفلاك والأملاك، والغيب والشهادة، والأنس والجن، والملك والشجر، والحجر والمدر، والجماد والنبات، وغير ذلك من مراتب الوجود، كله مخلوق بقدر معين لا يزيد ولا ينقص، ففي الزيادة والنقص يكون خللاً، وعلى سبيل المثال الإنسان لو تزيد عين واحد، أو أنف واحد أو يد واحدة أو قلب آخر لا ختل توازنه، فالزائد مثل الناقص، فالشمس منذ خلقها الله تعالى تطلع من المشرق وتذهب إلى المغرب، القمر قدر منازل وكل في فلك يسبحون.

فخلق الله هذا الكون العظيم بجميع أطرافه وأبعاده اللامتناهية عندنا، لا حاجة منه إليه، لانه الغني المطلق الغير محتاج إلى الغير، والغير محتاج إليه في كل شيء. لأن نسبة الإحتياج إليه سبحانه ولو بالفرض والإعتبار يقتضي حدوثه وإمكانه، مهما كان هذا الإحتياج وإن كان اعتبارياً، لأنه إذا احتاج إلى أمر اعتباري، لزم إلى إحتياجه إلى غيره، وإلا لزم الترجيح بلا مرجح، وهو ما المرجح في إحتياجه إلى أمر إعتباري دون الحقيقي المتأصل مع تساويهما في رتبة الحدوث؟ وهو خلف.

فالله جلَّ وعزَّ هو الغني المطلق عن جميع ما سواه، لذا أبان سبحانه وتعالى هذا المعنى إلى خلقه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾^(٢).

(١) سورة القمر، آية (٤٩).

(٢) سورة الذاريات آية (٥٧).

فالله سبحانه وتعالى، خلق الخلق لا حاجة منه إليهم، لأنه هو الغني والناس هم الفقراء إليه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

ففي هذه الآية والآية التي قبلها يفهم عدم احتياجه، وعدم وصول نفع إليه سبحانه من خلقه الخلائق، لأنه قبل الخلق وحين الخلق وبعده حاله سبحانه واحد، لا يختلف من حالة إلى أخرى، فلا يكون قبل الخلق ضعيفاً وبعده أصبح قوياً عزيزاً والعياذ بالله تعالى، أو كان ناقصاً قبل الخلق وصار كاملاً بعد الخلق، أو كان قبل الخلق غير عزيز وبعده الخلق عزيزاً، لأنه من كان كذلك اختلفت أحواله قبل وبعده، ومن اختلفت أحواله من حال إلى حال فهو متغير، وكل متغير حادث مخلوق محتاج.

فالحق سبحانه حاله واحد، لا يتغير ولا يتبدل من حال إلى حال، قال الإمام جعفر الصادق: **﴿لَيْسَ﴾** ((كان الله ولم يكن معه شيء))^(٢) والآن على ما كان عليه لم يتغير في ذاته شيء، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فأوليته عين آخريته، وظاهره عين باطنه، ومعلوميته عين مجهوليته، وخفاؤه عين ظهوره، وظهوره عين خفائه.

فهنا يطرح سؤال مهم وهو، إذا كان الحق سبحانه غير محتاج إلى خلقه الخلق، وليس له فائدة راجعة إليه من خلقه الموجودات، إذاً لماذا خلقهم؟ فإن قلنا إنه خلقهم لفائدة راجعة إليه لزم الإحتياج الموجب للحدوث، وإن قلنا لا توجد حاجة وفائدة إليه لزم العبث في خلقه الخلق، والعبث مخالف لفعل الحكيم الغني؟

حل إشكال العبثية

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق لا حاجة ولا فائدة راجعة إليه منهم، ولكن

(١) سورة فاطر آية (١٥).

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٥٤ / ٢٣٤.

خلقهم وأوجدهم من العدم إلى الوجود، لإيصالهم إلى السعادة الأبدية والدولة السرمدية وهي الجنة، فالفائدة في الحقيقة راجعة إلى الخلق أنفسهم، لأنه من صفات الله تعالى الكريم الغني المطلق، ومن طبع الكريم إغداق وإعطاء الغير ما طلب من الخير، فلما كان كريماً مطلقاً أحب أن يخلق الكائنات ويدخلهم إلى كرمه وهي الجنة والسعادة، لذا ترى بعض الكرماء يعطي بغير حساب، بلا فائدة راجعة إليه إلا حبه للكرم والإعطاء، فلذته إعطاء ومساعدة الآخرين ولو على نفسه، فإذا كان حال المخلوق هكذا!! فكيف بالكريم والغني المطلق جلّ جلاله.

فعلة خلقه الخلق أولاً وبالذات ليوصلهم إلى الجنة، وهذا المعنى يتضح في خلق آدم على نبينا وآله وعلية لما خلقه أسكنه الجنة أولاً وبالذات، وخروجه من الجنة ليس من الله تعالى، وإنما هو من تقصيره من أكله الشجرة المنهي عنها مع زوجته حواء عليهما السلام.

فالفائدة من خلق الخلق راجعة إلى نفس الخلق، لذا في الحديث عن أمالي الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله جلّ جلاله ((لو اجتمع الناس كلهم على ولاية علي ما خلقت النار))^(١) وقال تعالى: ﴿وَأَلِّوْاْ سَنَقَمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (١٦)^(٢).

والطريقة هي ولاية الأئمة عليهم السلام، والسير على نهجهم، ومخالفة أعدائهم، فالله سبحانه لا يحصل له بسبب الخلق كمال وفائدة، حتى في معرفته تعالى، حيث إن المعرفة الحقيقية لله عز وجل تعرف به سبحانه، أي الخلق يعرفون به سبحانه، لا هو يعرف بهم، كما عليه عوام الخلق، كما روى عن منصور بن حازم، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله، قال: صدقت))^(٣).

(١) أمالي الشيخ الصدوق ٧٥٥، الجواهر السنوية للحر العاملي ٢٣٦، البحار للشيخ المجلسي ٢٤٧ / ٣٩.

(٢) سورة الجن، آية (١٦).

(٣) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٦٨، التوحيد للشيخ الصدوق ٢٨٥.

حتى معرفة الله سبحانه وتعالى غير متوقفة وراجعة إلى الخلق، بل الخلق يعرفون بالله تعالى، وهذا الأمر نراه واضحاً جلياً في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة حيث قال: ((كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً))^(١).

فالعلة الغائية من خلق الخلق راجعة إليهم، حتى يدركوا حظ أنفسهم من الطاعة في الجنة، ويستكملوا إلى عالم الدرجات في الجنات، لأن الحق سبحانه كامل مطلق، وأثره أيضاً لا بد أن يكون كاملاً، لأن الأثر يشابه صفة مؤثره، مثل الشمس وأشعتها، كما أن الشمس مضيئة كذلك أشعتها مضيئة مثلها، فكمال الأشعة مستمد من كمال الشمس، لذا في الحديث القدسي: ((عبدني أطعني، حتى أجعلك مثلي، أقول للشيء كن فيكون، تقول للشيء كن فيكون))^(٢).

ففائدة الخلق راجعة إليهم من وصولهم إلى الجنة والخلود فيها، وإنشاء الرحمة العامة والخاصة فيهم، أما الرحمة الخاصة فهي الجنة لمن أطاع، وأما العامة فهي العدل لمن عصى وخالف.

مناقشه في حديث كنت كنزاً مخفياً

هذا الحديث من الأحاديث القدسية المشهورة بين الأصحاب، فظاهره بين لا يحتاج إلى بيان، حيث إن معناه الظاهري أن الخلق قبل خلقهم لا يعرفون الحق سبحانه وتعالى، ولما خلقهم عرفوه ووجدوه، كل على حسبه، منهم من أطاع، ومنهم من عصى باختياره.

هذا الحديث (كنت كنزاً مخفياً...) شرح من قبل علمائنا عدة شروح،

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) شجرة طوبى للشيخ محمد مهدي الحائري / ١ / ٣٣، الفوائد الرجالية للسيد بحر العلوم / ١ / ٣٩.

وبالخصوص من علماء مدرسة الشيخ أحمد الإحسائي رضوان الله عليهم جميعاً، فقد شرحه الشيخ أحمد الإحسائي، والسيد كاظم الرشتي وغيرهما، وأما الشيخ محمد أبو خمسين رضوان الله عليه، فقد شرحه في كتاب مستقل أسماه (الكنز الخفي في معرفة النور المضي) يشتمل على أسرار لا تخطر ببال، ولم يدونه قلم سيال، من أراد التعمق فعليه بمراجعة هذا الكتاب، وعلى الله تعالى التوفيق والصواب، فلنشرع في شرح بعض رموز هذا الحديث الشريف، بما يسنح به البال وعلى الله التكلان.

المعنى الباطن للحديث

قبل البدء نقدم مقدمة وهي:

إن المخاطب بالكسر إسم فاعل هو الذي أوجد الخطاب، والمخاطب بالفتح وقع عليه الخطاب، والحالة من إسم الفاعل المخاطب، وإسم المفعول المخاطب بالفتح يسمى بالخطاب المصدر، والمصدر هو أثر الفعل، كقولك كتب علي درس الرياضيات.

فهنا ثلاثة أمور وهي:

كتب وهو الفعل، وعلي فاعل الكتابة، ودرس الرياضيات هو المكتوب الواقع عليه الفعل، فالفعل مثل (كتب) هو أصل جميع المشتقات على الأصح، خلاف من قال إن الأصل هو المصدر الكتابة، فإسم الفاعل كاتب مشتق من كتب، وإسم المفعول مكتوب مشتق من كتب، وإسم المكان مكتب، ويكتب يكتبان، وتكتبان، ويكتبون، وتكتبون، وتكتبين، الأفعال الخمسة مشتقة من فعل كتب، وكذا كل إسم أو فعل أمر نحو أكتب، كلها مشتقة من فعل كتب.

وكتب هو فعل من أفعال علي كما في المثال المطروح، كتب علي درس الرياضيات، لأن علياً قد يكون كاتباً وماشياً ونائماً وقاعداً وقائماً... الخ، من الأفعال التي يقوم بها، فعلي كل يوم في شأن من شئوناته، وطور من أطواره، فعلي في كل فعل يقوم به يظهر به، مثل إذا كتب، يقال له كاتب، وإذا قام يقال له قائم، وإذا جلس يقال له جالس، وإذا نام يقال له نائم.

ففاعلية علي تتغير من حالة إلى أخرى، فتارة يظهر علي بالقيام، فيقال له قائم، وأخرى بالكتابة، فيقال له كاتب، وأخرى بالأكل، فيقال له آكل... الخ.

ففي كل ظهور يظهر به علي بالفاعلية يعرف به، فإذا ظهر علي بالفاعلية للكتابة، يقال له كاتب وهكذا، فعلي دائم في فتق ورتق، أي كل يوم هو في شأن، فيفتق القيام بالكتابة، ويفتق الكتابة بالجلوس، ويفتق الجلوس بالمشي، وفي كل حالة يقال له بإسم الحالة التي يظهر بها بفعله، فهو يفتق شيئاً برتق شيء آخر، يعني يفتق القيام إذا جلس وهكذا، مع العلم أن ذات علي هو هو لا يتغير من حال إلى حال، فعلي لما يكون قائماً هو نفسه لما يكون ماشياً وكاتباً وأكلاً إلى آخره، فإسم الفاعل لعلي من أن يكون كاتباً وماشياً وأكلاً ونائماً وقائماً وقاعداً ومتكلماً إلى آخره كلها إسم فاعل لعلي يتنقل بفعله من حالة إلى أخرى مع بقاء ذاته بما هو هو، لا يتغير من ذات إلى ذات، فلما يكون علي قائماً لا تتغير ذات علي لما يكون كاتباً وهكذا.

فالخلاصة:

إن في المثال السابق كتب علي درس الرياضيات، كتب فعل من أفعال علي، وممكن أن يكون بدل كتب مشي وقام وقعد، فيقال مشي علي، وقعد علي، ونام علي، وأخذ علي... إلى آخره.

ففعل علي من كتب ومشى وجلس وقام وأكل كلها حادثة مخلوقة لعلي، ملأ بها سمواته وأرضه، فعلي هو الموجد الأحد لوجود هذه المفاعيل بلا موجد غيره.

وفاعلية علي من إسم الفاعل (كاتب) الذي فعل الفعل كما في المثال (كتب علي درس الرياضيات) مشتق وموجود بالفعل الذي أحدثه علي بنفسه لا من شيء آخر، لأنك أنت أيها الإنسان لما تريد أن تحدث شيئاً ما، كالكتابة فإنما تحدث فعل الكتابة بنفسه لا بشيء آخر فلا تتوقف فعل الكتابة على فعل آخر، والآخر على آخر فيلزم التسلسل الباطل، بل تحدث الكتابة بالفعل، وتحدث الفعل بنفسه لا بشيء آخر.

فالفاعل من الكاتب والقائم والماشي والأخذ من أسماء الفاعل كلها مخلوقة بالفعل، ولا يمكن أن يكون إسم الفاعل قديم، وهو مخلوق وموجود بفعل مخلوق،

خلقه وأوجده علي بنفسه، لأن الذي أوجد إسم الفاعل من كاتب هو الكتابة، والكتابة هي أثر الفعل، أي مصدر لفعل كتب، وكتب مخلوقة متغيرة بدليل أنه تارة يتصف بها علي، وآخر ينفىها عن نفسه، كما تقول كتب علي درس الرياضيات، ولم يكتب علي درس الفقه مثلاً.

عودة إلى بحث كنت كنزاً مخفياً

الآن نرجع إلى أصل البحث قوله تعالى: ((كنت كنزاً مخفياً)) (كنت) أصلها كان وكان هو فعل من أفعال الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) (١).

وفعل الله تعالى مخلوق محدث كما قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((المشيئة محدثة)) (٢).

وفاعل كان هي التاء فأصل كنت، كان تم اتصلت بها تاء الفاعل وهي (ت) فصارت (كنت) فحذفت الألف من كان لإلتقاء الساكنين وهما الألف والنون، لأنه بعد ما اتصلت ب(كان) تاء الفاعل، بني الفعل الماضي الناقص (كان) على السكون، فلما التقى الساكنان الألف والنون حذفت الألف لإلتقاء الساكنين فصارت (كنت) فأعرابها.

كنت: كان فعل ماض ناقص مبني على السكون لإتصاله بتاء الفاعل، وتاء الفاعل مبني على الضم في محل رفع إسم كان.

كنزاً: خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

مخفياً: صفة لکنز خبر كان، وصفة المنصوب منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

فكان ويكون وكن كلها فعل لله سبحانه، وفعل الله تعالى هو مشيئته، ومشيئته

(١) سورة يسن آية (٨٢).

(٢) الكافي للشيخ الكليني / ١ / ١١٠.

محدثة مخلوقة ليست قديمة، لأن الفاعل واسم الفاعل محدث بالفعل، فلما كان الفعل مخلوقاً كما قال الإمام الصادق عليه السلام: ((المشيئة محدثة)) فيكون جميع مشتقاته محدثة مخلوقة، كما مثلنا في المثال السابق، كتب علي درس الرياضيات، فالكاتب للدرس هو علي، لكن بفعله لا بذاته، فلو كتب علي بذاته درس الرياضيات، للزم أن يكون دائماً كاتباً الرياضيات، ولا يمكن أن يكون كاتباً لدرس الفقه والنحو والجغرافيا، ولا يمكن أن يكون قائماً وقاعداً ومتكلماً، لأن في ذلك تغييراً في ذاته وهذا خلف.

فلو قلنا إن فاعل كنت في الحديث المتقدم هي تاء الفاعل وهي ذات الحق تعالى، للزم أن يكون الحق فاعل بذاته، وإذا كان فاعلاً بذاته لزم تغييره من حالة إلى حالة أخرى من شئون الخلق، من كونه خالقاً ورازقاً ومحياً ومميتاً ومفقراً ومغنياً ومذلاً ومعزاً وموسعاً ومضيقاً إلى آخر، فإذا كان الفاعل بالذات يلزم عدم تغييره من حالة إلى أخرى، ولو تغير من من كونه رازقاً إلى كونه مميتاً لزم تغير ذاته، على إعتبار أنه فاعل بذاته، وتغير ذاته من حال إلى حال يوجب حدوثه جلّ وعزّ، بل هو كل يوم هو في شأن بفاعلية فعله المخلوقة، يعني معنى كل يوم هو في شأن، يعني أنه فاعل بظهورات متعددة ومفاعيل متعددة من كونه فاعلاً للرزق، فيقال له رازق، وكونه فاعلاً للخلق فيقال له خالق، ومن كونه فاعلاً للإحياء فيقال له محيي، ومن كونه فاعلاً للموت فيقال له مميت، ومن كونه فاعلاً للعز يقول له معز، ومن كونه فاعلاً للذل يقال له مذل، إلى آخره.

ففاعلية الحق تعالى من صفاته الفعلية، وهو الفاعل في هذا الوجود لا غيره، لأنه بفعله لا بذاته، لذا قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾^(١).

فالخالق الرازق المحيي المميت المذل المعز المغني المفقر المتصرف في جميع ما سواه هو الله تعالى لا غير، لكن فاعل بفعله لا بذاته، يعني فاعلية الله تعالى من صفاته الفعلية، لا من صفاته الذاتية.

كما أننا نقول إن المشيئة والإرادة من صفات الله تعالى، مثل السمع والبصر والعلم، لكن المشيئة والإرادة من صفاته الفعلية، والسمع والبصر والعلم من صفاته أيضاً ولكنها من صفات الذات، لأنها عين ذاته جلّ وعلا .

فالفاعل في قوله: ((كنت)) وهي تاء الفاعل الضمير المتصل، هي الفاعل في كنت، والفاعل محدث بالفعل وهو كن، وكن خلق من خلق الله تعالى، لأنه أمره ومشيئته، ومشيئة محدثة مخلوقة كما .

مرّاً سابقاً قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) (١) .

فالمتكلم والمخاطب بالكسر إسم الفاعل من ((كنت كنزاً مخفياً)) هو خلق من خلق الله تعالى، خلقه بفعله، وإن كان هو سبحانه هو المتكلم حقيقة، والفاعل حقيقة لا متكلم ولا خالق سواه، ولكن متكلماً وخالقاً بفعله لا بذاته .

فالفاعل يقول: كنت كنزاً مخفياً فأحييت أن أعرف، يعني تقول فاعلية فعل الله تعالى، إن فعلي وهو مشيئة الله تعالى عندها كنز مخفي من القدرات والعلوم والكمالات ما لا يحصيها غيره، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٢١) (٢) .

يعني خزائن السموات والأرض، والعرش والكرسي، والأفلاك والأمكنة، والغيب والشهادة، والعالي والداني، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، وكل ما سواه فهو موجود في خزائنه جلّ وعلا بالمشيئة، ولكن ينزله بقدر معلوم لكل المستحقين من المخلوقات .

فلو ينزل فيض ومدد السماء للنملة لفتت، ولو يعطي فيض ومدد النملة للسماء أيضاً تفنى، فكل شيء يعطيه من كنزه وقدرته ومدده من عالم الإمكان عالم المشيئة، إلى عالم التكوين والكون على قدره .

فأحب الله سبحانه بفاعلية فعله أن يعرف الخلائق في عالم التكوين بعض خزائنه

(١) سورة يسن آية (٨٢) .

(٢) سورة الحجر، آية (٢١) .

وعلومه وقدراته وكماله المطلق، بأن أخرج لهم إلى عالم التكوين من السموات والأرضين، والعرش والكرسي، والعلوم الظاهرة والباطنة، والأفلاك والأمكنة، والغيب والشهادة، لتدل على علمه وكمال قدرته سبحانه سبحانه.

فيعرف جميع الخلائق هذه الخزائن والكنوز على قدره واستعداداته ليعرف الخالق الرازق المحي المميت وهو الله سبحانه وتعالى، ويوحده ويعبده، ويعرفه حق معرفته، فالحق تعالى جعل في كل شيء في خلقه كنوز، إذا التفت إليها العبد رأى عجائب ملكوته وأسرار خلقه من الآفاق والأنفس والقرآن الكريم، فمن تدبر وتفكر فيها رأى العجب العجيب لذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١) وقال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة ((إلهي علمت باختلاف الآثار، وتنقلات الأطوار، أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء))^(٢) فكانت الخيرة من الله تعالى في كل شيء، فمن التفت من العباد وتفكر في ملكوت السماوات والأرض أخذ من هذه الكنوز على قدره واستطاعته، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

أتزعم أنك جرم صغير . وفيك انطوى العالم الأكبر .

وأنت الكتاب المبين الذي . بأحرفه يظهر المضمهر .

فأقرب الكنوز إلى الإنسان هو نفسه، التي من عرفها فقد عرف الرب، كما في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((من عرف نفسه فقد عرف ربه))^(٣)، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤).

فإذا نظر الإنسان إلى نفسه وتفكر فيها، عرف بعض الكنوز المودوعة فيه، وعرف خالقه وبارئه، وعرف الكم والكيف وهجم عليه العلم على حقيقته، وعرف من هو؟

(١) سورة محمد، آية (٢٤).

(٢) دعاء الحسين عليه السلام، مفاتيح الجنان ٣٥٥.

(٣) الجواهر السنوية للحر العاملي ١١٦، عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواسطي ٤٥، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام لابن ميثم البحراني ٥٧، البحار ٥٨/

(٤) سورة الذاريات، آية (٢١).

ولماذا خلق؟ وما الذي يعمل وما لا يعمل؟ فقله تعالى: ((كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف))^(١).

المتكلم في هذا الحديث هو الله سبحانه وحده لا شريك له، ولكن بفعله أو بفاعليته، لأنه فاعل بفعله لا بذاته، بمعنى أن فاعليته جلّ وعزّ من صفاته الفعلية لا الذاتية.

فيقول فاعل كنت وهي تاء الفاعل الضمير المتصل، في حديث (كنت كنزاً مخفياً) للخلائق أجمع، إن كنوزي وعطاياي من خير الدنيا والآخرة، مذكورة في فعلي فأحببت أن أظهرها لخليقي ليعرفوني، وإذا عرفوني عرفوا ربي وهو الله سبحانه وتعالى، لأن إسم الفاعل لعلي لا فرق بينه وبين ذات علي في التعريف والتعرف كما في المثال، كتب علي درس الرياضيات، فالكاتب الحقيقي هو ذات علي لكن بفاعليته لا بذاته، وإلا لزم أن يكون دائماً كاتباً، ولا يمكن تغييره إلى مفعول آخر وهذا خلف.

فالفاعلية لعلي لا فرق بينهما وبين ذات علي في التعريف والتعرف، أي كما يقال لذات علي كاتب حقيقي، كذلك يقال للفاعلية وهو إسم الفاعل كاتب، فلا يوجد فرق بين ذات علي وكاتب في تعريف الكتابة، هذا كاتب وذاك كاتب، وأما في الحقيقة والذات فهنالك فرق كبير عظيم، فذات علي رب وخالق لإسم الفاعل كاتب، وكاتب مربوب وعبد لذات علي، فكاتب لا يستغني عن ذات علي ولا لخطه، أو أقل من ذلك، فكاتب عبد ومخلوق لذات علي، ولكنه شابه الذات في ظهور الأثر، لأن ذات علي لا تفعل بذاتها بل بفعلها، فذات علي أنابت كاتباً مقامها في الكتابة، لأنها لا تدرك ولا تحاط إلا عن طريق أثرها وفعلها وهو الفاعلية، وبالخصوص فاعلها الأكبر وإسمها الأعظم الذي ملأ السموات والأرض، قال مولانا صاحب العصر والزمان، عجل الله فرجه، وأرواحنا فداه في دعاء شهر رجب ((ومقاماتك

(١) رسائل الكركي للمحقق الكركي ٣ / ١٥٩، شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١ / ٢٢، عوالي اللآليء لابن أبي جمهور الأحسائي ١ / ٥٥.

التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها، إلا أنهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك))^(١).

وإلى هنا نقف لأنه غير مسموح الكلام به، فمن أراد الإيضاح فعليه بالتخلق بأخلاق الروحانيين حتى يعرف الحقيقة، وتنكشف له الأمور على حقيقتها.

لأن في هذا الحديث أسراراً وأسراراً في التوحيد، ومقامات محمد وآل محمد ﷺ، لا يمكن ذكرها في السطور إلا مشافهة لما هو أهل لها، ومن أراد المعاني العاليات فعليه بمراجعة كتاب (الكنز الخفي في معرفة النور المضي) لآية الله الشيخ محمد أبو خمسين قدس الله روحه الطاهرة.

فنعود إلى بحث أن الله سبحانه في خلقه الموجودات لا لفائدة له تعالى.

فلا تكون ثمة فائدة راجعة إلى الحق تعالى من خلقه الخلق، بل الفائدة راجعة إليهم خاصة، لإيصالهم إلى السعادة الأبدية والدولة السرمدية، لأنه جلّ وعلا كريم، ومن طبع الكريم أن يفيض على سواه من دون حاجة له في الإعطاء أو المنع، لأنه الغني الكريم القدير المطلق الغير محتاج إلى غيره.

إذا العلة الغائية من خلق الخلق إنتفاع الخلائق أنفسهم، وإنتشاء الرحمة فيهم، الرحمة الخاصة وهي دخولهم إلى الجنة، كما كان في خلق آدم على نبينا وآله وﷺ، لما خلقه الله تعالى أسكنه جنته، وزوجه أمته، وما حدث من التغيير من الخير إلى الشر، إنما ذلك باختيار الخلائق، وإلا الله تعالى لا يصدر عنه إلا الخير، وأما الشر فهم من إختيار الخلائق، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾^(٣).

فالسبب من إخراج آدم ﷺ من الجنة بسبب أكله من الشجرة المنهي عنها، فلو لم يأكل من تلك الشجرة لكان إلى الآن في الجنة، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت

(١) عاء شهر رجب مفاتيح الجنان ١٩١.

(٢) سورة الرعد آية (١١).

(٣) سورة الجن آية (١٦).

بولاية محمد وآله الطيبين الطاهرين، وجعلنا من العارفين بهم، والمعتصمين بحبلهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان الحق تعالى كاملاً مطلقاً من كل شيء، لزم أن تكون آثاره أيضاً كاملة، لأن الأثر يشابه صفة المؤثر، مثل الشمس وأشعتها، فكما أن الشمس مضيئة كذلك الأشعة مضيئة، لأنها أثر الشمس، والأثر يشابه صفة مؤثره.

فالجليل سبحانه خلقنا أولاً وبالذات لدخول الجنة والسعادة الأبدية، فلم يخلقنا سبحانه وتعالى للنار والعياذ بالله، ولكن الكفر والمعصية هي التي أدخلت بعض الخلائق النار، لأن الله تعالى خير إلى خير ولا يصدر عنه إلا الخير المطلق، لذا روي في الأمالي للشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه معنعناً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله جل جلاله ((لو اجتمع الناس كلهم على ولاية علي ما خلقت النار)^(١).

فدخول الجنة والخلود فيها هو الكمال المطلق الحقيقي للخلائق، لذا عبر عنها الله سبحانه بالحيوان ﴿وَإِنَّ أَدَارَ الْآخِرَةِ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

أي أصل الحياة الحقيقية التي لا موت ولا فناء ولا مرض ولا هرم ولا هم ولا غم، فليس فيها شر مطلقاً، بل فيها خير وإلى خير، رزقنا الله إياها بمحمد آله الطاهرين آمين رب العالمين.

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ٧٥٥، الجواهر السنوية للحر العاملي ٢٣٦، البحار للشيخ المجلسي ٢٤٧ / ٣٩.

(٢) سورة العنكبوت، آية (٦٤).

الفصل الخامس [الله تعالى لم يجبر الخلائق]

إذا عرفت أن الباعث إلى إيجاد الخلائق هو انتفاعهم، وإظهار الرحمة بالنسبة إلى حالهم*.

* العلة من خلق الممكنات إظهار الرحمة فيهم

ذكر سابقاً أن الحق تعالى غني قادر مطلق غير محتاج إلى ما سواه حتى في معرفته غير متوقفة على الخلق، بل الخلق يعرفون به تعالى، فكما أن البارئ تعالى غير محتاج إلى الخلق وليس له فائدة في خلقهم راجعة إليه، كذلك هو سبحانه غير محتاج إلى معرفته بالخلق، بل الخلق يعرفون به مثل الشمس بالنسبة لأشعتها، فإن الأشعة تعرف بالشمس ولا عكس، فكذلك الخلق يعرفون به ولا عكس، يعني لا يعرف الحق بالخلق لتكون معرفته متوقفة على الخلق، ونعني بهذه المعرفة المعرفة الحقيقية، أما معرفة العوام مثل معرفة الأعرابي البعرة تدل على البعير وغيره من دلالة الأثر على المؤثر، أما المعرفة الكاملة فتعرف الأثر بالمؤثر، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ((اعرفوا الله بالله))^(١) أي اعرفوا الله تعالى بالله نفسه لا بغيره من الخلق، أي لا تعرفوا الله بالخلق، وروي أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن المفضل بن شاذان، عن صفوان بن يحيى، عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله، قال: صدقت))^(٢).

(١) التوحيد للشيخ الصدوق (٢٨)، الكافي ١ / ٨٥.

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٦٨، التوحيد للشيخ الصدوق ٢٨٥.

فالحق تعالى غير محتاج إلى أحد حتى في معرفته سبحانه، فالخلق يعرفون بالله وهذا الأمر طبيعي لمن له عينان في قلبه، وذلك واضح في معرفة الإنسان وآثاره من القيام والقعود والكتابة، فإن آثار الإنسان تعرف بالإنسان نفسه ولا عكس، فلولا الإنسان لما كان لهذه الآثار من وجود أصلاً.

إذن الفائدة من خلق الخلق راجعة إلى الخلق أنفسهم لغناه المطلق، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١).

وذكر سابقاً أيضاً أن الحق سبحانه صاحب الصفات الكمالية، من صفات الذات والأفعال، بحيث لا يتصور فيه النقص والإحتياج، لأنهما علامة الإمكان والحدوث. ولما كان سبحانه هو المؤثر الحقيقي في ما سواه من الخلائق أجمع، من الذرة إلى الذرة من أفضل الخلائق وهم محمد وآل محمد ﷺ إلى ما تحت الثرى عالم الأجسام والكثافة.

وأن الغير كلهم آثار فعله ومشيئته محتاجون إليه في كل آن ولحظة، بل لا وجود لهم بدونهم ولا يفقدون عند ظهوره، مثل الأشعة بالنسبة للسراج، لا وجود للأشعة بدون السراج، وإنما خلقهم من حالة العدم إلى حالة الوجود لأظهار الرحمة فيهم وهي:

الرحمة العامة

ومن صفات الحق تعالى العلم والكرم والقدرة والمشيئة والإرادة، ومن صفاته تعالى الرحمن الرحيم، ومعنى الرحمن الرحمة الواسعة، بأن يعطي كل ذي حق حقه، ويسوق إلى كل مخلوق رزقه، سواء أكان مؤمناً أو كافراً قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٢).

أي استوى على ملكه برحمانيته، أعطى المؤمن الإيمان، وأعطى الكافر الكفر،

(١) سورة فاطر، آية (١٥).

(٢) سورة طه آية (٢٠).

وأعطى كل ذي حق حقه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١) يعني وسعت الكل من الخلائق من المؤمن والكافر، فكما أن المؤمن يحتاج إلى رحمته، كذلك الكافر يحتاج إلى رحمته، فلولا رحمته الواسعة لما كان ما كان، ولما وجد ما وجد، لأن الرحمة العامة هي عبارة عن أركان الوجود الذي لا يخلو مخلوق منها، وهي الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتسمى بالأركان الأربعة للشيء، فالكافر محتاج إلى خلقه ورزقه وحياته ومماته، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).
وأيضاً المؤمن يحتاج إلى هذه الأركان الأربعة، وتسمى هذه الرحمة والصفة بالرحمة العامة، التي وسعت كل شيء في دائرة الإمكان مطلقاً.

الرحمة المكتوبة الخاصة

الرحمة المكتوبة الخاصة المسماة برحمة الفضل، مختصة بالمؤمنين من الخلائق مطلقاً من الإنس وغيرهم، وهي عبارة عن العناية الخاصة بالمؤمنين، من غفران ذنوبهم، وزيادة ومضاعفة حسناتهم، ودفع البلاء عنهم في الدنيا، وأما في الآخرة فهو غاية الإكرام وهي الجنة.

فعلة خلق الخلق أولاً انتفاعهم من الوجود والرزق والإحياء والإماتة، وأخذ نصيبهم من ثمرات التكليف.

لذا ترى أغلب الأحكام الشرعية بل كلها راجعة إليهم، والمستفيد أولاً وأخيراً الخلق أنفسهم.

كما بينت هذا الأمر الصديقة فاطمة الزهراء أرواحنا لها الفداء، في خطبتها العصماء حيث قالت: ((فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من

(١) سورة الأعراف آية (١٥٦).

(٢) سورة فاطر آية (٣٥).

الفرقة، والجهد عزاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، ومنمأة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالندى تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرمة الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء))^(١).

ثانياً: إنشاء الرحمة فيهم بقسيمها: العامة وهي العدل، بأن يرحم الكفار والمنافقين بأن لا يغفر ذنوبهم، ولا يُفَقِّهَهُمْ ولا يهديهم إلى الإيمان بكفرهم ونفاقهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾^(٢).

بيد في الرحمة الخاصة يغفر للمؤمنين ويكفر عنهم سيئاتهم، ويدفع البلاء عنهم، ويوفقهم للخيرات، واجتناب المعصيات، ويحبب لهم الإيمان، ويكره إليهم الكفر والفسوق في قلوبهم لإيمانهم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الله سبحانه وتعالى عظيم مطلق في كل شيء، ولا حد لعظمته سبحانه، ومع ذلك يعظم فضله وكرمه، وهو عبارة عن إعطاء المؤمنين الرحمة المكتوبة، التي قال فيها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٤).

(١) الإحتجاج للشيخ الطبرسي ج ١ / ص ١٣٤.

(٢) سورة المنافقون آية (٥ - ٦).

(٣) سورة الأنفال آية (٢٩).

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٦).

والذين يتقون هم الذين تمسكوا بولاية محمد وآل محمد عليهم السلام ، ويؤتون الزكاة هم الذين يتبرؤون من أعدائهم .

والفضل العظيم في الدنيا التوفيق لولاية محمد وآل محمد عليهم السلام و تقوى الله تعالى وغفران الذنوب، وفي الآخرة الجنة، وما أعد فيها من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال .

عرفت أن الله سبحانه ما جبر ولا يجبر أحداً بأمر من الأمور، إذ الجبر هو إعطاء ما لا يريد، وإكراه المقابل عليه، فعلى هذا لا يصله نفع ولا ينتفع منه، والانتفاع يحصل إذا رضي المقابل بما أعطيته من الأمر، وطلبه منك، لا إذا أكرهته عليه، فلا ينبغي لله سبحانه أن يجبر أحداً بإيمان أو كفر ❁

❁ العدل هو إعطاء طالب الخير والشر ما يريد

بعد ما ذكر العلة والباعث من خلق الخلق وهي إنتفاعهم، وإظهار الرحمة بقسميها فيهم، ومعنى إنتفاعهم أي إعطاؤهم ما يريدون من الخير والشر، فالكافر إنتفاعه على حسب طلبه الكفر، ولو كان في الواقع ونفس الأمر الشر ضرر عليه، ولكنه طلب الكفر، فالحق سبحانه يعطيه الكفر والخذلان بطلبه، فلو منع الله سبحانه منه الشر والكفر، لكان الله سبحانه جابراً له على الطاعة، فإذا أطاع في هذه الحالة لم يعد طائعاً لأنه مجبور، فلا يستحق دخول الجنة، لأن صدور الطاعة منه عن طريق الإكراه لا الإختيار، ودخول الجنة لا بد فيه من صدور الطاعة بالإختيار لا بالإكراه.

وأيضاً هذا الكافر المكروه على الطاعة لا يدخل النار، لأنه لم يصدر منه معصية توجب دخول النار، وعلى هذا ينتفي التكليف ويبطل الثواب والعقاب، والحق سبحانه حاشاه فعل هذه الأمور، لأنه الغني المطلق سبحانه.

وإنتفاع المؤمن واضح، وهو إعطاؤه ما يريد من الطاعة والهداية والتوفيق بطلبه من الله سبحانه وتعالى، فالحق سبحانه يعطيه الإيمان والهداية والتوفيق، وشرح الصدر للإسلام والإيمان في الدنيا، وفي الآخرة الجنة وذلك بسبب طلبه الإيمان، لأن إنتفاع المؤمن من الوجود على حسب إختياره هو الإيمان، كما أن الكافر إنتفاعه من الوجود الكفر والقتل والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وهذا الأمر نراه جلياً في عالم الدنيا التي نعيشها، فلو أنت أيها القارئ الكريم تسأل أيّ كافر تقول له: هل تريد الله تعالى يمن عليك بالإيمان والإسلام، والصلاة

والصيام والطاعة؟ لأجابتك بلا !! فتقول له: إذا ما تريد؟ يقول لك إنه يريد الزيادة على ما هو عليه من الكفر والمعصية، والزيادة في المعصية، فلو تجبره على الصلاة أو الصيام، أو قراءة القرآن، قد يعتدي عليك ويقاومك، بل قد يضربك ويدميك، ويفعل بك أشد العقوبة ما استطاع، وما أتى من قوة، لجبرك إياه على الطاعة.

وهذا الأمر عكس المؤمن المطيع، لو تأمره بالمعصية وترك الصلاة والصيام والمعروف، قد يعتدي عليك ويقاومك، ويضربك ويدميك ما استطاع، وما أوتي من قوة، لجبرك إياه على المعصية.

وخير دليل أنصار الإمام الحسين عليه السلام تحملوا البلاء والأذية، والقتل في سبيل تخليهم ورفضهم الباطل مع يزيد بن معاوية، حتى فارقت أرواحهم عن أبدانهم، فأيتموا الأطفال، وأرملوا النساء، لطلب الطاعة لمولاهم الحسين عليه السلام، والعكس هو العكس مع جيش يزيد وعمر بن سعد، تحملوا البلاء والأذية والتعب والعناء، في سبب رفضهم وتخليهم الحق مع الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقاوموا بكل ما أوتوا من قوة، في رفض الإمام الحسين وأصحابه عليهم السلام حتى فارقت أرواحهم عن أبدانهم إلى جهنم وبئس القرار، فأيتموا أطفالهم وأرملوا نساءهم في سبيل الباطل، وحرب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وعظهم الإمام الحسين عليه السلام، وذكرهم وأراهم البيئات والمعاجز، لم يزدادوا إلا طغياناً وكفراً، حتى قتلوه ومثلوا به، وأجروا الخيل على صدره وظهره سلام الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً، فواقعة الطف خير برهان على طلب الإيمان والكفر، كل على إختياره وطلبه وإنشاعه.

حقيقة الجبر

حقيقة الجبر هو إعطاء المكلف ما لا يريد سواء من الخير أو الشر، وإكراه المكلف عليه، أي إكراه الكافر على الإيمان، وإكراه المؤمن على الكفر، لأنه إذا أكره الكافر على الإيمان لا ينتفع به بل يقاومه، وكذا إذا أكره المؤمن على الكفر، لا ينتفع به بل يقاومه، فالإنتفاع الحقيقي للشيء، أن تعطيه ما طلبه ورضي به، سواء أكان في نفس الأمر هو خير أو شر، وخلاف ذلك يكون جبراً وظلماً لنفس الشيء.

فالحق سبحانه لما خلق الخلق، وعلم فيهم المطيع والعاصي، وعلم أن المطيع يطلب الطاعة ويرضي بها، والعاصي يطلب المعصية ويرضي بها، بعد ما رغب الخلائق في عالم الذر إلى الطاعة الحقيقية وهي ولاية محمد وآل محمد ﷺ، وحذّروهم عن المعصية الحقيقية وهي بغضهم.

فبعض طلب الطاعة ورضي بها، فأعطاه الحق سبحانه، وبعض طلب المعصية ورضي بها، فأعطاه أيضاً الحق سبحانه، فلا توجد بين الله سبحانه وبين خلقه من نسب أو عداوة أو محبة، إلا بالتقوى والعمل الصالح أو الطالح.

فإذا حكم و كلف أحداً بشيء كلفه على وجه الإختيار لا الإكراه والإجبار، حتى يقبله بإختياره وميله ورضاه*

* التكليف على جهة الإختيار

خلاصة ما تقدم أن تكليف وحكم الله سبحانه للخلق سواء، في تكوينهم من إنس أو جن، أو سماء أو أرض أو جبل، أو حيوان أو نبات أو جماد، أو تشريعهم من الأمر والنهي، لا بد أن يكون على جهة الإختيار من المكلفين لا الإكراه والإجبار والعياذ بالله تعالى.

وهذا الأمر واضح في الحياة الدنيا، فالمصلي حين يصلي، يصلي باختياره، فلا يوجد على المصلي سيف أو ملك على رأسه ويجبره على الصلاة، فبإمكانه لا يصلي كما يحصل لبعض المكلفين يوم يصلي ويوم لا يصلي، وهذا الأمر بعينه للعاصي، فشارب الخمر العياذ بالله تعالى لما يشرب بإختياره، فلا يوجد سيف أو ملك على رأسه يقول له لا تشرب، فعنده القدرة على ترك شرب الخمر، كما له القدرة على شربه، فلما يشرب الخمرة بإختياره لا بالإكراه والإجبار.

فالمطيع والعاصي حينما يعملان الطاعة والمعصية بإختيارهما ورضاهما وميلهما وقبولهما للطاعة والمعصية، مع القدرة منهما على فعل خلاف ما قاما به من الطاعة والمعصية، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(٢).

فإختيار الطاعة والمعصية بيد المكلف، ولكن بقدر الله تعالى سبحانه، كما يأتي عليها الكلام فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١) سورة الإنسان آية (٣).

(٢) سورة الإسراء آية (٧).

ويكون ثمرة الإيجاد إنتفاع الخلق، وهو لا يكون إلا في صورة الإختيار*، وظهور الإختيار بلا تكليف باطل، فالتكليف هو سبب الإيجاد، فمن لم يكلف لا يوجد**

* ثمرة الإيجاد إنتفاع الخلق

إن ثمرة إنتفاع أي مكلف على حسب طلبه ورغبته وهذا الأمر بين واضح، نجد الفلاح المؤمن لما يحرق الأرض، وينبت الزرع، ويسقي الماء، ويتعهد البستان كل يوم حتى يثمر البستان، ويؤتى أكله، بصرف ناتج الثمرة، في سد احتياجات أسرته وفي مرضاة ربه، والعكس الفلاح الكافر، بصرف ناتج الثمرة في شرب الخمر والزنا والكفر.

فالمؤمن يصرف ثمرة التعب من الفلاحة في الطاعة بإختياره، مع قدرته على صرفه في المعصية، والثاني الفلاح الكافر يصرف ثمرة تعبته في الخمر والزنا والكفر مع قدرته على صرفه في الطاعة، بل لو نصح بأن يصرف ثمرة تعبته في الطاعة لغضب وطاش غيضاً، عكس المؤمن لو أرشد في صرف ثمرة تعبته في شرب المسكر أو الزنا والمعصية والعياذ بالله يغضب ويطيش غيضاً.

فالإنتفاع من ثمرة الإيجاد بالنسبة للخلائق، أن يعطيهم الله سبحانه ما يريدونه من الطاعة والمعصية بإختيارهم لا بالإكراه والإجبار، فالذي يريد الطاعة يعطيه، والذي يريد المعصية يعطيه، فالمؤمن حينما يدخل الجنة بطاعته والعاصي لما يدخل النار بمعصيته، فلا يحتج الكافر على دخوله النار، لأنه فعل المعصية بإختياره ورضاه مع علمه بالمعصية ورضاه بها.

فالمؤمن حينما يطيع يحصل في الدنيا على الرحمة الخاصة، وفي الآخرة يدخل الجنة أبد الأبد ودهر السرمد، والكافر حينما يكفر ويعصي يحصل في الدنيا على الرحمة العامة وفي الآخرة يدخل النار وغضب الجبار أجارنا الله وإياكم منها.

فالثمرة من التكليف والإيجاد، من النعيم والجحيم راجعة إلى نفس المكلف

خاصة، فليس لله عز وجل فائدة في دخول المكلف الجنة أو مضرة حين دخوله النار.

❁❁ فمن لا يكلف لا يوجد

إنه لما ذكرنا أن المكلف حينما يعمل المعصية أو الطاعة بإختياره، معناه أنه مكلف بين الطاعة والمعصية، فإذا أطاع استحق الجنة، وإذا عصى استحق النار.

فنستنتج أن التكليف علة الخلق والإيجاد، من حالة العدم إلى الإيجاد، لأن التكليف كما ذكر ينقسم إلى قسمين: تكليف وجودي، وتكليف شرعي.

فحقيقة التكليف بما هو تكليف لا يكون إلا ذو جهتين، جهة الإمتثال، وجهة المخالفة، أما الجهة الواحدة فلا يسمى تكليفاً، بل يسمى تسييراً وجبراً، والحق سبحانه حاشاه جبر الخلائق على أمر معين، وهذا الأمر إن شاء الله سيأتي التفصيل فيه فيما بعد.

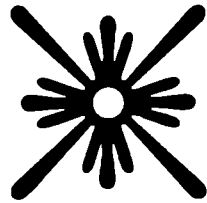
إذن التكليف هو الإختيار لطريق الطاعة والمعصية، هو علة وسبب الإيجاد لكل الخلائق، فمن لا يكلف لا يخلق.

فأنت أيها الإنسان إذا تدبرت إلى حالك وأعمالك الصادرة منك، تجدها كلها ما وجدت إلا بتكليف منك، فلو لم تكلفها لما صدرت منك، على سبيل المثال: أنت حينما تصنع كرسيًا مثلاً، تصنعه أولاً وبالذات لفائدة الجلوس عليه، لما تحب أن تقول ويقال عليه من الوعظ والإرشاد، ومجالس الإمام الحسين والأئمة عليهم السلام، وغير ذلك من الطاعات، وفي نفس الوقت يمكن أن يكون هذا الكرسي لشرب الخمر، وجلوس المغني عليه، وفعل الفواحش والمعاصي عليه.

فأنت أيها الإنسان لولا ما تريد فعله من الكرسي، من الطاعة أو المعصية لما صنعت هذا الكرسي، وقس على ذلك أمور الحياتية، لولا ما ترى فيه شيئاً من الإنتفاع لما تقوم به.

وهناك مثل آخر لكون التكليف علة الإيجاد، وهو شركة صنع الطائرات العملاقة، فإن هذه الشركة حينما ترى في صنع الطائرات ثمرة في نقل المسافرين، وأهداف إنسانية تقوم بها، لما صنعت وخرجت من حالة العدم إلى الوجود، وفي

نفس الوقت بدل ما تكون لنقل المسافرين قد تستخدم لقتل المسافرين من الأعلى إلى الأرض، وصنعها للحروب والقتل، فلولا هذه العلة لما صنعت الطائرات، فصلاحيّة قبول الطائرات للأميرين من السلم والحرب، هو علة إيجادها وصنعها من حالة عدمها إلى وجودها، فلولا صلاحيّة قبول الطائرة الحربية أو السلمية لما صنعت له، لما صنعها صانعها وأوجدها، فكذلك الله تعالى لولا قبول التكليف في الإيجاد والشرع من المكلفين، من خير أو شر لما وجدوا وخلقوا ألبتة.



والأدلة على أن الله لم يجبر أحداً بالإيمان والكفر كثيرة ❁.

❁ الأدلة على عدم جبر أحد على إيمان أو كفر

الأدلة على أن الله سبحانه لم يجبر أحداً على كفر أو إيمان كثيرة منها نقلية من الكتاب والسنة ومنها عقلية .

- الأدلة النقلية على نفي الجبر

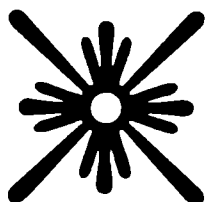
قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ ﴾^(٢) .

ومن السنة قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ((لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين))^(٣) .

فالكتاب والسنة مملوءان على عدله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾^(٤) .

فالدليل النقلية واضح بين في رفع الظلم عن الله سبحانه وتعالى .



(١) سورة النحل ، آية (٣٣) .

(٢) سورة هود ، آية (١٠١) .

(٣) الكافي للشيخ الكليني / ١ / ١٦٠ .

(٤) سورة النساء ، آية (٤٠) .

منها ما ذكرنا أن الله حكيم وعادل، وأفعاله تماماً بمقتضى العدل، والقبح لا يصدر عنه أبداً بوجه من الوجوه، فلا يجبر أحداً بالإيمان أو الكفر أو الطاعة أو المعصية*.

إذ كلّ عاقل يفهم قبح أن يخلق خلقاً كافراً ثم يطلب منه الإيمان، أو يخلقه جاهلاً بحيث لا يكون مستعداً للعلم ثم يطلب منه العلم، أو يخلقه مشركاً ويطلب منه التوحيد، ثم يعذبه على ترك ما لا يتمكن بالذات على أدائه، أو يخلقه مؤمناً بحيث لا يتمكن من الكفر ثم يعطيه الأجر والثواب على إيمانه، وهذا ممّا لا يشك أحد في قبحه***.

* أفعاله تعالى بمقتضى العدل

إن السيد كاظم قدس الله نفسه، ذكر في الفصل الأول والثاني والثالث عدله سبحانه، لأن الظلم على حسب الفرض، لو يصدر والعياذ بالله تعالى، لا يخلو ثلاثة أمور، إما الجهل، أو العجز، أو الحاجة، وكلها كما تقدم صفات الخلق لا الخالق القديم جلّ وعزّ.

فعلى ذلك لا يظلم الحق سبحانه، ولا يجبر أحداً على طاعة أو كفر، بل المكلف يفعل الطاعة والمعصية بإختياره، وإن كان بقدر ومدد من الله سبحانه وتعالى، لئلا يستقل المكلف المخلوق عن الله سبحانه وتعالى، كما سيأتي إن شاء الله تعالى فيما بعد.

** الدليل العقلي على عدم ظلمه عزّ وجلّ

المؤلف هنا يخاطب العقل السليم، لأن العقل هو أول الأدلة على إثبات وجود الواجب تعالى شأنه.

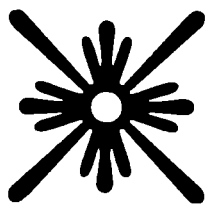
فيقول كل عاقل يفهم قبح أن يخلق خلقاً له جهة واحدة وهي الكفر مثلاً، بحيث

لا يمكن أن يفعل خلافه، ثم يطلب منه أن يكون مؤمناً موحداً، كمثّل من يكلف الحجارة بالكلام، أو النار بالبرودة، أو الأربعة بالفردية، وأمثال ذلك.

فالعاقل يقبح هذا التكليف، والقبح منفي من الكامل المطلق، لأن القبح دليل العجز والجهل والنقص، والحق سبحانه هو الغني القادر العالم المطلق، وإلا أصبح ممكناً.

وكذا في المثال الثاني: أن يخلق أحداً جاهلاً، بحيث لا يكون فيه استعداد للعلم، ثم يطلب منه العلم، مثل لما تكلف الحجارة بحل مسألة رياضية معقدة، أو يخلق مشركاً، بحيث ليس عنده القابلية للإيمان والقدرة عليه ثم يكلفه بالإيمان، أو العكس يخلقه مؤمناً، بحيث لا يتمكن من الكفر والمعصية ثم يدخله الجنة، فلو دخل هذا الجنة يدخل بلا سبب وعلة، فيكون فعله والعياذ بالله عبثاً، وهو لا يفعل العبث لأنه حكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها.

وكذا العكس لو يخلق خلقاً له جهة واحدة وهي الإيمان، ثم يدخله الجنة، لعدّ هذا العمل قبيحاً عند العقلاء.



وأيضاً إذا خلق الله كلّ الموجودات مؤمنين، لا يصدق عليهم أنهم مطيعون ولا أنهم ممثلون، لأن المطيع من يتمكن على خلاف العمل المأمور به، ومن لم يتمكن على خلاف ما أمر به، لا جرم يكون عمله بإكراه لا بالطاعة، مثلاً إن سللت سيفاً على أحد بقصد أن تقتله، إن لم يعمل برأيك، فإن عمل برأيك وهو على هذه الحالة فلا يقال [له] إنه مطيع وممثل لأمرك، إذ لولا فعلك هذا معه لما عمل برأيك*.

✽ احتمال خلق الخلق مؤمنون فقط

هنا السيد كاظم قدس نفسه المباركة، يطرح عدة احتمالات على فرض خلق الخلائق على جهة الجبر، بمعنى أنه له جهة واحدة من طاعة أو معصية، وهنا يطرح احتمال أنه لو فرض أن الله سبحانه وتعالى خلق كل الموجودات العلوية والسفلية كلهم مؤمنين، بحيث لا يكون فيهم جهة أو قابلية أو ميل إلى فعل المعصية، مثل خلق النار لها جهة واحدة في الأثر وهي الحرارة والإحراق، فليس لها جهة مقابلة لأثرها وهي البرودة، فلا يمكن للنار ظاهراً أن تصدر برودة، فلو خلق الله جلّ وعزّ الخلائق على هذه الوتيرة، لهم جهة واحدة وهي الطاعة لزم من هذا الإحتمال محذوران هما:

المحذور الأول

لا يصدق عليهم أنهم مؤمنون مطيعون ممثلون، لأن الإمتثال والطاعة تتصور ممن يفعل ضدها وهي المعصية، فلا تتحقق الطاعة إلا مع القدرة على تركها، أما الذي له جهة واحدة من الطاعة، لا يقال له إنه مطيع، وذلك مثال الملكة وعدمها كما في المنطق، فالملكة مثل البصر وعدمها، أي عدم البصر فيمن شأنه أن يبصر، فالإنسان الأعمى الأصم لما يقال له أعمى أو أصم، لأنه من شأنه أن يكون بصيراً وسميماً، أي له جهة أخرى مقابلة وهي البصر والسمع.

بيد أن هذا الأمر لا يقال للحجر، أي لا يقال للحجر أعمى أو أصم، لأن

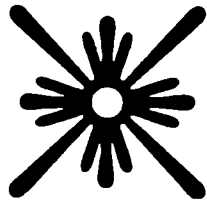
الحجر ليس من شأنه أن يبصر حتى يقال له أعمى، ولا يقال له أصم، لأنه ليس من شأنه أن يسمع.

فالحجر ظاهراً لا يمكن أن يوصف بالأصم أو الأعمى أو الجاهل، لأنه لا توجد فيه هذه الملكات والقابليات من البصر والسمع والعلم والعقل.

كذلك لو خلق الله سبحانه وتعالى الخلائق كلهم مطيعين، بحيث لا يكون لهم جهة أخرى مقابلة للطاعة وهي المعصية، لا يقال لهم أنهم مطيعون.

المحذور الثاني

يلزم من هذا القول، أي أنهم خلقوا على الطاعة فحسب، ولم يتمكنوا من خلافها، يقال لهم أنهم مجبورون مكرهون على الطاعة، مثل: ما لو سللت سيفاً أو سلاحاً على أحد ما، لو لم يعمل برأيك لتقتله، فلو امتثل لأمرك، لا يقال له أنه مطيع لك، بل مكروه مجبور، فلولا عملك وجبرك إياه لما قام لما أمرته به، وهذا واضح بين.



الحاصل فلما لم يكونوا مطيعين لا يجوز أن يدخلهم كلّهم الجنة، إذ لو لم يجبرهم على الإيمان لقبولوا الكفر بمقتضى ذاتهم، والذّات الخبيثة لا تدخل المكان الطيب، وإلّا لزم الظلم، ولا يجوز أن يدخلهم النار أيضاً، إذ ظاهراً لم يصدر منهم عمل مقتضى للنار، ولو أدخلهم النار لصارت لهم الحجة على الله سبحانه وهذا باطل، ولا يشك أحد في قبح هذا العمل*.

* لا يدخل المكره على الطاعة الجنة أو النار

لو فرض والعياذ بالله تعالى جبر الحق تعالى الخلق على الطاعة، حتى ماتوا على هذا الحال، لا يجوز إدخالهم الجنة، وذلك لأن الطاعة الصادرة منهم ليست برغبتهم وإختيارهم، بل على جهة القسر والجبر، فلو خلى وترك إختيارهم لاختاروا المعصية، فليس عندهم عمل يستحقون به دخول الجنة من الرغبة والميل إلى الطاعة، ولو أدخلهم على هذه الحال، لزم من فعل الله تعالى أولاً والعياذ بالله تعالى العبثية وعدم الحكمة.

وثانياً: دخول الذّات الخبيثة العاصية وهم المكرهون على الطاعة، المكان الطيب وهي الجنة قبيح، فلو دخلت الذّات الخبيثة الجنة، ففي ذلك ظلم للجنة المكان الطيب، لأن الطيب لا يحب إلا مثله طيباً، فأنت أيها الإنسان لو وضعت عذرة إنسان - أجلكم الله تعالى - على سرير نظيف، لعد هذا العمل ظلماً للسريير وصاحب السريير.

وكما أنه لا يجوز إدخالهم الجنة أيضاً لا يجوز إدخالهم النار، إذ لم يصدر منهم عمل ظاهر يستحقون العقاب بسببه، ولو أدخلهم النار لاحتجوا على الباري تعالى بقولهم يارب لماذا تدخلنا النار؟ ونحن لم يصدر منا عمل يستوجب دخول النار!! فتكون لهم الحجة على الحق تعالى والعياذ بالله.



وأيضاً لو خلق الله سبحانه كل الخلق عاصين، بحيث تكون المعصية ذاتية لهم، للزم منه أمران:

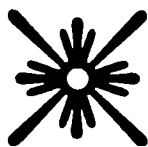
الأمر الأول: عدم كونهم عصاة، لأن المعصية إذا تمكن المكلف من الطاعة ولم يقطع، وأما إذا لم يتمكن من غير المعصية، ولم يقدر على غيرها وعصى، فلا يستحق النار ولا يصدق عليه أنه عاصي، إذ ليس المعصية بإختياره، وأما لو كان خلقهم بإختيارهم، لاختار جمع منهم الإيمان ألبته، وتبرؤا من الكفر، فكيف يدخلهم في النار وذاتهم طيبة طاهرة؟*.

* لا يدخل المكره على المعصية النار

هذا الفرض الثاني وهو كون إيجاد الخلق كلهم عاصون، بحيث لا يكون لهم جهة أخرى غير جهة المعصية، فعلى ذلك لا يجوز أن يدخلهم النار، لأن العاصي بما هو عاصي، لا يقال له إلا إذا تمكن من فعل خلاف المعصية وهي الطاعة، وإلا لا يقال له عاصي مثل الملكة وعدمها، فالإنسان الفاقد البصر يقال له أعمى، أما الحجر فلا يقال له أعمى، لأنه ليس من شأنه أن يبصر.

فهذا العاصي الذي ليس له جهة وقابلية لفعل الطاعة لا يقال له عاصي، لأنه ليس من شأنه أن يطيع، لأن هذه المعصية الصادرة عنه ليست بإختياره، فلو خلى وإختياره ومليه لاختار جمع من المجبورين الطاعة، وتبرؤا من المعصية مطلقاً.

فلا يجوز إدخالهم النار، لأن ذاتهم طيبة، والطيب لا يدخل المكان الخبيث، حيث إن المعصية صدرت منه على جهة الجبر، فلو أدخلهم النار والعياذ بالله تعالى، لكان ذلك ظلم للمكره على المعصية، لأن ذاته طيبة لا تستحق المكان الخبيث.



ولا يدخلهم الجنة أيضاً، لأن دخول الجنة بمقتضى العمل، ولم يعمل هذا المَجْبُور على المعصية عمل أهل الجنة، ويمكن له أن يحتج على الله سبحانه ويقول: كيف تدخلني النار وأنا ذاتي طيبة؟ ولو لا جبرك لي على المعصية لقبلت الإيمان، وتدخل من أجبرته على الطاعة الجنة، وذاته خبيثة، إذ لو لا جبرك إياه على الإيمان لقبل الكفر*.

الأمر الثاني: لزوم البخل، إذ منع عنه الخير وهو الإيمان بدون أمر وعمل مقتضى للمنع، ولا يبخل إلاّ دني الطبع، أو محتاج فقير، والله سبحانه أجل وأكرم من ذلك**.

* لا يدخل المكره على المعصية الجنة

كما أنه لا يجوز إدخال المكره على المعصية النار، كذلك لا يجوز إدخاله الجنة، لأن دخول الجنة بالعمل والطاعة، وهذا المكره على المعصية لم يصدر منه عمل صالح وطاعة تستوجب دخول الجنة.

فلو أدخله الجنة بلا عمل عمله من الطاعة، لزم العبث في فعل الله جلّ وعلا، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.

وأيضاً يحق للمكره على المعصية الإحتجاج على الباري جلّ جلاله، ويقول كيف تدخلني النار وذاتي طيبة؟ فلو خيرتني لأطعت، وتدخل المكره على الطاعة الجنة وذاته خبيثة، فلولا جبرك إياه على الطاعة لقبل المعصية، والله جلّ جلاله حاشاه أن يفعل هذا الفعل القبيح.

** على إحتمال الإكراه على المعصية يلزم البخل

على فرض إيجاد الحق تعالى الخلائق مجبورين على المعصية - والعياذ بالله - يلزم منه البخل، لأنه منعهم من الخير والنعيم الأبدي بدون عمل ومرجح، ولا يبخل

إلا دني الأخلاق والطبع، أو الداعي إلى البخل الفقر والإحتياج، والله سبحانه
وتعالى هو الغني المطلق، الغير محتاج إلى الغير بل الغير محتاج إليه سبحانه
سبحانه.

وأيضاً لزم في صورة الجبر على الطاعة أو المعصية بطلان إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتكليف الخلق بالطاعة، ونهيهم عن المعصية، وتخويفهم من العذاب، وبشارتهم بالنعيم والثواب، إذ لو جبرهم بالطاعة والإيمان لكان تكليفهم بالإيمان عبثاً، لأنه ليس فيه استعداد قبول خلاف الإيمان، فتكليف الإيمان ثانياً لإرسال الرسل، وإنزال الكتب لا معنى له، وأيضاً لزم أن يكون التكليف أصلاً باطلاً، إذ التكليف يصح لمن كان له جهتان، ويظهر التكليف بقبوله إحداهما، وأما إذا لم يكن له إلا جهة واحدة، فكيف يتصور التكليف هنا؟ أما في صورة الجبر على الكفر والمعصية، فتكليفه بالإيمان الذي ليس في قوته بوجه تكليف بالباطل والمحال، كتكليف المولى عبده الأسود أن يكون أبيضاً أو بالعكس، ثم يعذبه لأجل أنه لم يكن أبيض أو أسود، وتكليف الإنسان بالطيران وأمثاله، وقبح هذه التكاليف لا يخفى على أحد*.

* في صورة الجبر ابطال لإرسال الرسل

لو فرض والعياذ بالله تعالى جبر الخلائق على الطاعة أو المعصية، يلزم من هذا عبثية وإبطال إرسال الرسل، وإنزال الكتب من الله تعالى للخلائق، لأن إرسال الرسل وإنزال الكتب من الله سبحانه، لأجل إرشادهم إلى الخير والطاعة، أما إرسال الرسل وإنزال الكتب إلى المجبورين على الطاعة والمعصية فواضح البطلان، لأنهم مجبورون على الطاعة، وليس لهم جهة ثانية لفعل خلاف الطاعة من المعصية، فأعمالهم كلهم دائماً في طاعة الله تعالى، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب للطاعة وفعل الخير، يكون تحصيل حاصل وعبث.

وأما إرسالهم إلى المجبورين على المعصية فأيضاً باطل، لأنه كيف تكلف أحداً

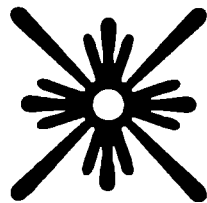
ليس له إلا جهة واحدة وهي المعصية، كتكليف الحجر أن يكون إنسان أو العكس، فليس عند الحجر قابلية لكونه إنساناً، وكذا الإنسان ليس عنده قابلية لكونه حجراً.

بل في صورة الجبر على الطاعة والمعصية إبطال للتكليف أصلاً، يعني يخلق الحق جلّ وعزّ الخلق ويتركهم بلا تكليف، لأنّ المجبور تكويناً دائماً على الطاعة يطيع بلا حاجة إلى أحد يقول له أطع، وكذا المجبور على المعصية بلا حاجة إلى أحد يقول له لا تطع.

وخلق خلق بلا تكليف يكون عملاً عبثياً، والحكيم جلّ جلاله لا يفعل العبث، لأنّ العبث من صفات السفه الجاهل، جلّ ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

فلو خلق الله سبحانه وتعالى زيداً مجبوراً على المعصية، بحيث لا يستطيع أن يعمل خلافها، وبعد ذلك يعذبه ويدخله النار لأنه لم يطع، هذا أمر قبيح عند المخلوق فكيف بالخالق؟ كما يقول المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه: كتكليفك للإنسان بأن يطير إلى السماء، أو تكليفك للعبد الأسود أن يكون أبيض أو العكس.

إذن التكليف يصح لمن عنده جهتان على الفعل والترك، أما الذي عنده جهة واحدة، إما الفعل أو الترك، فلا يتصور في حقه التكليف، وذكر من قبل من لا يكلف لا يوجد أصلاً.



وأيضاً لو جبر بعض الخلق على الطاعة، وبعضهم على المعصية، يعني خلق بعضاً مؤمناً مجبوراً، وبعضاً كافراً مجبوراً، لزم الترجيح بلا مرجح، إذ بلا سبب وجهة جعل البعض عزيزاً والبعض ذليلاً، وليس هذا شأن الحكيم ❁.

ويلزم أيضاً لو جبر الله الناس على الطاعة والمعصية، لما بقي للطائع مدح ولا للعاصي ذم، بل ينعكس الأمر، ويكون الذم للمطيع والمدح للعاصي ❁❁.

❁ لو خلق البعض مطيعاً والآخر عاصياً

في صورة فرضية إيجاد بعض الخلق مطيعين، والآخر عاصين، يعني خلق بعض الخلق مجبورين على الطاعة، والبعض الآخر مجبورين على المعصية، يلزم من هذا الفعل الترجيح بلا مرجح، يعني لما يجعل البعض مطيعاً والآخر عاصياً، يكون هذا الفعل بلا سبب ولا مرجح، من جعل الأول مطيعاً والآخر عاصياً، لأن المطيع حسب الفرض يدخل الجنة، والعاصي يدخل النار، وعلى ذلك يلزم تفضيل بعض الخلق على بعض، من المجبورين على الطاعة دخولهم الجنة والنعيم المقيم، والمجبورين على المعصية دخول النار والأغلال والسعير أجارنا الله تعالى منها، وإذا فعل هذا الفعل، يكون فعله عبثاً، والعبثية صفات السفیه والعياذ بالله تعالى، بيد أن الله جلّ جلاله هو الحكيم المطلق.

فالوالد لما يعط بعض أولاده بيتاً ولم يعط الآخر، على فرض لا توجد بينهما فروقات كماله توجب إعطاء الأول ومنع الثاني، يكون عمل الوالد عبثاً ومنشأاً للعداوات بين الإخوان.

فالله سبحانه متره عن هذا الفعل، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

*** في صورة الجبر ينعكس المدح والذم

على فرضية جبر بعض الخلق على الطاعة والآخر على المعصية والعياذ بالله، يلزم من ذلك عدم مدح المطيع، لأنه لا توجد عنده جهة ثانية للمخالفة من المعصية، وأيضاً يلزم عدم ذم العاصي، لأنه لا توجد عنه جهة ثانية للمخالفة من الطاعة. بل ينعكس الأمر يكون الذم للمجبور على الطاعة، لأنه لو خلى وطبعه لعصى، والمدح للمجبور على المعصية، فلو خلى وطبعه لأطاع.

إذ معنى الجبر هو إعطاء الشخص ما لا يريد، ولو أعطاه ما يريد لما كان جبراً ❁ فالطّاع بالإجبار لو خلى وطبعه لما أطاع بل عصى، والعاصي بالإجبار لو خلى وطبعه لما عصى بل أطاع، لأنه يريد الطاعة وأجبر على خلافها، فيكون الذم للطّاع، لأنه عاصي بالذات وطاعته عرضي جبري، والمدح للعاصي، لأنه مطيع بالذات، لو لم يجبر لما عصى بل أطاع، فعصيانه عرضي جبري، أما ترى أنه لو أجبر واحد على الصّلاة فصلّى لما عد طائعاً، أو على الزنا فزنى لما عد عاصياً، بل هو مطيع، إذ لو خلى وطبعه لما زنى ❁❁.

❁ الجبر إعطاء المكلف ما لا يريد

حقيقة الجبر هو أنك تجبر المكلف على ما لا يريد، سواء أكان طاعة أو معصية، فالمؤمن إذا أراد الطاعة، وأنت أجبرته على المعصية فقد أجبرته، وكذا العكس العاصي إذا أراد المعصية وأنت أجبرته على الطاعة فقد أجبرته.

❁❁ الطاعة والمعصية عرضيتان في الجبر

هنا المؤلف رضوان الله عليه يكرر العبارة لتوضيح المعنى، فيقول: لو أجبر المكلف على الطاعة لو خلى وطبعه لعصى، وكذا العاصي بالإجبار لو خلى وطبعه لأطاع، لأنه في الصورة الأولى يريد المعصية وأجبر على الطاعة، وفي الثانية يريد الطاعة وأجبر على المعصية، فيكون الذم للطّاع، لأنه يريد المعصية، والمدح للعاصي لأنه يريد الطاعة، لأنه كما ذكر من قبل الإجبار هو إعطاء المكلف ما لا يريد، سواء أكان طاعة أو معصية، لأن العاصي بالإجبار هو مطيع بالذات، وعاصي بالعرض وهو الجبر، وكذا الطّاع بالإجبار، هو عاصي بالذات، طّاع بالعرض وهو الجبر.

فلو أجبر المكلف على الصّلاة وهو لا يريد، لما عد طائعاً، مثل المنافقين

الذين دخلوا في الإسلام خوفاً من القتل أو الأسر، وكذا لو أجبر الإنسان وقال كلمة الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، لما عد كافراً، كما فعل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، حينما أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، لذا نزلت الآية المباركة تؤيد عمار بن ياسر، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾^(١)، إذا لو خلى عمار واختياره وطبعه، لما قال كلمة الكفر، ولكنه مكره بقوله.

فالمستحق للمدح هو الطائع بالذات لا بالجبر والعرض، وكذا المستحق للذم، وهذا معنى قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام (لو كان كذلك لكان المحسن أولى بالإساءة من المسيء، والمسيء أولى بالاحسان من المحسن) ^(١) .

فثبت أن الله تعالى لم يجبر أحداً على أمر من الأمور، وأن قول المعتزلة: بأن الله جبر الخلق في أعمالهم، وليس لهم فعل إلا فعل الله سبحانه، قول باطل خلاف مذهب الحق صلى الله عليه وآله .

❁ لو كان جبراً لكان المحسن مسيئاً

أي في صورة جبر المطيع على الطاعة، وجبر العاصي على المعصية، يكون المدح للطائع بالذات، وهو العاصي بالعرض، والذم للعاصي بالذات وهو المطيع بالعرض، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام : ((لو كان كذلك لكان المحسن أولى بالإساءة من المسيء، والمسيء أولى بالإحسان من المحسن)) ^(٢) وهذا واضح.

❁❁ الجبر مقولة المعتزلة

الخلاصة أن الله سبحانه وتعالى لم يجبر أحداً على طاعة أو معصية، بل خلقهم مختارين في فعل الطاعة أو المعصية بأمره تعالى وقدره، كما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : ((لا جبر ولا تفويض، ولكن أمرين أمرين)) ^(٣) .

(١) قال المؤمنين عليه السلام (إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي، والزجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا محمداً للمحسن، ولكان المذنب أولى بالاحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وقد رية هذه الأمة ومجوسها) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٥٥، التوحيد للشيخ الصدوق ٣٨٠، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ / ١٢٨ .

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٥٥ .

(٣) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٦٠ .

أما الأشاعرة أو المعتزلة، فإنهم قالوا بأن الله جلّ جلاله أجبر الخلق على الطاعة أو المعصية، فليس للعبد إختيار، فهذا قولٌ باطلٌ مخالفٌ لمذهب أهل البيت عليهم السلام والقرآن الكريم.

الفصل السادس [في إختيار الخلائق التكليف].

خلاصة الإستدلال، ونتيجة المقال، أنه لا شك ولا ريب أن الموجودات كلاً وطراً لم يكونوا مخلوقين، فخلقهم الله بإيجاده، وهذا الإيجاد لا يخلو من صور أربع: الجبر كلاً على الطاعة، والجبر كلاً على المعصية، وجبر بعض على الطاعة، وبعض على المعصية، أو خلقهم بمقتضى قبولهم.

فالشق الأول باطل بالدليل السابق، والشق الثاني أيضاً باطل للزوم البخل كما ذكرنا، والشق الثالث أيضاً باطل للترجيح بلا مرجح، فلم يبق إلا الشق الرابع ❁.

❁ الحق تعالى لم يخلق إلا بالإختيار

في هذا الفصل يبين السيد كاظم رضوان الله عليه خلاصة ما تقدم من الإختيار، من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق إلا برضاهم واختيارهم كما تقدم، وهنا يلخص ما ذكر، ويحصر خلق الخلق بعد ما كان عدماً عيناً في عالم الإمكان إلى صور أربع:

الصورة الأولى

إن الله سبحانه وتعالى خلق جميع الخلائق مجبورين على الطاعة، وهذا باطل

لما تقدم، لو خلى وطبعه لعصى، فهو مطيع بالعرض، عاصي بالذات.

الصورة الثانية

إن الله سبحانه وتعالى خلق جميع الخلائق مجبورين على المعصية وهذا أيضاً باطل، لأنه في الواقع والذات هو مطيع، ولكنه عاص بالعرض، فلو خلى واختياره لأطاع، فهو أولى بالمدح من غيره، ويلزم أيضاً والعياذ بالله تعالى البخل، لأنه منعه من السعادة الأبدية وهي الجنة، والحق تعالى هو الكريم الغني المطلق.

الصورة الثالثة

هو أنه والعياذ بالله خلق بعض الخلق مطيعين، والبعض الآخر عاصين، فإنه يلزم من هذا الفعل الترجيح بلا مرجح، يعني لما يخلق البعض مطيعاً ليس هناك علة، وموجب من عمل أو علة لأجلها خلقه مطيعاً، وكذا لما خلق البعض عاصياً، ليس هناك علة وموجب من عمل أو مرجح لأجله خلقه عاصياً.

وترجيح بعض على بعض بدون سبب أو علة أو موجب، يكون عمله عبثاً، والحكيم لا يفعل العبث جلّ جلاله.

الصورة الرابعة:

أنه لما بطلت الصور الثلاث المتقدمة، لم يبقَ إلا الصورة الرابعة، وهي أن الله سبحانه وتعالى، إنما خلق الخلق على حسب إختيارهم من الطاعة والمعصية، بحيث جعل كل الخلق عنده قابلية الطاعة والمعصية، فالمصلي حين يريد الصلاة، يستطيع أن يصلي لله تعالى ويطيع، ويستطيع أن يترك الصلاة فيعصي، فالطاعة والمعصية بقدر الله تعالى، لكن بإختيار العبد من فعل الطاعة والمعصية، وإن شاء الله تعالى يأتي تفصيل في هذا البحث فيما بعد.



الذي هو مقتضى الحكمة والعدل، والرحمة، والرفقة، وشأن الحكيم وهو خلق الموجودات بطور رضاهم، وطلب صلاح أنفسهم وإختيارهم، حتى لا يكون لأحد على الله حجة، ولا يقول لِمَ خلقتني كذا وكذا؟

❁ مقتضى العدل في الشق الرابع

إنه لما كان الله سبحانه وتعالى حكيماً عدلاً رحيماً رؤوفاً على الخلق، خلقهم على حسب إختيارهم وطلبهم من الخير والشر، فلو جبر طالب الشر على الخير لكان والعياذ بالله تعالى جابراً لطالب الشر وكذا العكس، والجبر لا يكون إلا من الضعف أو الجهل أو خوف الفوت والله سبحانه منزّه من جميع ذلك.

❁❁ خلقهم الحكيم بطور رضاهم

أي لما كان الحق تعالى حكيماً قوياً غنياً، خلق الخلائق على حسب رضاهم وطلبهم وصلاح أنفسهم، فالمؤمن لما يطلب الطاعة والخير، الله سبحانه يعطيه الطاعة والخير بإختياره، لأن المؤمن حينما يطلب الخير، يجده صلاحاً له، والشر فساداً عليه، وكذا العكس الكافر، حينما يطلب الشر والكفر من الله سبحانه وتعالى بإختياره، لأنه يرى الشر والكفر صلاحاً له، والإيمان بالله تعالى شراً عليه، بل يجد الكافر الشر صلاح نفسه، والإيمان فسادها، لذا عمرو بن ود لعنه الله لما عرض عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الدخول في الإسلام وإعلان الشهادتين، قال نقل الجبال أهون عليه من الإسلام، وكذا الكفار في هذا الوقت يرون نفس الرأي، فلو خلق الجليل تعالى طالب الخير والإيمان كافراً، أو طالب الشر والكفر مؤمناً، لكان للخلق على الله تعالى الحجة، بحيث يحتج طالب الإيمان على الله تعالى، ويقول لماذا خلقتني كافراً وأنا أريد الإيمان؟ وكذا طالب الشر يحتج على الله تعالى، ويقول لماذا خلقتني مؤمناً وهو يرى الكفر؟ والعياذ بالله.

وهذا معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام : ((لو كشف لكم الغطاء لما اخترتم إلا الواقع))^(١) .

✽ شرح حديث ((لو كشف الغطاء...))

معنى الحديث أنه لو كشف الغطاء، المراد به الجسم، أي بعد مفارقة الروح الجسم عند الموت، لو يرجع إلى الدنيا مرة ثانية، لما يختار إلا ما اختاره من قبل، لذا قال تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٢) فالمؤمن لو يرجع إلى الدنيا، لم يفعل إلا الطاعة، وكذا الكافر لو يرجع إلى الدنيا لا يفعل إلا المعصية.

ومعنى آخر للحديث أنه لو يلتفت المكلف إلى سر الخليقة، ويكشف عنه حجب المادة عالم الشهادة، الذي هو أدنى العوالم، لرأى أن الخلق كلهم يسرون لما طلبوا من الله تعالى من الخير والشر، فطالب الخير يسير إلى عليين، وطالب الشر يسير إلى سجين بإختيارهم، قال تعالى : ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿بَلْ أَيْنَبْتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾^(٤)، معنى بذكرهم أي بطلبهم، فالذي طلب الخير أعطي خيراً، والذي طلب شراً أعطي شراً، فالمكلف لو يرفع عنه حجاب المادة، وحجاب الذنوب، وحجاب الإدبار عن الله تعالى، وحجاب الأنا، وحجاب حب الدنيا، وحجاب العصبية، وحجاب التقليد الباطل، لرأى أن ما اختاره هنا في الدنيا هو بعينه ما اختاره من الله تعالى في عالم الدر من الخير والشر، وعلم أن الله سبحانه أعطاه الخير والطاعة بطلبه، وأيضاً أعطى الكافر الشر والكفر بطلبه،

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤٠ / ١٥٣، الفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي ١٣٧، حلية الأبرار

للسيد هاشم البحراني ٢ / ٦٢ .

(٢) سورة الأنعام، آية ٢٨ .

(٣) سورة الأسراء آية (٢٠) .

(٤) سورة المؤمنون، آية (٧١) .

فالمؤمن هناك في عالم الذر مؤمن في هذه الدنيا، والكافر هناك أيضاً هنا كافر في الدنيا، لذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

فالمؤمن هناك مؤمن بإختياره، والكافر هناك أيضاً كافر بإختياره، فمعنى قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه لما يقول: ((لو كشف لكم الغطاء لما اخترتم إلا الواقع)) أي لو ترفعون هذه الحجب عنكم، ترون أن ما أخذتموه هنا في الدنيا هو نفس الذي اخترتموه في عالم الذر، وليس لكم حجة على الله جلّ جلاله، لماذا خلقتنا عاصين أو مطيعين؟

فالله سبحانه خلق بعضكم مؤمناً بإختياره الإيمان مع قدرته على المعصية، وخلق بعضكم عاصياً بإختياره على المعصية مع قدرته على الطاعة.

وللحديث معنى آخر، وهو أن كل ما يجري على المكلف في دار الدنيا من الأفراح والأتراح، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والأحداث التي تجري عليه إلى آخر عمره، إنما كان ذلك بإختياره في عالم الذر.

فالمكلف في عالم الذر لما يطلب مثلاً درجة عالية في الإيمان، يشترط عليه البلاء في الدنيا، فإذا قبل المكلف البلاء مقابل هذه الدرجة العالية من الإيمان، يكتب له البلاء المعين في ذلك العالم.

ولما نزل إلى الدنيا بسبب الإدبار والبعد والبرودة من ذلك العالم، نسى ما أخذ عليه من الشرط، فلو يرجع إلى ذلك العالم عالم الذر، العالم الكامل العقلائي أو النفساني، ورأى تلك الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة في الجنة، لما اختار إلا إياها، لذا روي عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن زرارة قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٢) قال: ((ثبتت المعرفة في قلوبهم، ونسوا الموقف، وسيذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ولا من رازقه؟))^(٣).

(١) سورة الأعراف، آية (١٠١).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

(٣) بحار الأنوار ٣ / ٢٨٠، المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٤١، علل الشرائع للشيخ =

فكل ما يجري على المكلف في دار الدنيا، إنما هو بإختياره في عالم الذر من الخير والشر، ولكنه لما نزل إلى أسفل العوالم وأجمدها وأبردها، نسي ما أختاره هناك، فلو يقدر له أن يرجع إلى ذلك العالم، أو يرفع عنه الحجب، لانكشف له أن ما أختاره هناك وقع عليه هنا في عالم الدنيا، كما ينص عليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الرواية السابقة.

إذا عرفت ما ذكرنا نقول بعبارة واضحة، وبيانات لائحة، أن الله سبحانه خلق جميع الموجودات والمخلوقات أولاً في عالم الذر، بكمال الشعور والإختيار، في حالة لم يكونوا محكومين بحكم الكفر ولا الإيمان، كما ذكر الله في كتابه العزيز ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾^(١). أي بسبب التكليف، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

✽ الخلق الأول في عالم الذر

بعد ما قدم السيد كاظم رضوان الله عليه مقدمة، في أن الحق تعالى لم يخلق الخلائق مجبورين على طاعة أو معصية، بل خلقهم مختارين على فعل الطاعة والمعصية، هنا أحب أن يتعمق في المعنى الحقيقي الباطني لسر الخليفة وهو.

عالم الذر

إن عالم الذر من العوالم المخلوقة قبل عالم الدنيا بمراتب كثيرة، وهو أول العوالم المقيدة، وهذا العالم مروى في الكتاب والسنة، أما في الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢).

ظاهر الآية المباركة واضح، بأن الله جلَّ جلاله أخذ العهد على بني آدم قبل عالم الدنيا، من ظهورهم إشارة إلى أنهم بعد لم يخلقوا أي في أصلاب الآباء، وأشهدهم على أنفسهم، بأنه تعالى ربهم وخالقهم، بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فقال بنو آدم: بلى أنت ربنا وخالقنا يارب العالمين.

وبالطبع هذا الإشهاد للخلائق أجمع، لم يكن في هذا العالم، أي عالم الدنيا،

(١) سورة يونس، آية (١٩).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

ولم يكلمنا ولم يشهدنا في هذه الدار، فنحن منذ خلقنا الله تعالى في دار الدنيا، لم يقل أحد بأن الله تعالى خاطبه وكلفه مباشرة، بل هذا الإشهاد في عالم يسمى بعالم الذر، والحشر الأول للخلائق، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ .

هنا إثبات الحجة لله تعالى على خلقه، لئلا يقول الكافر لماذا خلقتني كافراً في الدنيا؟ وكذا المؤمن لئلا يقول لماذا خلقتني مؤمناً؟ فالمجيب في عالم الذر الأول ببلى، أي أنت ربنا، خلق هنا مؤمناً، والمنكر في ذلك العالم بنعم، أي والعياذ بالله لست بربنا، خلق هنا كافراً، لأن الله تعالى خلق الخلائق في ذلك العالم عقلاء كاملين في كل شيء، بحيث لا يحتج الخلق على الله تعالى، بأنهم خلقهم مجانين أو قاصرين عن فهم الخطاب لهم، فخلقهم في أفضل هيئة، قابلين للخطاب منه تعالى، إما بالقبول ببلى، أو بالإنكار بنعم، فالذي أجاب ببلى في عالم الذر، خلق على حسب إجابته بأحسن صورة، والذي أجاب بنعم بالنفي، خلق على حسب إجابته بأبشع وأقبح صورة، لذا سكنة النار والعياذ بالله تعالى لا يوجد فيهم صورة إنسان، بل كلهم قرود وخنازير وكلاب، وحيات وعقارب، وغيرها من الصور القبيحة.

لذا في خطاب الله تعالى لسكنة جهنم، حينما يدعوهم يجيبهم بخطاب الحيوانات، لا بخاطب الإنس كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾^(١) فقوله تعالى: ﴿أَخْسُوا فِيهَا﴾ جواب من الله تعالى لأهل النار، وكلمة اخساً تقال للكلاب لا للإنسان والعياذ بالله تعالى، ففي عالم الذر حشر الله تعالى جميع الموجودات أجمع من الأولين والآخرين، ويسمى بالحشر الأول، بعدما أراهم سبحانه آياته وقدرته وعلمه وولايته، كلفهم وأخذ عليهم العهد والميثاق، بأنه تعالى ربهم، وأن رسول الله ﷺ

سيد الأنبياء والمرسلين نبينهم، وأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والصديقة فاطمة الزهراء، والأئمة عليهم السلام هم أولياؤه وخلفاؤه وأصفياءه، فلما قال لهم هذا القول انقسم الخلائق إلى مجيب للدعوه ببلى وبالإيمان، وإلى منكر بنعم والكفر، ويأتي بيانه فيما بعد.

فلا يقول الكافر يوم القيامة أنه غافل عن توحيد الله تعالى، ونبوة سيد المرسلين، وإمامة الأئمة عليهم السلام، فلا عذر له يوم القيامة قال تعالى ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فالمكذب هناك مكذب هنا في دار الدنيا كما قال تعالى ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

لذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية عن عالم الذر.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

فإنه قال الصادق عليه السلام: ((إن الله تعالى أخذ الميثاق على الناس بالله بالربوبية، ولرسوله عليه السلام بالنبوة، ولأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام بالإمامة، ثم قال: ألسنت بربكم ومحمد نبيكم وعلي إمامكم، والأئمة الهادون أولياؤكم، فقالوا بلى، منهم إقرار باللسان، ومنهم تصديق بالقلب، فقال الله عز وجل لهم: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

فأصابهم في الذر من الحسد ما أصابهم في الدنيا، ومن لم يصدق في الدنيا بالله وبرسوله وبالأئمة في قلبه، وإنما أقر بلسانه أنه لن يؤمن في الدنيا وبرسوله وبالأئمة في قلبه، وإنما أقر بلسانه، والدليل على تكذيبهم في الذر قول الله عز وجل لنبيه عليه السلام: ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به، إلا أن الحجة كانت أعظم عليهم في الذر، لأن الأمر من الله عز وجل مشافهة، تم^(٢).

(١) سورة الأعراف، آية (١٠١).

(٢) مختصر بصائر الدرجات - الحسين بن سليمان الحلبي - ص ٢٢٧.

علة الحجر الأسود

وأيضاً روي عن علة الحجر الأسود وعالم الذر والميثاق، كما روي حدثنا موسى بن عمر، عن ابن سنان، عن أبي سعيد القمط، عن بكر بن أعين قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لأي علة وضع الله الحجر في الركن الذي هو فيه؟ ولم يوضع في غيره، ولأي علة يُقبل؟ ولأي علة أخرج من الجنة؟ ولأي علة وضع فيه موثيق العباد والعهد؟ ولم توضع في غيره، وكيف السبب في ذلك؟ فخبرني جعلت فداك، فإن تفكيري فيه فافهم لعجب، قال فقال عليه السلام: ((سألت وأعضلت في المسألة واستقصيت، فافهم وفرغ قلبك، واصغ سمعك، أخبرك إن شاء الله تعالى، إن الله تبارك وتعالى وضع الحجر الأسود وهو جوهرة أخرجت من الجنة إلى آدم عليه السلام، فوضعت في ذلك الركن لعلة الميثاق، وذلك أنه لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، حين أخذ الله عليهم الميثاق في ذلك المكان، وفي ذلك المكان ترائي لهم ربهم، ومن ذلك الركن يهبط الطير على القائم عليه السلام، فأول من يبايعه ذلك الطير، وهو والله جبرئيل عليه السلام، وإلى ذلك المقام يسند ظهره، وهو الحجة والدليل على القائم عليه السلام، وهو الشاهد لمن وافى ذلك المكان، والشاهد لمن أدى إليه الميثاق والعهد الذي أخذه الله على العباد، وأما القبلة والإلتماس فلعلة العهد، تجديداً لذلك العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة، وليؤدوا إليه ذلك العهد الذي أخذ عليهم في الميثاق، فيأتونه في كل سنة ليؤدوا إليه ذلك العهد، ألا ترى أنك تقول أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة، والله ما يؤدي ذلك أحد غير شيعتنا، ولا حفظ ذلك العهد والميثاق أحد غير شيعتنا، وإنهم ليأتونه فيعرفهم ويصدقهم، ويأتيه غيرهم فينكرهم ويكذبهم، وذلك أنه لم يحفظ ذلك غيركم، فلکم والله يشهد، وعليهم والله يشهد بالخفر والجحود والكفر، وهو الحجة البالغة من الله عليهم يوم القيامة، يجيء وله لسان ناطق وعينان، في صورته الأولى، يعرفه الخلق ولا ينكرونه، يشهد لمن وافاه وجدد العهد والميثاق عنده بحفظ العهد والميثاق، وأداء الأمانة، ويشهد على كل من أنكره، وجحد ونسى الميثاق بالكفر والإنكار.

وأما علة ما أخرج الله من الجنة، فهل تلوي ما كان الحجر؟ قال قلت لا،

قال: كان ملكاً عظيماً من عظماء الملائكة عند الله عزَّ وجلَّ، فلما أخذ الله الميثاق من الملائكة كان أول من آمن به، وأقر ذلك الملك، فاتخذ الله أميناً على جميع خلقه، فألقمه الميثاق وأودعه عنده، واستعبد الخلق أن يجددوا عنده في كل سنة الإقرار بالميثاق، والعهد الذي أخذه الله عليهم، ثم جعله الله تعالى مع آدم عليه السلام في الجنة يذكر الميثاق ويجدد عنده الإقرار في كل سنة، فلما عصى آدم عليه السلام فأخرج من الجنة، أنساه الله العهد والميثاق الذي أخذ الله عليه وعلى ولده لمحمد عليه السلام، ووصيه صلوات الله عليه، وجعله باهتاً حيراناً، فلما تاب على آدم عليه السلام، حول ذلك الملك في صورة درة بيضاء، فرماه من الجنة إلى آدم عليه السلام وهو بأرض الهند، فلما رآه أنس إليه وهو لا يعرفه بأكثر من أنه جوهرة، فأنطقه الله عزَّ وجلَّ، فقال: يا آدم أتعرفني؟ قال: لا، قال: أجل استحوذ عليك الشيطان فأنساك ذكر ربك، وتحول إلى صورته التي كان بها في الجنة مع آدم عليه السلام، فقال لآدم: أين العهد والميثاق؟ فوثب إليه آدم عليه السلام وذكر الميثاق وبكى، وخضع له وقبَّله، وجدد الإقرار بالعهد والميثاق، ثم حول الله عزَّ وجلَّ إلى جوهـر الحجر، درة بيضاء صافية تضيء، فحملها آدم عليه السلام على عاتقه إجلالاً وتعظيماً، وكان إذا أعىى حمله عنه جبرئيل عليه السلام، حتى وافى به مكة، فما زال يأنس بها بمكة، ويجدد الإقرار له كل يوم وليلة، ثم إن الله عزَّ وجلَّ لما أهبط جبرئيل عليه السلام إلى أرضه، وبنى الكعبة، هبط إلى ذلك المكان بين الركن والباب، وفي ذلك المكان تراءى لآدم حين أخذ الميثاق، وفي ذلك الموضع ألقم الملك الميثاق، فلتلك العلة وضع في ذلك الركن، ونحى آدم من مكان البيت إلى الصفا، وحواء إلى المروة، وجعل الحجر في الركن، فكبر الله وهلَّله ومجده، فلذلك جرت السنة بالتكبير في إستقبال الركن الذي فيه الحجر من الصفا، وأن الله عزَّ وجلَّ أودعه العهد والميثاق وألقمه إياه، دون غيره من الملائكة، لأن الله عزَّ وجلَّ لما أخذ الميثاق له بالربوبية، ولمحمد عليه السلام بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالوصاية، أصطكت فرايص الملائكة، وأول من أسرع إلى الإقرار بذلك الملك، ولم يكن فيهم أشد حباً لمحمد وآل محمد عليه السلام منه، فلذلك اختاره الله عزَّ وجلَّ من بينهم، وألقمه الميثاق، فهو يجيء يوم

١٠٦ شرح أصول العقائد (ج ٢)

القيامه وله لسان ناطق، وعين ناظرة، ليشهد لكل من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق^(١).

وهناك روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام عن عالم الذر، وإن شاء الله تعالى يأتي التفصيل فيما بعد.

(١) مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلبي - ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

وبيانه أن الله سبحانه لما خلق الخلائق في عالم الذر، الذي هو قبل هذا العالم وأوسع منه بسبعين ألف مرتبة، فكلفهم بقوله : أأست بربكم، ومحمد نبيكم، و علي وليكم وإمامكم، والأئمة من ولده أولياؤكم وأئمتكم^(١)؟ ❁.

❁ عالم الذر أوسع بسبعين ألف مرتبة

هنا خلاصة الكلام في ذكر عالم الذر، وهو أن الله جلّ جلاله قبل أن يخلق عالم الدنيا، خلق عالم الذر الأول، وهو عالم العقول، وعالم الجبروت، وحشر جميع الخلائق أجمع من أولها إلى آخرها، عاليها إلى سفليها، ولطيفها إلى غليظها، وطائعتها إلى عاصيها، من الأولين إلى الآخرين، من الإنس والجن والملك والحيوان والنبات والجماد وكل شيء، ويسمى هذا الحشر بالحشر الأول، مقابل الحشر الآخر، الذي هو يوم القيامة، وهذا العالم يعد علة لمن تحته من العوالم، وبين العلة والمعلول سبعين مرتبة، والسبعون كناية عن عدم إدراك العلة لمعلولها مهما بلغ، لأن السبعة هو العدد التام، فالسبعون ليس المراد منها العدد، بل المراد منها الرتبة والمرتبة، لذا قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ في إستغفاره للمنافقين : ﴿أَسْتَغْفِرَ

(١) عن زرارة بن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال : ((إن الله تبارك وتعالى حيث خلق الخلق، خلق ماء عذبا، وماء مالحا أجاجا، فامتزج الماءان، فأخذ طينا من أديم الأرض، فعرکه عركا شديدا، فقال لأصحاب اليمين، وهم فيهم كالذر، يدبون إلى الجنة بسلام، وقال لأصحاب الشمال، يدبون إلى النار ولا أبالي، ثم قال أأست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين، قال ثم أخذ الميثاق على النبيين، فقال أأست بربكم؟ ثم قال : وأن هذا محمد رسول الله، وأن هذا علي أمير المؤمنين قالوا بلى؛ فثبتت لهم النبوة، وأخذ الميثاق على أولو العزم، ألا إني ربكم، ومحمد رسولي، وعلي أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولأهلي، وخزان علمي، أن المهدي أنتصر به لديني، واظهر به دولتي، وانتقم به من أعدائي، واعبد به طوعا وكرها، قالوا أقررنا، وشهدنا يارب)) الكافي للشيخ الكليني ٢ / ٨، بصائر الدرجات للشيخ محمد الصفار ٩٠.

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾^(١) فالمراد من السبعين الأبدية، بمعنى أن النبي ﷺ، لو استغفر لهم مئة أو مئتين، أو ألف أو ألفين، أو مئة ألف أو مليون، لا يغفر الله لهم، فالسبعين عبارة على عدم إستحقاقهم التوبة بنفاقهم وفسقهم.

فرتبة السبعين عبارة عن رتبة العلة بالنسبة إلى معلوله، أو رتبة الموصوف بالنسبة إلى صفته، كما قال الشيخ أحمد الإحسائي رحمته الله ((وقد أشرنا في تأليفاتنا إلى وجه ذلك العدد من أن كل شيء فهو مربع الكيفيات مثلث الكيان، لأنه حرارة ورطوبة، وبرودة ويبوسة، وجسم ونفس وروح، فكل شيء جوهر أو موصوف ذو سبعة، فإذا نسب إلى الصفة والعرض الذين في الرتبة الثانية كان سبعين، لأن السبعين في المرتبة الثانية سبعون، والصفة والأثر واحد منها لأنه عرض، ولو كان من نوع موصوفه كان واحداً من عشرة فافهم))^(٢) معنى كلامه أن الجوهر والموصوف يتكون من أمرين هما:

الأمر الأول: الطبائع الأربع وهي الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة.

الأمر الثاني: مثلث الكيان من جسم ونفس وروح.

فالمجموع يكون سبعة هذا بالنسبة إلى الجوهر والموصوف، بما هو جوهر وبما هو موصوف، وإذا نسب الجوهر أو الموصوف إلى أثرهما، وهما العرض بالنسبة إلى الجوهر، والصفة بالنسبة إلى الموصوف، يكون الصفة والعرض أنزل من رتبة الجوهر والموصوف برتبة، والرتبة الثانية للسبعة هي السبعون، وذلك لأن الواحد إلى التسعة رتبة الآحاد، والرتبة الثانية بعد الآحاد هي العشرات، لأن الأعداد بعد الآحاد كلها آثار للآحاد فليس فيها أعداد زائدة على الآحاد، بل مكررات الآحاد فقط، فلما كان عالم الذر هو أول العولم المقيدة، وهو علة لمن تحته، وذلك لأن العالي علة للسافل مثل الجوهر علة للعرض، والموصوف علة للصفة، فلأجل هذه العلة كان عالم الذر

(١) سورة التوبة، آية (٨٠).

(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الإحسائي ٢ / ٣٧٤.

أكبر وأوسع من العالم الذي تحته بسبعين، وإذا نسب عالم الدنيا الذي هو آخر العوالم الألف، كان نسبة عالم الذر إلى عالم الدنيا بسبعين ألف رتبة، لأن العوالم كما نص عليها الإمام محمد الباقر عليه السلام ألف ألف عالم، بقوله لجابر الجعفي: ((لعلك ترى أن الله عز وجل إنما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أن الله عز وجل لم يخلق بشراً غيركم؟! بلى والله، لقد خلق الله تبارك وتعالى، ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنتم (وأنتم) في آخر تلك العوالم، وأولئك الآدميين))^(١).

ففي هذا العالم كلف الله سبحانه جميع خلقه بالربوبية له جلّ جلاله، وبالإيمان بنبوته نبينا محمد عليه السلام، وإمامة الأئمة عليهم السلام، على جميع ما خلق وذراً، أي كما أنه رب العالمين وإلههم، كذلك رسوله محمد عليه السلام هو نبي العالمين، بل هو سيد الرسل على جميع الأنبياء والمرسلين، بحيث لو يبعث جميع الأنبياء والرسل في زمانه، لوجب عليهم العمل برسالته، والدخول تحت ولايته عليه السلام، وكما أنه نبي العالمين، كذلك أوصياؤه وخلفاؤه عليهم السلام، هم أئمة العالمين، وخلفاء العالمين، لأن الإمام والوصي يخلف النبي في كل شيء، عدا النبوة التأسيسية، فهي مختصة له عليه السلام.

فكما أنه سبحانه وتعالى عرض توحيدته ونبوته نبيه محمد عليه السلام على كل شيء، كذلك عرض ولاية أهل بيته الأئمة المعصومين عليهم السلام على كل شيء، لذا توجد روايات كثيرة جداً بلغت حد التواتر من طرفنا، على عرض ولاية وإمامة المعصومين على كل شيء، منها: ما روي عن قبر، عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((يا قبر إن الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات والأرض، من الجن والإنس والثمر وغير ذلك، من قبل منها ولايتنا طاب وطهر وعذب، وما لم يقبل منها خبث وردئ ورتن))^(٢) كلامه عليه السلام (وغير ذلك) يشمل جميع الموجودات أجمع.

(١) الخصال للشيخ الصدوق ٦٥٢، التوحيد للشيخ الصدوق ٢٧٧، البحار للشيخ المجلسي ٨ / ٣٧٥.

(٢) مستدرک الوسائل للميرزا النوري ١٦ / ٤١٣، الإختصاص للشيخ المفيد ٢٤٩.

فانقسموا على ثلاثة أقسام:

قسم منهم بالإخلاص والمعرفة والبصيرة والإيمان، قالوا: بلى آمنة
وصدقنا بما أنزلت من أوامرك ونواهيك*.

* إنقسام الخلائق في الإقرار والإنكار

أنه بعدما ألقى الحق سبحانه وتعالى في عالم الذر الأول، وهو الحشر الأول
لجميع الخلائق التكليف الوجودي، وهو وجودهم من حالة العدم إلى حالة الوجود،
جعلهم في عالم العقول، وهو الذر الأول، وهم كاملوا القوى والعقل والإدراك
والشعور، فكل موجود في هذا العالم كامل العقل والإدراك والشعور، لأنه أعلى
العوالم التكوينية، وهو عالم العقل، فالمقر لأوامر الله تعالى ونواهيه من الإمتثال
لطاعته، والإبتعاد عن معصيته، هو في نهاية الكمال والعقل، والمنكر لتشريعته من
أمثال الطاعة واجتناب المعصية، هو أيضاً في نهاية الكمال والعقل.

إذن جميع الخلائق كاملوا العقل والإدراك في هذا العالم، حتى تكون الحجة
بالغة وتامة للحق تعالى، فبإمكان كل واحد من الخلائق أن يصبح في أعالي الدرجات
في مقامه بالعرض، فكل فرد من أفراد السلسلة الطولية أن يترقى في مقامه ومكانه،
حتى يصبح في أعالي الدرجات والمقامات، ولكن لا يمكن للمؤمن أن يكون نبياً،
وكذا الملك لا يكون إنساناً، وكذا النبات لا يكون حيواناً، وهكذا، بل كل يترقى في
قبول التكليف الشرعي في مقامه ورتبته.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١) ففي قبول التكليف وإنكاره انقسم
الخلائق إلى ثلاثة أقسام هي:

(١) سورة الصافات آية (١٦٤).

القسم الأول

وهم المجيبون لنداء الرب جلّ جلاله ببلى، أي أقرؤا بربوبية خالقهم وهو الله تعالى، وبنبوة نبينا ﷺ، وإمامة الأئمة ﷺ بأنهم أوصياء رسول الله ﷺ بلا فصل، وأنهم الثقل والعدل الثاني لكتاب الله تعالى، وهذا القسم هم السابقون إلى الخير، وهم الأنبياء والأوصياء، وأولهم نبينا محمد وأهل بيته ﷺ، فأول من أجاب ببلى في هذا العالم هو رسول الله وأهل بيته ﷺ.

لذا روي عن أبي عبد الله ﷺ أن بعض قريش قال لرسول الله ﷺ: ((بأي شيء سبقت الأنبياء، وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟)) فقال: ((إني كنت أول من آمن بربي، وأول من أجاب، حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم، ألسن بربكم؟ فكنن أنا أول نبي، قال: بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله عزّ وجلّ))^(١).

فأول من أجاب ببلى، أي بالإقرار لتوحيد الله سبحانه، وبأنه خاتم الأنبياء، وثبوت ولاية الأئمة ﷺ، وأن ولايتهم حق، وهم الإمتداد الطبيعي لنبوته، لثلا تخلو الأرض من حجة، وهو رسول الله ﷺ، والأئمة ﷺ، ثم تبعهم في الإقرار الأنبياء والأوصياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٢).

وهذا في عالم الذر، فالأنبياء في الرجعة يصدقون رسول الله وينصرونه، وينصرون الأئمة ﷺ، فأول سابق لتوحيد الله سبحانه هو محمد وآل محمد ﷺ، لذا قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾^(٣) وقوله تعالى: السابقون بالجمع لإرادة المعصومين ﷺ جميعاً.

فلما تسبر وتخوض روايات المعصومين ﷺ من العامة والخاصة، تجد أن أول

(١) الكافي للشيخ الكليني ٢ / ١٠.

(٢) سورة آل عمران، آية (٨١).

(٣) سورة الواقعة، آية (١٠ - ١١).

العابدين والمسبحين والمهللين والممجدين والمقدسين هم عليه السلام، بل هم عليه السلام الذين علموا الملائكة والخلائق أجمع التسبيح والتقديس والتمجيد وعبادة الله سبحانه، لذا روي مرفوعاً إلى جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر بن محمد بن علي الباقر عليه السلام: ((يا جابر كان الله ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول، فأول ما ابتدأ من خلق خلقه، أن خلق محمداً عليه السلام، وخلقنا أهل البيت معه، من نوره وعظمته، فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه، حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان، ولا ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر، يفصل نورنا من نور ربنا، كشعاع الشمس من الشمس، نسبح الله تعالى ونقدسه ونحمده ونعبده حق عبادته، ثم بدا الله تعالى عزَّ وجلَّ أن يخلق المكان، فخلقته وكتب على المكان: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علياً أمير المؤمنين ووصيه، به أيده ونصرته، ثم خلق الله العرش، فكتب على سرادقة العرش مثل ذلك، ثم خلق الله السماوات، فكتب على أطرافها مثل ذلك، ثم خلق الجنة والنار، فكتب عليها مثل ذلك، ثم خلق الملائكة وأسكنهم السماء، ثم تراءى لهم الله تعالى، وأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية، ولمحمد عليه السلام بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، فاضطربت فرائص الملائكة، فسخط الله على الملائكة واحتجب عنهم، فلاذوا بالعرش سبع سنين، يستجيرون الله من سخطه، ويقرون بما أخذ عليهم، ويسألونه الرضا، فرضي عنهم بعدما أقروا بذلك، وأسكنهم بذلك الإقرار السماء، وأختصهم لنفسه، واختارهم لعبادته، ثم أمر الله تعالى أنوارنا أن تسبح فسبحت، فسبحوا بتسبيحنا، ولولا تسبيح أنوارنا ما دروا كيف يسبحون الله؟ ولا كيف يقصدونه؟ ثم إن الله عزَّ وجلَّ خلق الهواء فكتب عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علياً أمير المؤمنين ووصيه، به أيده ونصرته، ثم خلق الله الجن وأسكنهم الهواء، وأخذ الميثاق منهم بالربوبية، ولمحمد عليه السلام بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، فأقر منهم بذلك من أقر، وجحد منهم من جحد، فأول من جحد إبليس لعنه الله، فختم له بالشقاوة وما صار إليه، ثم أمر الله تعالى عزَّ وجلَّ أنوارنا أن تسبح فسبحت، فسبحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك ما دروا كيف يسبحون الله؟ ثم خلق الله الأرض فكتب على أطرافها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علياً أمير المؤمنين ووصيه، به أيده ونصرته، فبذلك يا جابر

قامت السماوات بغير عمد، وثبتت الأرض، ثم خلق الله تعالى آدم عليه السلام من أديم الأرض، فسواه ونفخ فيه من روحه، ثم أخرج ذريته من صلبه، فأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية، ولمحمد عليه السلام بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، أقر منهم من أقر، وجحد من جحد، فكنا أول من أقر بذلك، ثم قال لمحمد عليه السلام: وعزتي وجلالي وعلو شأني، لولاك ولولا علي وعترتكما الهادون المهديون الراشدون، ما خلقت الجنة والنار، ولا المكان ولا الأرض ولا السماء، ولا الملائكة ولا خلق يعبدني، يا محمد أنت خليلي وحببي ووصفي، وخيرتي من خلقي، أحب الخلق إلي، وأول من ابتدأت إخراجهم من خلقي، ثم من بعدك الصديق علي أمير المؤمنين وصيك، به أيدتك ونصرتك، وجعلته العروة الوثقى، ونور أوليائي ومنار الهدى، ثم هؤلاء الهداة المهتدون، من أجلكم ابتدأت خلق ما خلقت، وأنتم خيار خلقي فيما بيني وبين خلقي، خلقتكم من نور عظمتي، واحتجبت بكم عن سواكم من خلقي، وجعلتكم أستقبل بكم وأسأل بكم، فكل شيء هالك إلا وجهي، وأنتم وجهي، لا تبيدون ولا تهلكون، ولا يبيد ولا يهلك من تولاكم، ومن استقبلني بغيركم فقد ضل وهوى، وأنتم خيار خلقي، وحلمة سري، وخزان علمي، وسادة أهل السماوات وأهل الأرض، ثم إن الله تعالى هبط إلى الأرض في ضلال من الغمام والملائكة، وأهبط أنوارنا أهل البيت معه، وأوقفنا نور صفوفاً بين يديه، نسبحه في أرضه كما سبحناه في سماواته، ونقدسه في أرضه كما قدسناه في سمائه، ونعبده في أرضه كما عبدناه في سمائه، فلما أراد الله إخراج ذرية آدم عليه السلام لأخذ الميثاق، سلك ذلك النور فيه، ثم أخرج ذريته من صلبه يلبون، فسبحناه فسبحوا بتسبيحنا، ولولا ذلك لا دروا كيف يسبحون الله عز وجل، ثم تراءى لهم بأخذ الميثاق منهم له بالربوبية، وكنا أول من قال: بلى، عند قوله: أأست بربكم؟ ثم أخذ الميثاق منهم بالنبوة لمحمد عليه السلام، ولعلي عليه السلام بالولاية، فأقر من أقر، وجحد من جحد، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فنحن أول خلق الله، وأول خلق عبد الله وسبحه، ونحن سبب خلق الخلق، وسبب تسبيحهم وعبادتهم، من الملائكة والادميين، فبنا عرف الله وبنا وحد الله، وبنا عبد الله، وبنا أكرم الله من أكرم من جميع خلقه، وبنا أثناب من أثناب، وبنا عاقب من

عاقب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١)^(٢)، فرسول الله ﷺ أول من عبد الله تعالى، وأول من أنكر أن يكون له ولد أو شريك، ثم نحن بعد رسول الله، ثم أودعنا بذلك النور صلب آدم عليه الصلاة والسلام، فما زال ذلك النور ينتقل من الأصلاب والأرحام، من صلب إلى صلب، ولا استقر في صلب إلا تبين عن الذي انتقل منه إنتقاله، وشرف الذي استقر فيه، حتى صار في صلب عبد المطلب، فوقع بأم عبد الله فاطمة، فافترق النور جزئين، جزء في عبد الله، وجزء في أبي طالب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجِدِ﴾ (٢١٩)^(٣) يعني في أصلاب النبيين وأرحام نسائهم، فعلى هذا أجرانا الله تعالى في الأصلاب والأرحام، وولدنا الآباء والأمهات من لدن آدم ﷺ^(٤).

إذا دقت النظر ترى أن أبجديات الوجود من السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والمكان والعرش والكرسي، والإنس والجن والملك، إنما خلقوا بفاضل أنوار محمد وآل محمد ﷺ.

لأنه مما قام عليه إجماع المسلمين قاطبة، أن أول خلق خلقه الله تعالى، هو نور نبيه محمد ﷺ، كما روي عن جابر بن عبد الله قال: قلت لرسول الله ﷺ: أول شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: ((نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء، وأقام

(١) سورة الصافات، آية (١٦٥ - ١٦٦).

(٢) سورة الزخرف، آية (٨١).

(٣) سورة الشعراء، آية (٢١٩).

(٤) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٥ - ص ١٧ - ٢٣.

القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق العقل من جزء، والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة، فرشح ذلك النور، وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين^(١).

ويؤيد ذلك ما رواه جابر بن عبد الله في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

قال: قال رسول الله ﷺ: ((أول ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقه من جلال عظمته، فأقبل يطوف بالقدرة، حتى وصل إلى جلال العظمة، في ثمانين ألف سنة، ثم سجد لله تعظيماً، ففتق منه نور علي عليه السلام، فكان نوري محيطاً بالعظمة، ونور علي محيطاً بالقدرة.

ثم خلق العرش واللوح والشمس وضوء النهار ونور الأبصار، والعقل والمعرفة وأبصار العباد وأسماعهم وقلوبهم، من نوري ونوري مشتق من نوره، فنحن الأولون، ونحن الآخرون، ونحن السابقون، ونحن المسبوحون، ونحن الشافعون، ونحن كلمة الله، ونحن خاصة الله، ونحن أحبائه الله، ونحن وجه الله، ونحن جنب الله، ونحن يمين الله، ونحن أمناء الله، ونحن خزنة وحي الله وسدنة غيب الله، ونحن معدن التنزيل، ومعنى التأويل، وفي أبياتنا هبط جبرئيل، ونحن محال قدس الله، ونحن مصابيح الحكمة، ونحن مفاتيح الرحمة، ونحن ينابيع النعمة، ونحن شرف الأمة، ونحن سادة الأمة^(٢).

وعندنا الإمامية أن المعصومين أمير المؤمنين والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء، وأبناءهما الأئمة عليهم السلام خلقوا من نور واحد، وطينة واحدة، فمحمد وآل محمد عليهم السلام نورهم واحد، وطينتهم واحدة، نعم رسول الله ﷺ أفضل الكل في الكل.

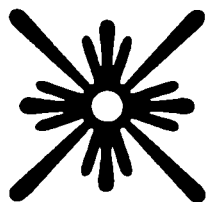
(١) البحار للشيخ المجلسي ٢٥ / ٢٢ .

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٢٥ / ٢٢ .

فأول من أقر الله تعالى بالوحدانية، وأقر بنبوة نبينا محمد ﷺ، وأنه أفضل الأنبياء والمرسلين، وأقر بولاية الأئمة؟ ﷺ هم محمد وآل محمد ﷺ، قبل الخلائق بآلاف السنين، فهم السابقون السابقون إلى معرفة ربهم سبحانه وتعالى، وهم المعلمون لجميع الخلائق، توحيد ربهم وخالقهم، وهم المبلغون عن أمر الله سبحانه وتعالى في أوامره ونواهيه، بل هم المظهرون لأمره ونهيه، كما قال الإمام علي بن محمد الهادي ﷺ، في الزيارة الجامعة الكبيرة: ((المظهرين لأمر الله ونهيه))^(١) فلولا هم لما عبد الله ولما عرف، كما روي عن أحمد بن موسى، عن الحسن بن موسى الخشاب، عن علي بن حسان، عن عبد الله بن كثير قال: ((سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: نحن ولاية أمر الله، وخزنة علم الله، وعيبة علم الله، وأهل دين الله، وعلينا نزل كتاب الله، وبنا عبد الله، ولولانا لما عرف الله، ونحن ورثة نبي الله وعترته))^(٢).

فمن أدعى معرفة الله تعالى عن غير طريقهم، وعبده من دون تعريفهم، فقد ضل الطريق وغوى، كما روي في الكافي عنه، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن عمر بن أبي المقدم، عن جابر قال: سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: ((إنما يعرف الله عزَّ وجلَّ ويعبده من عرف الله، وعرف إمامه منا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عزَّ وجلَّ، ولا يعرف الإمام منا أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله، هكذا والله ضلالة))^(٣).

فلا يوجد معرفُّ لتوحيد الله سبحانه، وبيان أمره ونهيه إلا محمد وآل محمد ﷺ، فمن عرف الله وعبده إنما بتعريفهم وتعليمهم، وإلا غناء وسراب.



(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار ٨١.

(٣) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٨١.

وقسم بمعرفة منهم وبصيرة عاندوا وناقفوا وأنكروا وقالوا : نعم لست
بربنا ، وليس محمد المصطفى نبينا ، وعلي بن أبي طالب بإمامنا والحاكم
علينا وولينا ، وكذا أولاده ❁ .

❁ القسم الثاني

هذا القسم ضد القسم الأول وعكسه في كل شيء ، كما أن القسم الأول هو أول
من آمن بالله وكتبه ورسله وأوليائه محمد وآل محمد ﷺ ، هذا القسم هو أول من أنكر
ربوبية الله جلّ وعلا ، ونبوة أنبيائه وولاية أوليائه ﷺ .

ف عند النداء بقوله ألسنت بربكم ، أجاب هذا القسم بنعم ، وهو جواب النفي ، إذا
كان الكلام مسبوقاً بألسنت ، يعني نعم لست بربنا ، ومحمد ﷺ نبينا ، وأمير المؤمنين
والصديقة فاطمة الزهراء وأولادهما الطاهرين أوليائهم ، فبإنكارهم الربوبية لله جلّ
وعلا ، والنبوة لنبينا ﷺ ، والولاية لأهل بيته ﷺ ، خلق من إنكارهم كل شر ، وفتنة
وحسد وحقد ونار وسلاسل وأغلال والزقوم والغسلين ، وكل عذاب وهوان ،
فلولاهم لم يخلق الله تعالى شراً في العالم ، لذا روي في الأمالي للشيخ الصدوق
قال : حدثنا محمد بن أحمد السناني ((رضي الله عنه)) قال : حدثنا محمد بن أبي عبد
الله الكوفي ، قال : حدثنا موسى بن عمران النخعي ، عن عمه الحسين بن يزيد ، عن
علي بن سالم ، عن أبيه ، عن أبان بن عثمان ، عن أبان بن تغلب ، عن عكرمة ، عن
ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((قال الله جلّ جلاله : لو اجتمع الناس كلهم
على ولاية علي لما خلقت النار))^(١) وإنما خص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
عليه آلاف التحية والثناء ، دون ذكر الله جلّ جلاله ، ورسول الله ﷺ ، مع العلم أن الله
سبحانه ليس كمثله شيء ، ورسول الله ﷺ أفضل من أمير المؤمنين ﷺ ، لكون
ولايته ﷺ هي كمال الدين ، وتمام النعمة ، فبدون ولايته يكون الدين ناقص ، لذا قال

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ٧٥٥ ، الجواهر السنوية للشيخ الحر العاملي ٢٣٦ ، البحار للشيخ

تعالى لنبيه في آية التبليغ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) فالإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، والكفر بعلي ﷺ يكون الدين والإسلام ناقصاً لمن أراد أن يدخل في الدين، فيكون ممن دخل البيوت من ظهورها، أما الذي يؤمن بتوحيد الله تعالى، ويؤمن برسوله ﷺ، وأنبيائه ﷺ، ويؤمن بولاية أمير المؤمنين، والصديقة فاطمة، وأبنائهم الطاهرين ﷺ، يكون ممن دخل البيوت من أبوابها، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فأمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء، وأبناؤهما المعصومون ﷺ، هم مكملون ومتممون للدين، وبدونهم يكون الدين ناقصاً، وهذا مصداق الآية الشريفة بعد ما نصب أمير المؤمنين ﷺ يوم الغدير، وبايعه أكثر من مئة ألف من المسلمين، نزلت هذه الآية المباركة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣) فأهل البيت ﷺ هم قطب الدين، من أحبهم نجى، ومن تخلف عنهم غرق وغوى، قال رسول الله ﷺ: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلف عنها غرق))^(٤).

وروي في الأمالي للشيخ الطوسي معنعناً عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((إن مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، وكمثل باب حطة في بني إسرائيل))^(٥) أي كما أن قوم نبي الله نوح على نبينا وآله وﷺ، ابتلى قومه بالسفينة، بأن من ركبها نجى، ومن تخلف عنها غرق وهوى، كذلك أهل البيت ﷺ، الله جلّ وعلا ابتلى هذه الأمة بولايتهم إلى أهل البيت ﷺ، من والاهم نجى، ومن جحدهم غرق وغوى، أو كما أن سفينة نوح واحدة، أهل البيت ﷺ هم واحد، فلا

(١) سورة المائدة، آية (٦٧).

(٢) سورة البقرة، آية (١٨٩).

(٣) سورة المائدة، آية (٣).

(٤) وسائل الشيعة للحر العاملي ٢٧ / ٣٤.

(٥) الأمالي للشيخ الطوسي ٦٣٣.

يوجد لرسول الله ﷺ بيت غيرهم ﷺ ، وكما أن الله تعالى ابتلى بني إسرائيل بعد التيه أربعين سنة، أن يدخلوا بيت المقدس من باب واحد، وهو باب حطة، فمن دخله وقال حطة، أي حطة الذنوب غفر له، ومن بدل وقال حنطه، عذبه الله تعالى في الدنيا والآخرة، كذلك أهل البيت ﷺ، من والاهم واعتقد بهم غفرت ذنوبه ولو كانت كزبد البحر، كما روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((حُب علي بن أبي طالب يحرق الذنوب كما تحرق النار الحطب))^(١).

وقال ﷺ: ((حُب علي بن أبي طالب حسنة لا تضر معها سيئة، وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة))^(٢).

وروي من كتب أخواننا السنة، جامع الترمذي، أو مُسند الموصلي، أو فضائل أحمد، عن أم سلمة، قال النبي ﷺ لعلي عليه السلا: ((لا يحبك منافق ولا يبغضك مؤمن))^(٣).

ولاية المعصومين ﷺ عامة لكل الخلق

فليس عرض التوحيد لله جل جلاله، والإيمان بنبوته وخاتمية رسول الله ﷺ، وولاية أمير المؤمنين والصديقة فاطمة وأبناهما ﷺ خاص لهذه الأمة، أمة رسول الله ﷺ، بل عرض التوحيد، ونبوة وخاتمية رسالة رسول الله ﷺ، وولاية المعصومين ﷺ عامة لكل الخلائق، وذلك في عالم الذر.

أي كما أن الحق تعالى أخذ العهد والميثاق على جميع الخلائق بتوحيده، كذلك أخذ العهد والميثاق والإيمان بنبوة نبينا ﷺ، وولاية المعصومين ﷺ، لأنهم أوصياؤه وخلفاؤه، بل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ هو نفسه، كما في آية المباهلة ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٤).

(١) البحار للشيخ المجلسي ٣٩ / ٢٦٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) سورة آل عمران، آية (٦١).

فالنبي ﷺ خرج للمباهلة مع علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فالنساء الصديقة فاطمة ﷺ، والإبناء الحسنان، وأما أنفسنا فهو أمير المؤمنين، أي هو نفس رسول الله ﷺ، عدا النبوة، كما في حديث المنزلة ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي))^(١).

لذا روي عن أحمد بن الحسن القطان قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن زكريا أبو العباس القطان قال: حدثنا محمد بن إسماعيل البرمكي قال: حدثنا عبد الله بن داهر قال: حدثني أبي عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ﷺ: لِمَ صار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قسيم الجنة والنار؟ قال: ((لأن حُبّه إيمان وبغضه كفر، وإنما خلقت الجنة لأهل الإيمان، وخلقت النار لأهل الكفر، فهو ﷺ قسيم الجنة والنار، لهذه العلة، فالجنة لا يدخلها إلا أهل محبته، والنار لا يدخلها إلا أهل بغضه، قال المفضل: فقلت يا بن رسول الله فالأنبياء والأوصياء كانوا يحبونه، وأعداؤهم كانوا يبغضونه، فقال: نعم، فقلت: فكيف ذلك؟ قال: أما علمت أن النبي ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يُحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ما يرجع حتى يفتح الله على يديه، فدفعت الراية إلى علي ﷺ، ففتح الله على يديه، قلت: بلى، قال: أما علمت أن رسول الله ﷺ لما أوتي بالطائر المشوي قال: اللهم اتني بأحب خلقك إليك وإليّ يأكل معي من هذا الطائر، وعني به علياً ﷺ، قلت: بلى، قال: فهل يجوز أن لا يحب أنبياء الله ورسوله وأوصياؤهم رجلاً يحبه الله ورسوله، ويُحب الله ورسوله، فقلت له: لا، قال: فهل يجوز أن يكون المؤمنون من أممهم لا يحبون حبيب الله وحبيب رسوله وأنبيائه ﷺ، قلت: لا، قال: فقد ثبت أن جميع أنبياء الله ورسوله، وجميع المؤمنين كانوا لعلي بن أبي طالب ﷺ محبين، وثبت أن أعداءهم والمخالفين لهم كانوا لهم ولجميع أهل محبتهم مبغضين، قلت: نعم، قال: فلا يدخل الجنة إلا من أحبه من الأولين والآخرين، ولا يدخل النار إلا من أبغضه من الأولين والآخرين، فهو إذاً

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ١٥٩، الكافي للشيخ الكليني ٨ / ١٠٧.

قسيم الجنة والنار. قال المفضل بن عمر، فقلت له: يا بن رسول الله فرجت عني فرج الله عنك، فزدني مما علمك الله، قال: سل يا مفضل، فقلت: يا بن رسول الله، فعلي بن أبي طالب عليه السلام يدخل محبيه الجنة ومبغضيه النار، أو رضوان ومالك؟، فقال له: يا مفضل أما علمت أن الله تبارك وتعالى بعث رسوله صلى الله عليه وسلم وهو روح إلى الأنبياء عليهم السلام وهم أرواح قبل خلق الخلق بألفي عالم، فقلت: بلى، قال: أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته وإتباع أمره، ووعدهم الجنة على ذلك، وأوعد من خالف مما أجابوا إليه وأنكره النار، قلت: بلى، قال: أفليس النبي صلى الله عليه وسلم ضامناً لما وعد وأوعد عن ربه عز وجل، قلت: بلى، قال: أوليس علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام خليفة وإمام أمته، قلت: بلى، قال: أوليس رضوان ومالك من جملة الملائكة المستغفرين لشيئته الناجين بمحبته، قلت: بلى، قال: فعلي بن أبي طالب إذا قسيم الجنة والنار، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضوان ومالك صادران عن أمره بأمر الله تبارك وتعالى، يا مفضل خذ هذا فإنه من مخزون العلم ومكنونه، لا تخرجه إلا إلى أهله^(١).

فلا يوجد خلق من خلق الله تعالى إلا وأخذ عليه العهد بالتوحيد والإيمان بالنبوة لرسول الله عليه وآله، والولاية للأئمة عليهم السلام من الأولين والآخرين، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء والمرسلين أجمع، فوصيه يجب أن يحوز ما حاز عليه نبيه عدا النبوة.

أول من أنكر التكليف

لما ألقى الحق جل جلاله التكليف في عالم الذر، كما ذكر بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومحمد نبيكم، وأمير المؤمنين والصديقة فاطمة عليهما السلام، والأئمة أولياؤكم وخلفاؤكم، والمتحكم في ذلك العالم هو الله رب الأرباب سبحانه، لكن على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه هو النذير عن الله تعالى، بل هو النذير الأول كما قال تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾^(٢).

(١) مختصر بصائر الدرجات للشيخ الحسن بن سليمان الحلبي ٢١٦ - ٢١٨.

(٢) سورة النجم، آية (٥٦).

فبعد ما أجاب القسم الأول وأسبقهم محمد وآل محمد ﷺ، لأنهم السابقون لطاعة ربهم، وكان بعض الخلق عندهم الإنكار لتوحيد الله تعالى، ولنبوته نبينا محمد ﷺ، وولاية أمير المؤمنين والمعصومين ﷺ، ولكن المنكرين لا يجروون على الإنكار والإعتراض أمام رب الأرباب، وخالق السماوات والأرض، فسكتوا مع إضمارهم النفاق والكفر في قلوبهم، خشية وخوفاً من الله جلّ جلاله.

فلما قال الرب تعالى للمنكرين على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ سكتوا، لأنهم لا يجرووا على الرب تعالى، ولما قال: ومحمد نبيكم أيضاً سكتوا، لأنه المنصور في كل العوالم، ولما قال: وعلي إمامكم والصديقة فاطمة وأولادهما المعصومون أئمتكم وخلفاؤكم، تحرك الحسد عندهم، وحسدوا أهل البيت ﷺ، وقاسوهم بغيرهم، ولكن مع ذلك لم يجرأ المنكرون الإنكار مع غليان قلوبهم بالحسد والحقد على المعصومين ﷺ، ولكنهم ينتظرون من يتكلم عنهم، ويظهر ما في قلوبهم، وفي هذا الموقف ظن إبليس الأعظم أنهم يخالفون أمر الله تعالى ويطيعونه، فبينما هم كذلك في موقف رهيب ومخوف، قال إبليس الأعظم وأخرج حسده وحقده قائلاً: نعم أنت يارب لست بربنا، وليس محمد نبينا، وليس أمير المؤمنين والصديقة فاطمة ﷺ أولياؤنا وخلفاؤنا.

وبمجرد أن قال تلك الكلمة الخبيثة، استنطق ضمائر المنكرين الذين لم يجرووا على الإنكار، وتبعوه في الإنكار، وقالوا بعده: نعم لست يارب ربنا، وليس محمد نبينا، وليس الأئمة أولياؤنا، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه من قبل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ^(١) والمؤمنون هم المقرون بالله تعالى، وبالنبي والأئمة ﷺ، فلما قال إبليس الأعظم: نعم لست بربنا، وليس محمد نبينا، وليس أمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء والأئمة ﷺ أولياؤنا، خلقت النار والسلاسل والأغلال والعذاب، وتغير مراد الله سبحانه وتعالى، حيث كانت إرادته النعيم والجنة والسعة لجميع الخلائق قاطبة، وأكبر دليل على ذلك أنه لما خلق الله تعالى آدم أسكنه في جنته مباشرة.

فلو أن الخلق أجمعوا على مراد الله تعالى الأولي، لحققوا سعادة الدارين، الدنيا والآخرة، قال تعالى مخاطباً الأمم السابقة واللاحقة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ((وما أنزل إليهم من ربهم)) المراد به القرآن والولاية لعلي أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام لأن ((علياً مع القرآن، والقرآن مع علي)) أخبرنا جماعة، عن أبي المفضل، قال: حدثنا محمد بن جعفر الرزاز القرشي، قال: حدثنا جدي لأمي محمد بن عيسى القيسي، قال: حدثنا إسحاق ابن يزيد الطائي، قال: حدثنا هاشم بن البريد، عن أبي سعيد التيمي، قال: سمعت أبا ثابت مولى أبي ذر رضي الله عنه يقول: سمعت أم سلمة (رضي الله عنها) تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه يقول، وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: ((أيها الناس! يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا أني مخلف فيكم كتاب الله (عز وجل) وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي عليه السلام فرفعها فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، خليفتان بصيران لا يفترقان حتى يردا علي الحوض، فأسألهما ماذا خلفت فيهم)) (٢) وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (٣) فلو أن الخلائق استقاموا وثبتوا على الطريقة الحققة، وهي ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولسقوا ماءً غدقا، أي خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة.

وكما ذكر من قبل في أمالي الشيخ الصدوق معنعناً، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله جلّ جلاله: ((لو اجتمع الناس كلهم على ولاية علي ما خلقت النار)) (٤) وذلك واضح لأن علياً مع الحق، والحق معه لا يفارقه حتى يرد على

(١) سورة المائدة، آية (٦٦).

(٢) الأمالي للشيخ الطوسي ٤٧٨ - ٤٧٩، البحار للشيخ المجلسي ٢٢ / ٢٢٣.

(٣) سورة الجن، آية (١٦).

(٤) أمالي الشيخ الصدوق ٧٥٥، والجواهر السنوية للشيخ الحر العاملي ٢٣٦، والبحار ٣٩ / ٢٤٧.

رسول الله ﷺ الحوض، والحوض في يوم القيامة نهاية التكليف، فلا تكليف بعد يوم القيامة، بل يوم جزاء من خير أو شر.

القسم الثاني هم أصل كل معصية

فبانكار القسم الثاني، ورئيسهم إبليس الأكبر، توحيد الله جلّ جلاله، ونبوة نبينا محمد ﷺ، وولاية أمير المؤمنين والصديقة فاطمة وأبناءهما المعصومين ﷺ، خلقت النار والسلاسل والأغلال والغسلين والتوابيت، والكوارث والحوادث والمصائب والحرب والقتل والزنا والسرقه والظلم والجور.

لذا روي عن المفضل بن عمر رضوان الله عليه، كتب إلى الإمام الصادق ﷺ، فكتب له الإمام جعفر الصادق ﷺ: ((وأخبرك أن الله أحلّ حلالاً وحرم حراماً إلى يوم القيامة، فمعرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم هو الحلال، فالمحلل ما أحلوا والمحرم ما حرموا وهم أصله، ومنهم الفروع الحلال، وذلك سعيهم، ومن فروعهم أمرهم شيعتهم وأهل ولايتهم بالحلال، من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت والعمرة، وتعظيم حرّمات الله ومشاعره، وتعظيم البيت الحرام والمسجد الحرام، والشهر الحرام والطهور والإغتسال من الجنابة، ومكارم الأخلاق ومحاسنها وجميع البر، ثم ذكر بعد ذلك، فقال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

فعدوهم هم الحرام المحرم، وأولياؤهم الداخلون في أمرهم إلى يوم القيامة، فهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والخمر والميسر والزنا والربا والدم والميتة ولحم الخنزير، فهم الحرام المحرم، وأصل كل حرام، وهم الشر وأصل كل شر، ومنهم فروع الشر كله، ومن ذلك الفروع الحرام واستحلالهم إياها، ومن فروعهم تكذيب الأنبياء وجحود الأوصياء وركوب الفواحش: الزنا والسرقه وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والخدعة والخيانة وركوب الحرام كلها

(١) سورة النحل، آية (٩٠).

وانتهاك المعاصي ، وإنما يأمر الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، يعني مودة ذي القربى ، وابتغاء طاعتهم وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وهم أعداء الأنبياء وأوصياء الأنبياء ، وهم المنهى عن مودتهم وطاعتهم بهذه لعلكم تذكرون))^(١) .

فما عصى الله تبارك وتعالى من جميع خلقه من الأولين والآخرين ، إلا بسبب إبليس الأعظم وبسبب جحوده وحسده لآدم على نبينا وآله وعلينا ، حيث أمره الله تعالى بالسجود لآدم ، أي الخضوع والإتباع له والإئتمار بأمره والإنتهاء بنهيه وتحت إمارته وحكمه ، وأن يدعن له بالنبوة والخلافة والولاية ، بأنه خليفة الله تعالى وولي الله سبحانه ، فأبى واستكبر وحسد آدم في ذلك العالم .

فلما أنكر تبعه شيعته ومحبه ، واكتست الظلمة في ذلك العالم ، وقبل إنكار إبليس الأعظم التوحيد والولاية للنبي والوصي عليهما وآلهما السلام ، لم تكن هناك معصية أصلاً ، وإنما خلقت من إنكارهم وحسدهم وجحودهم في ذلك العالم .

أخي القايء لما تفكر وتدبر هذه الآيات المباركات من سورة الحجر!!! .

تعلم ما ذكر من القسم الأول والقسم الثاني ، وما مقام القسم الأول؟ وما مقام القسم الثاني؟

ولمن خلقت الجنة؟ ولمن خلقت النار؟ وما جزاء المتبعين للقسم الأول؟ وما جزاء المتبعين للقسم الثاني؟

وأن القسم الثاني ليس له سلطان على القسم الأول وأتباعهم ، لأنهم على الصراط المستقيم ، وإنما سلطانهم على الذين يتولونهم .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِيََسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي ٢٤ / ٢٨٨ - ٢٨٩ ، مختصر بصائر الدرجات للشيخ حسن سلمان الحلبي ٨١ .

الَّذِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخَلُوهَا بِسَلْمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴿١﴾ .

فتبين أن النار والعذاب والشر ما خلق إلا بإنكار القسم الثاني، ثبتنا الله على ولاية محمد وآل محمد ﷺ والبراءة من أعدائهم في الدنيا والآخرة، وهنا كلام وكلام لا يسعنا ذكره والسلام.

المعصومون ﷺ هم الصلاة والصيام و كل خير

كما أن القسم الثاني أعني إبليس الأعظم، هم أصل كل معصية وشر في العالم، فإن القسم الأول وهم صفوة الأنبياء وخيرة الأصفياء محمد وآل محمد ﷺ، فإنهم أصل كل طاعة وبر ومعروف ومستحسن عند العقول السليمة، كما روى الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمه الله بإسناده إلى الفضل بن شاذان، عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنتم الصلاة في كتاب الله عز وجل، وأنتم الزكاة وأنتم الحج؟ فقال: ((يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٢) ونحن الآيات، ونحن البيئات، وعدونا في كتاب الله عز وجل: الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان، والجبت والطاغوت، والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود! إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمناه وحفظته وخزانه

(١) سورة الحجر، آية (٢٨-٥٠).

(٢) سورة البقرة، آية (١١٥).

على ما في السماوات وما في الأرض، وجعل لنا أصدقاء وأعداء، فسمانا في كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه، وسمى أصدقاءنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه، وإلى عباده المتقين^(١).

وروى الشيخ أيضاً باسناده عن الفضل باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((نحن أصل كل خير ومن فروعنا كل بر، ومن البر: التوحيد والصلاة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير وتعاهد الجار والإقرار بالفضل لأهله، وعدونا أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، فمنهم الكذب والنميمة والبخل والقطيعة وأكل الربا وأكل مال اليتيم بغير حقه وتعدي الحدود التي أمر الله عز وجل، وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، من الزنا والسرقه، وكل ما وافق ذلك من القبيح، وكذب من قال: إنه معنا وهو متعلق بفرع غيرنا))^(٢).

وقال مولانا أبو الحسن الثالث علي بن محمد الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة: ((إن ذكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه))^(٣) فلا يوجد خير أو طاعة أو معروف أو حسن أو جمال خلق أو أخلاق إلا منهم عليهم السلام.

لذا صفاتهم عليهم السلام الظاهرية والباطنية في غاية الكمال، بل لا يوجد كمال في عالم الإمكان أو التكوين إلا وهم في أعلى رتبة، وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه، سلام الله عليهم ما بقيت السموات والأرض في الدنيا والآخرة، ولنعم ما قال الشيخ صالح بن عبد الوهاب بن العرندس الحلبي، المشهور بابن العرندس.

قصيدة الشيخ صالح بن العرندس

هم التين والزيتون والشفع والوتر
ميامين في أبياتهم نزل الذكر

هم النور نور الله جل جلاله
مهابط وحي الله خزان علمه

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ٢٤ / ٣٠٣ - ٣٠٤ - كنز جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

وأسماءهم مكتوبة فوق عرشه
 ولولا هم لم يخلق الله آدم
 ولا سطحت أرض ولا رفعت سما
 ونوح به في الفلك لما دعا نجا
 ولو لا هم نار الخليل لما غدت
 ولو لا هم يعقوب ما زال حزنه
 ولان لداود الحديد بسرهم
 ولما سليمان البساط به سرى
 وسخرت الريح الرخاء بأمره
 وهم سر موسى والعصا عندما عصى
 ولو لا هم ما كان عيسى بن مريم
 سرى سرهم في الكائنات وفضلهم

ومكنونة من قبل أن يخلق الذر
 ولا كان زيد في الوجود ولا عمرو
 ولا طلعت شمس ولا أشرق البدر
 وغيض به طوفانه وقضي الأمر
 سلاما وبردا ونطفى ذلك الجمر
 ولا كان عن أيوب ينكشف الضر
 فقدر في سرد يحير به الفكر
 أسيلت له عين يفيض له القطر
 فغدوتها شهر وروحها شهر
 أوامره فرعون والتقف السحر
 لعازر من طي اللحود له نشر
 وكل نبي فيه من سرهم سر

من المشهور عند الأصحاب والعلماء أن هذه القصيدة ما تقرأ في مجلس إلا
 ويحضره صاحب العصر والزمان أرواحنا فداه، وعجل الله فرجه .

فتبع القسم الأول جماعة في الإيمان والتصديق والإقرار، لكن الأولين سبقوا التابعين لهم، وقال الله سبحانه في حقهم ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) في جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ لأن إقرارهم بالأصالة، وقال في حق التابعين الذين هم أصحاب اليمين ﴿وَاصْحَابُ اليمينِ مَا أَصْحَابُ اليمينِ﴾ (٢٧) في سِدْرٍ مَحْضُورٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ (٢) فهم شيعة الأولين، لمشايعتهم ومتابعتهم لهم في الإقرار. ❀

❀ أتباع القسم الأول

لما أجاب القسم الأول ببلى، أي بلى أنت ربنا، ومحمد نبينا، والآئمة عليهم السلام أئمتنا وأولياؤنا، وأول من أجاب كما ذكرهم محمد وآل محمد عليهم السلام، فتبع هذا القسم جماعة من الخلق في ذلك العالم، وقالوا بقولهم واعتقدوا بعقيدتهم وشايعوهم، فيما يقولون ويفعلون، فقالوا لداعي ربهم وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ❀

لأنه النذير الأول لله تبارك وتعالى، بلى الله جلَّ جلاله ربنا، وأنت نبينا وخاتم الأنبياء، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولينا، والصديقة فاطمة الزهراء والآئمة من ذريتهما أولياؤنا وخلفاؤنا، .

فأول المقرين بالله تعالى وبالنبي والولاية هم محمد وآل محمد عليهم السلام، فهم السابقون إلى معرفة ربهم وأحكامه، لذا جاء في التنزيل ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) في جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ وسموا بالسابقين لأنهم لم يتبعوا أحداً في الإقرار بالتوحيد، بل هم عليهم السلام أول الخلائق في عالم الذر أعلن توحيد الله تعالى، ونبوة أنبيائه وأوليائه عليهم السلام، فلم يسبقهم أحد في ذلك.

(١) سورة الواقعة، آية (١٠ - ١٢).

(٢) سورة الواقعة، آية (٢٧ - ٤٤).

(٣) سورة الواقعة، آية (١٠ - ١٢).

وأما أتباعهم وأشباعهم من الخلائق، فهم أصحاب اليمين، لذا جاء في التنزيل فيهم بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحِ مَنُضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾^(١).

فهؤلاء التابعون هم شيعة السابقين الأولين، وسموا بالشيعة لمشايعتهم ومتابعتهم لهم فيما قالوا وفعلوا على قدرهم واستعدادهم، فالتابعون لما شايعوا السابقين وهم محمد وآل محمد ﷺ، وأقروا الله تعالى وللنبي ﷺ وللأئمة ﷺ بالولاية المطلقة، وأذعنوا لهم واقتدوا بهم وآمنوا بهم، خلقوا من فاضل طينهم، أي من شعاعها، والشعاع يحكي صفة مؤثره في كل شيء، لذا قال مولانا الإمام جعفر الصادق ﷺ: ((رحم الله شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا))^(٢).

فأعلى مراتب الشيعة الحقيقيين هم الأنبياء والمرسلون، عدا رسول الله ﷺ، كما قال تعالى في حق نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ وعلى نبينا وآله ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾﴾^(٣).

فإن ظاهر الضمير من قوله تعالى: ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ الهاء راجع إلى نبي الله نوح ﷺ، كما قال تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾﴾^(٤).

ولكن الحقيقة والواقع أن نبي الله إبراهيم الخليل - ﷺ وعلى نبينا وآله - من شيعة أهل البيت ﷺ، وهم محمد وآل محمد ﷺ، لأن رسول أفضل من نبي الله نوح، فإذا صح أن إبراهيم الخليل بمقامه العالي أنه من المتابعين لنوح ﷺ، فكيف لا يكون تابعا لسيد الأنبياء والمرسلين، وأفضل الموجودات أجمع ﷺ؟ لذا روي عن

(١) سورة الواقعة، آية (٢٧ - ٤٤).

(٢) شجرة طوبى للشيخ محمد مهدي الحائري ١ / ٣.

(٣) سورة الصافات، آية (٨٢).

(٤) سورة الصافات، آية (٧٩) - (٨٣).

عبد الله بن أبي أوفى : عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((لما خلق الله إبراهيم الخليل كشف له عن بصره ، فنظر إلى جانب العرش نوراً ، فقال : إلهي وسيدي ما هذا النور؟ قال : يا إبراهيم هذا نور محمد صفيي . فقال : إلهي وسيدي إني أرى إلى جانبه نوراً آخر .

قال : يا إبراهيم هذا علي ناصر ديني . قال : إلهي وسيدي إني أرى إلى جانبهما نوراً ثالثاً (يلي النورين) . قال : يا إبراهيم هذه فاطمة تلي أباهما وبعلمها ، فطمت محبيها من النار . قال : إلهي وسيدي إني أرى نورين يليان الأنوار الثلاثة . قال : يا إبراهيم هذان الحسن و الحسين يليان أباهما وأمهما وجدتهما . قال : إلهي وسيدي إني أرى تسعة أنوار قد أحدقوا بالخمسة الأنوار . قال : يا إبراهيم هؤلاء الأئمة من ولدهم . فقال : إلهي وسيدي فبمن يعرفون؟ ، قال : يا إبراهيم أولهم علي بن الحسين ، محمد ولد علي ، وجعفر ولد محمد ، وموسى ولد جعفر ، وعلي ولد موسى ، ومحمد ولد علي ، وعلي ولد محمد ، والحسن ولد علي ، ومحمد ولد الحسن القائم المهدي . قال : إلهي وسيدي وأرى عدة أنوار حولهم لا يحصي عدتهم إلا أنت . قال : يا إبراهيم هؤلاء شيعتهم ومحبوهم . قال : إلهي وبم يعرف شيعتهم ومحبوهم؟ ، قال : يا إبراهيم بصلاة الإحدى والخمسين ، والجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ، والقنوت قبل الركوع ، وسجدة الشكر ، والتختم باليمين . قال إبراهيم : إلهي أجعلني من شيعتهم ومحبيهم . قال : قد جعلتك منهم ، فأنزل الله فيه : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٢) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ .

قال المفضل بن عمر : إن إبراهيم عليه السلام - لما أحس بالموت روى هذا الخبر وسجد ، فقبض في سجده) (١) .

لأن قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ معناه أن نبي الله إبراهيم الخليل من المشايخين وهم المتابعون ، من قولك شيعت الجنابة ، وشيعت المسافر أي تابعته .

فإذا صح لنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام أن يتبع نبي الله نوح - على نبينا وآله وعليه

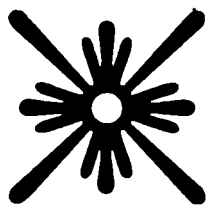
السلام كيف لا يصح أن يكون شيعياً لمحمد وآل محمد ﷺ؟ بحيث لو حضر جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى نبي الله عيسى مع أوصيائهم - علي نبينا وآله وﷺ - في زمن نبينا محمد ﷺ، لوجب عليهم إتباعه ومتابعته ومشايعته، وأن يكونوا له ﷺ شيعة ومتبعون فيما يأمر وينهى عنه.

لذا شريعته نسخت جميع الشرائع والسنن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

فدينه الخالد إلى يوم القيامة، فإذا كانت شريعته هي الباقية إلى يوم الميعاد، وهو يجري عليه الموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾^(٢).

وجب في الحكمة أن ينيب إماماً يقوم مقامه، له ما للنبي ﷺ من الولاية والسلطنة والأمر والنهي عدا النبوة.

فلو حضر جميع الأنبياء عدا نبينا محمد ﷺ أيضاً في زمن وصيه ﷺ لوجب عليهم جميعاً أن يتبعوا ويشايعوا وصيه أمير المؤمنين علياً ﷺ، وأن يكونوا من شيعته، ويصلوا خلفه، كما يفعل نبي الله عيسى بن مريم ﷺ إذا خرج مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا له الفداء وعجل الله فرجه، ينزل نبي الله عيسى - علي نبينا وآله وﷺ - ويصلي خلف المهدي القائم ﷺ، ويكون من أنصاره وقواده، كما اتفق عليه المحدثون من العامة والخاصة.



(١) سورة آل عمران، آية (١٩).

(٢) سورة الزمر، آية (٣٠).

وتبع القسم الثاني في الإنكار والعناد بمعرفة وبصيرة أيضاً جماعة، وهم أهل الشمال، الذين ذكرهم الله في كتابه ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِّنْ يَّخْمُورٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾^(١).

• أتباع القسم الثاني

كما ذكر من قبل أنه لما أنكر إبليس الأعظم التوحيد، ونبوة الأنبياء، ووصاية وولاية المعصومين عليهم السلام حسداً وكفراً وعداوة، وحباً للرئاسة والشهرة، لأنهم عاينوا مقام المعصومين النوراني رأى العين، مقام الولاية الكليه الثابته لله تعالى ولنبيه صلى الله عليه وآله، فتحرك الحسد في قلوبهم، وتمنوا هذه الرتبة والمقام العظيم لهم، كما تحدث الحق سبحانه وتعالى عن كفار قريش وتمنيهم مقام النبوة لهم أو لعظمائهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾^(٢).

القريتان مكة والطائف، والرجل هو الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فأجابهم الله جلّ جلاله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾^(٣).

فلما أنكر رئيسهم خلقت النار والسلاسل والأغلال كما ذكر من قبل، وتوعد الباري جلّ جلاله لهم بالعذاب الأليم، قال رئيسهم يارب إنك الحكم العدل الذي لا تجور في الحكم، وأنت تعطي على حسب ما يطلب منك، لأنك خلقت الإختيار وجعلتنا مختارين لطاعتك ومعصيتك، فأعطنا في الدنيا من الأموال والجاه والشهرة والرياسة والذهب والفضة، نتصرف كيف نشاء ونظلم ونظلم الآخريين حتى يتبعونا، مثل أتباع القسم الأول أصحاب اليمن، وإلا كنت جائراً ظالماً والعباد بالله تعالى،

(١) سورة الواقعة، آية (٤١ - ٤٤).

(٢) سورة الزخرف، آية (٣١).

(٣) سورة الزخرف، آية (٣٢).

فأعطاهم الله جلّ جلاله في الدنيا الشهرة والرياسة والجاه والذهب والفضة والحكم والخلافة الفانية في الدنيا، لذا قال تعالى حاكياً عن إبليس الأعظم لما امتنع عن السجود، أي امتنع عن الإذعان لولايه وخلافة آدم ﷺ في الأرض، وحسده على ولايته العظمى، وتشريفه على جميع الخلائق، بأن أمر الله سبحانه جميع العالم آنذاك بالسجود له والخضوع لمقامه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآبِئْتُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمِن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾^(١).

بأن طلب من الله تعالى القوة على اضلال الخلائق كما أعطى سبحانه القوة لهداية الخلائق للأنبياء والأوصياء ﷺ.

وخاطب الجليل سبحانه التابعين الذين أغمضوا عن الحق وعن ذكر الله تعالى بالربوبية والرسالة والولاية لأهل البيت ﷺ، حتى أصابهم مرض العشى، وهو عدم الرؤية في الليل، والليل كناية عن الظلمة التي أحدثها أصحاب الضلال وإبليس الأعظم، وهذا العشى أصابهم بسبب كفرهم ونفاقهم، حيث جعل الله سبحانه وتعالى لكل من التابعين لإبليس شيطاناً مقروناً معه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾^(٢) والشيطان هو إبليس الأعظم، فيكون مع التابع قرين له في النار والعياذ بالله تعالى.

ثم وجه الجليل جلّ جلاله الخطاب إلى أصحاب الكفر، وهم إبليس وأعوانه لما أضلوا بعض الخلق ظناً منهم أنهم يطفنون نور الله تعالى، ويطفنون نور التوحيد والرسالة والولاية، ويظنون أنهم قد أهدوا إلى ما أرادوا من الفتنة وإطفاء الدين، قال

(١) سورة الأعراف آية (١١ - ١٨).

(٢) سورة الزخرف آية (٣٦).

تعالى : ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَدْرُونَ سَبِيلَ اللَّهِ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنكَرَ وَالْمَعْصِيَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢).^(١) أي يصدونهم عن سبيل الله تعالى ، وهو أمير المؤمنين والمعصومون عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢).

روي عن العياشي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال لبريد العجلي : ((تدري ما يعني بصراطي مستقيماً ، قال : قلت : لا ، قال : ولاية علي والأوصياء عليهم السلام ، قال : وتدري ما يعني فاتبعوه ، قال : قلت : لا ، قال : يعني علي بن أبي طالب ، ثم قال عليه السلام ((وتدري ما يعني فتفرق بكم عن سبيله قال : قلت : لا ، قال : يعني سبيل علي عليه السلام)) (٣).

ثم حكى الله سبحانه وتعالى كلام التابعين للمتبوعين يوم القيامة ، لما وقف التابع والمتبوع بين يدي الجبار جل جلاله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آلِ الْيَتِيمِ وَالْيَتِيمَاتِ الَّتِي فِي بُحُونِنَ لَمَّا قَامَ وَعَدَّ الشَّرِيقِينَ فَنَسَّ الْقَرِينَ﴾ (٤).

بعد المشرقين ، أي ما بين المشرق والمغرب ولم أتبعك ، فلما قال التابعون للمتبوعين هذا القول في محضر الرب جل جلاله ، أجابهم سبحانه : ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٥) أي لا ينفعكم الإختصام والندامة في مثل هذا اليوم ، لأنكم وهم سواء في ظلمكم لآل محمد عليهم السلام .

لأنكم أيها التابعون رضيتم وواليتم المتبوعين ، فأنتم وهم سواء في ظلم آل محمد عليهم السلام ، ثم وجه البارئ سبحانه الخطاب بنذيره ورسوله محمد عليه السلام ، في تبليغه وإصراره في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في جميع المواطن في ذلك العالم ، كما كان في

(١) سورة الزخرف آية (٣٧).

(٢) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٣) البحار للشيخ المجلسي ٦٤ / ٣١ ، تفسير الصافي للفيض محسن الكاشاني ١٧١ / ٢ .

(٤) سورة الزخرف ، آية (٣٨).

(٥) سورة الزخرف آية (٣٩).

هذا العالم، بأنه الوصي والخليفة، وهو مع الحق والحق معه، وهو مع القرآن والقرآن معه، وأنه أولى الناس بعده ﷺ: كما في حديث الغدير.

فقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

أي يقول الله سبحانه يا رسولي ويا خيرتي من خلقي، إن وعظك وتبليغك في أمر علي عليه السلام لا ينفع مع هولاء، لأن هولاء صم بكم عمي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

لأن الله سبحانه ختم عليهما بكفرهم وجحودهم، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، يعني يا رسول الله تبليغك وأمرك ونهيك لا يفيد مع هولاء، لأن الحسد والحقد وحُب الدنيا والرئاسة قد أصم آذانهم وأعمى أعينهم وأظلم قلوبهم.

ثم قال سبحانه لرسوله في ذلك العالم: لا تظن يا حبيبي ويا صفوتي أنك إذا مت وأتيت إلى دار الآخرة، أنهم سيتمكنون من تغير ما أردت وعينت، بل نحن منتقمون منهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾^(٤) أو نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ^(٤).

لأن أعمارهم قليلة، ثم إلينا يرجعون فننتقم منهم جميعاً، ثم قال سبحانه لرسوله ﷺ: لا تظن أننا حينما نعطيهم في الدنيا من الرئاسة والجاه والمال والأمر والنهي، أنهم يغلبون الحق، فإن كل هذه الأمور من متاع الدنيا، فإن زائل، قال تعالى: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾^(٥).

(١) سورة الزخرف آية (٤٠).

(٢) سورة الأعراف آية (١٧٩).

(٣) سورة البقرة آية (٧).

(٤) سورة الزخرف آية (٤١ - ٤٢).

(٥) سورة الزخرف، آية (٤٢).

ثم طمأن رسوله ﷺ في ذلك العالم وقال له: لا تظن أن تغيير المبطلين المنكرين لك ولآلك ﷺ، أنهم يطفئون نورك وقرآنك، بل الكتاب والعترة باقيان حتى يردا عليك الحوض، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤) (١).

يعني أن الكتاب والعترة الطاهرة هي ذكر لك يا حبيبي يا محمد إلى يوم القيامة، لا يستطيع أحد من الأولين والآخرين أن يطفأ ذلك الذكر الحسن، والنور المضيء أبد الأبدين.

عموم اتباع القسم الثاني

فهذا القسم وهم أتباع القسم الثاني، أعني إبليس الأعظم، تبعه هذا القسم من الخلائق بمعرفة منهم وبصيرة، وهم أصحاب الشمال الذين ذكرهم الله جلَّ جلاله في كتابه، في قبال أصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٤١) في سُمُورٍ وَحَمِيرٍ (٤٢) وَظِلِّ مَن يَحْمُورٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) (٢) وأتباع هذا القسم ليس محصور في الإنس والجن، بل في جميع الخلائق، كما أن في جميع الخلائق منهم موحدون وغير موحدين، من الحيوان والنبات، والحيوان والجماد، لأن كل الخلائق مكلفة، وهناك روايات كثيرة في أن ولايتهم ﷺ عرضت على السماوات والأرض والجبال، والشجر والحجر والمدر والحيوان والإنس والجنس، وغيرها من الخلائق، كما عرض عليهم جميعاً التوحيد والرسالة، لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام لغلامه قنبر في قصة شراء البطيخة، قال: ((يا قنبر إن الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات والأرض، من الجن والإنس والثمر وغير ذلك، فما قبل منه ولايتنا طاب وطهر وعذب، ومالم يقبل منه خبث وردئ ونتاج)) (٣) قوله عليه السلام وغير ذلك يشمل كل الموجودات أجمع، فقسم آمن وقسم كفر.

(١) سورة الزخرف، آية (٤٤).

(٢) سورة الواقعة، آية (٤١ - ٤٤).

(٣) مستدرک الوسائل للميرزا النوري ١٦ / ٤١٣، الإختصاص للشيخ المفيد ٢٤٩.

الولاية هي الأمانة المعروضة

الولاية هي عبارة عن آثار الربوبية، من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، والحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز، وهي أيضاً عبارة عن إظهار صفات الله جلّ جلاله، الصفات الذاتية من السمع والبصر والقدرة والعلم والحياة والقدم والعدل إلى آخرها، والصفات الفعلية وهي المشيئة والإرادة.

فالولاية هي الأمر الفعلي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) (١)، وهي الأمر المفعولي كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٢).

أمره الفعلي هي عبارة عن المشيئة التي خلق بها كل شيء، وأمره المفعولي هي عبارة عن إنفعال الفعل المعبر عنه بالمصدر الذي فيه معاني الأشياء مطلقاً، فالولاية بجميع أنواعها وشقوقها، وأولها وآخرها، ومبدؤها ومنتهاها هي لله عزّ وجلّ وحده لا شريك له، فهو الولي ولا والي عليه سبحانه لذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ (٣) فهو الخالق الرازق المحيي المميت، السميع البصير والقدير، الحي القيوم العدل، الأول والآخر، والظاهر والباطن، كما أنه هو المريد المشيء، فهو الذي لا راد لقضائه، ولا مانع من عطائه سبحانه سبحانه.

وهذه الولاية هي التي استوى بها الرحمن على عرشه، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٤)، أي الرحمن وهي صفة الرحمانية وهي العدل، بأن أعطى كلّ ذي حق حقه، وساق إلى كل مخلوق رزقه، والعرش هنا المراد به المشيئة، لأن كل شيء وجد بالمشيئة، فلا شيء في عالم الإمكان أعلى من المشيئة، لذا تسمى بالوجود الراجح، أي لا يوجد في الوجود أرجح من وجود المشيئة، فقد البعض يتصور من استواء الحق تعالى على عرشه، بصفة الرحمانية، من صفاته الذاتية، أعني

(١) سورة يس، آية (٨٢).

(٢) سورة النساء، آية (٤٧).

(٣) سورة الكهف، آية (٤٤).

(٤) سورة طه، آية (٥).

أنه يسمع ويبصر ما سواه ويعلم بصفته الذاتية التي هي عينه بمعنى أنه يتجلى بذاته للخلق، فهذا التصور اشتباه صرف.

بل هذا الإستواء على العرش من سمع الخلائق والنظر إليهم والعلم بهم، وخلقهم ورزقهم إلى آخره، إنما ذلك بفعله وأمره الذي أنزجر له العمق الأكبر، والعمق الأكبر هو عبارة عن سواه من عالم الإمكان والتكوين، لأن كل ما سواه مخلوق له سبحانه بفعله جلّ جلاله.

فقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾، أي ظهوره واستوائه على عرشه، إنما ذلك بفعله لا بذاته جلّ جلاله، وإلا يلزم التجسيم والحواية والعزلة والإشارة، كما يقول المجسمة.

إذن السمع الذي يقترن بالمخلوقات هو سمع مخلوق، وكذا البصر الذي يبصر به المخلوقات بصر حادث، وكذا بقية صفاته المقترنة بالمخلوقات، أما سمعه وبصره وعلمه وحياته القديم فلا يدرك، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فولاية الله جلّ جلاله المباشرة لخلقه، كما ذكر هي ولاية حادثة، لأنه لا يباشر الخلائق، والخلائق لا تصل إليه أبداً.

قال مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملائمة كيفياته))^(١).

فحقيقة ذات الله جلّ جلاله لا تدرك ولا تحاط من أشرف المخلوقات محمد وآل محمد عليهم السلام، إلى أسفل الموجودات ما تحت الثرى.

إذن ولاية الله تعالى المباشرة للخلائق والمقترنة بهم هي مخلوقة حادثة بحدوث الخلق، لأنه عز وجل لا يباشر الخلائق ولا يقترن بهم، لأنه ليس كمثله شيء، وهو سبحانه غير خلقه.

وإذا كانت الولاية المقترنة بالخلائق في تدبير أمورهم مخلوقة وجب على من

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

يظهرها من خلقه، لأن الخلق يجانس ويشابه الخلق، مثل تدبير الملائكة الأفلاك والأملك كما قال تعالى ﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾ (١).

والأفضل من الملائكة المؤمن، والأفضل من المؤمن الأنبياء والرسل ﷺ، والأفضل من الأنبياء والرسل سيد الأنبياء والرسل نبينا محمد ﷺ، لذا كان رسول الله محمد ﷺ هو النائب عن الله تعالى في ولايته للخلائق، فالولي على الخلائق أجمع بعد الجليل سبحانه هو رسول الله ﷺ، والنائب عن رسول الله ﷺ بعد وفاته وصيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

وهذه الولاية المقترنة بالخلائق كما ذكرنا مخلوقة، لأنها مباشرة للخلائق، ولما كانت مخلوقة صح اشتراكه تعالى مع غيره من خلقه بإذن الله تعالى، كما يقال للوالد رازق أولاده بإذن الله سبحانه، والحق تعالى هو رازق الخلائق بلا إذن من خلقه، لذا نسب الجليل سبحانه الرزق إلى نفس الخلائق، مع العلم أنه سبحانه هو الرزاق المتين، بقوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لِكُرْهٍ قَيْنَمَا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٢).

قوله تعالى وارضقوهم واضح على نسبة اشتراك صفة الرزق بين الله عز وجل وبين خلقه، إلا أن المخلوقين يرزقون بإذن الله تعالى، أما هو سبحانه هو الرازق بلا إذن مطلقاً، وكذلك نسبة اشتراك الخلق بين الله سبحانه وخلقته، بيد أن خلق المخلوق بإذنه تعالى، كخلق نبي الله عيسى على نبينا آله وعليه السلام بإذنه عز وجل، كما حكى ذلك في كتابه الكريم بقوله ﴿وَإِذْ نَخَلُّ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ (٣) الخالق الحقيقي بلا إذن هو الله عز وجل أما غيره فخلق بإذنه تعالى، ومن الصفات المشتركة الولاية على الخلق كولاية الرجل على زوجته وأولاده، وكولايته على الأيتام، كما قال تعالى

(١) سورة النازعات آية (٥).

(٢) سورة النساء آية (٥).

(٣) سورة المائدة آية (١١٠).

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (١).

وابتلوا اليتامى أي اختبروهم أيها الأولياء إلى حد البلوغ، وإذا كانوا راشدين، يدبرون أمورهم فادفعوا إليهم أموالهم.

لذا جاء في التنزيل بإشتراك هذه الولاية المخلوقة بين الله جل جلاله، ورسوله ﷺ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ الذي تصدق بخاتمه وهو راع، في المسجد بمرى ومسمع من الصحابة.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٢).

وإنما ذكر سبحانه ثبوت الولاية الثابتة له تعالى لنبيه محمد ﷺ دون غيره، لأنه أفضل الكائنات وسيد الأنبياء والمرسلين، وأثبتها بعد نبيه محمد ﷺ، لوصيه وخليفته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، لأنه نفسه ومثاله كما في آية المباهلة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (٣).

فأجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ لما تصدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بخاتمه في المسجد على الفقير، حين منعه الصحابة أن يعطوه الصدقة، وهذه الآية نزلت في السنة العاشرة من الهجرة، في أواخر حياة النبي ﷺ، بعد غدير خم، لتؤكد على أن الولاية الثابتة لله جل جلاله، هي بعينها ثابتة لرسوله ﷺ، والثابتة لرسوله ﷺ هي بعينها ثابتة لوصيه أمير المؤمنين ؑ.

وهذه الولاية هي الأمانة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٤).

(١) سورة النساء آية (٦).

(٢) سورة المائدة آية (٥٥).

(٣) سورة آل عمران آية (٦١).

(٤) سورة الأحزاب آية (٧٢).

والأمانة هي الولاية، والولاية عبارة عن توحيد الله تعالى، والإيمان برسوله ﷺ، والإيمان بولاية أمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء وأبنائها المعصومين ﷺ، لأنه لا يكمل الدين، ولا تتم النعمة إلا بولايتهم ﷺ كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

لذا قال أمير المؤمنين ﷺ لغلامه قنبر في قصة شراء البطيخة، قال: ((يا قنبر إن الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات والأرض، من الجن والإنس والشمس وغير ذلك، فما قبل منه ولايتنا طاب وطهر وعذب، وما لم يقبل منه خبث وردئ ورتن)) (٢).

وذلك لأن ولايتهم روح الأعمال والعبادات، وهي الحسنة التي لا تضر معها سيئة، قال آية الله العظمى الميرزا عبد الرسول الإحفاقي قدس الله نفسه: ((إن الحديث عن الولاية حديث عن البحر المحيط لا ينتهي)).
وفعلاً حديث الولاية حديث عن كل شيء، ثبتنا الله وإياكم على ولايتهم، والبراءة من أعدائهم في الدنيا والآخرة.

(١) سورة المائدة آية (٣).

(٢) مستدرک الوسائل للميرزا النوري ١٦ / ٤١٣، الإختصاص للشيخ المفيد ٢٤٩.

القسم الثالث وهم المستضعفون أقروا لا عن بصيرة ومعرفة، بل عن جهل وعدم إدراك، ولم يعرفوا أنفسهم لمن تبعوا، ومتبوعهم من هو، والحق أيُّ واحد من القسمين، والباطل أيُّ واحد منهما ❁.

❁ القسم الثالث المستضعفون

هذا القسم غير القسمين الأولين، فهذا القسم من الخلائق يسمون بالمستضعفين، حيث إنهم أقروا ببلى أنت ربنا ومحمد نبينا وعلي إمامنا، لكن لا عن بصيرة عن الله جل جلاله، وعن الرسول وعن الولي أمير المؤمنين والمعصومين عليهم السلام، فعندهم الرحمن والشيطان واحد بلا فرق بينهما، وعندهم من قال بلى مثل من قال نعم.

فهذا القسم عندهم المنكرون الجاحدون للربوبية والرسالة والولاية، نفس المؤمنين الموحددين الموالين على السواء، فعندهم المؤمن والكافر واحد، هذا على صواب وذاك على صواب، فهم يصوبون طرف المؤمنين، ويصوبون طرف الكافرين، فعلى المثل: ((مع القوم يا شقري)).

فهذا القسم لم تكتمل عليهم الحجة البالغة، فهم لا يستحقون دخول النار ولا الجنة، لأنهم لم يميزوا بين الحق والباطل في عالم الذر.

فيترك الحكم عليهم حتى ينزلوا إلى عالم الدنيا، حتى يسمعوا كلام الأنبياء والرسل والأوصياء، والصالحين من المؤمنين في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والولاية، فإن تنبهوا وأيقنوا في دار الدنيا الحق من الباطل، واختاروا أحد الطريقتين عن بصيرة، حكم عليهم بما اختاروا من الخير والشر، وإلا أخرجوا إلى يوم القيامة حتى يُلقى عليهم التكليف مرة أخيرة، لأنه في عالم الآخرة تكتمل العقول والقابليات والإستعدادات، فيحكم عليهم بما اختاروا من الإيمان أو الكفر والعياذ بالله تعالى، وسيأتي تنمة لهذا الكلام إن شاء الله فيما بعد.

الحاصل فخلق الله سبحانه طينة القسم الأول وهم الأولون، من أعلى عليين وأصل الجنة، وطينة تابعهم من الطينة المخزونة المكنونة، أنزل من طينة متبوعهم بسبعين مرتبة، في مقام التابعة مثلاً: خلق طينة المتبوعين الأولين من جرم وقرص الشمس، وطينة تابعهم من شعاع الشمس ونورها، ولذا سموا بالشيعة، لأنهم خلقوا من شعاع نور متبوعهم*.

✽ خلق طينة القسم الأول

لما ألقى ربنا سبحانه التكليف في عالم الذر الأول، على لسان نذيره الأول، وهو رسول الله ﷺ، فأول من أجاب داعي ربه هو محمد وآل محمد ﷺ، لذا كانوا السابقين لكل الموجودات لمعرفة الله جلّ جلاله، والإيمان بنبوة نبينا ﷺ، وولاية أمير المؤمنين والمعصومين ﷺ، كما ذكر من قبل، وهنا قد يطرح إشكال وهو.

إشكال

قد البعض يورد إشكال وهو لماذا لم يذكر في التكليف نبوة الأنبياء غير رسول الله محمد ﷺ، وولاية الأوصياء غير أمير المؤمنين والمعصومين ﷺ، فلم يذكر في النبوة إلا رسول الله ﷺ، وفي الإمامة والولاية إلا أمير المؤمنين والصديقة فاطمة والأئمة ﷺ دون غيرهم.

الجواب

أنه لم يذكر الأنبياء والأوصياء السابقون في عالم الذر ذلك لوجود نبينا ﷺ مع أوصيائه ﷺ في عالم الذر، فإذا كان النبي موجوداً مع غيره في عالم واحد، وجب على الجميع إتباعه ومتابعيه، فالأنبياء مع أوصيائهم ﷺ يكونون جميعاً من أمته ﷺ، بل يكونون من شيعته، كما قال تعالى في حق إبراهيم الخليل عليه السلام أنه من شيعة نبي الله نوح ﷺ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) (١).

ورسول الله محمد ﷺ أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين مطلقاً، فإذا كان خليل الله تبارك وتعالى من شيعة رسول الله ﷺ وأوصيائه ؟؟ ﷺ، وهو على قول أفضل الأنبياء والرسل عدا نبينا ﷺ، فكيف ببقية الأنبياء والرسل ﷺ.

طينة محمد وآل محمد ﷺ

فأول ما خلق الله تعالى نور محمد وآل محمد وطينهم ﷺ من أعلى عليين، حيث لا يكون في عالم الإمكان والكون أعلى من نورهم وطينتهم، فهذه الطينة وهذا النور أقرب الموجودات إلى الله تعالى، بحيث لا يوجد مخلوق أقرب إلى الله سبحانه منهم، فهم الذين عند الله جلّ جلاله دائماً.

كما روي عن المفضل بن عمر، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ، بعد ما ذكر الإمام الصادق ﷺ وجودهم قبل الخلائق، قال المفضل: يا سيدي هل بذلك شاهد من كتاب الله؟ قال: ((نعم، هو قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾^(١).

إلى قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾^(٢).

ويحك يا مفضل، أستم تعلمون أن من في السماوات هم الملائكة، ومن في الأرض هم الجان والبشر وكل ذي حركة، فمن الذين فيهم، ومن عنده الذين خرجوا من جملة الملائكة. قال المفضل: من تقول يا مولاي؟ قال: يا مفضل نحن الذين كنا عنده، ولا كون قبلنا ولا حدوث سماء ولا أرض ولا ملك ولا نبي ولا رسول^(٣).

(١) سورة الأنبياء، آية (١٩ - ٢٠).

(٢) سورة الأنبياء، آية (٢٦ - ٢٩).

(٣) الهداية الكبرى للحسين بن حمدان الخصبيني ص ٤٣٣.

فالمعصومون الأربعة عشر محمد وآل محمد عليهم السلام، هم الذين دائماً عنده، فما بعد هذا القرب قرب إلى الله جلّ جلاله، والقريب من الشيء أعرف للشيء من البعيد، وأهل الدار أدري بالذي فيه، فقربهم لله سبحانه ما وراء عبادان قرية، فلا يوجد ثمة قرب أقرب لخالقهم سبحانه وتعالى منهم عليهم السلام.

لذا خلقت طينهم من نور الرب جلّ جلاله، أو من نور ذاته جلّ جلاله كما في بعض الروايات، وليس المعنى أن المعصومين عليهم السلام قطعة اقتطعت من الذات المقدسة والعياذ بالله، حتى يلزم الولادة والتكثير والإنفصال والتغير والحدوث، بل المعنى أن الله سبحانه خلقهم من نور ما قبله ولا بعده نور مثله، نور عظيم عزيز عليه سبحانه، فلشرف هذا النور نسبه إلى نفسه، كما نسب الكعبة والروح إلى نفسه جلّ جلاله تشريفاً للكعبة والروح، قال تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٢)، فالذات المقدسة ليس لها بيت ولا روح، ولكن أضافهما إلى نفسه تشريفاً لهما، كذلك هذا النور نسبه إلى نفسه لشرفه، لذا روي عن جابر بن يزيد الجعفي في حديث الخيط، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: ((يا جابر إن لنا عند الله منزلة ومكاناً رفيعاً، لولا نحن لم يخلق الله أرضاً ولا سماءً ولا جنة ولا ناراً، ولا شمساً ولا قمراً ولا برأً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً ولا رطباً ولا يابساً، ولا حلواً ولا مرأً ولا ماءً ولا نباتاً ولا شجراً، اخترعنا الله من نور ذاته لا يقاس بنا بشر))^(٣).

فقول الإمام الباقر عليه السلام ((اخترعنا الله من نور ذاته)) أي أن الله سبحانه وتعالى خلق ذاتاً عظيمة قريبة منه عارفة به، لا فرق بينهما وبينه في التعريف والتعرف، لا في الحقيقة والذات، أي كما أنه يؤثر فيما سواه لوحده، كذلك هذه الذات تؤثر فيما سواها بإذنه وأمره تعالى، وهذه الذات المخلوقة عبده وخلقه، فتقها ورتقها بيده، و

(١) سورة البقرة، آية (١٢٥).

(٢) سورة الحجر آية (٢٩).

(٣) الحار للشیخ المجلسي ١٢ / ٢٦.

هي المقامات والعلامات التي لا تعطيل لها في كل مكان، كما أشار إليها مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا فداه، في دعاء شهر رجب بقوله: ((ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان، يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها، إلا أنهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك))^(١).

فلشرف هذه الذات المقدسة نسبتها إلى نفسه، والمعصومون عليهم السلام خلقوا من هذه الذات الشريفة، كما قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في الرواية السابقة: ((اخترعنا الله من نور ذاته)).

وهذه الذات أعلى عليين في الخلائق، حيث لا يوجد أعلى من هذه الذات، وجميع ما سواها من المخلوقات هم آثارها وفعلها، لذا سميت أعلى عليين، أي ليس شيء أعلى منها.

لذا روي عن محمد بن خالد الطيالسي، ومحمد بن عيسى بن عبيد، بإسنادهما عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: ((كان الله ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول، فأول ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمداً عليه السلام وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه، لا سماء، ولا أرض، ولا مكان، ولا ليل، ولا نهار، ولا شمس، ولا قمر، يفصل نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس، نسبح الله تعالى ونقدسده، ونحمده ونعبده حق عبادته))^(٢).

قول الإمام محمد الباقر عليه السلام: ((لا معلوم ولا مجهول)) وقوله: ((ولا مكان ولا ليل ولا نهار)).

إشارة إلى أن خلق أنوارهم قبل كل شيء حتى المكان والزمان والمجهول والمعلوم، لأن المجهول شيء مثل المعلوم.

فيدل على أن أنوارهم قبل كل شيء، بل كل شيء، إنما خلق بأنوارهم

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) حلية الأبرار للسيد هاشم البحراني ١ / ١٣ - ١٤، البحار ٢٥ / ١٧.

وفعلهم ﷺ، لذا قال الإمام الباقر عليه السلام بعد هذا الكلام: (ثم بدا الله تعالى أن يخلق المكان فخلقه، وكتب على المكان: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين وصيه، به أيده، وبه نصرته. ثم خلق الله العرش، فكتب على سرادقات العرش مثل ذلك. ثم خلق السماوات، فكتب على أطرافها مثل ذلك، ثم خلق الجنة والنار، فكتب عليهما مثل ذلك، ثم خلق الله الملائكة وأسكنهم السماء، ثم تراءى لهم الله تعالى، وأخذ منهم الميثاق له بربوبيته، ولمحمد ﷺ بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، فاضطربت فرائص الملائكة، فسخط الله تعالى على الملائكة، واحتجب عنهم، فلاذوا بالعرش سبع سنين، يستجيرون الله من سخطه، ويقرون بما أخذ عليهم، ويسألونه الرضا فرضي عنهم بعد ما أقروا بذلك، فأسكنهم بذلك الإقرار السماء، واختصهم لنفسه، واختارهم لعبادته. ثم أمر الله تعالى أنوارنا أن تسبح فسبحنا، فسبحت الملائكة بتسييحنا، ولولا تسبيح أنوارنا ما دروا كيف يسبحون الله، ولا كيف يقدرسونه. ثم إن الله خلق الهواء فكتب عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين وصيه، به أيده، وبه نصرته. ثم الله تعالى خلق الجن، فأسكنهم الهواء، وأخذ الميثاق منهم له بالربوبية، ولمحمد ﷺ بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، فأقر منهم بذلك من أقر، وجحد منهم من جحد، فأول من جحد إبليس لعنه الله، فختم له بالشقاوة وما صار إليه. ثم أمر الله تعالى أنوارنا أن تسبح فسبحت، فسبحوا بتسييحنا، ولولا ذلك ما دروا كيف يسبحون الله. ثم خلق الله الأرض فكتب على أطرافها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين وصيه، به أيده، وبه نصرته، فبذلك يا جابر قامت السماوات بلا عمد، وثبتت الأرض. ثم خلق الله تعالى آدم عليه السلام من أديم الأرض، ونفخ فيه من روحه، ثم أخرج ذريته من صلبه، فأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية، ولمحمد ﷺ بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالولاية، أقر منهم من أقر، وجحد منهم من جحد، فكنا أول من أقر بذلك.

ثم قال لمحمد ﷺ: وعزتي وجلالي وعلو شأني لولاك ولولا علي وعترتكما الهادون والمهديون الراشدون ما خلقت الجنة، ولا النار، ولا المكان، ولا الأرض، ولا السماء، ولا الملائكة، ولا خلقاً يعبدني. يا محمد أنت حبيبي وخليلي

وصفي وخيرتي من خلقي، أحب الخلق إلي، وأول من ابتدأت من خلقي. ثم من بعدك الصديق علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وصيك به أيدتك ونصرتك، وجعلته العروة الوثقى، ونور أوليائي، ومنار الهدى، ثم هؤلاء الهداة المهتدون، من أجلكم ابتدأت خلق ما خلقت، فأنتم خيار خلقي وأحبائي وكلماتي وأسمائي الحسنی، وأسبابي، وآياتي الكبرى، وحتي فيما بيني وبين خلقي، خلقتكم من نور عظمتي، واحتجبت بكم عن من سواكم من خلقي، أستقبل بكم وأسأل بكم، فكل شيء هالك إلا وجهي، وأنتم وجهي، لا تبيدون ولا تهلكون، ولا .

يهلك ولا يبيد من تولاكم، ومن استقبلني بغيركم فقد ضل وهوى، وأنتم خيار خلقي، وحمة سري، وخزان علمي، وسادة أهل السماوات وأهل الأرض^(١).

قوله ﷺ (ثم تراءى لهم الله تعالى) أي ظهر لهم بنوره الحادث وأمره المفعولي الذي ملأ به السماوات والأرض، لا والعياذ بالله تعالى تراءى لهم بذاته لأنه لا يدرك ولا يحاط لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فجميع الموجودات ما خلقوا إلا بأثارهم ﷺ، فلا يوجد في الوجود مثل طينتهم ونورهم ﷺ، لذا طينتهم لا يشاركهم فيها أحد من الخلق مطلقاً.

لذا روي عن محمد بن عيسى، عن محمد بن شعيب، عن عمران بن إسحاق الزعفراني، عن محمد بن مروان، عن أبي عبد الله ﷺ قال: سمعته يقول: ((خلقنا الله من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينه مخزونه مكنونه، من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنا نحن خلقنا نورانيين، لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً))^(٢) فكما أنهم ﷺ ليس لهم نظير ومثل كذلك طينتهم ليس لها مثل في الوجود.

خلق طينة التابعين المؤمنين

لما كان التابعون الشيعة تابعوا القسم الأول وهم محمد وآل محمد ﷺ في

(١) حلية الأبرار - السيد هاشم البحراني - ج ١ / ص ١٤ - ١٦، البحار ٢٥ / ١٧.

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٤٠.

توحيد الله تعالى، والإيمان بنبوة النبي ﷺ، وولاية الأئمة عليهم السلام العامة على جميع الموجودات في ذلك العالم، خلقت طينتهم بلسان ذكرهم، وإجابتهم الإيمان، قال تعالى: ﴿بَلْ أَلْبَسْنَاهُمْ لُكُومًا﴾^(١).

أي فلما ذكروا الإيمان بالتوحيد، والنبوة، والولاية لمحمد وآل محمد عليهم السلام خلقت طينتهم من أعلى عليين من الجنة، من نور المتبوعين محمد وآل محمد عليهم السلام. وهذا الأمر واضح في الشمس وأشعتها، فلما كانت الأشعة متابعة للشمس وحاكبه لها في نورها، خلق نور الأشعة من فاضل أثرها، أثر الشمس وهو الشعاع، والعكس خلقت الظلمة من عكس نور الشمس، وذلك لإبتعاد الظلمة عن الشمس.

روي عن محمد بن عيسى، عن أبي الحجاج قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ((يا أبا الحجاج إن الله خلق محمداً وآل محمد من طينة عليين، وخلق قلوبهم من طينة فوق ذلك، وخلق شيعتنا من طينة دون عليين، وخلق قلوبهم من طينة عليين، فقلوب شيعتنا من أبدان آل محمد))^(٢).

وفي رواية أخرى عن أحمد بن محمد، عن محمد بن خالد، عن أبي نثر قال: حدثني محمد بن إسماعيل، عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((إن الله خلقنا من أعلى عليين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إلينا، لأنها خلقت مما خلقنا، ثم تلا هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عَلَيِّنَ ﴿٧٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿٧٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٨٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣)،^(٤).

معنى الحديثين أن الله سبحانه وتعالى خلق طينة المعصومين عليهم السلام من أعلى عليين في الإمكان، وخلق قلوبهم أي عقولهم أو حقائقهم أعلى من ذلك، لأن حقائقهم

(١) سورة المؤمنون، آية (٧١).

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٣٤.

(٣) سورة المطففين آية (١٨ - ٢١).

(٤) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٣٥.

وعقولهم مقدمة على أبدانهم رتبة، فلما خلقهم سبحانه وتعالى، بقوا دهوراً وأعواماً لا يعلمها إلا خالقهم جل جلاله، وبعد ذلك خلق من شعاعهم وفاضل نورهم، من تابعهم في العلم والعمل والإعتقاد وهم شيعتهم، من دون طينهم ﷺ، أي أنزل من طينهم، وإن كانت تشابههم في الطينة والنورانية، وذلك مثل الشمس وأشعتها، فإن الشمس مقدمة في الوجود على الأشعة، لأنها علة الأشعة، بل لولا الشمس لما وجدت الأشعة، ولكن لما كانت الأشعة تابعة لقرص الشمس وحاكية لها وقريبة منها، خلق الشعاع من فاضل نور الشمس وهو أثرها، فالشعاع هو نورهم، مثل شعاع الشمس هو نورها، إلا أنه مخلوق بنور قرص الشمس، فالشمس إذا كانت صافية في كبد السماء تجد الأشعة في غاية الصفاء، وأما إذا جللها الغيم أو الغبار أو الكوارث الطبيعية، تجد الأشعة تحكي قرص الشمس في قلة النور، وذلك لأن نور الشعاع من قرص الشمس، فليس النور الذي عند الأشعة من نفسها، بل من علتها وهو قرص الشمس.

فكذلك الشيعة يحكون ساداتهم محمداً وآل محمد ﷺ في الفرح والترح، لأنهم خلقوا من فاضل طينتهم، لذا قال الإمام الصادق ﷺ: ((فقلوبهم تهوى إلينا، لأنها خلقت مما خلقنا)).

لذا نجد الموالي الشيعي يتنازل عن كل شيء إلا عن محبة وولاية محمد وآل محمد ﷺ، فلو يعطى الفقير منهم كل ما في الدنيا وخيراتها، من لدن آدم إلى قيام الساعة على أن يترك ولايتهم لن يفعل، وذلك لأن طينتهم خلقت منهم ﷺ.

وهذا الأمر واضح في أشعة الشمس، فإن شعاع الشمس مهما أصابه غبار أو غمام أو كوارث طبيعية، يبقى هو شعاع حاكياً للشمس.

فخلقت الشيعة من طينة متبوعيههم محمد وآل محمد ﷺ، ولكن ليس من نفس الطينة، بل من آثارها وشعاعها، كما ذكر من قبل، فطينة الشيعة التابعين أنزل من طينة المتبوعين محمد وآل محمد ﷺ بسبعين مرتبه، والسبعون مرتبه هي عبارة عن رتبة العلة بالنسب المعلول، فالشمس مقدمة على شعاعها ومعلولها بسبعين مرتبه، أي لا يمكن للمعلول أن يصل إلى رتبة العلة مهما بلغ، وإن كان المعلول خلق بالعلة،

والسبعة عدد يراد به الكمال واللانهاية، بمعنى أنه لا يمكن للتابع أن يدرك المتبوع مهما بلغ.

قال الشيخ أحمد الأحسائي رحمته الله عن علة السبعين خاصة ((وقد أشرنا في تأليفاتنا وجه ذلك العدد، من أن كل شيء فهو مربع الكيفيات مثلث الكيان، لأنه حرارة ورطوبة، وبرودة ويبوسة، وجسم ونفس وروح، فكل شيء جوهر أو موصوف ذو سبعة، فإذا نسب إلى الصفة والعرض الذين في الرتبة الثانية كان سبعين، لأن السبعة في المرتبة الثانية سبعون، والصفة والأثر واحد منها لأنه عرض، ولو كان من نوع موصوفه كان واحداً من عشرة فافهم))^(١).

معنى كلامه أن الجوهر والموصوف يتكون من أمرين هما:

الأمر الأول: الطبائع الأربع وهي الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة.

الأمر الثاني: مثلث الكيان من جسم ونفس وروح.

فالمجموع يكون سبعة هذا بالنسبة إلى الجوهر والموصوف، بما هو جوهر وبما هو موصوف، وإذا نسب الجوهر أو الموصوف إلى أثرهما، وهما العرض بالنسبة إلى الجوهر، والصفة بالنسبة إلى الموصوف، يكون الصفة والعرض أنزل من رتبة الجوهر والموصوف برتبة، والرتبة الثانية للسبعة هي السبعون، وذلك لأن الواحد إلى التسعة رتبة الآحاد، والرتبة الثانية بعد الآحاد هي العشرات، لأن الأعداد بعد الآحاد كلها آثار للآحاد فليس فيها أعداد زائدة على الآحاد، بل تكرارات الآحاد فقط، فلما كان عالم الذر هو أول العولم المقيدة، وهو علة لمن تحته، وذلك لأن العالي علة للسافل مثل الجوهر علة للعرض، والموصوف علة للصفة، فلأجل هذه العلة كان عالم الذر أكبر وأوسع من العالم الذي تحته بسبعين، وإذا نسب عالم الدنيا الذي هو آخر العوالم الألف، كان نسبة عالم الذر إلى عالم الدنيا بسبعين ألف رتبة، لأن العوالم كما نص عليها الإمام محمد الباقر عليه السلام ألف ألف عالم، بقوله لجابر الجعفي: ((لعلك ترى أن الله عز وجل إنما خلق هذا العالم الواحد! أو ترى أن الله عز وجل لم

يخلق بشراً غيركم، ا بلى والله، لقد خلق تبارك وتعالى ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنتم (وأنتم) في آخر تلك العوالم، وأولئك الآدميين^(١).

فخلق طينة شيعة أهل البيت عليهم السلام أنزل بسبعين مرتبة، أي مهما بلغ الشيعة في القرب والعبادة لا يصل إلى حقيقة طينتهم ونورهم، لأنهم علة لما سواهم، والمعلول مهما بلغ لا يمكن له أن يصل إلى علته.

درجات الشيعة

فالتابعون لداعى الله تعالى بالإقرار بالتوحيد، والنبوة، والولاية كثيرون في ذلك العالم، ابتداءً من الأنبياء والمرسلين، عدا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ما تحت الثرى إلى آخر الموجودات، وبالطبع الأنبياء أفضل من غيرهم مطلقاً، والمؤمنون درجات في المعرفة والإيمان والعبادة والمقامات، على عدد رؤس الخلائق، فالأنبياء والرسول صلى الله عليه وآله لهم درجات ومنازل بعضهم أفضل من بعض، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٢).

فإذا كان الأنبياء والرسول صلى الله عليه وآله فيهم تفضيل بعضهم على بعض، فكيف بباقي الخلق من المؤمنين؟ فكل يأخذ نصيبه من العلم والإيمان والمعرفة والدرجة من المتبوعين محمد وآل محمد عليهم السلام على حسبه، فالتابعون على أقسامهم ودرجاتهم ومقاماتهم في السلسلة الطولية والعرضية كلهم في الجنة كما في الحديث القدسي: ((هم للجنة ولا أبالي))^(٣) كل على حسبه ومقامه، وهم للجنة لأنهم حققوا مراد الله جلَّ جلاله من الإيمان بتوحيده، والإيمان بنبوة النبي صلى الله عليه وآله، أنه سيد الأنبياء والمرسلين وولاية أهل بيته عليهم السلام.

(١) الخصال للشيخ الصدوق ٦٥٢، التوحيد للشيخ الصدوق ٢٧٧، البحار للشيخ المجلسي ٨ / ٣٧٥.

(٢) سورة القرة آية (٢٥٣).

(٣) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنی لملاهادي السبزواري ٣٨١.

وخلق في كل من التابع والمتبوع بحسب قابليتهم واستعدادهم نور الإيمان، وشرح قلوبهم للإسلام، وأطلعهم على الحقائق والأسرار، وقال في حقهم خالقهم) هم للجنة ولا أبالي^(١) (وهذا كله لإيمانهم وإطاعتهم وقبولهم أوامر ربهم ونواهيهم، وإلا فليس لله قرابة مع أحد*).

* المتبوع علة للتابع

قول السيد كاظم رضوان الله عليه: ((وخلق في كل من التابع والمتبوع بحسب قابليتهم واستعدادهم نور الإيمان)).

يشير هنا إلى ترتب الموجودات أولاً فأولاً في الوجود، فأول الموجودات مطلقاً هم محمد وآل محمد ﷺ حيث لا أول قبلهم، كما ذكر مراراً وتكراراً فيما سبق، محمد وآل محمد ﷺ هم الموجود المتبوع الذي لا يتبع أحداً من الخلق إلا إلى خالقهم وبارئهم وهو الله جلّ جلاله، وما عداهم من الموجودات من الأنبياء إلى مؤمن الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد، كما في السلسلة الطولية هو متبوع من جهة وتابع من جهة أخرى، إلا الجماد فإنه أو الثرى فإنه تابع لا متبوع، وهو ثفل الوجود، والثفل هو نهاية السراج من الدخان الأسود المتراكم على السقف أو الجدار.

فكل من الأنبياء والمرسلين عدا نبينا محمد ﷺ، لأنه سيدهم وأفضلهم، له رتبة ومقام ونور على حسبه، كما ذكر من قبل في تفضيل الأنبياء والمرسلين بعضهم على بعض، فكل نبي أو رسول له درجة ومقام غير الآخر على حسب إيمانه وتوحيده ومعرفته للتوحيد، ومعرفته بمقام الولاية للرسول محمد ﷺ، ومعرفته لنفسه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والمعصومين ﷺ، وبالخصوص معرفته للولاية المطلقة لمحمد وآل محمد ﷺ، لأن الحق جلّ جلاله لا يعرف ولا يدرك ولا يوصف ولا

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنى لملا هادي السبزواري ١

يجس ولا يمس، ولا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالطريق الوحيد لمعرفة جلاله هي الآيات والمقامات في الكون والإمكان، وأكبر آية تجلى بها الجليل سبحانه للخلق، هم محمد وآل محمد ﷺ، فهم حملت ولاية الله تعالى للخلق، فلا تعرف ولاية الله تعالى إلا بهم وعنهم، قال مولانا الإمام.

علي بن محمد الهادي ﷺ: ((من أراد الله بدأ بكم، ومن وحده قبل عنكم، ومن قصده توجه بكم))^(١).

فالأنبياء والمرسلون عدا نبينا محمد ﷺ تفاضلهم عند الله تعالى، ودرجاتهم في المعرفة والجنان، بسبب إذعانهم ومعرفتهم لولاية الله تعالى، وهم محمد وآل محمد ﷺ.

لذا ذكر مولانا أبو محمد الحسن العسكري ﷺ بخطه مانصه: ((قد سعدنا ذرى الحقائق بأقدام النبوة والولاية، ونورنا سبع طبقات أعلام الفتوى بالهداية، فنحن ليوث الوغى، وغيوث الندى، وطعان العدى، وفينا السيف والقلم في العاجل، ولواء الحمد والحوض في الآجل، وأسباطنا حلفاء الدين، وخلفاء النبيين، ومصاييح الأمم، ومفاتيح الكرم، فالكليم ألبس حلة الإصطفاء، لما عهدنا منه الوفاء، وروح القدس في جنان الصاقورة، ذاق من حدايقنا الباكورة))^(٢).

انظر إلى هذه الكلمات التامات، الساطعات الباهرات، الجاليات للقلوب، والفتاحات للغيوب، وانظر إلى قوله ﷺ: ((فالكليم ألبس حلة الإصطفاء، لما عهدنا منه الوفاء)) أي نبي الله موسى بن عمران صلى الله على نبينا وآله وعليه السلام، ما نال مرتبة الإصطفاء بأن أصبح كليماً لله تعالى، إلا بعد الوفاء والتسليم لمقامات الولاية المطلقة لمحمد وآل محمد ﷺ؟؟، التي ولايتهم للخلق عين ولاية الله تعالى، كما في آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٣).

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٢٦ / ٢٦٥.

(٣) سورة المائدة آسة (٥٥).

فالحق تعالى لم يفرق بين ولايته للخلق، أي الولاية المباشرة للخلائق، بينه وبين رسوله ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام، لذا أتى بحرف العطف الواو المفيد لمطلق الجمع، كما تقول: جاء محمد وعلي، فحرف الواو لا تفيد تقدم محمد على علي في المجيء، بل يمكن أن يتقدم عليه أو يتأخر، وهذا الأمر معروف في اللغة، فإذا كان الأنبياء والمرسلون عليهم السلام يتفاضلون عند الله تعالى بمعرفتهم لولاية الله تعالى العامة المطلقة التي عند المعصومين عليهم السلام، فكيف ببقية الخلائق من مؤمن الإنس والجن والملائكة إلى الجماد، لأن الكل مكلف، فمن لا يكلف لا يوجد، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١).

لذا بلغ ما بلغ سلمان الفارسي حتى أصبح منهم، أي من أهل البيت عليهم السلام، ووصل الدرجة العاشر في الإيمان، وهي أعلى الدرجات، وأصبح محدثاً تحدثه الملائكة، وأصبح بحراً لا تنزفه الدلاء كل ذلك بسبب معرفته للولاية المطلقة للمعصومين عليهم السلام، التي هي ولاية الله جلّ جلاله، وإلا معرفة اللغة والفقه والتفسير تجد كثيراً من الصحابة عندهم ما عند سلمان كحبر الأمة عبد الله بن العباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وغيرهم، فتميز سلمان عنهم بمعرفته لمقامات محمد وآل محمد عليهم السلام.

وهذا القرب إلى الله تعالى من الخلائق بمعرفتهم للولاية ليس فيه قرب نسبي، فسلمان من الفرس في شرق العالم، وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وآله يلتقي معه في جد واحد، وهو عبد المطلب عليه السلام، قال آية الله المقدس الميرزا علي الإحقائي قدس سره ((كأبي لهب عم النبي صلى الله عليه وآله مع قربه الظاهري بعيد عن ابن أخيه بعداً لا يوصف حتى نزل في حقه (تبت يدا أبي لهب) وسلمان المحمدي مع بعده الظاهري قريب منه صلى الله عليه وآله قريباً يأتيه السلام من الحق سبحانه توأماً مع سلام النبي صلى الله عليه وآله ويكون حاملاً لعلم المنايا والبلايا))^(٢) فأين سلمان من أبي لهب، أين الثريا من الشرى، وإلى الله عاقبة الأمور، ثبتنا الله بالقول الثابت، والقدم الراسخ، في مقامات وولاية المعصومين عليهم السلام في الدنيا والآخرة.

(١) سورة الإسراء آية (٤٤).

(٢) الكلمات المحكمات لآية الله الميرزا علي الإحقائي ١٢٠.

وخلق طينة المنكرين، وأعداءه الأولين، من سجين وأسفل السافلين، وخلق فيهم الظلمة، والسواد، والجهالة، وعدم المعرفة، والشيطنة، والحمق، والسفاهة وكل خباثة، كما قال الله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾^(١) وقال أيضاً ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا مِنْهُمْ أَضْلًا﴾^(٢).

• خلق طينة إبليس الأعظم

هذا هو القسم الثاني وهم إبليس وجنوده، فخلقهم عكس خلق طينة محمد وآل محمد ﷺ، فكما أن طينة القسم الأول من عليين والجنان، هذا القسم خلق من سجين وأسفل سافلين، وطينة خبال والعياذ بالله تعالى، فهذا الخلق أعني إبليس وأعوانه، خلق من عكس النور، أي خلق من الظلمة، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَسُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَوْ يَكْدُرِبْنَهَا وَيَزْأَرُ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾^(٣).

فإبليس الأعظم لما قال في عالم الذر: نعم لست برينا، ومحمد ﷺ نبينا، وأمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء وأولادهما المعصومين أولياؤنا وخلفاؤنا، بداعي الحسد، لما رأوا عندهم من آثار الربوبية والولاية المطلقة على جميع الموجودات بأمر الله تعالى، حيث فضلهم على جميع العالمين، واختارهم على جميع العالم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، أي اختار الله سبحانه وتعالى محمداً وآل محمد ﷺ على جميع العالمين على علم منه جلّ جلاله،، فإبليس الأعظم لما رأى هذه المنزلة، وهذا الإختيار من الرب تعالى، ورأى هذه القدرة

(١) سورة البقرة آية (٧).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٩).

(٣) سورة النور، آية (٤٠).

(٤) سورة الدخان، آية (٣٢).

والعلم والمكانة والولاية العظمى، والسلطنة الكبرى عندهم على من سواهم حسدهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾^(١).

فالناس في هذه الآية المباركة هم محمد وآل محمد ﷺ، لذا روي عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن القسم بن محمد، وفضالة بن أيوب، عن أبان بن عثمان، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي عبد الله ﷺ قال: ((يا أبا صالح! نحن الناس المحسودون، وأشار بيده إلى صدره))^(٢).

وروي أيضاً عن الحسين بن محمد بن عامر الأشعري، عن معلى بن محمد قال: حدثني الحسن ابن علي الوشاء، عن أحمد بن عائد، عن ابن أذينة، عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣) فكان جوابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾^(٤) يقولون لأئمة الضلالة والدعاة إلى النار: هؤلاء أهدى من آل محمد سبيلاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ أم لهم نصيبٌ من الملك؟^(٥) - يعني الإمامة والخلافة - ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٦)، نحن الناس الذين عنى الله، والنقير النقطة التي في وسط النواة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٧) نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله أجمعين ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

(١) سورة النساء، آية (٥٤).

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن حسن الصفار ٥٥، البحار ٢٣ / ٢٨٦.

(٣) سورة النساء، آية (٥٩).

(٤) سورة النساء، آية (٥١).

(٥) سورة النساء، آية (٥٢ - ٥٣).

(٦) سورة النساء، آية (٥٣).

(٧) سورة النساء، آية (٥٤).

وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا^(١) يقول: جعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة، فكيف يقرون بها في آل إبراهيم عليه السلام، وينكرونها في آل محمد عليه السلام ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾^(٢) فأنكروا الربوبية والرسالة والولاية حسداً لمحمد وآل محمد عليه السلام، لذا خلقهم الجليل جلّ جلاله على حسب إنكارهم من أسفل سافلين، من سجين من طينة خبال، كما روى عن أحمد بن محمد، عن محمد بن خالد، عن فضالة، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((إنا وشيعتنا خلقنا من طينة واحدة، وخلق عدونا من طينة خبال من حمأ مسنون))^(٤).

وسأل ابن أبي يعفور الإمام الصادق عليه السلام: وما طينة خبال؟، قال: ((صديد يخرج من فروج المومسات))^(٥) وهم الفاجرات.

الحاصل أن الله سبحانه وتعالى خلق إبليس وأعوانه من أصل الظلمة، التي ليس وراءها ظلمة، لأنهم أصل الظلمة والفساد والشر في العالم.

لذا قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في رواية أبي الحجاج المتقدمة: ((وإن خلق عدو آل محمد من طين سجين، وخلق قلوبهم من طين أخبث من ذلك، وخلق شيعتهم من طين سجين، وخلق قلوبهم من طين سجين، فقلوبهم من أبدان أولئك، وكل قلب يحن إلى بدنه))^(٦).

وفي رواية أخرى عن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام . . . إلى أن قال:

(١) سورة النساء، آية (٥٤).

(٢) سورة النساء، آية (٥٥ - ٥٦).

(٣) الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ / ص ٢٠٥، البحار ٢٣ / ٢٩٠.

(٤) بصائر الدرجات لمحمد بن حسن الصفار ٣٥.

(٥) المحاسن لأحمد البرقي ١ / ١٠١.

(٦) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٣٤.

((وخلق عدونا من سجين، وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه، وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إليهم، لأنها خلقت مما خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ (١)(٢).

فلما خلق الله تعالى طينة إبليس من سجين وأسفل سافلين، خلق من إنكارهم وإدبارهم عن أمر ربهم الظلمة، لأن الظلمة ما كانت كذلك، إلا ببعدها عن مصدر النور، فلو أن الظلمة أو الجسم المظلم قرب من النور لاستنار، لكنه اختار الإدبار فكان مظلماً، وأيضاً خلق من إنكارهم الجهل والشيطنة والقتل والفساد والحمق، بل كل شر وخبائة خلق بسببهم، لأن الله جلّ جلاله خلقهم مختارين في فعل الخير والشر، ومن موجبات الاختيار أن يهيئ لهم الرب موجبات وأسباب الشر، حتى يفعلوه بإختيارهم وإلا يلزم الجبر على المعصية، كما أنه في المقابل خلق من آثار القسم الأول محمد وآل محمد ﷺ، العدل والفضل والأخلاق الحسنة، والصلاة والصيام وكل بر وخير.

فبإنكار هؤلاء ختم الله تعالى على سمعهم وأبصارهم، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا فِتْنَةً بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (٤).

لذا ترى الكفار يرون الحق باطلاً والباطل حقاً، والفضيلة رذيلة والرذيلة فضيلة، وأكبر دليل على ذلك المشركون والكفار الذين يرون رسول الله ﷺ ويرون أمير المؤمنين والحسن والحسين ﷺ ويحاربونهم، مع أنهم في غاية الكمال والجمال والحسن والعلم والقدرة والشجاعة والشهامة والرجولة، فما فمن خصلة أو درجة

(١) سورة المطففين، آية (٧ - ٩).

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٣٥.

(٣) سورة البقرة، آية (٧).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٧٩).

كمال إلا وهم متصفون بها ﷺ، فما يمنعهم من حبهم والإنقياد لهم إلا الحسد
وخبث المنشأ والإختيار، فالذي يقبح القمر ليلة كماله وتمامه، يرمى هذا الرجل
بالشدوذ، أو العمى ليس إلا .

بيد أن المعصومين ﷺ أكمل وأجمل من القمر ومن كل جميل، فما الجمال
العالم العلوي والسفلي، الغيب والشهادة، إلا نقطة في البحر المحيط، أمام جمالهم
وكمالهم وأستغفر الله من التحديد .

وخلق تابعي هذا القسم أيضاً من سجين، لكن أنزل من طينة متبوعهم بسبعين مرتبة، فكل ما جرى في المتبوعين يجري في التابعين، لكن بالتبعية، وفي المتبوعين بالأصالة❁.

❁ خلق تابعي إبليس

فالتابعون لإبليس في الإنكار للربوبية والنبوة والولاية خلقوا من سجين وأسفل سافلين، لكن أنزل من طينة المتبوعين وهو إبليس، وهذا الأمر واضح حيث إن المعلول أنزل من العلة بسبعين مرتبة كما ذكرنا من قبل، فكل ما عند المعلول من الظلمة والفساد والسرقة وكل شيء من العلة.

فكل ما جرى في المتبوعين، يجري في التابعين من الإنكار، والختم على القلوب والسمع والبصر، واختيارهم للكفر والشرك بالله تعالى، وغير ذلك من الشرور والعياذ بالله، إلا أن المتبوعين يجري عليهم هذا الأمر بالأصالة لأنهم المؤسسون للكفر، فإبليس هو أول من حسد واستكبر عن السجود لآدم ﷺ، ثم تبعه الأبالسة إلى ما شاء الله تعالى.

لذا حكى الله تعالى عنهم حينما يقول التابعون للحق جلّ جلاله، حينما يرون العذاب والسلاسل والأغلال والنيران، بسبب إبتاعهم لفرعون وهامان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)❁ (١).

نجد في هذه الآية المباركة أن المتبعين هما اثنان، وهما فرعون وهامان، فهما الذين أضلا الأولين والآخرين، كما في هذه الآية بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالذين كفروا جمع عام يشمل الأولين والآخرين، من القرون الأولى إلى قيام يوم الدين، فالمضل لجميع الأمم هما قارون وهامان في عالم الذر الأول، لذا يقول

الكافرون يوم القيامة لله جلّ جلاله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ .

((والذين وأضلانا، ونجعلهما، وليكونا)) كلها ضمائر مثنى يدل على اثنين وهما فرعون الذي ادعى الربوبية من دون الله، وهامان وهو وزيره ومساعدته، في كل شر وفتنه إلى يوم القيامة .

فإذا أمر بالمتبوعين والتابعين إلى النار أجارنا الله تعالى منها، كل منهم يخاصم الآخر، التابع يقول للمتبوع: أنت السبب في دخولي النار، ويقول المتبوع إبليس الأعظم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) (١) .

فيحدث بين التابعين والمتبوعين تنازع وتخاصم وتلاقط في الكلام على شفيع جهنم، فيقول لهم الرب جلّ جلاله : ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) (٢) والوعيد قوله تعالى للمكلفين في عالم الدر وعالم الدنيا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٣) .

ومعنى قوله تعالى (إن الذين كفروا بآيات الله) فأكبر آيات الله سبحانه هم محمد وآل محمد ﷺ، كما في الكافي معنعنا عن أي حمزة سأل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى آية ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) ﴿٤﴾ فقال الإمام الباقر عليه السلام ((هي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه، كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: ما لله عز وجل آية هي أكبر مني، ولا لله نبا أعظم مني)) (٥) .

فيتخاصمون إلى أن يدخلوا النار أجارنا الله تعالى منها حينذاك يختم على

(١) سورة إبراهيم آية (٢٢) .

(٢) سورة ق آية (٢٨) .

(٣) سورة آل عمران آية (٤) .

(٤) سورة النبا آية (١ - ٢) .

(٥) الكافي للشيخ الكليني ١ / ٢٠٧ .

أفواههم وينقلبون كلاباً ، فيناديهم الرب جلّ جلاله : ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾^(١) .

فإذا نزل العذاب عليهم في جهنم يقول التابعون لله جلّ جلاله : يارب آتي المتبوعين ضعف عذابنا ، لأنهم السبب في إغوائنا ، يقول الرب جلّ جلاله : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِبْنَهُمْ لِأَوْلَدِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

فالعذاب النازل على أهل النار أولاً وبالذات على المتبوعين ، لذا عذابهم أشد وأقوى من غيرهم من التابعين ، وأما التابعون فيعذبون بالتبعية والمطاوعة لهم ، أنزل من المتبوعين بسبعين مرتبة كما بين العلة والمعلول كما ذكر من قبل .

فالمتبوعون هو هارون وهامان وإبليس ، فهؤلاء هم المجرمون الحقيقيون في العالم ، فهم أساس المعصية ، فما من قتل أو سرقة أو زنا أو لواط أو حسد أو حقد أو شر إلا منهم ، بل هم أساسه وأصله ، فجميع ما عند الخلائق من المعاصي والشور أصله من المتبوعين ، فلولاهم لما عصي الله تعالى ، ولا قتلت النفس المحترمة ، ولا هتك عرض أحد ، ولا فعل ما فعل من الشرور والعياذ بالله تعالى .

فالتابعون لفرعون في عالم الذر يتبعونه في عالم الدنيا في عبادته من دون الله تعالى ، ويتبعون شره وبدعه ومعاونته في الشرور ، كذلك يوم القيامة يتبعونه والعياذ بالله إلى النار وبئس القرار ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس الورد المرفود﴾^(٣) .

ففي كل جيل وزمن فرعون وإبليس يتبعونهما من دون الله تعالى ، وفرعون هذه الأمة كما قال النبي ﷺ في معركة بدر الكبرى لما شاء الله هزيمة المشركين من قريش

(١) سورة المؤمنون ، آية (١٠٨) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٣٨) .

(٣) سورة هود ، آية (٩٧ - ٩٩) .

((أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصي، فرمى به في وجوه قريش وقال: شامت الوجوه)) فبعث الله ريحاً تضرب وجوه قريش، فكانت الهزيمة، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام))^(١).

حتى في زماننا هناك فرعون يدعو إلى الكفر والفسق والعصيان، كما في بعض دول الكفر، وهناك أيضاً في هذا الزمان أئمة حق يدعون إلى الإيمان والإسلام والتوحيد، بقيادة مولانا صاحب العصر والزمان الحجة الغائب عجل الله فرجه وسهل الله مخرجه، الذي يملأها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ويصلي خلفه نبي الله عيسى بن مريم صلى الله على نبينا وآله وﷺ، إذا خرج أرواحنا فداه.

والقسم الثالث: وهم المستضعفون، فليس لهم حكم من الإيمان والكفر، بل أمرهم معوق إلى نزولهم إلى الدنيا، وقبولهم وإنكارهم، فها هنا يحكم عليهم بالإيمان والكفر، فإن جهلوا هنا أيضاً، تعوق أمرهم إلى يوم القيامة، ويكلفون هناك، ثم يحكم عليهم بالكفر والإيمان.*

• القسم الثالث المستضعفون

هذا هو القسم الثالث الأخير من أقسام الخلائق في عالم الذر، حينما دعاهم الله جلّ جلاله إلى توحيده والإيمان برسوله والإيمان بوليّه علي بن أبي طالب والصديقة فاطمة الزهراء وأولادهما المعصومين عليه السلام، فهذا القسم في عالم الذر لم يعلم ماهو الحق وماهو الباطل وأيها يسلك؟ فلم تقم الحجة عليه بالأمر والنهي، فلا يحكم عليه بإيمان أو كفر في عالم الذر.

فيؤخر الحكم على المستضعفين من الإيمان والكفر إلى نزولهم إلى عالم الدنيا، فإذا نزلوا الدنيا وعرفوا وتيقنوا بالحق من الباطل فيها ونعمت، ويحكم عليهم بأحد الأمرين، وإلا أخرج الحكم عليهم إلى يوم القيامة، لأن يوم القيامة يوم كمال الخلائق، وهو يوم الفصل بين الحق والباطل.

فالمستضعفون هم كما روي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((المستضعفون)) (الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً)) قال: لا يستطيعون حيلة إلى الإيمان ولا يكفرون، الصبيان وأشباه عقول الصبيان من الرجال والنساء))^(١).

وفي رواية أخرى في الكافي، عده من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن ابن رثاب، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن المستضعف،

فقال: ((هو الذي لا يستطيع حيلة، يدافع بها عنه الكفر، ولا يهتدي بها إلى سبيل الإيمان، لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر، قال: والصبيان من كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان))^(١).

فالمستضعفون في كل عصر وكل جيل، حتى أن بعضهم لا يحسن قراءة سورة واحدة من القرآن، ويكاد أنه لا يفقه شيئاً، فالكل عنده على صواب، كما روي في المعاني للشيخ الصدوق قال: حدثنا أبي عليه السلام قال: حدثنا أحمد بن إدريس، عن محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، عن عمر [و] بن إسحاق قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام: ما حد المستضعف الذي ذكره الله عز وجل، قال: ((من لا يحسن سورة من القرآن، وقد خلقه الله عز وجل خلقاً ما ينبغي له أن لا يحسن))^(٢).

فالمستضعفون في بعض الروايات، هم أصحاب الأعراف كما قال تعالى: ﴿إِلَّا السُّتْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(٣).
ثم قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٤).

فعسى في حق العبد التقريب، وفي حق الله تعالى التحقيق، فيعفو عنهم بشفاعه أهل البيت عليهم السلام، كما روي في الحديث ((بأن الله يسكن الأعراف طائفة من الخلق لم يستحقوا بأعمالهم الحسنة الثواب من غير عقاب، ولا استحقوا في النار، وهم المرجوون لأمر الله، ولهم الشفاعة، ولا يزالون على الأعراف حتى يؤذن لهم في دخول الجنة بشفاعه النبي وأمير المؤمنين والأئمة من بعده عليهم السلام))^(٥).

(١) الكافي للشيخ الكليني ٢ / ٤٠٤.

(٢) معاني الأخبار للشيخ الصدوق ٢٠١.

(٣) سورة النساء، آية (٩٨).

(٤) سورة النساء، آية (٩٩).

(٥) البحار للشيخ المجلسي ٨ / ٣٤١، تصحيح إعتقادات الإمامية للشيخ المفيد ١٠٧.

فالأعراف كما في رواية بريد العجلي، عن الإمام الباقر عليه السلام، حينما سأله:
(قلت فما الأعراف؟، قال: صراط بين الجنة والنار^(١))).

وللأعراف والمستضعفون معاني أخرى، مروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، تركناها
خوفاً من التطويل، ويأتي معنى آخر للأعراف يأتي الكلام عليه ضمن الشرح إن شاء
الله تعالى.

فخلق في هذا العالم وهو عالم الشهادة الخلق ثانياً، ووجد تكليفهم حتى يظهر إيمان الذين آمنوا في عالم الذر، وكفر من كفر فيه، كما قال الله سبحانه ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

✽ جدد الخلق في عالم الشهادة

أول عوالم التقييد هو عالم العقول، عالم الجبروت، وعالم المعاني، وهو عالم الذر الأول، ثم عالم الأرواح، عالم الرقائق وهو عالم الذر الثاني، ثم عالم النفوس، عالم الصور والنقوش والتمايز، عكس عالم العقول، وهو عالم الذر الثالث، إلى آخر العوالم وأكثرها وأغلظها وأسفلها، وهو عالم الشهادة، وهو هذا العالم المسمى بعالم الناسوت، عالم الدنيا، وسُمي بعالم الدنيا لدنوه بالنسبة للعوالم، فهو نهاية قوس النزول وبداية قوس الصعود لكل الموجودات أجمع.

وفي كل عالم من العوالم يأخذ الله تبارك وتعالى الميثاق، من الخلائق بالتوحيد له جلّ جلاله، وبالإيمان بالنبوة والرسالة لنبيه محمد ﷺ، وبالولاية والخلافة لوصيه أمير المؤمنين والمعصومين عليهم السلام.

وفي كل عالم يخلقون ثم يكسرون لعالم آخر، وفي العالم الآخر يخلقون ثم يكسرون لعالم ثالث وهكذا، إلى أن يصلوا إلى عالم الدنيا يخلقون من مني يمنى، ويلقى عليهم التكليف عبر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ثم يكسرون بالموت، ثم يخلقون إلى عالم البرزخ والآخرة، إلى أن يصلوا إلى مامنه بدؤا، وهو عالم العقول، ثم عالم الفؤاد وهو أعلى المشاعر والمدارك، فهو نهاية قوس الصعود وهي إما النعيم أو الجحيم أجارنا الله تعالى منها.

فالمؤمنون يصعدون إلى مامنه بدؤا وهو الجنة وعليين، والكافرون ينزلون إلى مامنه بدؤا وهو سجين والنار والعياذ بالله تعالى، وتكرار الخلق والكسر في كل عالم

(١) سورة الأعراف، آية (٩٩).

إلى عالم، وتكرار أيضاً أخذ الميثاق من عالم إلى عالم، إنما ذلك للتوكيد وإتمام الحجة على الخلائق، كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١).

وللإمام المصلح آية الله الميرزا حسن الإحقاقي قدس الله نفسه الطاهرة يقول: ((إن في عالم الذر القبول للتكليف والإنكار له بالإعتقاد دون العمل، وأما في الدنيا فالقبول والإنكار بالإعتقاد والعمل معاً)).

فجميع العوالم السابقة على عالم الدنيا، قبولهم للتكليف من التوحيد والإيمان بالرسالة والولاية للمعصومين عليهم السلام، إنما ذلك بالإعتقاد والإيمان بالقلب فقط، من إيمان أو كفر.

فلم يجز منهم عمل يوافق إعتقادهم من الإيمان والكفر في عالم الذر، فلو أدخل المؤمن الجنة بلا عمل، أو الكافر النار بلا عمل، إعتقاداً على نواياهم القلبية، لكان ظلماً والعياذ بالله تعالى.

لذا أنزلهم سبحانه وتعالى إلى الدنيا ليوافق الإعتقاد والنوايا العمل من الإيمان، أو الكفر، كما ذكر آية الله الإمام المصلح الميرزا حسن الإحقاقي رحمته الله.

فالمعتقد هناك بالكفر والشرك والجحود للربوبية والرسالة والولاية هنا في عالم الدنيا يترجم إعتقاده بالعمل، فالمكذب هناك بالقلب هنا في عالم الدنيا يكذب أيضاً بالقلب مع العمل، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٢).

والمعتقد هناك بالإيمان بالله والرسول والولاية للمعصومين عليهم السلام، هنا في عالم الدنيا يؤمن بقلبه ويترجمه بعمله، بحيث لو يقطع إرباً إرباً لما كفر، وكذا العكس.

قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن الكوا: ((ألم أقل لك يا ابن الكواء أن لنا محبين لو قطعناهم إرباً إرباً ما أزدادوا لنا إلا حُباً، ولنا مبغضين لو ألقناهم العسل ما أزدادوا

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

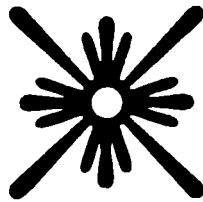
(٢) سورة الأعراف آية (٩٩).

لنا إلا بغضاً، وهكذا من يحبنا ينال شفاعتنا يوم القيامة))^(١) ومن ذلك ما روي في قصة.

قصة العبد الأسود

ومن ذلك ما روي عن السيد الرضي في المناقب الفاخرة: عن أبي معاوية الضرير، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباته، قال: مررت برجل أسود مقطوع اليد، فسلمت عليه وقلت له: ((من قطعك؟)) فقال: أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، ووصي محمد رسول رب العالمين، فقلت له: قطعك وأنت تمدحه بمثل هذا المدح!، فقال: يا أصبغ إن علياً لم يقطعني إلا بحق، ولم يظلمني، قال أصبغ: فأتيت أمير المؤمنين - عليه السلام - فأخبرته بمقالة الأسود، فتبسم وقال: يا أصبغ أما علمت أن لنا محبين لو سمرنا أعينهم بالمسامير، وقرضنا لحومهم بالمقاريض، ونشرناهم بالمناشير، ما أزدادوا لنا إلا حباً))^(٢).

فالكافر في عالم الذر كافر هنا، والمؤمن هناك مؤمن هنا، وخلق الله جلّ جلاله الخلائق مرة أخرى في عالم الدنيا، ليطابق العلم العمل، حتى يحيى من حيى عن بينة، ويموت من مات عن بينة.



(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٢ / ١٦٠، البحار للشيخ المجلسي ٣٤ / ٢٦٨.

(٢) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ٢ / ٧١.

فما ذكرنا كله، حقيقة بيان هذه المراتب المذكورة، على ما بينه لنا أئمتنا صلوات الله عليهم، وكتب الأخبار مشحونة بذلك مفصلاً، ونحن اختصرناه خوفاً من التطويل، ويجب على العام والخاص الإعتقاد والإيمان بما ذكرناه❁.

ولما كان لكل ظاهر باطن، وكل قشر لب، وكل صورة ولفظ معنى، أردت أن أشير إلى بعض بواطن هذه الظواهر، المستنبطة من أنوار آثار أهل بيت العصمة والطهارة، بحيث لا تكون مخالفة للظواهر، حتى ينتفع منه الخواص من أهل العلم والمعرفة، ويكون لهم أيضاً حظ وافر من هذا المختصر، ويكون مطلوباً للقسمين العام والخاص❁❁.

❁ الأخبار مشحونة بذكر عالم الذر

إن أخبار المعصومين عليهم السلام مشحونة متواترة لفظاً ومعنى في ذكر عالم الذر وعرض التكليف، واختلاف الخلائق من مقرر أو منكر، من أراد الإستزادة في ذلك، فليراجع كتاب (بحار الأنوار) للشيخ محمد باقر المجلسي، وكتاب (الكافي) للشيخ محمد الكليني رضوان الله عليهما، وبقية كتب الأحاديث من الشيخ المفيد، والشيخ الصدوق وغيرهم، فالمهم على المكلف الإعتقاد بوجود عالم الذر، والإعتقاد بعرض التكليف في جميع العوالم إجمالاً، وأما التفصيل فغير ملزم.

❁❁ بيان المؤلف بعض البواطن

هنا السيد كاظم الرشتي رضوان الله عليه يريد أن يشير إلى بعض بواطن عالم الذر والتكليف، وبعض رموز الخليفة مما يوافق الشرع، وهو رضوان الله عليه كعادته في أغلب كتبه الحكمة، دائماً يشير إلى الظاهر ثم يعرج إلى الباطن الموافق للظاهر، ليستفيد أهل الظاهر بالظاهر، وأهل الباطن بالباطن، وعلى الله تعالى قصد السبيل.

الفصل السابع [الماهيات مخلوقة]

لما أثبتنا أن الله لم يجبر الخلق في خلقهم، بل إنما خلقهم بمقتضى قابلياتهم، فنقول حينئذ: إن هذه القابليات التي يعبر عنها مرة بالحقائق، ومرة بالماهيات ❁.

❁ خلق الخلق بمقتضى قابلياتهم

تقدم الكلام من قبل أن الله جلّ جلاله لم يجبر الخلائق في تكوينهم إلى أي نوع من أنواع الموجودات يكونون، من مراتب السلسلة الطولية من الأنبياء والمؤمنين والملائكة والجن والإنس والحيوان والنبات والجماد والسماء والأرض والجبل والحجر والشجر والشمس والقمر والنجوم والشيطان والليل والنهار، إلى آخر مراتب الموجودات التي لا يحصى عددهم إلا الله جلّ جلاله.

فتكوين وخلق الموجود بحصه خاصة له، تميزه عن غيره، مثل علي الإنسان الذي يمتاز عن أفراد الإنس بصفاته الخاصة وكمالاته المميزة عن غيره، بصرف النظر عن تميزه عن بقية أفراد السلسلة الطولية من الملك والجن والحيوان والنبات والجماد... الخ.

فخلق الله تعالى علياً الإنسان، وميّزه عن غيره من أبناء جنسه، من الإنس ومن بقية الموجودات، إنما ذلك بإختياره وطلبه.

فكما أنه خلق الله جلّ جلاله تكوين الخلائق بإختيارهم، كذلك خلق أفعالهم من

الخير والشر باختيارهم، فأيجاد الله تعالى الخلائق بإختيارهم، يعني بطلبهم بأي كيفية يكونون في التكوين، وأي نوع يصنفون، وأي قابلية وماهية طلبوا.

ما هي الماهيات؟

الماهيات جمع ماهية، والماهية هي حقيقة الشيء، وهي مصدر صناعي عن ماهو؟ أي ما هو هذا الشيء المجهول عندي، فلو رأيت شبحاً من بعيد، وأنت لا تعرف ما هذا الشبح!! .

هل هذا شجرة أو إنسان أو حيوان أو تل مرتفع، أو أي شيء، فتقول ما هذا؟ أي ما ماهية هذا الشيء، بمعنى ما حقيقة هذا الشيء، هل هو إنسان أو شجر أو تل أو أي شيء هذا؟

فالماهية هي حقيقة ذلك الشيء، التي تميزه عن غيره من أنواع الموجودات، سواء في التكوين كما في السلسلة الطولية أو في التشريع في الإيمان والكفر. حيث إن الماهية هي التي تخصص الموجود في تكوينه وتشريعه، مثل علي المؤمن، فإن ماهيته تميز تكوينه، وأيضاً تميز إيمانه بأي درجة، ومقامه الذاتي الروحي.

ومثل ذلك زيد الكافر، فإن ماهيته تميز تكوينه من الإنس، وتميز كفره في أي درجه؟ وفي أي رتبة من جهنم؟ وإذا أدخل النار تطفى حقيقته التشريعية على التكوينية، بحيث يتحول في النار إلى حقيقته التشريعية، من الكفر على حسب عمله الشيطاني، فيتحول إلى قرد أو دب أو كلب أو حية، إلى ما شاء من صور المعصية.

وأما صورته الظاهرية من الإنسانية فتسلب منه، لأن صورته الحقيقية في عالم الذر بسبب إقراره ظاهراً للدين وكفره باطناً، مثل المنافقين آمنوا بظواهرهم ليحققوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم، عكس المؤمن يدخل بصورة الإنسانية، فلا يدخل أحد الجنة أو النار إلا بحقيقته الأصلية من الإيمان والكفر والعياذ بالله تعالى.

فالماهيات هي التي تميز الموجودات بعضها عن بعض، في الطول وفي العرض، فكل مخلوق من الموجودات له ماهية خاصة به، لا يشاركه فيها غيره، وهذه الماهيات تسمى بالحقائق.

ما هي الحقائق؟

الحقائق جمع حقيقة، والحقيقة أصل الشيء وعنصره، كما تشير إلى المعادن، فنقول هذا المعدن حقيقته ذهب، وهذا حقيقته فضة، وهذا حقيقته بلاتين... الخ.

قال رسول الله ﷺ: ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة))^(١).

فحقيقة الشيء مثل باقر الإنسان، تخص باقراً خاصة من ظاهره وباطنه من الخير والشر، فتارة تطلق الحقيقة على ظاهر الإنسان باقر فيقال هذا الرجل باقر كريم الطبع مثلاً... إلى آخره.

وتارة تطلق الحقيقة على باطنه بالنسبة لإيمانه أو كفره، وإن كان ظاهره عكس باطنه مثل الكفار والمنافقين، ظاهرهم إنسان وباطنهم حيوان، لذا الجليل سبحانه عرف بعض الإنسان بأنه حيوان مطابقة لباطنه كما قال تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢).

فحقيقة الشيء غير صورته الظاهرية، فبين الحقيقة والصورة الظاهرية عموم وخصوص من وجه، فبعض الحقيقة لا تنطبق على الصورة الظاهرية، كما في الوجه الحسن الجميل عند الكفار، حيث إن حقيقته خبيثة شيطانية، لذا قال تعالى في التأويل: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾^(٣).

فصورتهم حسنة وباطنهم لأهل المكاشفة والتوسم خبيث، بحيث تهرب من قبحهم، ويصيبك رعب من بشاعتهم، وهول صورتهم الحقيقية الحيوانية الشيطانية.

وكذا بعض المؤمنين، ظاهرهم صورته بشعة غير حسنة في الظاهر، وباطنهم في غاية الحسن والجمال، مثل لقمان الحكيم عليه السلام، فإنه عبد أسود خشن الشعر، ليس له حسب ونسب عالي في الظاهر، بيد أنه ولي من أولياء الله تعالى، ومعلم الأنبياء، روي في تفسير علي بن إبراهيم، أبي، عن القاسم بن محمد، عن المنقري، عن

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤ / ٣٨٠، البحار ٥٨ / ٦٥.

(٢) سورة الفرقان آية (٤٤).

(٣) سورة الكهف آية (١٨).

حماد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل، فقال: ((أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل، ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورعاً في الله، ساكتاً، سكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر))^(١).

إلى أن قال عليه السلام: ((وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه...))^(٢).

وكذا حال بعض المؤمنين ظاهرهم غير حسن الصورة، وباطنهم أجمل من يوسف الصديق صلى الله على نبينا وآله وعليه السلام.

وأما إجتماع الحسن الظاهر والباطن معاً للصورة والماهية الحقيقية، ففي الأنبياء والرسل عليهم السلام، وبالخصوص محمد وآل محمد عليهم السلام، بحيث لو ظهروا للناس بصورتهم وجمالهم الظاهري الحقيقي دون الباطن، لمات الناس شوقاً إليهم سلام الله عليهم، لأن جسداهم الدنياوي في هذا العالم ألطف من أهل الجنة في الجنة يوم القيامة.

وقد يقول قائل: إن جسداهم من هذا العالم، فكيف يكونون من ألطف أهل الجنة في الجنة الخلد؟

الجواب .

نعم جسداهم الدنياوي المبارك مكون من العناصر الأربعة من عالم الدنيا، وهي الهواء والماء والتراب والنار، ولكن هذه العناصر إذا اتصلت بهم عليهم السلام اضمحلت فيهم كأنها لم تكن، وذلك مثال لو ألقيت قبضة تراب في البحر المحيط لاستهلكت وفنت القبضة، وكأنك لم تلق شيئاً أصلاً، لذا أجسادهم الدنيوية المباركة لا ظل لها قبال الشمس، وذلك لغلبة أنوارهم على عناصر هذا العالم.

(١) البحا للشيخ المجلسي ١٣ / ٤٠٩ .

(٢) البحار للشيخ المجلسي ١٣ / ٤١١ .

هل هي موجودة غير مجعولة؟ أي قديمة غير مخلوقة، تطلب من الله سبحانه ما هو ذاتيها من الشقاوة والسعادة، ويفيض الله عليها الوجود، أو هي مجعولة أي مخلوقة حادثة؟ ❁.

❁ الإختلاف في خلق الماهية

قبل البدء في الكلام، نقدم مقدمة ليتضح المعنى واضحاً للجميع وهي:
إن كل موجود ما سوى الله جلّ جلاله مكون من وجود وماهية، الوجود وهو عبارة عن المادة الكلية، أو على الإصطلاح العام المادة الخام، التي يعمل ويشترك منها جميع المفعولات، مثل مادة الخشب الخام، فإنها يعمل منها الأبواب والنوافذ والسرر والكراسي والطاولات... الخ.
فالمادة الخام هي مادة الوجود لجميع المذكورات، فالوجود هو المادة الكلية المتصنع منه كل شيء ما سوى الحق جلّ جلاله.
وأما الماهية فكما ذكرنا من قبل، هي المشخصه والمميزة للوجود، أي للمادة الخام، في أي نوع من أنواع الوجود يكون هذا الشيء؟
مثلاً الوجود مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد وغيره، فالوجود ينطبق على هذه المصاديق، والإختلاف بالماهيات من المخلوقات الأخرى.
مثلاً شعاع المصباح المكون للأشعة، فالأشعة كلما قربت من المصباح أزداد نورها، وكلما بعدت عنه ضعف نورها على حسب قربها وبعدها، وفي كل الأحوال الأشعة القريبة المنيرة جداً، والمتوسطة الأقل إنارة، والبعيدة القليلة الإنارة، مادة نورها من المصباح.

فالمشخص للنور في القرب والبعده والتوسط هي الماهية، أي ماهية الشعاع بالنسبة للقرب والبعده، فماهية الموجودات هي المشخصة لهم، سواء في الطول كما في السلسلة الطولية من الإنس والجن والملك والحيوان والنبات والجماد، أو في العرض كما في رتبة الإنسان، فبين عبد الله ومحمد وعلي وجاسم وجعفر له ماهية

غير الآخر، وكذا في الملك والجن والحيوان والنبات، فالأسد والنمر.
والخيل والغنم، الكل حيوان ولكن ماهية الأسد غير النمر، وهو غير الغنم،
وهو غير الخيل، وهكذا في بقية المراتب.

أصل البحث.

فالاختلاف بين الفلاسفة وأهل العرفان في الماهية، أي المميز للوجود في الطول
أو العرض، هل هي مخلوقة بخلق مستقل مثل خلق الوجود؟
يعني هل أن الله خلق الماهية بخلق مستقل مثل ما خلق الوجود بخلق مستقل؟ أم
أن الماهية غير مخلوقة، يعني الله جلّ جلاله لم يخلق الماهية بخلق مستقل، بل
وجدت بوجود الوجود، لكونها تابعة له، لأنه لا يمكن تصور الوجود إلا بالماهية،
سواء في الخارج أو في الذهن.

فبعض الفلاسفة قال: الماهية لا يمكن أن نقول إنها موجودة، ولا أنها غير
موجودة، كما ذهب إلى هذا الرأي كبار فلاسفة المعاصرين، وهو العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي رحمته الله، حيث قال في بداية الحكمة: ((الماهية من حيث هي
ليست إلا هي، لا موجودة ولا معدومة، ولا شيء آخر))^(١).

والقول بأن الماهية لا موجودة ولا معدومة، أخذوه من إمام المشككين الفخر
الرازي من علماء العامة، المخالف لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

قال بعض الفلاسفة ((ولقد أصاب الإمام الرازي حيث قال: إن القول بكون
الماهيات غير مجعولة، من فروع مسألة الماهية المطلقة، وإنها في أنفسها غير
موجودة ولا معدومة))^(٢).

وقال ملا هادي السبزواري: ((ولقد جرى الحق على لسان الفخر الرازي في
هذا المقام حيث قال الحق، إن مسألة عدم مجعولية المهية من متفرعات مسألة المهية

(١) بداية الحكمة للسيد محمد حسين الطباطبائي ٦٢.

(٢) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة لصدر الدين محمد الشيرازي ٢ / ١٠١.

من حيث هي ليست إلا هي، فكما أنها بذاتها لا موجودة ولا معدومة، كذلك لا
مجمولة ولا لا مجمولة^(١).

فهؤلاء الفلاسفة عندهم أن الماهيات أي حقائق الأشياء غير مخلوقة لله جلّ
جلاله، حيث أبان هذا الأمر واضحاً بعضهم بقوله: ((إن الماهيات غير مجمولة ولا
متأثرة، لا بالجعل البسيط، ولا بالجعل المؤلف كما ستطلع عليه))^(٢).

فهذا الفيلسوف يقطع بأن الباري جلّ جلاله لم يخلق الماهية، فالجعل البسيط
عندهم خلق الوجود، والجعل المؤلف يعنون به أن الماهية ما خلقت ووجدت
بنفسها، بل بوجود الوجود، وقد خالفهم الشيخ أحمد الأحسائي، وقال إنه لا يوجد
إلا جعل واحد وهو أمر الله، حيث قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٣).

أي خلق الوجود على حدة، وخلق الماهية على حدة كما سيأتي الكلام عليه،
وإذا لم تكن الماهية مخلوقة تكون قديمة والعياذ بالله، لأن الوجود لا يخلو من حق
أو خلق، والقول بقديم الماهية أمر مشكل والعياذ بالله تعالى، لأن الماهية إذا لم تكن
حادثه مخلوقة، تكون قديمة والقديم هو إله من دون الله تعالى.

والقول بوجود إله غير الله سبحانه وتعالى مخالف لأبجديات وضرورات الدين،
الذي لا يدخل في الإسلام إلا بها، وهو شهادة أن لا إله إلا الله تعالى عما يقولون
علواً كبيراً.

فالقول بعدم خلق الماهيات مأخوذ من حكماء اليونان وفلاسفة المخالفين،
كمحيي الدين بن عربي، وإمام المشككين الفخر الرازي، ومن المؤسف أن أغلب
فلاسفة المسلمين المتقدمين والمتأخرين اتبعوا فلاسفة اليونان وفلاسفة المخالفين
لمذهب أهل البيت عليهم السلام وكتبهم شاهدة عليهم.

(١) شرح الأسماء الحسنی للملا هادي السيزواري ١ / ٧٤.

(٢) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي ٢ / ١٠١.

(٣) سورة القمر، آية (٥٠).

رأي الشرع في الماهية

فلم يقل أحد من الفلاسفة بخلق الماهية بخلق مستقل مثل خلق الوجود، إلا الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (رضوان الله عليه) صاحب مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث إنه أتبع أئمة سلام الله عليهم في خلق الماهية.

كما روي الشيخ المجلسي في البحار، عن روضة الواعظين، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال له رجل: أين المعبود؟، فقال عليه السلام: ((لا يقال له أين لأنه أين الأينية، ولا يقال له كيف لأنه كيف الكيفية، ولا يقال له ماهو، لأنه خلق الماهية، سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته))^(١).

انظر إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام: ((لأنه خلق الماهية)) نص واضح، ومعنى لائح على خلق الماهية، أي كما خلق الله تبارك وتعالى الوجود خلق الماهية.

والماهيات عندهم التي لم يخلقها الله تعالى على زعمهم تشمل الشر والعدم والموت، والليل وكل شيء يقابل وجود الشيء، من العمى والصمم والجهل وكل نقص، فهو عندهم غير مخلوق، كما يذكر هذا الأمر بعض الفلاسفة المعاصرين بقوله: ((أضف إلى ذلك أن الجعل (الخلق) لا يتعلق بغير الوجود، وهو نفس الخير والسعادة، وأما الاعدام والنقائص فلا يتعلق بها الجعل (الخلق) لعدم القابلية))^(٢).

وقوله: ((وأما الاعدام والنقائص)) يقصدون العدم من كل شيء، من عدم السمع والبصر والقوة والعلم، فعدم كل شيء عندهم غير مخلوق، بل كل نقص من كل شيء فهو أيضاً غير مخلوق لله جلّ بي عن ذلك.

رأي الكتاب في الماهية

أما رأي الكتاب القرآن الكريم فهو مملوء بالإعتقاد بأن الله سبحانه خالق

(١) البحار للشيخ المجلسي ٣ / ٢٩٧، روضة الواعظين للفتال النيسابوري ٣ / ٢٩٧.

(٢) لب الأثر في الجبر والقدر، للشيخ جعفر السبحاني ٦٢ - ٦٣.

الماهية، كما أنه خالق الوجود، منه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١).

فشيء نكره أنت بعد كل، والنكرة بعد كل تفيد العموم، ولا شك أن الماهيات شيء من الأشياء، فهي داخلة في العموم، والعموم مخلوق، ومن قال أنها غير شيء، فكيف يقع الكلام على اللاشيء، فهذه الآية عامة على خلق كل شيء، والماهية يقع الكلام عليها فهي شيء.

وعند هؤلاء أن الموت والليل من الأضداد من لوازم الماهية، وهي غير مخلوقة، والله تعالى يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

فبدأ سبحانه بذكر خلق الموت قبل الحياة، أي بدأ خلق الماهية الليل قبل خلق النهار، الذي هو الوجود، وهذه الآية صريحة في خلق الماهية.

وأيضاً هذه الآية المباركة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣) وفي هذه الآية أيضاً قدم خلق الماهية على الوجود، بتقديم خلق الليل الذي هو من مقتضيات الماهية على النهار الذي هو من مقتضيات الوجود، وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (٤).

المعروف أن الظل هو انعكاس الشاخص بالشمس، مثلاً ظل عبد الله في الشمس هو عبارة عن عكسه وهيئته، فلا يكون الظل في الظاهر إلا بالشمس أو النور، فلولا الشمس لما كان ظل.

ولكن هذا لا يعني أن الظل غير مخلوق بخلق مستقل، بل كما أن الشمس ونورها مخلوقان، كذلك الظل الصادر بالنور أيضاً هو مخلوق، بدليل قوله تعالى:

(١) سورة الأنعام آية (١٠٢).

(٢) سورة الملك، آية (٢).

(٣) سورة الأنبياء، آية (٣٣).

(٤) سورة الفرقان آية (٤٥).

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي ولو شاء الله سبحانه لجعل الظل، أي خلقه ساكناً، يعني بدون وجود الشمس لتدل عليه، ولكن سبحانه جرى في العادة والطبع أن الظل الدال عليه هي الشمس، بحيث لو غابت الشمس اختفى الظل، لذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي الشمس دليل على وجوده للناس، وأما في الواقع فهو موجود ومخلوق له سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٤٦) أي نقبض الظل شيئاً فشيئاً حتى ما تغيب الشمس، والقبض لا يكون إلا في الوجود، وأما المعدوم فلا يمكن قبضه، وهذا واضح بين.

رأي السنة في الماهية

وأما من طرق أحاديث المعصومين عليهم السلام فكثير أيضاً، منها:

الحديث الأول لخلق الماهية

ما روينا من قبل عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف التوحيد بقوله: ((ولا يقال له ما هو، لأنه خلق الماهية)) (٢).

وهذه الرواية صريحة وواضحة وناصية على أن الله سبحانه خلق الماهية بلا شك وتأيل.

الحديث الثاني لخلق الماهية

فالنفي عندهم من موارد الماهية لأنها ضد الإثبات، فالإثبات عندهم الوجود، والماهية النفي، لذا قالوا بأن النفي غير شيء، وقالوا إنه غير مخلوق، وهذا مخالف لما روى عن حمدويه، عن محمد بن عيسى، عن جعفر بن عيسى، عن علي بن يونس بن بهمن قال: قلت للرضا عليه السلام: ((جعلت فداك إن أصحابنا قد اختلفوا، فقال: في أي شيء اختلفوا؟، فتداخني من ذلك شيء، فلم يحضرني إلا ما قلت جعلت فداك

(١) سورة الفرقان آية (٤٦).

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٣ / ٢٩٧، روضة الواعظين للشيخ محمد بن الحسن الفتال النيسابوري

من ذلك، ما اختلف فيه زرارة وهشام بن الحكم، فقال زرارة: النفي ليس بشيء وليس بمخلوق، وقال هشام: إن النفي شيء مخلوق. فقال لي: قل في هذا بقول هشام، ولا تقل بقول زرارة^(١) وهذه الرواية صريحة وواضحة في خلق الماهية، وهو النفي الذي هو عندهم ليس بمخلوق وليس بشيء، بقول الإمام الرضا عليه السلام: ((قل في هذا بقول هشام، ولا تقل بقول زرارة)).

الحديث الثالث لخلق الماهية

ما روي عن الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: ((كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم))^(٢).

ولا شك أن الماهية، أي ماهية الإنسان والفرس والجمال والأسد والنبات والجماد من المعادن والأحجار وغيرها، متميز في الأوهام في أدق معانيه، حيث إننا ندرك ونميز الفرس من الإنسان، والإنسان من النبات، والنبات من الجماد آخر الموجودات، وهذه المميزات كلها مخلوقة، أي خلقها الله جلّ جلاله، مردودة علينا أي هي غير قديمة.

الحديث الرابع لخلق الماهية

ما روي عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي، عن علي بن الحسن علي بن فضال، عن أبيه، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت: يا ابن رسول الله لِمَ خلق الله عز وجل الخلق أنواع شتى، ولم يخلقه نوعاً واحداً؟، فقال: ((لئلا يقع في الأوهام أنه عاجز، فلا تقع صورة في وهم ملحد إلا وقد خلق

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤ / ٣٢٢، نور البراهين للسيد نعمة الله الجزائري ١ / ١٠٩، مستدرک سفينة البحار للشيخ علي النمازي ١٠ / ١٣٢، مسند الإمام الرضا عليه السلام للشيخ عزيز الله العطارى ٢ / ٤٥٣، اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي ٢ / ٥٤٤.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٦٦ / ٢٩٣، نور البراهين للسيد نعمة الله الجزائري ١ / ٩٣، اللعة البيضاء للتبريزي ١٦٩.

الله عزَّ وجلَّ عليها خلقاً، ولا يقول قائل: هل يقدر الله عزَّ وجلَّ على أن يخلق على صورة كذا وكذا إلا وجد ذلك في خلقه تبارك وتعالى..))^(١).

وهذه الرواية أيضاً صريحة على خلق الماهيات بقول الإمام الرضا عليه السلام: ((فلا تقع صورة في وهم ملحد إلا وقد خلق الله عز وجل عليها خلقاً)).

وأكد الإمام الرضا عليه السلام بخلق الصورة الموجودة في الذهن، مثل صورة الأسد، إلى ماهيته من الحيوانية والزائرية، أي هو حيوان زائر، والفرس حيوان صاهل، والديك حيوان صائح... الخ.

بقوله عليه السلام: ((هل يقدر الله عزَّ وجلَّ على أن يخلق على صورة كذا وكذا إلا وجد ذلك في خلقه تبارك وتعالى)).

وهذا الحديث رداً على من قال إن الماهية لا موجودة ولا معدومة، كما ذهب إلى هذا الرأي أكثر فلاسفة الإسلام، منهم الملا هادي السبزواري قال: ((وانها «أي الماهيات» بذاتها لا موجودة ولا معدومة، كذلك لا مجعولة ولا لا مجعولة))^(٢).

وقال بعضهم: ((وانها «أي الماهيات» في أنفسها غير موجودة ولا معدومة))^(٣)، وتبعهم على ذلك السيد محمد حسين الطباطبائي في بداية الحكمة قال: ((الماهية من حيث هي ليست إلا هي لا موجودة ولا معدومة، ولا شيء آخر))^(٤).

وهذا الرأي إلى الآن متبع عند أكثر الفلاسفة ومريديها في الحوزات العلمية، فهذه الأدلة من الكتاب والسنة على خلق الماهيات، لم يذكرها إلا الشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته رضوان الله عليهم، المستقاة من مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما ذكرنا الروايات في ذلك.

(١) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق ١ / ٨١، البحار للشيخ المجلسي ٣ / ٤١.

(٢) شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواري ١ / ٧٤.

(٣) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي ٢ / ١٠١.

(٤) بداية الحكمة للسيد محمد حسين الطباطبائي ٦٢.

وأما من قال بعدم خلق الماهيات، مسنده كلام المخالفين، كمحيي الدين ابن عربي والفخر الرازي، كما قال الملا هادي السبزواري رحمته الله في تبنيه هذا الرأي في عدم خلق الماهيات، بأن مأخذه من الفخر الرازي بقوله: ((ولقد جرى الحق على لسان الفخر الرازي في هذا المقام، حيث قال الحق إن مسأله عدم مجعولية المهيبة))^(١).

وأيضاً الملا صدر الدين الشيرازي صوب ونهج منهج الفخر الرازي بقوله: ((ولقد أصاب الإمام الرازي حيث قال: إن القول بكون الماهيات غير مجعولة))^(٢).

عزيزي القارئ انظر إلى الشيخ أحمد الأحسائي وأتباعه من أين أخذ حكمته؟ وإلى غيره من أين أخذوا حكمتهم؟ والحكم عندك!!!.

لذا البعض يتهجم على حكمة الشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته ويقول لهم: إنكم تكذبون وتفترون على حكمة القوم، بأنكم تقولون عليهم إنهم لا يتبعون أهل البيت عليهم السلام في حكمتهم، وفي المقابل يتبعون حكمة المخالفين.

فهذا الكلام إن خرج منه فإنما يدل على جهله بالعلوم، وعدم إطلاعه على هذه الفنون، فلو راجع كتبهم، ورفع العvisية لبان الحق من غيره.

رأي الشيخ أحمد الأحسائي في الماهية

الشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته يعتقدون بخلق وجعل الوجود والماهية كل على حدة، أي أن الله جلّ جلاله خلق الوجود بجعل وخلق مستقل، وخلق ثانياً الماهية بجعل آخر مستقل غير جعل الوجود، أي كما أنه سبحانه خلق الوجود بخلق مستقل، كذا خلق الماهية بخلق وجعل مستقل، والدليل على ذلك ما ذكر من قبل من الكتاب والسنة، لذا قال الشيخ أحمد الأحسائي في شرح الفوائد ((الماهية إن كانت شيئاً فالله

(١) شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواري ١ / ٧٤.

(٢) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي ٢ / ١٠١.

سبحانه خالقها، وإلا فهي تكون قديمة غيره تعالى، أو تكون هي الله، إذ الشيء لا يخرج عن ذلك.

فإن كانت مخلوقة لزم المطلوب، وإن كانت قديمة غيره تعدد القدماء، وإن كانت هي الله - العياذ بالله - لم يجوز أن تكون ماهية لزيد وعمرو، إلا على الآراء الباطلة، المبنية على القول بوحدة الوجود، . . . وإن لم تكن شيئاً فلا معنى للإستناد إليها بجعل أو عدمه.

والحق أنها شيء محدث، خلقها الله من نفس الوجود من حيث نفسه، فكل محدث مركب من وجود وماهية، أي من مادة وصورة))^(١).

فالشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه هو أول من رد على من قال بأن الماهية غير مخلوقة أو قديمة، فكتبه ورسائله مملوءة بإثبات خلق الماهية بخلق مستقل غير خلق الوجود، لأنها شيء وكل شيء داخل في هذه الآية المباركة: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٢) فليس على قول الله تعالى قول.

رأي ميرزا حسن كوهر في الماهية

جميع أتباع الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه، اتبعوا أستاذهم الشيخ الأحسائي في خلق الماهية بخلق مستقل، كخلق الوجود بخلق مستقل، ومنهم آية الله المحقق المدقق، شيخ الفقهاء، وأستاذ الحكماء، وقدوة العلماء، الميرزا حسن الشهير بكوهر في كتابه المخازن، قال: ((اختلف الحكماء في أن الماهيات، هل هي مخلوقة أم لا؟ فذهب الأكثرون إلى عدم كونها مخلوقة، وأنها لم تتعلق بجعل الجاعل))^(٣).

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ٣٧٣.

(٢) سورة الأنعام، آية (١٠٢).

(٣) المخازن واللمعات لميرزا حسن كوهر ٧٦.

إلى أن قال بعد ذلك ((ومن ثم قالوا: ما جعل المشمش مشمشاً بل أوجده، وهذا كما ترى ليس بجيد، لأن الماهيات كلها من الأمور الوجودية، لكونها من المميزات، ومميز الوجود لا يكون إلا وجودياً، ولأن الواحد الأحد يمكن أن يصدر عنه الكثرات لعموم قدرته، فما عمت قدرته فهو ممكن ليس بممتنع، ولأن الموجودات المتكاثرة إنما نشأت من اقتران الوجود بالماهيات.

فكل موجود فله حد الاشتراك في الوجود، وحد الإمتياز بالماهيات، فيتרכب الشيء من الوجود والماهية، حتى يكون شيئاً موجوداً، فلو كانت الماهية من الأمور العدمية، لزم تركيب الشيء من الوجود والعدم، ومن الشيء واللاشيء، وهذا باطل لمكان إجتماع النقيضين))^(١).

ثم رد الميرزا حسن كوهر على من قال إن الماهيات لا موجودة ولا معدومة، كما ذهب إلى هذا الرأي أكثر الفلاسفة، منهم الملا هادي السبزواري، والسيد محمد حسين الطباطبائي، والملا صدره وغيرهم كما ذكر من قبل، قال في رده لهم: ((والقول بأنها ليس عدمية ولا وجودية كلام غير معقول، عند أرباب العقول، إذ الوسطة بين الوجود والعدم غير معقولة، إذ لا منزلة بين النفي والإثبات، ولأن إثبات المنزلة يحتاج إلى الإدراك، والإدراك أمر وجودي، فلا يدرك إلا ماهو موجود لوجوب المناسبة بين المدرك والمدرك كما عرفت، ولأن من تتبع القرآن، وكلمات أمناء الرحمن، وجد القول بأن الماهيات مما تعلق به الجعل من البديهيات، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾^(٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣) ومنها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(٤).

(١) المخازن واللمعات لميرزا حسن كوهر ٧٦.

(٢) سورة الفرقان، آية (٤٥).

(٣) سورة الأنعام، آية (١).

(٤) سورة الملك، آية (٢).

إلى غير ذلك من الآيات، وجه الدلالة أن الظل، والظلمة، والموت، من مقتضيات الصورة، أعني الماهية، وهي من الماهيات، لكونها متفرعة عن وجود الشمس، والنور، والحياة، فلو كانت عدمية لما صح إطلاق الجعل عليها، والله صرح بأنها مجعولة، وفي الحديث القدسي: ((إني أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخلق، وخلقت الخير، وأجرته على يدي من أحب فطوبى لمن أجرته على يديه، وأنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخلق وخلقت الشر، وأجرته على يدي من أريد، فويل لمن أجرته على يديه))^(١).

ووجه الدلالة ظاهر، لأن الشرور من الماهيات، وفي الحديث إن الله سبحانه كيف الكيف، وأين الأين، والكيف والأين من الحدود المميزة التي هي الماهية فتدبر))^(٢).

انظر إلى بيان وصراحة هذا الأمر، ووضوحه على خلق الماهيات بخلق مستقل، من الميرزا الكوهر، مستنداً من الكتاب والسنة والعقل المستنير بهما، عصمنا الله سبحانه من خطر الأوهام، وزلل الأقلام.

(١) البحار للشيخ المجلسي ٥ / ١٦٠، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٥٤.

(٢) المخازن واللمعات لميرزا حسن كوهر ٧٧.

وفي الصورة الثانية، هل هي مخلوقة قبل خلق الوجود، أو بعده، أو حينه؟ ❁.

❁ هل الماهيات مخلوقة قبل الوجود؟

إنه بعد ما ثبت، عند الشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته من خلق الماهيات بخلق مستقل، كخلق الوجود بخلق مستقل، دار الكلام هل أن الماهيات مخلوقة قبل خلق الوجود أو بعده أو حينه، والتفصيل يأتي عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى فلا نكرر.

إشكال على خلق الماهيات

هنا قد يرد إشكال من المعترضين على خلق الماهيات وهو الأغلب والأكثر، وهو: إذا قلنا بخلق الماهية، هذا يعني أن للماهية وجوداً غير الوجود، ويلزم لهذا الوجود ماهية غير الماهية الأولى، وإذا نقلنا الكلام إلى ماهية الوجود ووجود الماهية لزم التسلسل الباطل.

فأجابهم الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه، بأن مادة الوجود هو نفسه، وأما ماهيته ارتباطه بالماهية، وأما وجود الماهية فهو نفسها، وأما ماهيتها فهو ارتباطها بالوجود، فيتتفي التسلسل الباطل.

قال الشيخ أحمد الأحسائي في شرح الفوائد، بعدما ذكر أن كل مخلوق ممكن مركب، كما قيل (كل ممكن زوج يركيبي)، وأقل التركيب من المادة والصورة، لأنه لا يوجد مخلوق ممكن بسيط غير مركب مطلقاً إلا الخالق جلّ جلاله، واستدل الشيخ الأحسائي بقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، حيث قال: ((إن الله لم يخلق شيئاً فرداً قائماً بذاته دون غيره، للذي أراد من الدلالة عليه))^(١).

معنى الحديث أن الله جلّ جلاله لم يخلق أحداً من خلقه فرداً قائماً بذاته، أي

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٤٣٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ١ / ١٧٦، البحار للشيخ المجلسي ١٠ / ٣١.

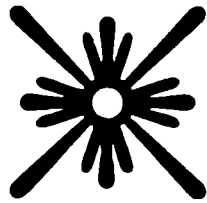
بسيطاً غير مركباً من مادة وصوره غيره سبحانه، للدلالة على أنه غني غير محتاج،
والغير فقير محتاج إلى التركيب، أقلها من المادة والصورة.

لذا قال الشيخ أحمد الأحسائي في رده على هذا الإشكال: ((وأما أن كل واحد
منهما مركب من المادة والصورة، حتى الصورة في المرآة مركبة من المادة والصورة.
فلإنا قلنا: إن واحداً منهما لا يقوم بدون الآخر، فإذا اعتبرنا الوجود نفسه لا
يتحقق في التعبير عنه، وفي المفهوم وفي الذهن، كانت مادته نفسه، وصورته انضمام
الماهية إليه.

أما في التعبير عنه، فلأنك تقول - وجود - فتظهر بإفراده أنيته، وهي الماهية،
فلأنها لازمة له لا ينفك عنها، إذا اعتبر له إعتبار من نفسه، لأنه هو الماهية كما مر،
وإذا اعتبرنا الماهية نفسها كذلك، كانت مادتها نفسها، وصورتها ربط الوجود بها.

بمعنى إذا ذكرت في العبارة عنها وفي مفهومها وفي الذهن، لزمها نوع وجود ما
تلبسه وتظهر به في كل ما ذكرت به، وما ذكرت به هيئة لها، فهو صورتها، وإليه
الإشارة في التأويل ﴿مَنْ لِيَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ﴾^(١) ((٢)).

وعلى هذا لا يكون هناك تسلسل في الأمر، حيث إن الوجود نفسه مادته،
وماهيته انضمامه إلى الماهية، وكذا الماهية وجودها نفسه، من حيث هي هي،
وماهيته انضمامها إلى الوجود، وهذا الكلام في نفس الأمر بما هو هو، وأما في
الظاهر والعيان فلا يمكن للوجود، وكذا الماهية إلا بانضمام أحدهما إلى الآخر
فانهم.



(١) سورة البقرة آية (١٨٧).

(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٤٧.

أما الصّوفية فقالوا: بالقسم الأول أي أنها: موجودة قديمة غير
مجمولة ❁.

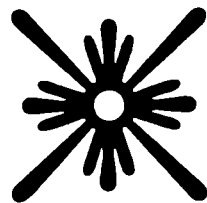
❁ الماهيات قديمة عند الصوفية

بعد ما أبان المؤلف رحمته الله الإختلاف في الماهيات المعبرة عنها بالقابليات، من
قائل إنها قديمة، ومن قائل إنها لا موجودة ولا معدومة، ومن قائل إنها غير مخلوقة
أي مجمولة.

أتى هنا بالرأي الأول، وهو كون الماهيات قديمة غير مخلوقة، والقديم والعياذ
بالله تعالى جلّ جلاله يكون إلهاً غير الحق سبحانه وتعالى، والقول بقديم الماهيات
والحقائق رأي الصوفية، حيث قالوا إن الماهيات موجودة في الأزل، فالأزل عندهم
ظرف يشمل الواجب تعالى والماهيات.

لذا قال شيخهم وزعيمهم محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية ما نصه:
(ولاسيما للممكنات من حيث إن لها أعياناً ثابتة لا موجودة، مساوقة لواجب
الوجود في الأزل))^(١).

انظر إلى كلامه كيف يصرح بأن وجود الممكنات المخلوقة مساوق لوجود
واجب الوجود وهو الله جل جلاله، بمعنى أنها قديمة مثل واجب الوجود وهو الله عزّ
وجلّ، وهذا يستلزم تعدد القدماء، وانقلاب القديم حادث والحادث قديم، وبطلان
هذا الأمر عند الأطفال بصرف النظر عن غيرهم.



(١) الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ٣ / ٤٢٩ - ٤٣٠.

إذ بعد ما أثبتوا بطلان الجبر، وذكروا أن الله لم يخلق الخلايق بطريق الإكراه والإجبار، بل خلقهم بمقتضى قابلياتهم، قالوا: لا يجوز أن تكون تلك القابليات معدومة فيوجد لها، ثم يعطيها ما تطلب وتريد، إذ المعدوم ليس بشيء، فكيف يقبل الوجود؟ فلا بد أن تكون ثابتة، حتى تكون قابلة للطلب، ولما لم يجدوا لها مكان تستقر فيه، ولا يجوز أن يكون مكان هذه الحقايق مجعول في الإمكان، وإلا لزم حدوثها، أي لم يكن ثم كان، والحال أنها عندهم كانت أزلاً وأبداً، ولم يكن غير الإمكان إلا الأزل، فقالوا: إن مكان تلك الحقايق والقابليات هو الأزل، أي الماهيات أزلية، ولما رأوا أن الأزل ليس ظرفاً، ومكاناً وفضاءً وسيعاً حتى يشمل كل أحد، مع أن الأزل هو عين ذات الواجب، وإلا لزم أن يكون للواجب مكاناً، ولزم الإفتقار.

لم يكن لهم بد من أن يقولوا: إن الماهيات عين الواجب، واستدلوا بأن الله في مرتبة ذاته عالم، والعلم لا يكون إلا أن يكون هناك معلوم، وإلا لزم الجهل، فتلك الأعيان والحقايق هي المعلومات، ولا يلزم التكثر والتعدد هناك، إذ هي تحت ذات الواجب مندمجة، ومندرجة بطور البساطة والوحدة، لا بطريق التكثر الموجب لتعدد القدمات، أو التركيب، لأن الكثرات هناك إن كانت أجزاء الذات، لزم التركيب، وإلا لزم تعدد القدمات ❁.

❁ تقرير شبهة الصوفية

مؤلف الكتاب آية الله السيد كاظم الرشتي رضوان الله عليه، بعد ما أتى بالأراء في الماهيات المعبر عنها بالقابليات، وذكر الرأي الأول وهو رأي الصوفية، القائلون بقدوم الماهيات، أي القابليات، أتى بشبهتهم وأدلتهم الواهية وهي:

أنهم بعد ما أثبتوا الإختيار لله جلّ جلاله، وأن الله سبحانه خلق الخلائق
والممكنات أجمع بالإختيار كل على حسب قابليته واستعداده، فخلق السماء سماءاً،
والنملة نملة، وهكذا بقية الموجودات .

فلما كان الله جلّ جلاله خلق الخلائق على طريق الإختيار والرضا، كل على
حسب قابليته وطاقته، قالوا لا بد أن تكون هذه الماهيات، أي القابليات موجودة حتى
يصح إلقاء التكليف عليها بالقبول، لما ستكون من مراتب السلسلة الطولية، مثلاً لما
يريد الحق سبحانه أن يخلق خلقاً من مخلوقاته أياً كان ذلك المخلوق، لا بد أن يخلقه
على حسب إختياريه، في تكوينه في السلسلة الطولية، أي شيء يكون، هل يوجد
إنساناً، أم ملكاً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً أو غير ذلك، فلا بد لذلك الشيء من أن
يكون موجوداً قديماً حتى يختار ما يكون من أنواع الموجودات في السلسلة الطولية،
فلو لم يكن موجوداً حين إلقاء التكليف يكون معدوماً، وإذا كان معدوماً كيف
يخاطب المعدوم؟

لأن المعدوم ليس بشيء عندهم، إذا لا بد أن يكون هذا الشيء الملقى عليه
التكليف موجوداً قديماً، حتى يقبل ما سيكون هو! أي نوع من أنواع الموجودات من
إنس أو جن أو حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك .

فالخلاصة عندهم أنه لا بد أن تكون الماهيات والقابليات موجودة، أي قديمة
مثله جلّ جلاله، حتى يمكن في حقها الإختيار في تكوينها وتشريعها، وإلا لزم
مخاطبة المعدوم، والمعدوم عندهم ليس بشيء، فلا بد عندهم أن تكون هذه
القابليات الماهيات ثابتة عنده تعالى قديمة، حتى يمكن في حقها طلب الوجود .

فلما قرروا أن الماهيات القابليات قديمة ثابتة حتى تختار، احتاروا في مكان
هذه القابليات الماهيات أين مكانها؟ إذ لا بد لها من مكان تحل فيه!!! والمكان لهذه
الماهيات لا يخلو من موضعين هما:

الموضع الأول

إما أن يكون مكانها في الإمكان، أي في الخلق، أي يكون المكان مخلوق،

والماهيات قديمة حسب الفرض، فيلزم من هذا المعنى حدوث الماهيات، أي خلقها، وهو ممنوع عندهم، حيث يقولون بقدمها، وذلك أنه إذا كان المكان مخلوق، معناه أن المكان لم يكن ثم كان، وهذا ينافي القديم الحال فيه على حسب الفرض، وهي القابليات الماهيات.

يعني قبل خلق المكان، أين الماهيات القابليات حاله؟ أي في أي مكان حالة فيه، قبل خلق هذا المكان، فإن قلنا بمكان ثاني أو ثالث مخلوق لزم التسلسل الباطل.

ثم يلزم من ذلك أنها قبل خلق المكان غير موجودة، ثم وجدت أي خلقت، وهذا القول يكون صحيحاً على القول بحدوثها، لا بقدمها كما يزعمون.

الموضع الثاني

أن يكون هذا المكان قديماً، لأنه إذ لم يكن حادثاً كان قديماً إذ لا ثالث غيرهما، لذا ذهبوا إلى أن مكان تلك الماهيات والقابليات قديم وهو الأزل، بمعنى أن الماهيات أزلية قديمة، ثم استدرکوا وقالوا إنه لا يمكن أن يكون الأزل ظرفاً مكانياً وفضاءً وسيعاً، حتى يشمل أي يسكن فيه الواجب والماهيات المزعومة القديمة.

لأن القول بذلك يستلزم إحتياج وإفتقار الواجب تعالى إلى مكان، والمحتاج حادث مخلوق، وهذا خلف.

فلما وقعوا في المحذور، وهو أنه إذا قالوا إن مكان تلك الماهيات والحقائق هو الأزل، أي الأزل ظرفاً للماهيات وللواجب، لأن الواجب تعالى هو الأزل، لأنه من الصفات الذاتية له جلّ جلاله، وعلى هذا القول يلزم ويوجب الإفتقار للواجب جلّ جلاله، وهو باطل عندهم، لأنه الغني المطلق.

خرجوا من هذا الإشكال والمحذور إلى أعظم منه، وقالوا: إن الماهيات هي عين ذات الواجب تعالى، بمعنى أن القابليات إله، بل هي الإله المعبود لا غير جلّ ربي عن ذلك علواً كبيراً.

والذي جرهم إلى القول بأن الماهيات، أي الأعيان الثابتة قديمة، اعتقادهم أن الله جلّ جلاله عالم بذاته للخلق قبل الخلق، والعلم لا بد له من معلوم، وإلا لم يسم علماً، والمعلوم هي الماهيات والأعيان الثابتة في ذاته، كي يصح أنه عالم بها، لأنه لا بد للعلم من معلوم ينطبق عليه، فالعلم بالكتاب لا بد أن ينطبق على الكتاب، فلو انطبق على الباب لم يسم علماً، لذا سوغوا لأنفسهم أن جعلوا الماهيات هي عين ذات الواجب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذه الشبهة من انطباق العلم على المعلوم صحيحة في العلم المخلوق الحادث، أما العلم القديم فلا كيف له، لأنه ذاته أي عين ذاته، فكما أن ذاته لا تدرك ولا تحاط، كذلك علمه تعالى لا يدرك ولا يحاط، كما ذكر من قبل في باب التوحيد سابقاً، وإن شاء الله يأتي للكلام بقية.

دليل الصوفية في التكثر في الذات

فلما قالوا بقدم ماهيات الخلائق أجمع، طرح عليهم إشكال وهو:

إذا كانت جميع ماهيات الخلائق في ذاته جلّ جلاله وهي قديمة، يلزم التكثر في ذاته، والتكثر يوجب تعدد للقدمات والإحتياج إلى المكان، وهذه صفة الحدوث والخلق لا القديم الغني.

أجابوا عن هذا الإشكال وقالوا: إن ماهيات الخلائق وأعيانهم الثابتة، مندرجة ومندمجة في الذات الإلهية والعياذ بالله، كإندراج النصفية والثلاثية في الواحد، أي الواحد يمكن أن يكون نصف وثلث وربع وخمس وسدس إلى آخرها، والثلاثية والنصفية غير ظاهرة ومتعددة في الواحد.

وهذا الجواب مردود، لأن الماهيات إما أن تكون شيئاً أو غير شيء، فإن كانت شيئاً يلزم التكثر والتركيب، وإن كانت غير شيء، فلماذا تذكرونها وتحددونها وتميزون بعضها عن بعض وهذا خلف.

رأي ابن عربي في الماهيات

والقول بوجود الماهيات في ذات الوجب تعالى ربي عن ذلك هو قول ابن عربي الصوفي، كما قال في فتوحاته المكية ((وهذه كلها أنواع وفصول للجنس الأعم الذي ما فوقه جنس، وهو حقيقة الحقائق التائهة القديمة في القديم لا في ذاتها، والمحدثة في المحدث لا في ذاته))^(١).

وقال أيضاً محيي الدين بن عربي في كتابه فصوص الحكم شعراً

فلولاه ولولانا	لما كان الذي كانا
فأنا أعبد حقاً	وإن الله مـولانا
وإنا عينه فاعلم	إذا ما قلت إنسانا
فكن حقاً وكن خلقاً	تكن بالله رحمانا
وغذ خلقه منه	تكن روحاً وريحاناً
فأعطيناه ما يبدو	به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسوماً	بإياه وإيانا
فكننا فيه أكوانا	وأعياناً وأزماناً ^(٢)

انظر إلى تصريحه كيف يجعل نفسه نصف الذات بقوله:

فلولاه ولولانا	لما كان الذي كانا
فصار الأمر مقسوماً	بإياه وإيانا

ثم بصرح بأنه عين الذات، أي أن ماهيات الخلائق هي عين الذات، بلا اختلاف بقوله:

وإنا عينه فاعلم	إذا ما قلت إنسانا
-----------------	-------------------

وقوله: وإنا عينه فاعلم بصيغة الجمع (بإنا) إن جميع ماهيات الخلائق هي عين ذات الله جلّ جلاله والعياذ بالله، وليس العجب أن يصدر مثل هذا القول من محيي

(١) الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ١ / ٤٧ .

(٢) فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي ٩١ - ٩٢ .

الدين بن عربي، لأنه من كبار الصوفية المخالفين لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

بل العجب كل العجب من إتباع بعض علمائنا له في آرائه، وتعليقاتهم على كتبه، وشرحهم لها، وتبجيلهم له، بأنه الشيخ الأكبر، وبأنه من العارفين، كما قال الملا صدرا الشيرازي في مدح محي الدين ابن عربي ((كبعض مشائخ الصوفية مثل الشيخ العارف المحقق (محي الدين العربي) والشيخ الكامل (صدر الدين القوندي))^(١) ومدح أيضاً الصوفية المخالفين بقوله ((وأما المنهج الثاني (أعني منهج (الصوفية) الكاملين فهو قريب المأخذ من منهج الحكماء الراسخين))^(٢) ومن راجع شروحهم لكتبه ومصنفاته، وجد هذا الأمر بيناً، ففي كتاب ترجمة آية الله العظمى الميرزا محمد علي الشاه أبادي قدس سره، في بعض التعليقات في الحاشية عليه، قال السيد علي القاضي في مدح محيي الدين بن عربي: ((ليس في البرايا بعد النبي والأئمة من يضاها محيي الدين بن عربي في معارفه العرفانية، وحقائقه النفسية))^(٣).

انظر إلى هذا الكلام في تبجيل ابن عربي ١١، فأين علماءنا الإمامية؟ وأين ثقل الأئمة عند أصحاب الأئمة عليهم السلام، الذي منهم سلمان الفارسي رضوان الله عليه، الذي أوتي علم المنايا والبلايا، وروى أنه بحر لا تنزفه الدلاء، وأنه من المحدثين بالفتح تحدثه الملائكة، وأين رشيد الهجري الذي عنده علم المنايا والبلايا، وعمار الذي ملأ إيماناً من رأسه إلى قدمه، وأين أبو ذر الذي ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر، وأين جابر بن يزيد الجعفي، وأبو بصير ليث المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة، وأين الشيخ الكليني والشيخ الصدوق والمفيد والطوسي؟ وأين أحزابهم من حملة ثقل النبوة والإمامة رضوان الله عليهم جميعاً.

خلاصة قولهم إن الماهيات قديمة في الذات، بل هي عين ذاته جلّ جلاله، ولا

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار ٦ / ١٨١.

(٢) الحكمة المتعالية في الأسفار ٦ / ٢٨٠.

(٣) كتاب ترجمة آية الله العظمى الميرزا محمد علي الشاه أبادي ١٠، ترجمه إلى العربية كمال السيد، أحمد العبيدي، تحقيق وتأليف مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية.

يلزم عندهم تكثر ولا تعدد، لأنها مندمجة ومندرجة في الذات، بحيث لا تظهر للعيان، ومثلوا على ذلك بالنصفية والثلثية والرابع والخمس والسدس والسبع للواحد، أي يمكن للواحد أن يكون نصفاً وثلثاً ورابعاً وخمساً وسدساً.. الخ.

فوجود النصفية في الواحد لا يكثر الواحد إلى نصفين على رأيهم، وهذا القول باطل، لأنه يصح إذا قلنا هذا القول في الإمكان والحدوث، أو يدعوا الوصول إلى رتبة الواجب تعالى، حتى يعلموا ما ماهيته وما كلفيته؟ حتى يعلموا ما يقولون من حق أو باطل.

بيد أن الواجب تعالى ليس كمثل شيء، والنصفية والثلثية شيء، وهو ليس كمثل شيء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(١) وهو عز وجل لم يلد ولم يولد.

ثانياً: إن هذه الماهيات هل هي عين الواجب أم لا؟

فإن كانت عين الواجب لزم تسميتها بالواجب، والواجب ليس فيه غيره، لأنه الصمد الذي ليس فيه غيره سبحانه، فينتفي القول بوجود شيء غير الواجب تعالى في الواجب سبحانه، وعلى ذلك يبطل قولكم بوجود الماهيات في الواجب.

وإن قلنا غير الواجب موجود في الواجب، يلزم تعدد القدماء، ولو بالإعتبار لأن الإعتبار هو شيء ذهني، والشيء على الفرض قديم، فيتعدد القدماء ويكون بينهم فرج، يؤدي إلى التسلسل الباطل.

وإن قلنا إن الموجود في الواجب من الماهيات حادثة، لزم كون القديم مكاناً للحادث وهذا خلف.

وكل هذه الترهات والانحرافات بسبب بعدهم عن مذهب أهل البيت عليهم السلام والكتاب ولا نطيل الكلام هنا، لأن عقائد الأطفال والفطرة تبطل هذا الكلام، وتثبت الوجدانية لله جل جلاله، بأنه لا يدخل فيه شيء، ولا يدخل في شيء.

الحاصل فطلبت تلك الأعيان والحقايق الثابتة في الذات الوجود، فأعطاهم الله سبحانه ذلك، وقبلوا حظهم ونصيبهم من الوجود، من السعادة والشقاوة، فالقوابل والماهيات ليست أشياء مجعولة أي مخلوقة، بل هي موجودة قديمة، ثابتة أزلية ❁.

❁ خلاصة قول الصوفية في الماهيات

فخلاصة القول في الماهيات أو الأعيان الثابتة، وسميت الأعيان لأنها متحققة، ولها تميز بعضها عن بعض كما يزعمونه في ذات البارئ جلّ جلاله. وثابتة أي غير مخلوقة، بل ثابتة في ذات الواجب تعالى ومندرجة فيه اندراج اللوازم في الملزومات مثل اندراج الحرارة في النار، والزوجية في الأربعة. ولما أراد البارئ جلّ جلاله إيجادهم وإخراجهم من ذاته جلّ جلاله، خرجت من الذات سبحانه، وقبلت ما ستكون من مراتب الوجود الطولية والعرضية من السعادة والشقاوة.

فالماهيات والأعيان الثابتة إنما هي قديمة بقدم الواجب جلّ جلاله عندهم، بدعوى أنها هي المعلومات التي علمها الواجب، ولا يمكن فصل العلم عن المعلوم مثل النار والحرارة، والنصفية والثلية للواحد، يعني يمكن أن يكون الواحد نصفاً وثلاثاً وهكذا، فالنصفية والثلية موجودة في الواحد، ثم خرجا إلى الوجود لما انتصف الواحد، أو ثلث الواحد، فهم والعباد بالله تعالى يقيسون الخالق بالمخلوق، والحق سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) فالماهيات عندهم ليست مخلوقة بل فائضة من الذات كما قال بعضهم ((وإن شئت قلت: تلك الحقيقة هي الماهية، فإنه أيضاً صحيح، فالأعيان الثابتة هي الصور الأسمائية المتعينة في الحضرة

(١) سورة الشورى، آية (١١).

العلمية، وتلك الصور فائضة من الذات الإلهية بالفيض الأقدس، والتجلي الأول بواسطة الحب الذاتي، المشار إليه بقوله سبحانه:

((فأحببت أن أعرف))^(١) وطلب مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو ظهورها وكمالها، ثم تحصل تلك الأعيان في الخارج، مع لوازمها وتوابعها بالفيض المقدس، فهي من وجه عين الوجود، ومن جهة غيره كالإسم والصفة^(٢).

انظر إلى تصريحه بظهور وفيضان وخروج تلك الصور والماهيات من الذات بقوله: ((وتلك الصور فائضة من الذات)) مع العلم أنه من أبجديات عقائد الإسلام، أن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد، وليس كمثله شيء، ولا يحاط حتى يعلم هل خرج شيء منه أم لم يخرج.

فالكلام في أي شيء من الأشياء لا يكون إلا بعد الإحاطة به، وقبل الإحاطة لا يمكن التكلم عنه، بصرف النظر عن التفصيل في حقيقته وصفاته، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى معرفة وإمعان نظر، بيد أن الخالق جلّ جلاله يقول في كتابه الكريم مراراً وتكراراً بأنه لا يحاط ولا يدرك، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٤) ومن لوازم هذا القول تعدد القدماء والتركيب والتغير والحدوث، فعلى ذلك يكون القديم حادثاً، والحادث قديماً والعياذ بالله تعالى.

فعلى كل حال لا تعليق على فساد هذه العقيدة، ولا عجب على فسادها حيث مصدرها من غير المعصومين عليهم السلام، فالشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه ما حورب وما ضلل إلا بسبب إبطاله هذه الدعاوى الباطلة، والعقائد الفاسدة، لذا في

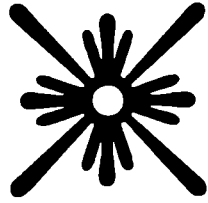
(١) رسائل الكركي للمحقق الكركي ٣ / ١٥٩، شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١ / ٢٢، عوالي اللآليء لابت أبي جمهور الأحسائي ١ / ٥٥.

(٢) الكلمات المكنونة للملا محسن الفيض الكاشاني ٣٧.

(٣) سورة طه، آية (١١٠).

(٤) سورة الشورى، آية (١١).

كتاب شرح الرسالة العلمية للملا محسن الفيض الكاشاني، وشرحه على العرشية
والمشاعر للملا صدر الدين الشيرازي، بيّن مذهب أهل البيت عليهم السلام وعقائد القرآن
الكريم، وبيّن فساد هذه العقائد الصوفية، المخالفة لمذهب محمد وآل محمد عليهم السلام.



وهذا مذهب فاسد، واعتقاد كاسد، والقائل به كافر، إذ لو قلنا بأن حقايق الأشياء موجودة في مرتبة ذات الواجب، فإن كانت عين الذات فليس هناك شيء غير الذات، وليس هناك أيضاً معلوم، بل الموجود هو الذات، وهو العالم وهو غير المعلوم، نعم يكون العالم عين المعلوم، إذا كان علمه بنفسه وذاته فقط، وأما علمه بغير ذاته فهو غيرها ألبتة ❀.

❀ الرد على عقائد الصوفية

هنا السيد كاظم مؤلف الكتاب يرد على الصوفية، ومن تبع عقائدهم، على أن الأعيان الثابتة وهي الماهيات، أي ماهيات الخلائق هي عين ذات الواجب تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بمعنى أن ذات الواجب جلّ جلاله مكونة إلى قسمين، ذاته المقدسة سبحانه وتعالى، والقسم الثاني الماهيات المعبر عنها بالأعيان الثابتة، وسميت بالثابتة لكونها قديمة بقدم الواجب جلّ جلاله.

فقال لهم السيد كاظم رضوان الله عليه، هذا إعتقاد فاسد، والقائل به خارج من مذهب أهل العصمة عليهم السلام، لأن هذا الإعتقاد يخالف أبجديات الإسلام، من كونه جلّ جلاله ليس كمثله شيء، ولا يحاط ولا يجس ولا يمس ولا تدركه الأبصار إلى آخره من مقدمات عقائد الإسلام.

جواب مفاصد الصوفية

هل هذه الأعيان الثابتة هي عين الذات أم غيرها؟ فإن كانت عين الذات، فإنه لا يوجد في الذات إلا الذات الأحد الصمد، فليس في الذات إلا الذات جلّ جلاله، إذ ادعوى أنها عين الذات باطل.

وإن قلنا أنها غير الذات نقول: هل هي قديمة أم حادثة؟

فإن قلنا إنها قديمة لزم تعدد القدماء والتركيب، وكلاهما صفات المحدثين لا القديم الأزلي، وإن قلنا إنها حادثة، لزم كون القديم مكاناً للحادث وهذا باطل، لأنه لا نسبة بين القديم والحادث، لأن صقع القديم مخالف لصقع الحادث.

ثانياً: على هذا القول يلزم قدم الحادث وحدث القديم، وذلك لأن الحادث وصل إلى رتبة القديم، وحدث القديم لأن الحادث أثر فيه، لأنه لم يكن ثم كان، والمتغير أحواله من حال إلى حال مخلوق، فقبل حدوث الحادث لم يكن موجوداً وبعدها وجد، وكل متغير حادث.

فأجاب الصوفية ومن تبعهم بقولهم: أن الله جلّ جلاله عالم بالخلق قبل الخلق وبعده، والعلم لا يكون بلا معلوم، وهي ماهيات المخلوقات قبل أن تظهر، المعبر عنها بالصور العلمية.

فعلى زعمهم لولا المعلومات وهي الصور العلمية لما كان عالماً، فعلى ذلك هي موجودة في ذاته لكونه عالماً بها قبل الخلق.

فأجابهم السيد المؤلف بأنه تعالى نعم عالم في ذاته بذاته، لا بشيء آخر، لأن علمه عين ذاته، وذاته عين علمه، فلا خلاف بين ذاته وعلمه، فهما شيء واحد، وكذلك صفاته الذاتية هي عين ذاته بلا إختلاف، لأنه لا يوجد في الذات إلا الذات الأحد، نعم الله تعالى عالم بالمعلومات في الأزل بها في الحدث، لا في ذاته جلّ جلاله، هذا ما ذكر الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه في شرحه على الرسالة العلمية للفيض الكاشاني حيث قال: ((هو عزّ وجلّ في ذاته الذي هو الأزل عالم لم يحتمل زيادة علم بما يحدث فيما لا يزال، مع أن وقوع العلم على ما يحدث إنما يكون بعد حدوثه، لأن ما يحتمل الزيادة يحتمل النقصان، ولا نعني بعلمه في الأزل شيئاً زائداً على ذاته، ولا يتجدد له شيء في ذاته، فهو عالم في الأزل ولا معلوم له في الأزل غيره، وأما ما سواه فهو معلوم له في الحدث، بمعنى أن ذاته عالم في الأزل بها في الحدث...))^(١).

فالحق سبحانه وتعالى عالم بالممكنات والمخلوقات قبل أن يخلقها، كعلمه بها بعد ما خلقت بعلمه القديم الأزل، لكن علمه سبحانه بالمخلوقات قبل الخلق لا يعني كون ماهياتها وصورها في ذاته جلّ وعلا، بل الصواب الموافق للكتاب والسنة

(١) شرح الرسالة العلمية للشيخ أحمد الأحسائي، ضمن كتاب جوامع الكلم ٢ / ٨٠.

الشريفة، ما ذكره الشيخ الأوحى أحمد بن زين الدين الأحسائي رضوان الله عليه، أي أنه سبحانه وتعالى عالم بالمخلوقات قبل الخلق في الأزل بها في الحدث والخلق، لا في ذاته جل جلاله، واستدل الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه على أن الذات الأحد لا يوجد فيها شيء غير ذاته جل جلاله، فلا معلوم ولا مقدور، ولا مسموع حادث في ذاته جل جلاله، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

بقول أئمة الهدى عليهم السلام كما روي في التوحيد عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه، كما قال في شرحه على الرسالة العلمية للفيض الكاشاني ما نصه: ((عن حماد بن عيسى، قال: قلت: فلم يزل الله يسمع؟، قال: أنى يكون ذلك ولا مسموع، قال: قلت: فلم يزل يبصر؟، قال: أنى يكون ذلك ولا مبصر، قال: ثم قال: لم يزل الله عليمًا سمعًا بصيرًا، ذات علامة سمعية بصيرة))^(١).

فانظر في صراحة هذا الحديث الشريف فيما ذكرته لك، فإنه عليه السلام أنكر أن يكون يعلم في ذاته سبحانه، لأنه إنما يكون إذا وجد المعلوم، والمعلوم لا يوجد إلا بفعله، وكل ذلك متأخر عن الذات تعالى، وأثبت كونه عليمًا سمعًا بصيرًا، بمعنى أن ذاته علامة لا بمعنى أنه يعلم شيئاً ولا شيء غيره قبل الخلق))^(٢).

فالشيخ أحمد الأحسائي والشيخ كاظم الرشتي وتلامذتهما رضوان الله عليهم، صريحون في إثبات العلم والقدرة والسمع والبصر لذات الله تعالى، لكن بلا معلوم ولا مسموع ولا مبصر ولا مقدور في ذات الله جل جلاله، فالله جل جلاله عالم ولا معلوم في ذاته غيره، وقادر ولا مقدور في ذاته، وكذا في بقية صفاته الذاتية، فلما خلقت الأشياء وقع العلم الحادث الإشراقي على المعلوم الحادث، وكذا القدرة الحادثة على المقدور الحادث، كما في الرواية السابقة في كتاب التوحيد عن الإمام الصادق عليه السلام، وهكذا بقية صفاته تعالى الحادثة المقترنة بالحوادث، وأما علم وقدرة وسمع الذات فلا كيف له، كما أن ذاته لا كيف لها، كذلك صفاته الذاتية لا كيف لها، وهذا واضح إن شاء الله تعالى.

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ١٣٩.

(٢) جوامع الكلم الجزء الأول، شرح الرسالة العلمية ٢ / ٤٥.

فإن قالوا: إنها عين الذات بلا تكثر واختلاف، فلا تكون هناك معلومات حتى تطلب الوجود، وذات الواجب هو الوجود، وهو لا يحتاج إلى وجود على حدة. ❁

❁ لا علم إلا علمه تعالى

بعد ما ذكره السيد كاظم رضوان الله عليه نقض شبهتهم، من قولهم إن المعلومات هي الماهيات، وهي عين الذات سبحانه وتعالى، حتى لا يشكل عليهم بتعدد القدماء والتركيب.

فأجابهم السيد

إن القضية لا تخلو من أمرين.

الأمر الأول

إذا كانت المعلومات أو المعلوم عين الذات، بيد أنه لا يوجد في الذات غير الذات سبحانه، فلا وجود إلا للذات جلّ جلاله، والذات عزّ وجلّ موجودة، فلا تحتاج إلى إيجاد من جديد، لأنه تحصيل الحاصل، فالموجود المتحقق لا يحتاج إلى إيجاده مرة أخرى، لأن ذات الواجب سبحانه هو وجوده، بل الوجود عينه بلا اختلاف، وهو غير معدوم حتى يوجد مرة ثانية، فوجوده سبحانه غير محتاج إلى وجود آخر على حدة، أي وجود ثاني على وجوده الأول، فبطل قولكم بإيجاد الماهيات لأنها موجودة حسب الفرض، والله المثل الأعلى جلّ وعلا.

الأمر الثاني

أن تكون الماهيات المعبر عنها بالمعلومات معدومة، ثم خلقها الله تعالى من حالة العدم إلى حالة الوجود فيلزم المطلوب.

وكيف تطلب الحقايق السّعادة والشّقاوة، والحال أن الواجب تعالى لا يخرج منه شيء، ولا يدخل فيه شيء؟ ❁.

❁ لا يخرج من الواجب شيء

هنا يذكر السيد نقضاً ثانياً لكون المعلومات أو المعلوم الحادث مقترنة بالعلم القديم، وهو إذا كانت المعلومات مقترنة بالذات أي بالعلم الذاتي، ثم أفاضها إلى الخارج كما تقدم منهم لتنال السعادة أو الشقاوة، يلزم من ذلك خروج من الذات شيء، أي ولادة الذات أمراً غيرها جلّ ربي عن ذلك.

وهذا القول يلزم المحاذير الكثيرة للذات المقدسة منها:

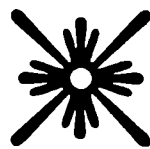
أولاً: إن الذات ولدت وولدت تعالى عن ذلك، على فرض أن الماهيات عين الذات، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ (١).

ثانياً: إن الذات محل الحوادث والمخلوقات وهذا باطل، لأنه لا يوجد نسبة بين القديم والحادث.

ثالثاً: إن الحادث أصبح قديماً، لأنه صعد إلى رتبة وصقع القديم، وهذا جميع العقلاء تبطله.

رابعاً: إن القديم أصبح حادثاً، لأنه تغيرت أحواله من حال واجداً المعلوم في ذاته، وحال فاقداً له، ومن تغيرت أحواله فهو حادث.

فالبارئ جلّ جلاله لا يخرج منه شيء، أي لا يولد ولا يدخل فيه شيء غيره، فهو الصمد، أي المملوء بذاته لذاته عين ذاته ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢).



(١) سورة التوحيد، آية (٣).

(٢) سورة الصافات، آية (١٨٠).

فإن قلت: إن الحقايق والماهيات خارجة من الذات، موجودة في رتبها، قلت: يلزم تعدد القدمات، ووجود شيء غير ذات الواجب في مرتبة القديم، وهو خلاف ما قاله الإمام عليه السلام ((كان الله ولم يكن معه شيء))^(١) ولزم أيضاً أن تكون حقايق جميع الموجودات قديمة، وتكون أرباباً وآلهة غير ذات الواجب، بحيث لا تكون لذات الواجب إختيار وتسلط عليهم، ولا تتمكن من منعهم وقلب حقايقهم، وكيف يتمكن من ذلك وهو لم يخلقهم؟ ❀.

❀ بطلان كون الماهيات خارجة من الذات

لما علموا أن كون الماهيات أو الأعيان الثابتة أو المعلومات في الذات، يلزم التعدد والتغير من حال وجودها في الذات إلى خروجها منه، والتغير موجب للحدوث.

قالوا: إن الحقائق والماهيات والمعلومات ليست موجودة في رتبة الذات عينها، حتى يلزم التغير والاختلاف من حال إلى حال، بل هي موجودة قديمة مستقلة عن وجود الذات، وجودها على حدة بمعزل عن وجود الذات.

فأجابهم السيد رضوان الله عليه

إنه إذا كان للحقائق والماهيات وجود قديم غير وجود الذات، يلزم من ذلك مفسد كثيرة منها:

أولاً: يلزم تعدد القدمات وهو باطل.

ثانياً: يلزم وجود شيء موجود في رتبة القديم الأزلي غير الحق سبحانه جلّ

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ١ / ١٥٤، البحار للشيخ المجلسي ٥٤ / ٢٤٣. الرواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (كان الله ولم يكن معه شيء).

وعلا ، وهذا خلاف المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام ، حيث قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ((كان الله ولم يكن معه شيء))^(١) .

ثالثاً: يلزم من هذا القول أن جميع الحقائق وماهيات الخلائق كلها قديمة ، ولازم ذلك كون جميع الخلائق آلهة وأرباباً من دون الله جل ربي وعلا عن ذلك علواً كبيراً .

رابعاً: إذا كانت جميع حقائق الخلائق قديمة كلها ، يكون الواجب جلّ جلاله ليس له إختيار وتسلط عليهم ، من إيجادهم من حالة العدم إلى حالة الوجود ، لأنهم موجودون فإيجادهم تحصيل للحاصل .

خامساً: أيضاً يلزم من ذلك أنه لا يمكن لذات الواجب جلّ وعزّ إيجادهم من العدم إلى الوجود ، وكيف يوجد لهم وهو لم يخلقهم ، لأنهم قدماء موجودون منذ الأزل فهم مثله .

وهذه الأقوال الباطلة لا يتفوه بها جاهل ، بصرف النظر عن العاقل ، بل الفطرة السليمة تمج وترفض هذه الخرافات المخالفة لإجماع المسلمين قاطبة ، بصرف النظر عن الكتاب وروايات المعصومين عليهم السلام .

ومعنى الإيجاد عند الصّوفية، هو إظهار الأشياء، لا إيجاد الأمور المعدومة، وإلا لزم اتصاف الشيء بنقيضه وهو باطل، فلا بد أن تكون الأمور أزلية وأبدية، ولذا سلبوا الإختيار عن الواجب تعالى، وقالوا بأنه ليس له إلا جهة واحدة، كما قال ملا محسن الفيض في الكلمات المكنونة والوافي ((فان الإختيار في حق الواجب تعارضه وحدانية المشية))، وقال فيهما أيضاً ((المشية نسبة تابعة للعلم، والعلم نسبة تابعة للمعلوم، والمعلوم أنت وأحوالك)) انظر إلى هذه الكلمات وأمثالها كيف يتكلمون في ذات الواجب، وأحاطوا بها، وأخبروا عن شيء لا يعلمونه، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً❁.

❁ الإيجاد عند الصوفية الظهور

فالذي ساق بعض الصوفية إلى القول بأن الحقائق والماهيات هي عبارة عن المعلوم، والمعلوم لا بد له من العلم، والعلم هو عبارة عن الذات جلّ جلاله وسبحانه.

هو إعتقادهم بأن الإيجاد والخلق عندهم ليس الإيجاد من حالة العدم إلى حالة الوجود، مشروح العلل مبين الأسباب، بل الإيجاد عندهم هو الظهور من حالة إلى حالة أخرى.

لذا قال الملا محسن الفيض الكاشاني في الكلمات المكنونة: ((وإن شئت قلت تلك الحقائق هي الماهية، فإنه أيضاً صحيح، فالأعيان الثابتة هي الصور الأسمائية المتعينة في الحضرة العلمية، وتلك الصور فائضة من الذات بالفيض الأقدس))^(١).

وهذان القولان مأخوذان من ابن عربي في الفتوحات المكية حيث قال ((أما

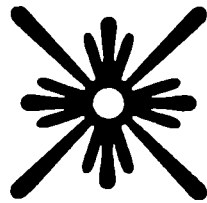
(١) الكلمات المكنونة للفيض الكاشاني ٣٧.

العلم بكونه مختاراً، يعارضه أحدية المشيئة، فنسبته إلى الخلق إذا وصف به، إنما ذلك من حيث ما هو الممكن عليه، لا من حيث ما هو الحق عليه^(١) وفي كتاب فصوص الحكم حيث قال ((فمشيئته أحدية التعلق، وهي نسبة تابعة للعلم، والعم نسبة تابعة للمعلوم، والمعلوم أنت وأحوالك، فليس للعلم أثر في المعلوم، بل للمعلوم أثر في العالم، فيعطيه من نفسه ما هو عليه في عينه))^(٢).

ويقصدون بالحضرة العلمية هي الذات جلّ جلاله عما يقولون علواً كبيراً، ويقصدون من تلك الصور هي الأعيان الثابتة والماهية التي هي أنت أيها الإنسان وأمثالك من المخلوقات.

يعني أنت أيها الإنسان كنت في زمن من الأزمان في ذات الخالق والعياذ بالله، بمعنى كنت إلهاً وقديماً، ثم خرجت وأفضت مثل رائحة الكافور.

وهذا الكلام غني عن البطلان والتعليق، لأنه أدنى مسلم يشهد الشهادتين يدرك فساد هذا القول، مع إعترافهم بأن ذات الواجب سبحانه لا تدرك بأي مدرك من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة.



(١) الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي ١ / ١٦٣ .

(٢) شرح فصوص الحكم لمحمد القيصري ٥٩٠ .

ونحن نقول مختصراً في إبطال هذه المقالات، وتزييف هذه الخيالات، إن هذه الحقايق والماهيات هل هي في رتبة الخلق، أو في مرتبة الواجب لا ثالث بينهما؟ إن قلت إنها في مرتبة الخلق، قلنا إن كل مخلوق حادث بالبداهة، فلم تقولون بقدمها؟ وإن قلت إنها في مرتبة الذات، قلنا: إن الذات لا تدرك بوجه كما تعترف به أنت أيضاً، ومحال وممتنع معرفتها، فما هذه الخرافات، التي لا تتفوه بها السفهاء فضلاً عن العقلاء! ❀.

❀ الذات تعالى لا تدرك

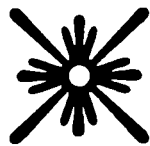
هنا جواب جلي من السيد كاظم، لهذه الآراء على الحقائق الثابتة والماهيات، أنها في ذات الواجب جلّ وعلا عما يقولون علواً كبيراً.

يقول: إن هذه الماهيات والأعيان الثابتة إما أن تكون قديمه أو حادثه.

فإن قلتم بالثانية الحدوث قلنا: إن كل حادث مخلوق من حالة العدم إلى حالة الوجود، فلم تقولون بقدمها بقدّم الذات الواجب تعالى.

وإن قلتم إنها في مرتبة ذات الواجب أي قديمة وإله، قلنا نحن وأنتم مجمعون على أن الذات المقدسة جلّ وعلا لا تدرك ولا تحاط بأي مدرك من مدارك الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾^(١).

فإذا أنت أيها الإنسان وجميع الخلق لا يمكن لك الإحاطة بذات الواجب سبحانه وتعالى، وإذا لم تحط ولم تعلم كيف يمكن لك التكلم فيما لا تعلم؟! .



وإن قلت إنك عرفت الذات بالآثار، قلنا إن معرفة الآثار لا توصل إلى هذه المرتبة من معرفة الذات، لأنك إذا رأيت سريراً، استدلت بذلك على وجود النجار، ولا يدل ذلك على كلفته وكميته وكيونته، فنستدل بالسرير على وجود النجار، وعلمه بهذه الصنعة، وحكمته في هذا العمل، وحياته حال صنعه وقدرته، وأمثال هذه الأوصاف، ولا يمكنك أن تستدل به على كيفية هذه الأوصاف، مثلاً: بأن علم النجار هل هو حصولي أو حضوري أو إنكشافني أو عين المعلوم؟ وأمثالها، وعلى جميع صفات النجار وأحواله، فربما يكون عالماً أيضاً، وخياطاً، وصائغاً، وسيافاً ونحوها، فالآثار لا تدل على جميع أحوال المؤثر وصفاته وكيفياتها وكمياتها، بل تدل على وجود المؤثر من حيث التأثير، فهذه مجرد إثبات، بلا معرفة كلفته وكميته، فالآثار لا توصلك إلى حقيقة ذات المؤثر أبداً، فإذا لم تر النجار ولا تعرف حقيقته، لا تدرك بمجرد هذا السرير والصنعة، أنه بسيط، أو مركب، أو واحد، أو أحد، أو أن وحدته بأي كيفية، أو بساطته بأي درجة ومرتبة.

فظهر أنك لا تتمكن أن تستدل بالآثار على ثبوت هذه الأمور للواجب تعالى، نعم تدلك على معرفة وجوده فقط. ❁

❁ الآثار لا تدل على ذات المؤثر

هنا إشكال وجواب.

الإشكال

تقريره أنهم يقولون إنما قلنا بكون الحقائق الثابتة والماهيات في الذات تعالى

ربي عن ذلك، لكونها معلومات لعلمه سبحانه، والعلم ينطبق على المعلوم، ولما كان كذلك علمنا عن طريق الآثار أن العلم لا بد أن يكون مطابقاً للمعلوم وإلا لم يسمَ علماً.

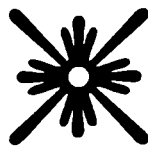
الجواب

أجابهم السيد كاظم إن الآثار نعم تدل على بعض صفات النجار وليس كلها، كما إذا رأيت سريراً مصنوعاً من خشب مثلاً، فتستدل عن طريق الأثر وهو السرير، أن النجار كان موجوداً حال صنعه السرير، وعالماً بالنجارة، وتستدل على حياته أيضاً حين الصنع، لأن الميت لا يمكن أن يعمل شيئاً، وأما الصفات الأخر للنجار، فلا يمكن أن تستدل بها عن طريق السرير، مثلاً هل علم النجار لما صنع السرير حصولي أو حضوري أو انكشافي، أو علمه عين المعلوم أو لا؟

ولا يمكن لك معرفة علوم النجار الآخر، فقد يكون النجار خياطاً وصائغاً وطبيباً ومهندساً وغير ذلك، ولا يمكن لك معرفة لونه، هل أسود أو أبيض، وجنسه عربي أو عجمي، وكمه هل طويل أم قصير؟، ضعيف أم متين، فالسرير يدل على وجود مؤثر من حيث التأثير لا غير ذلك، فالآثار لا يمكن لها أن توصل إلى جميع صفات المؤثر أبداً.

فأنت أيها الإنسان إذا لم تر النجار، ولم تعرف حقيقته لا يمكن لك أن تعرف ماهيته وحقيقته، فكيف تعرف من ليس كمثله شيء مطلقاً.

فتبين أن الآثار لا تدل على جميع صفات المؤثر، نعم تدل على وجوده وعلمه وحياته حال الصنع، وأما صفاته وقدراته وكيفيةها وكميتها فلا يمكن لك معرفة ذلك، هذا في صقع المخلوق خاصة، فكيف بمن ليس كمثله شيء سبحانه؟



وأما نحن فنقول: إن الله بسيط، لأن التركيب صفة الممكن، وصفة الممكن ممكن بالطريق الأولى، وهو سبحانه منزّه ومبرء عن هذه الصّفة، وأيضاً التركيب مستلزم للإحتياج، والواجب ليس بمحتاج، وأما كيفية البساطة من أن الأمور مندمجة فيها أولاً؟ فلا نعلمها بوجه من الوجوه، ومن ادعى ذلك يلقم حجراً، حيث تجرأ على الله سبحانه، وقال بما لم يقله هو، ورسوله، وأولياؤه صلوات الله عليهم أجمعين*.

* الله تعالى بسيط غير مركب

إعتقاد الشيخ أحمد الأحسائي والسيد كاظم الرشتي وتلامذتهما في حقيقة التوحيد جلّ جلاله، أنه واحد أحد صمد، أي غير فارغ فليس فيه غيره تعالى، وأنه بسيط غير مركب، لأن كل مركب محتاج إلى من يركبه، وأقل التركيب من المادة والصورة، فالمادة محتاجة إلى الصورة في الظهور، والصورة محتاجة إلى المادة في الوجود، وكل محتاج فقير حادث ممكن، بيد أن الواجب تعالى الغني المطلق وإلا لزم التسلسل الباطل كما بين من قبل.

وقول السيد إنه بسيط لا يريد به البسيط المعروف عندنا الخلق، مثل قول الفلاسفة ((من أن النفس جوهر بسيط))^(١) وكذلك الروح، والذي أبسط منهما الفعل، الذي بسط البسيط وركب المركب، ومع ذلك الفعل مخلوق، كما قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((المشيئة محدثة))^(٢).

فقول السيد إن الله تعالى بسيط، لا يريد بها بساطة النفس أو الروح أو العقل أو الفعل الذي هو أبسط البسائط، ولكن لضيق العبارة نقول إنه بسيط، لأن البساطة

(١) الانتصار للشريف المرتضى ٣٢.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق ١٤٧، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١١٠.

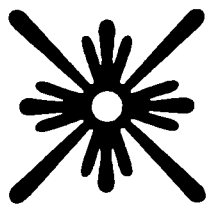
أشرف من التركيب، ولأنها أيضاً صفة كمال، فلهذا وصف بأنه سبحانه وتعالى بسيط.

لذا قال السيد، وأما كيفية البساطة ما هي؟ فلا نعلمها ولا ندركها، لا ما ذهب إليه الصوفية بأن بساطته بمعنى أن الحقائق والماهيات مندمجة ومندرجة فيها كاندراج اللوازم في الملزومات، أو غير مندمجة.

لأن الكلام عن البساطة بأي كيفية، هذا يعني إدراك الذات أولاً حتى يصح الكلام عنها، والذات لا تدرك ولا تحاط أبداً.

فأشرف الخلق كلهم محمد وآل محمد ﷺ لم يتكلموا عن الذات ولا قيد شعرة، لذا قال سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ: ((ما عرفناك حق معرفتك))^(١).

فقول سيد الرسل وأفضل الكائنات وأهل بيته الطيبين الطاهرين ﷺ دليل على عدم معرفته تعالى، كما بين من قبل في باب التوحيد فراجع.



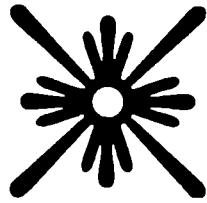
الحاصل فهذا المذهب والإعتقاد باطل بإجماع أهل بيت العصمة والطهارة، وأما ما قالوا: إن العلم لا يكون بلا معلوم، وهونسبة إلى المعلوم وتابعه له فغلط صرف، إذ العلم عندنا أي علمنا، كما قالوا لا يكون بدون المعلوم، وأما علم الواجب تعالى شأنه عين ذاته، والوجوب مخالف للإمكان من كل جهة، فلو كان علمه تعالى لا يكون بدون معلوم أيضاً، فلا فرق بيننا وبينه وهو الكفر الصريح ❀.

❀ علمه تعالى غير علمنا

رد السيد على الصوفية بقولهم إن العلم لا بد له من المعلوم، والمعلوم أنت أيها الإنسان وغيرك من الخلق، لأن العلم لا ينفك عن المعلوم، وإلا لم يسمّ علماً، وعلى ذلك جوزوا وجود ماهيات الخلائق في ذاته سبحانه وتعالى.

أجابهم السيد: كلامكم أن العلم لا بد له من معلوم عندنا الخلائق، وأما علم الواجب تعالى شأنه فلا نعلمه ولا كيف له، لأن علمه عين ذاته، فإذا حددنا أو عرفنا علمه فقد حددنا وعرفنا ذاته تعالى وهذا خلف.

فلو كان علمه كعلمنا، أصبح لا فرق بيننا وبينه، ولازم ذلك يكون مخلوقاً مثلنا، وهذا خلاف التوحيد بأنه ليس كمثل شيء.



فعلمه عين ذاته، وذاته لا تستدعي شيئاً، ولا تقتضي أمراً بالدليل السابق، فالله عالم ولا معلوم أبداً هناك، وقادر بلا مقدور وأمثالها، وصرح بذلك أمير المؤمنين والأئمة الطاهرون، في أصول الكافي يروي ثقة الإسلام الشيخ الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال (لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور)^(١) الحديث وأمثاله من الروايات كثيرة، ومن نظر إلى الكافي والتوحيد والوافي وعيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام تبين له الأمر، وانكشف له المطلوب ❀.

❀ الإعتقاد الحق في العلم

إنه من صفاته تعالى الذاتية العلم، أنه عالم بكل معلوم مطلقاً، وأنه عين ذاته تعالى، وهذا لا يعني حصول المعلوم في الذات، أو وقوع وإنطباق العلم القديم على المعلوم الحادث والعياذ بالله، لأنه في ذلك يلزم إتحاد القديم بالحادث وهو محال. فكما أن ذاته لا تدرك كذلك علمه لا يدرك، كما نطق به أئمة الهدى عليهم السلام، كما في الرواية المروية في أغلب كتب الحديث كالكافي والتوحيد والبحار وغيرها، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع...)).

فقول الإمام عليه السلام واضح لا يحتاج إلى بيان إلا من قال: ربنا باعد بين أسفارنا، والعياذ بالله تعالى، أما نحن فنقول: ربنا قرب بين أسفارنا بمحمد وآله الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

(١) الكافي للشيخ الكليني ١/١٠٧، التوحيد للشيخ الصدوق ١٣٩، البحار للشيخ المجلسي ٤/٦٨.

فظهر أن الله سبحانه عالم وليس في رتبة الذات معلوم قط ، وحقائق الأشياء معلومة له سبحانه ، لكن لا يلزم منها أن تكون في رتبة الذات ، بل هي موجودة ومعلومة في المراتب الإمكانية ، بطور الإمكان لا بطور الأعيان ، وكلها حادثة ومخلوقة له سبحانه ، وليس قديم إلا الواجب تعالى .

ولما ثبت بطلان القول بقدم الحقائق والماهيات ، ثبت المذهب الثاني ، وهو القول بحدوثها ، وهو المذهب الصحيح ، والحق الصريح ❀ .

❀ لا معلوم حادث في ذاته سبحانه

خلاصة الكلام أن الحق سبحانه عالم بكل معلوم ، ولا يلزم من ذلك حصول المعلوم الحادث في ذاته تعالى .

أما حقائق الأشياء وماهياتها فهي معلوم لديه سبحانه ، لكن في رتبته من الحدوث ، كما قال الشيخ أحمد الأحسائي : ((فهو عالم في الأزل ولا معلوم له في الأزل غيره ، وأما ما سواه فهو معلوم له في الحدث ، بمعنى أن ذاته عالم في الأزل بها في الحدث...))^(١) .

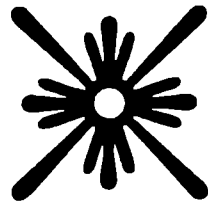
فالله سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات من الحقائق والماهيات وغيرها ، لكنه لا في ذاته تعالى ، بل عالم بها في الحدث ، كما أنك إذا علمت بعلي يصلي عند حضرة الإمام الحسين عليه السلام ، فإنه كلما أردت أن تذكر علياً بأنه يصلي في حضرة الإمام الحسين عليه السلام ، التفت بذهنك إلى نفس حضرة الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة في بلد العراق ، فعند توجهك بذهنك إلى مدينة كربلاء وحضرة الإمام الحسين عليه السلام ، وجدت علياً يصلي في الحضرة ، فأنت تعلم بعلي يصلي في حضرة الإمام الحسين عليه السلام بنفس المكان والزمان من ليل أو نهار في كربلاء المقدسة .

(١) شرح الرسالة العلمية للشيخ أحمد الأحسائي ضمن كتاب جوامع الكلم ٢ / ٨٠ .

وليس علمك بعلي يصلي في حضرة الحسين عليه السلام في ذاتك، وأكبر دليل التفاتك إلى كربلاء المقدسة وحضرة الحسين عليه السلام، وبدون التفاتك إلى الحضرة لا يمكن لك علم وتصور علي يصلي في الحضرة المقدسة، أي لا يمكن لك العلم بصلاة علي في الحضرة بذاتك، بل لا بد من التفاتك إلى نفس المكان والزمان والهيئة الثابتة لعلي في حال الصلاة.

وهذا الكلام ما ذكره الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه في أغلب كتبه ورسائله، وبالخصوص شرح الرسالة العلمية في جوامع الكلم.

فالإنسان آية من آيات الله تعالى، يستدل بها على صفات الله سبحانه، فالحق سبحانه يعلم بالخلائق في أماكنها وأزمنتها من الحدوث والخلق، لا في ذاته جل جلاله، من أراد الاطلاع الموسع في باب العلم وكيفية علمه تعالى، فليراجع شرح الرسالة العلمية للشيخ أحمد الأحسائي في كتاب جوامع الكلم جلاله.



الفصل الثامن [كل ممكن زوج تركيبياً]

كل شيء مركب من شيئين، بعبارة أخرى: كل ممكن زوج تركيبياً من قابل ومقبول، والمراد من القابل هو الهيئة والصورة، والمقبول هو المادة، فالهيئة تعرض المادة وتعينها في صورة معينة، وتخرجها من الإطلاق إلى التقييد، وتكون هي القابلة للمادة. ❁

❁ كل موجود مركب

كل ما سواه الله جلّ جلاله من المخلوقات، أياً كان من الماديات، أو المجردات كالنفس والروح والعقل، حتى النفس الناطقة المقدسة، بل حتى المشيئة بما هي مشيئة مركبة بلحاظها وظهورها إلى نفسها من مادة وصورة، فلا يمكن لمخلوق أن يتوجد في الخارج بلا تركيب من مادة وصورة، مثل الإنسان والحيوان والنبات والجماد والملك والسماء والأرض وغيرها من الموجودات، فلا بد لظهورهم وتحققهم إلى مادة وصورة تظهر هذه المادة، في كيفية مخصوصة وكم معين.

القابل والمقبول

القابل

يطلق على الصورة قابل أو قابلة، وسميت قابل لأنها هي التي قبلت هذه المادة الخاصة الغير محكومة بشيء، إلى هيئة خاصة معينة محكومة بحكم.

المقبول

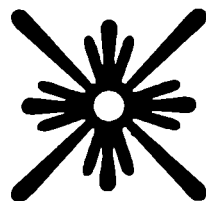
هو ما يطلق على المادة العامة مقبول، ومقبول إسم مفعول، أي وقع عليه قبول القابل، فالقابل هو الذي يقبل المقبول وهو الوجود، فالقابل مثل الرجل حيدر يقبل المقبول وهو الوجود، وإذا قبل حيدر الوجود يتخصص الوجود العام إلى وجود خاص، بسبب قبول حيدر له بالحصّة التي قبلها.

فمادة ألواح الخشب قبل تشكيلها وتصورها بصورة منبر للإمام الحسين عليه السلام، أو بصورة صنم والعياذ بالله تعالى، تكون غير محكومة بشيء من السعادة والشقاوة.

فإذا صنع من هذا الخشب منبر وتشكل وصور بصورة منبر للإمام الحسين عليه السلام احترام، وإذا صنع من نفس الخشب العام صنم أهين واحتقر، فصورة المنبر والصنم هي القابل، والخشب هو المقبول للقابل وهي الصورة والقابلية من المنبر والصنم.

فكل شيء موجود أو بعبارة آخر كل ممكن، والممكن هو الأمر العدمي الذي يحتاج إلى إظهاره إلى واجب الوجود، والممكن هو أمر قابل الوجود وعدمه مع السواء، لذا سمي ممكن زوج تركيبى، فمعنى زوج، لأنه لا يظهر هذا إلا بهذا، أي لا تظهر المادة إلا بالصورة، ولا تظهر الصورة إلا بالمادة.

و معنى تركيبى أي مركب من المادة والصورة أو من قابل ومقبول، فالهيئة أي الصورة هي التي تخرج المادة من الإطلاق، أي من غير محكومة بشيء إلى مقيدة محكوم عليها بحكم من السعادة أو الشقاوة.



كالسريـر مركب من الخشب، الذي هو المادة والمقبول، والصورة التي هي القابلة للمادة المخصوصة، وهو عند قطع النظر عن هذه الهيئة ليس بسريـر، بل مادة وخشب، صالح للباب والصنم والضريح وغيرها، فإذا صورته بإحدى هذه الصور كالسريـر مثلاً تعين له، فلا يصلح لغيره ما دام هو على هذه الصورة، فإذا سلبت عنه هذه الصورة رجع على الحالة الأولى الأصلية❁.

❁ الصورة هي مخصصة للمادة الخام

السيد هنا يضرب مثلاً بالسريـر الخشبي، فيقول السريـر الخشبي مركب من مادة أولية خام وهو الخشب العام الخام، وهو ألواح الخشب التي يمكن أن تكون أشياء كثيرة، منها السريـر والباب والنافذة والعصا والطاولة والكرسي والصنم وغيرها. فإذا قبلت صورة السريـر هذه المادة بصورة السريـرية، وظهر السريـر إلى الخارج وتخصص وقيد هذا الخشب الخام الذي يمكن أن يكون أشياء كثيرة إلى شيء واحد مخصص وهو السريـر.

وقبل قبول القابل وهي الصورة، أي قبل تشكل الخشب بصورة السريـر هو خشب خام كلي غير محكوم بحكم، فإذا تصور بصورة خاصة مثل السريـر وصنعه النجار سريراً، حينذاك تخصص بالسريـر خاصة وعين له، فلا يصلح هذا الخشب لغير السريـر من الطاولة أو النافذة أو الصنم أو غيرها ما دام متصوراً بصورة السريـر.

نعم في حالة يمكن أن يتصور هذا السريـر بصورة الطاولة أو الباب أو الصنم في حال كسرت السريـر حتى أصبح أخشاباً عامة ليس فيها أثر للسريـر، يعني أرجعت المادة الخشبية إلى حالتها الأولى، فإذا أرجعت الخشب إلى حالته الأولى حينذاك يمكن أن يصنع منه باباً أو نافذة أو غيرها.



ولا شك أن المادة المخصوصة للسريير قبل تصورها بهذه الهيئة والصورة ما كانت موجودة، وكذا الهيئة المخصوصة قبل هذه المادة ما كانت موجودة، فالمادة المخصوصة الشخصية والهيئة المخصوصة الشخصية وجدتا معاً في زمان واحد ❀.

نعم المادة الكلية النوعية والهيئة الكلية النوعية كانتا موجودتين من قبل ولكن وجدتا معاً أيضاً، ليس لأحدهما من دون الأخرى وجود أيضاً كالشخصية، فلا يمكن أن يوجد الشيء في الخارج إلا بالهيئة والصورة، إذ لا يحصل الإمتياز بين الأشياء إلا بها، كالإنسان بما هو إنسان لا يوجد في الخارج إلا أن يكون شخصاً مقيداً بالهيئة والصورة المخصوصة، كزيد وعمر وبكر مثلاً ❀❀.

❀ المادة والصورة الشخصية وجدتا معاً

هنا ملاحظه مهمة وهي أنه قبل قبول صورة السريير وكونه سريراً، لم تكن صورة السريير موجودة لأنه لا وجود لها إلا بالمادة، فلا يمكن أن تكون الصورة موجودة قبل إقترانها بالوجود أي المادة، فلو فرض وجود الصورة قبل إقترانها بالمادة والوجود، لزم تحصيل الحاصل، يعني إذا كانت موجودة قبل المادة فلا تحتاج إلى مادة حتى تتحقق، وهذا خلف.

وكذا العكس، لا يمكن للمادة الخاصة للسريير، أن تكون موجودة قبل قبول الصورة السريرية، لأنه لو كانت المادة الخاصة للسريير موجودة قبل إقتران الصورة بها، لزم أيضاً تحصيل الحاصل، وهو إذا كانت المادة متصورة ومخصصة بصورة السريير، فلا حاجة إلى قبول الصورة إلى المادة وهذا واضح.

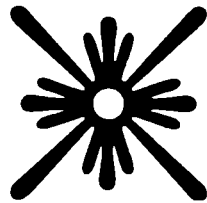
❁❁ المادة والصورة النوعية الكلية وجداً معاً

قد يخطر على بال أحد ويقول: إن السرير بما هو سرير لا بد له من مادة وهو الخشب الخام الكلي وهي ألواح الخشب الخام، والقابل هو صورة وهيئة السرير حتى يتحقق.

أما الخشب الكلي النوعي وهو ألواح الخشب لا يحتاج إلى صورة نوعية خاصة، لكونه غير محكوم عليه بشيء من السعادة والشقاوة.

أجاب السيد كاظم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنه حتى الخشب الخام العام وهو الألواح العامة، أيضاً هي مركبة من مادة وهي الخشب، ومن صورة وهيئة وهي الألواح أو الصفائح وغيرها، لأنه لا يمكن لشيء في الخارج أن يظهر إلا بالمادة والصورة أياً كان.

وضرب مثلاً بالإنسان الذي أفراده محمد وعلي وحسن وحسين وعبد الله وهاشم، لكل واحد منهم مادة وصورة خاصة مميزة تميز هذا عن هذا.



وكذا الهيئة والصورة لا توجد إلا بالمادة بالبداهة، فالمادة موقوفة على الصّورة والصّورة موقوفة على المادة، ولا دور هنا إذ الصّورة موقوفة على المادة في البقاء والوجود، والمادة موقوفة على الصّورة في التصور والظهور والتشكل، فلو لم يكن التوقف من جهة واحدة فلا دور كما هنا، والدور المحال هو ما كان التوقف في جهة واحدة، مثل أن [الألف] موقوف على [باء] و [ب] موقوف على [الألف] في الجهة التي [ألف] موقوف عليه، وأمّا إذا كان [الألف] موقوفاً على [ب] في الظهور، و [ب] موقوفاً على الألف في الوجود، فلا يكون دوراً وان وجدا معاً، كالأبوة والبنوة، فلا تكون الأبوة إلا بالابن، والبنوة إلا بالأب، فإذا توقف الشيء على أمر موقوف على الشيء بمرتبة واحدة فهو مصرح، أو مرتبتين فهو مضمّر وكلاهما محال، وأمّا الدور المعنى المعبر عنه بالمتساوقين والمتضايقين فليس بمحال، و المادة و الصّورة من هذا القبيل ❁.

❁ لا دور في توقف المادة على الصورة

هنا بعد ما قرر السيد كاظم قدس سره أنه لا بد للمادة من صورة وماهية، وكذا الماهية لا بد لها من مادة، بحيث لا يمكن للمادة أن تنوجد بلا صورة، وكذا الصورة لا يمكن لها أن تظهر إلا بالمادة.

قد البعض يشكل على هذا الكلام ويقول:

إذا كانت المادة متوقفة على الصورة، والصورة متوقفة على المادة، وكل منهما متوقف على الآخر فهذا دور، والدور عند الفلاسفة والمناطق باطل، لأنه يلزم من توقف الشيء على نفسه، أي تعريف المعرف بنفسه وهو باطل.

الدور المصرح

والدور إما أن يكون مصرحاً كما ذكره المناطق، وهو ما يقع بين المعرف

بالكسر والمعرف بالفتح مرتبة واحدة، ثم يرجع إلى نفس المعرف بالفتح مثل الذي يفسر الماء بالماء، وذلك مثل تعريف الماء أنه سائل عديم اللون والرائحة والطعم، ويعرف السائل عديم اللون والرائحة والطعم أنه ماء.

فيتوقف الشيء على نفسه، يعني يرجع المعرف بالفتح وهو المجهول وهو الماء إلى نفسه، فكأنك قلت الماء هو ماء وهذا باطل.

الدور المضمّر

هو نفس الدور المصرح، إلا أنه في التعريف يزيد بمرتين أو أكثر في التعريف، ثم يرجع إلى نفس المعرف بالفتح، يعني يرجع إلى ما منه بدأ.

مثل ما ذكره الشيخ محمد رضا المظفر (كتعريف الإثنيين بأنه عبارة عن زوج، والزوج عبارة على أنه متساويان، والمتساويان عبارة على أنه شيان، والشيطان عبارة على أنه إثنان) فرجع الشيء على نفسه من بدء.

فهذا الدور يسمى دوراً مضمراً، لأنه توقف أو أضمر في تعريفه على ثلاث معارف وهي: الزوج والمتساويان والشيطان، ثم رجعت إلى نفس الإثنيين، فهذا التعريف باطل عند إجماع المناطق والفلاسفة.

وذكر السيد المؤلف للدور المصرح بمثال الألف والباء كما في علم الحروف، لأنه له يد طولى في علم الحروف في مصنفاته ورسائله، فيقول لما نقول إن الألف متوقفة على الباء، والباء متوقفة على الألف في نفس الجهة التي متوقفة عليها الألف فهذا باطل.

وذلك لأن الألف بداية الباء، والباء نزول الألف، فالباء تتوقف على الألف في الإبتداء، والألف تتوقف على الباء في نفس الإبتداء، فيكون كل متوقف على الآخر فيحصل الدور الباطل.

حل إشكال الدور الباطل

الدور المصرح أو المضمّر إنما كان باطلاً لكونه يرجع المعرف بالكسر إلى نفس

المعرّف بالفتح، فيرجع ما منه بدأ وهذا باطل، أما إذا كان المعرّف يتوقف على جهة غير الجهة التي عليها المعرّف، فهذا صحيح.

مثل المادة والصورة، لما نقول الصورة متوقفة على المادة في الظهور، والمادة متوقفة على الصورة في نفس الظهور فهذا باطل.

أما إذا قلنا إن المادة متوقفة على الصورة في الظهور، والصورة متوقفة على المادة في التحقق، فيكون التعريف صحيحاً، لأن جهة توقف المادة على الصورة في الظهور، وجهة توقف الصورة بالمادة تحقق، أي لولا الصورة لما ظهرت المادة، ولولا المادة لما تحققت الصورة، فهنا حصل اختلاف في الجهة، فكل له جهة غير الجهة الأخرى.

فهذا الدور يسمى الدور المعنى وهو صحيح، لأنه لا يلزمه المحذور الذي في المصرح والمضمر، وكذا الألف والباء، إذا قلنا إن الألف متوقفة على الباء في الظهور، والباء متوقفة على الألف في التحقق، أي لولا الألف لما تحققت الباء، فهذا دور معنى صحيح لا محذور فيه.

وذكر السيد مثلاً آخر للدور المصرح الباطل الأبوة والبنوة، فالأب لا يقال إلا لمن له ابن، وكذا الابن لا يقال إلا لمن أب.

الدور المعنى

بيد أن الدور المعنى كما هو معروف عند المناطقة والأصوليين صحيح لا إشكال فيه، لأن كلاً من الطرفين في تعريفه يتوقف على جهة غير الجهة الأخرى الذي توقف عليه الآخر.

وذلك مثال المادة والصورة، فإن تعريف المادة وتوقفها على الصورة توقف ظهور، فلولا الصورة والهيئة لما ظهرت المادة، وتعريف الصورة وتوقفها على المادة توقف وجود وتحقيق، أي لولا المادة لما تحققت الصورة.

وبتعبير الشيخ أحمد الأحسائي، المادة قائم بالصورة قيام ظهور، والصورة أو الهيئة قائمة بالمادة قيام تحقق.

فكل من المادة والصورة قائم ومتوقف على جهة غير الجهة المتوقف عليها الآخر، فلا دور باطل هنا .

فالمادة والصورة من قبيل الدور المعني المعبر عنه بالمتساوقين، أي المادة والصورة كل منها يكمل الآخر، فلا مادة بلا صورة ولا صورة بلا مادة .

ويعبر عن المادة والصورة بالمتضايقين مثل الفوق والتحت، فإذا ذكر الفوق دل على أنه له تحت وكذا العكس، فكذلك المادة والصورة إذا ذكرت المادة ذكرت الصورة وكذا العكس، ولكن كل منهما في جهة غير الجهة الأخرى .

إذا عرفت هذا ظهر لك أن القابل والمقبول يوجدان معاً، لا تقدم لأحدهما على الآخر، ولاتأخر في الوجود الخارجى، وإن كان المقبول في الذات ورتبته مقدماً على القابل ❁.

فالقول بأن القابليات قبل الموجودات، أو الموجودات قبل القابليات، قول باطل وإعتقاد عاطل ❁❁.

❁ القابل والمقبول وجدا معاً

هنا خلاصة الكلام أن القابل وهو الصورة، والمقبول وهو المادة، في الظهور والتحقق وجدا معاً، لا تقدم لأحدهما على الآخر، فلا يمكن تحقق وجود المادة بلا صورة في الخارج، وكذا لا يمكن تحقق الصورة بلا وجود في الخارج، وإن كان الوجود في الذات والرتبة مقدماً، أما في الوجود والظهور وجدا معاً، وهذا أمر واضح بديهي.

❁❁ القول بتقدم القابل أوالمقبول

هنا رد على من زعم أن القابليات أو الماهيات يعني الصورة موجودة قبل الوجود، ثم قبلت الوجود كما ذكر من قبل، من أنها موجودة في الذات تعالى بي عن ذلك علواً كبيراً فهذا باطل خارج عن أحكام الإسلام، لأنه سبحانه ليس فيه شيء، ولا يخرج منه شيء، فهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأيضاً لا يمكن تقدم المقبولات وهو الوجود على الماهيات والقابليات يعني الصورة، لأنه لا يعرف الوجود ولا يظهر إلا بالصورة، فالمادة والصورة وجدا معاً في الظهور والتحقق، لا تقدم لأحدهما على الآخر، وهذا واضح إن شاء الله تعالى.



فثبت أن القابليات التي هي حدود وهيئات للمقبولات مخلوقة وحادثة، والقابليات والمقبولات تكونان شيئاً واحداً في الظهور والوجود. ❁

لا تقدم بينهما ولا تأخر إلا بالذات والعرض، كالكسر والإنكسار، فالكسر لا يظهر إلا بالإنكسار، وهو لا يوجد إلا بالكسر، والإنكسار قائم بالكسر قيام صدور وتحقق، والكسر قائم بالإنكسار قيام ظهور. ❁❁

❁ خلاصة القول في المادة والصورة

إن القابليات التي هي الماهيات التي هي الصور للخلائق حادثة مخلوقة، خلقها الله تعالى بمشيئته تعالى، فهي ليست قديمة كما ذكرها البعض من قبل فراجع، وأيضاً المقبولات أي الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى بمشيئته سبحانه.

فكل من القابل وهو الصورة والمقبول وهو المادة وجداً معاً، لا تقدم لأحدهما على الآخر، وخلاف ذكر يكذبه الثقلان والعقل، والله هو الهادي إلى السبيل.

❁❁ تقدم المادة على الصورة بالذات

ذكر أن الوجود والماهية أو المادة والصورة وجداً معاً في الظهور والتحقق، ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد تقدم بينهما بالكلية، فهنا تقدم للمادة على الصورة ولكنه تقدم رتبي وبالذات، يعني أولاً وجد الوجود أي المادة أولاً وبالذات، ثم وجدت الصورة أعني القابلية ثانياً وبالعرض.

ولما نقول الوجود أي المادة وجدت أولاً وبالذات، فهذا لا يعني تحققها في الخارج قبل الصورة، بل المعنى أن وجود المادة مقدم رتبي بالذات في نفس الأمر، وأما في الظهور فمعاً جميعاً لا تقدم لأحدهما على الآخر.

وذلك مثل الكسر والإنكسار، فإن الكسر والإنكسار في الظهور معاً، لا يمكن

أن يكون كسر بلا إنكسار للزجاجة مثلاً، ولا إنكسار للزجاجة بلا كسر، ولكن الكسر مقدم أولاً وبالذات على الإنكسار، فالكسر مثل المادة فهو لا يظهر إلا بالإنكسار، والإنكسار لا يتحقق ويوجد إلا بالكسر، فالإنكسار قائم بالكسر بقيامين.

كما ذكرهما المؤلف بقوله (والإنكسار قائم بالكسر قيام صدور و تحقق) هما :

القيام الصدوري

القيام الصدوري مثل قيام الأشعة بالشمس، وكذا الإنكسار قائم بالكسر قيام صدوري، أي إن الإنكسار صادر من الكسر مثل صدور الأشعة من الشمس.

القيام الركني التحقيقي

القيام الركني التحقيقي كقيام الأجزاء بالمركب، أو كقيام البيت بالطابوق، فكذا الإنكسار قائم بالكسر قيام ركني تحقيقي، فلولا الكسر لما تحقق الإنكسار، والكسر قائم بالإنكسار قيام ظهوري.

القيام الظهوري

القيام الظهور مثل قيام الأشعة بالجدار، فلولا الجدار لما ظهرت الأشعة، وكقيام الروح بالجسد، فلولا الجسد لما ظهرت الروح، وكقيام الكهرباء بالمروحة والثلاجة والأجهزة الأخرى، فلولا هذه الأجهزة لما ظهرت الكهرباء، فالكسر قائم بالإنكسار قيام ظهوري، فلولا الإنكسار لما ظهر الكسر، وهناك قيام رابع هو :

القيام العروضي

وهو كقيام الألوان بالأجسام، فلولا الأجسام لما ظهرت الألوان، وهذه القيامات الأربعة من اصطلاحات الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه.

الفصل التاسع [كيفية خلق الموجودات]

اعلم أن نسبة الفاعل والموجد إلى جميع المفعولات والموجودات على حد سواء، فلم يجعل الحسن حسناً ولا القبيح قبيحاً بلا سبب وداع وباعث، وإلا لزم التّرجيح بلا مرجح وهو باطل ❀.

❀ نسبة الفاعل إلى المفعولات واحدة

أنه بعدما أثبت المؤلف رضوان الله عليه أن كل شيء أو ممكن، مركب من أمرين هما: المادة والصورة، أو الوجود والماهية، أو المقبول والقابل، كلها عبارات مختلفة والمعنى واحد، وأن المادة والصورة وجداً معاً لا تقدم لأحدهما على الآخر.

عرج هنا إلى أن الموجد أي الذي أوجد المادة والصورة من حالة العدم إلى حالة الوجود والعيان، المعبر عنه بالفاعل وهو الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١).

أنه مما لا شك فيه أن بعض المخلوقات حسنة والبعض الآخر قبيحة، والبعض مؤمن، والآخر غير مؤمن، والبعض قريب إلى خالقه والآخر بعيد، فهذا الاختلاف بين الموجودات راجع إلى نفس المخلوق خاصة بالله تعالى.

(١) سورة الرعد آية (١٦).

أما الفاعل والخالق لهذه الموجودات فنسبته إليها واحدة بلا إختلاف، يعني أن نسبة خلق المؤمن نفس نسبة خلق الكافر، ونسبة خلق الحسن نفس نسبة خلق القبيح، فنسبته واحدة في جميع الأحوال.

بمعنى آخر أن الله جلّ جلاله لم يجعل الحسن حسناً، والمؤمن مؤمناً، وكذا القبيح قبيحاً، والكافر كافراً بلا سبب ومرجح، بمعنى أنه تعالى لم يخلقهم على طريق الإجبار والقهر بلا مرجح يرجح أن يكون هذا قبيحاً والآخر سيئاً، بل خلقهم بطلبهم واختيارهم.

فلو فرض أن الله تعالى خلق المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً، وكذا الحسن حسناً والقبيح قبيحاً بلا سبب ومرجح، أو علة أو داعي يرجح أن يكون هذا الشيء حسناً ومؤمناً، والآخر سيئاً كافراً، للزم المحذور وهو الترجيح بلا مرجح، يعني يلزم أن يكون الحسن والإيمان والقريب بلا مرجح وعلة على غيره، وهذا العمل عمل السفیه غير العاقل تعالى ربي عن ذلك علواً كبيراً، وذلك مثل لو أعطى رجل شخصاً ما في الشارع مليون ريال، وسُئل هذا المعطى لماذا أعطيت هذا الشخص مليون ريال؟ إذا قال أعطيته هكذا بلا سبب ولا صدقة لكونه فقيراً، ولا لأي شيء راجح، فأنا أعطيته هكذا بلا سبب، فإن العقلاء تسفه رأيه، وتغلطه على عمله، كما يفعل بعض الأثرياء في العالم، ينفقون الملايين على أمور تافهة غير راجحة ومفيدة.

فالله سبحانه وتعالى لما أوجد الخلائق مختلفين، في الحسن والقبيح، والإيمان والكفر، والقرب والبعد، والكثافة والغلظة، والعلو والسفل، والفاضل والمفضول، خلقهم لسبب وداعي راجح وهو إختيارهم وطلبهم لذلك.

فنسبة خلق الله عزّ وجلّ واحدة لجميع الخلائق، وإنما الإختلاف بالحسن والقبح، والمؤمن والكافر وغير ذلك، من نفس الخلائق خاصة لا منه تعالى، مع قدرته سبحانه أن يجعل الخلق كلهم مؤمنين ويدخلهم الجنة، ولكن ذلك يستلزم الجبر لمن يريد الكفر والقبح منهم، بيد هو العادل الذي لا يجور أبداً.

تفسير آية ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾^(١).

بمعنى أن الله تعالى قادر أن يجعل كل الخلق حسناً مؤمناً، أو العكس سيئاً كافراً، ولكن حكمته تمنع هذا الأمر، لأنه سبحانه العدل الحكيم الغني عن سواه.

ولا يزالون مختلفين في الحسن والقيبح والإيمان والكفر لداعي ومرجح، رجح أن يكون البعض قبيحاً والآخر سيئاً وهو إختيارهم وطلبهم منه تعالى.

معنى باطن الآية الكريمة

ظاهر الآية كما تقدم أن الله تعالى لما خلق الحسن حسناً، والقيبح قبيحاً إنما ذلك لداعي وعله ومرجح وإلا لزم العبث واللغو والعياذ بالله تعالى.

أما باطن هذه الآية المباركة، أن المراد بالمادة هو عبارة عن النور الذي تشعشع من عقل الكل، وهو عقل محمد وآل محمد عليهم السلام فسرى في جميع الموجودات العلوية والسفلية، الغيب والشهادة، ما كان وما يكون وما هو كائن.

فهذا النور ملأ الإمكان والتكوين، بل ملأ السماوات والأرضين، لذا قال مولانا صاحب العصر والزمان في دعاء شهر رجب: ((فيهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا الله))^(٢) قوله عجل الله فرجه: (فيهم) ضمير الجمع راجع إلى المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، والباء في بهم للسببية أي بسببهم، وجدت ما أوجدت من الإمكان والتكوين من السماوات والأرضين من الغيب والشهادة.

لذا هناك روايات متظافرة عن المعصومين عليهم السلام أنه لولاهم لما كان ما كان ولما خلق ما خلق وعلى رأسها حديث الكساء المروي عن الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام حيث قالت عليها السلام: ((فقال الله عز وجل: يا ملائكتي ويا سكان سماواتي، إنني ما

(١) سورة هود الآيتان (١١٨ - ١١٩).

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

خلقت سماء مبنية، ولا أرضاً مدحية، ولا قمرأ منيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلکاً يدور، ولا بحرأ يجري، ولا فلکاً يسري، إلا في محبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء، فقال الأمين جبرائيل: يا رب ومن تحت الكساء؟، فقال الله عز وجل: هم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، هم فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها^(١).

وقال مولانا الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة: ((بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزل الغيب وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض))^(٢)، وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ((إننا صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا))^(٣)، وفي رواية أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((فنحن صنائع الله والخلق كلهم صنائع لنا))^(٤).

فالمادة التي خلق منها الكائنات إنما هي من فاضل نورهم وشعاعهم عليهم السلام، وأما الصورة والماهية فهي عبارة عن ولايتهم وطاعتهم عليهم السلام، فمن قبل ولايتهم خلق بأحسن صورة، ومن أنكر ولايتهم خلق بأبشع صورة.

وهذا منطوق أكثر الروايات عن المعصومين عليهم السلام، لذا روى الشيخ المفيد في الإختصاص: عن عمران اليشكري، عن أبي حفص المدلجي، عن شريف بن ربيعة، عن قبر - مولى أمير المؤمنين عليه السلام - قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام، إذ دخل رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أشتهي بطيخاً، قال: فأمرني أمير المؤمنين عليه السلام بشراء بطيخة، فوجهت بدرهم فجاؤونا بثلاث بطيخات، فقطعت واحداً فإذا هو مر، فقلت: مر يا أمير المؤمنين، فقال: ((أرم به، من النار وإلى النار))، قال: وقطعت الثاني فإذا هو حامض، فقلت: حامض يا أمير المؤمنين، فقال: ((أرم به، من النار وإلى النار))، قال: فقطعت الثالث فإذا هو مدودة، فقلت: مدودة، يا أمير المؤمنين، فقال: ((أرم به، من النار وإلى النار)). ثم قال: وجهت بدرهم فجاؤوا بثلاث بطيخات، فوثبت على قدمي وقلت: اعفني يا أمير المؤمنين عن قطعه - كأنه تأثم

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ٢٤٨.

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٣) البحار للشيخ المجلسي ٣٣ / ٥٨.

(٤) اللمعة البيضاء للتبريزي الأنصاري ٦٤.

بقطعه - فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ((اجلس يا قنبر، فإنها مأمورة))، فجلست فقطعت فإذا هو حلو، فقلت: حلو يا أمير المؤمنين، فقال: ((كل وأطعمنا، فأكلت ضلعاً، وأطعمته ضلعاً، وأطعمت الجليس ضلعاً، فالتفت إلي أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا قنبر، إن الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات والأرض، من الجن والإنس والثمر وغير ذلك، فما قبل منه ولايتنا طاب وطهر وعذب، وما لم يقبل منه خبث وردئ ورتن))^(١).

فمن قبل ولايتهم خلق بأحسن صورة، ومن أنكرها خلق بأبشع صورة، وأما ما في الدنيا من بعض الكفار لهم صورة حسنة، وبعض المؤمنين لهم صورة قبيحة، فذلك لأجل اللطخ الذي حصل لهم في عالم الذر، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي لو أن الخلائق كلهم اتفقوا على ولاية أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام، لجعل الناس كلهم - المراد بالناس كل الخلائق - فخطوب الأكمل والمراد الأعم، على أحسن صورة وعلى صورة واحدة، وهي صورة ولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، وكلهم دخلوا الجنة بولايتهم عليهم السلام، وهي المراد بالأمة، والصورة هي التي تميز الحسن عن القبيح وهذا عن ذلك.

فلو أن الخلائق أجمعوا واتفقوا على ولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، لما خلق الله تعالى ناراً أصلاً.

لذا روي في الأمالي، عن الأسدي، عن النخعي، عن النوفلي، عن علي بن سالم، عن أبيه، عن أبان بن عثمان، عن أبان بن تغلب، عن عكرمه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله جلّ جلاله: ((لو اجتمع الناس كلهم على ولاية علي ما خلقت النار))^(٢).

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري ج١٦ / ص ٤١٢ - ٤١٣.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ٧٥٥، الجواهر السنوية للحر العاملي ٢٣٦، البحار للشيخ المجلسي

ولكن الخلق اختلفوا في أمير المؤمنين عليه السلام بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو النبا العظيم الذي اختلف فيه، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُرِّفَ فِيهِ الْمُخَلَّفُونَ ﴿٣﴾﴾ (١).

لذا قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿٤﴾ أَي فِي وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَأَتَى اللَّهُ تَعَالَى فِي يَزَالُونَ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْمَفِيدِ لِلتَّجَدُّدِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِخْتِلَافَ بَاقٍ مُتَّجِدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاسْتَشْنَى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي وِلَايَتِهِ عليه السلام، الثَّابِتِينَ وَالْمُقَرَّرِينَ بِوِلَايَتِهِ وَهُمْ الشَّيْعَةُ الْمَشَايِعُونَ لَهُ فِيمَا بِأَمْرٍ وَيَنْهَى عَنْهُ عليه السلام، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ رَزَحَ رَبُّكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أَي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْجُودَاتِ خَلَقَهُمْ لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ كَمَا فَعَلَ سُبْحَانَهُ بِنَبِيِّ اللَّهِ آدَمَ عَلَى نَبِينَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَلَقَهُ أَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ مَبَاشَرَةً، وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ مُتَوَقَّفَةٌ عَلَى وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالصَّدِيقَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ وَالْأَئِمَّةِ الْمُعْصُومِينَ عليهم السلام فَمَرَادُ اللَّهِ تَعَالَى أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ إِصْصَالَ الْخَلْقِ إِلَى السَّعَادَةِ لَا إِلَى الشَّقَاوَةِ وَالنَّارِ، وَمَا خَلَقَتِ النَّارَ إِلَّا بِسَبَبِ بَغْضِ بَعْضِ الْخَلَائِقِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام كَمَا الْحَيْثُ الْمَتَّقِمِ، لِذَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَهُمْ أَجْمَلُ مِنَ الْحُورِ وَالْوَلَدَانِ الْمَخْلُودِينَ.

وَأَمَّا فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ الْكَافِرُونَ وَالْكَافِرَاتُ بِصُورِ الْحَيَوَانَاتِ، وَتَسْلُبُ مِنْهُمُ صُورَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي أَخَذُوهَا بِاللُّطْخِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

أَي تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَي حُكْمُهُ وَأَمْرُهُ، لَمَنْ حَارَبَ وَعَادَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَوْ أَنْكَرَ وِلَايَتَهُ، أَنَّ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَجْمَعِينَ، لِذَا كَانَ قَسِيمَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَحَبَهُ إِيمَانٌ وَبَغْضُهُ كُفْرٌ، ثَبَّتْنَا اللَّهُ عَلَى وِلَايَتِهِ وَالْبِرَاءَةِ مِنْ أَعْدَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) سورة النبا (١ - ٣).

(٢) سورة هود آية (١١٨).

فنسبته إلى جميع مفعولاته على حد سواء، ونسق واحد، وإختلاف المفعولات إنما هو بإعتبار الحدود والهيئات الحاصلة حين الفعل، كالشمس والسراج فإن نسبتها إلى الأشعة نسبة واحدة، لكنها لما صدرت منهما وانبثت وانتشرت اختلفت، بعض منها بعيد من السراج منتهى البعد، وبعض منها قريب نهاية القرب، وبعض منها متوسط، فنسبة السراج إليها حيث إنه الفاعل متساوية، والإختلاف من نفس الأشعة، لكن بالسراج لأن وجودها وقوامها بالسراج، لو لم يكن لما كان لها وجود وقوام ❁.

❁ الإختلاف من القابل

تقد الكلام أن نسبة خلق الله جلّ جلاله للكائنات نسبة واحدة، لا خلاف فيها ولا تكثر، وهي أمره كن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢)^(١)، فخلق السماء على سعتها وترامي أطرافها نفس الجهد أو القدرة التي خلق بها النملة الصغيرة، أو الذرة التي لا ترى بالعين المجردة، فليست السماء تعالى عنده سبحانه أثقل أو أكثر خبرة من خلق النملة وهكذا الموجودات، فكل الخلائق خلق بكلمة واحدة على السواء وهي كن.

فالإختلاف فيما بين الخلائق من السماء والأرض والجبال والإنس والجن والملك والجماد والحيوان والنبات على إختلافها، إنما ذلك من نفس المفعولات أي المخلوقات، أعني القابليات المعبر عنها بالماهيات، وهي عبارة عن الكم والكيف والجهة والرتبة والمكان والزمان المعبر عنها بالقيود الستة كما ذكرها الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه في كتبه.

فالقابليات والهيئات والحدود للشيء هي التي حددت المقبول وهو الوجود أو النور بالنسبة للسراج، من القرب والبعد، والحسن والقبح، والطاعة والمعصية والإيمان والكفر.

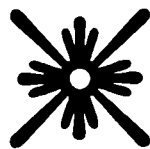
وذلك مثال الشمس والسراج، فالشمس أوجدت الأشعة دفعة واحدة، بأمر واحد أو نسبة واحدة، وأما إختلاف الأشعة من القريب منها كونه أكثر إضاءة، والبعيد أقل إضاءة، وذلك مثل أشعة الشمس عند الزوال، تكون أكثر إضاءة وحرارة، بعكسها عند الغروب تكون الأشعة باردة وقليلة الإضاءة، وعكس العصر تكون متوسطة، فكثرة النور وقلته وتوسطه ليس للشمس فيه دخل، إنما هو إختيار الأشعة نفسها.

فبإمكان الأشعة البعيدة عند الغروب أن تكون عند الزوال أكثر نوراً، وأيضاً بإمكان الأشعة التي عند الزوال أن تكون عند الغروب أقل نوراً، وكل ذلك من القرب والبعث والتوسط لا يكون إلا بالشمس، لأن النور مهما بلغ في القوة والضعف هو من الشمس، إذ لا يوجد بدون الشمس ولا يفقد عند ظهور الشمس.

إذن نسبة الفاعل الذي هو الله تعالى إلى جميع الموجودات، من إيجادهم من حالة العدم إلى حالة الوجود واحدة لا تكثر فيها ولا تفاوت، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١).

قوله تعالى: (كلمح بالبصر) أي كناية عن سرعة إيجاد جميع الموجودات عنده، مثل لمح البصر عند الإنسان.

أما الإختلاف في الخلائق في الكم والكيف والجهة والرتبة والزمان والمكان، إنما ذلك من نفس القابل والصورة، أي من ماهية المكون وهو المخلوق، لا من الخالق الفاعل كما ذكر في إيجاد السراج أو الشمس للأشعة، فالسراج أوجد الأشعة دفعة واحدة، واختلفوا بإختيارهم بالسراج لا بدونه، فلولا الشمس والسراج لما كان للأشعة قوام ووجود أصلاً.



فالشّاع الذي هو واقع في منتهاه، ليس له حجة على السّراج، بأنه لم أقمّني في هذا المحل البعيد؟ إذ له أن يجيب ويقول: إني ما أقمّتك في هذا المحل والمكان إلّا بإختيارك، وطلبك وليس بيني وبينك غضاضة، ونسبتي إليك وإلى ساير الأشعة متساوية، إنما أقمّت كلاً من أشعتي في المحل الذي طلبه وتمناه مني، وعملت بما سأله مني واختاره بمقتضى إرادته، فالشّاع القريب طلب القرب فأجبتّه، وأنت طلبت البعد فأجبتك أيضاً، وما ظلمها ولكن أنفسها تظلم بإعتبار القرب والبعد.*

✽ القرب والبعد من الأشعة

أنه بعدما ذكرنا أن نسبة الفاعل وهو السراج في المثال للأشعة نسبة واحدة، فليس السراج أو الشمس لهما قرب أو بعد أو ثقل أو خفة أو صفاء أو كدورة بالنسبة للأشعة. ففعل السراج للأشعة واحد وهو إحداثها وإيجادها من حالة العدم إلى حالة الوجود، فالسراج ليس له مدخل في قرب بعض الأشعة إليه، فيكون أكثر نوراً، وفي الشعاع البعيد عنه، فيكون أقل نوراً مما قبله، فالقرب والبعد إنما هو بسبب الأشعة نفسها، إذ بإمكان الشعاع البعيد الأقل نوراً، أن يكون قريباً الأكثر نوراً، فليس للشعاع البعيد المختلط بالظلمة، أن يحتج على السراج ويقول له: لماذا أقمّنتي وأوجدتني في آخر الأشعة وجعلت في ظلمة؟

فلو قال الشعاع بلسان الحال هذا القول، يحق للسراج وهي الشعلة أن تقول له: أنا ما أقمّتك في هذا المكان جبراً، بل أنت الذي اخترت هذا المكان، إذ بإمكانك أن تكون أقرب الأشعة إليّ وأكثرها نوراً، لأن إقامتك في البعد عندي كإقامة القريب من الأشعة عندي على السواء، إلا أنك اخترت البعد، وذاك اختار القرب، فأعطيتك البعد وأعطيت ذاك القرب، لأنني أجيب كل من سألني من القرب والبعد، فلو لم أجب من طلب البعد بالبعد، والقريب بالقرب أكون ظالماً جائراً.

فيقول السراج للشعاع البعيد: أنا ما ظلمتك بإقامتك في نهاية الأشعة، بل أنت الذي ظلمت نفسك بإختيارك آخر الأشعة، فنسبتي إلى جميع الأشعة القريبة والبعيدة على السواء، لأن كلاً منهم وجدوا دفعة واحدة، وبأمر واحد لا إختلاف فيه، فبإمكان كل من الأشعة أن يكون أقرب الأشعة إلي، وبإمكانها أن تكون أبعد الأشعة عني، فنسبتي واحدة إلى الكل، فالقريب لما سألني القرب جعلته قريباً، وأنت لما طلبت مني البعد جعلتك بعيداً.

فالنور الصّادر من السّراج والمنبث والمنبسط هو المادة للأشعة والمقبول، وتلك الحدود والهيئات والتعينات التي تمتاز الأشعة بعضها من بعض بها هي الصّورة والقابلية، التي تعيّن ذلك النور في حد خاص ومحل مخصوص.

وكل من الأشعة لا يتعدى مرتبته ومحلّه، ولا دخل له في مرتبة الآخر، فالبعيد بعيد دائماً، والقريب قريب دائماً.

• النور المادة والحدود الصورة

هنا تطبق ما سبق من أن كل شيء مركب من المادة والصورة، وتطبيقها على السراج، حيث إن النور والشعاع المنبسط في عالم السراج من الأشعة، هو المادة التي تتكون منها مراتب الأشعة، وأما الصورة هي عبارة عن تلك الحدود والهيئات، التي تميز هذا النور القريب أو المتوسط أو البعيد، فهذه الحدود والهيئات التي تميز النور القريب من المتوسط من البعيد، هي الصورة لنفس النور القريب والمتوسط والبعيد.

•• كل من الأشعة لا يتعدى رتبته

فكل من الأشعة القريب للسراج، والمتوسط وكذا البعيدة، لا يتعدى مقامه ورتبته، بعد إختياره وتعيينه في مقامه من القرب والبعد والتوسط، فلا أحد من الأشعة يتدخل في رتبة الآخر، كما تراه ظاهراً في أشعة السراج، كل منها لازم مقامه ورتبته، فالقريب قريب دائماً، والمتوسط متوسط دائماً، وكذا البعيد بعيد دائماً، قال تعالى:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١).



إن قلت إن الأمر إن كان كما ذكرت فلا معنى للتكليف، لأن البعيد لا يمكنه أن يكون قريباً، فالإجابة في حقه كانت محالاً، والقريب لا يمكن أن يكون بعيداً، فالإنكار في حقه كان محالاً.

قلت: ليس التكليف من أجل أن يخرج كل من مرتبته، ويطلب السافل مثلاً مرتبة العالي ويخلي مرتبته، بل مرتبة كل هي التي قبلها في أول إيجاده ولا يتعداها، وإنما كلف كل في مرتبته وبحسب رتبته، بالإطاعة لأوامر الله سبحانه ونواهيه، وبإطاعته تزيد قابليته ويكون نورانياً، ومحلاً للفيوضات الربانية والفوائد السبحانية، فيكون من العالين والمقربين وهو في مرتبته ●.

● حل إشكال في القرب والبعد

أنه قد البعض يقول: إذا كان كل من الأشعة في مرتبته ومقامه، ولا يمكن له أن يغير أو يبدل مكانه من القرب والتوسط والبعد، فما فائدة التكليف من الله تعالى بالطاعة والنهي عن المعصية، ما دام لا يمكن للبعيد أن يكون قريباً وكذا العكس.

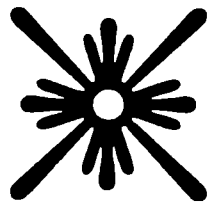
الجواب

أجاب السيد المؤلف رضوان الله عليه، إن التكليف ليس معناه أن يغير الشعاع مقامه ورتبته التي اختارها بنفسه من قبل، كما في السلسلة الطولية، لا يمكن أن يكون الإنسان نبياً، ولا الحيوان إنساناً، ولا الجماد حيواناً، لأن الذي جعل البعيد بعيداً هو نفسه لا من السراج، كما ذكر من قبل.

ففائدة التكليف هو قبوله الطاعة والعبادات، واجتناب المعصيات، وهو في مقامه ورتبته، لأن الشعاع حينما اختار أن يكون بعيداً مثلاً بإختياره وطلبه، فلو جعله السراج قريباً لكان ظلم من السراج وجبر، لأن العدل أن تعطي كلاً على طلبه من الخير والشر والقرب والبعد، كما يأتي الكلام عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فبعد ما اختار مقامه المعلوم حينذاك تحمص وتكوّن، لأن التحمص والتعين بهيئة معينة هي عبارة عن الصورة كما ذكر من قبل، فالفائدة من التكليف أن كل من قَبِل الطاعة واجتنب المعصية يكون نورانياً، لأنه يعكس نور السراج، ويكون محلاً للفيوضات السبحانية، لأنه يشابه صفة المؤثر، فيكون يده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، ورجله التي يمشي بها، لذا روي في المحاسن عنه، عن عبد الرحمن بن حماد، عن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: ((ما تحب إلي عبي بشيء أحب مما افترضته عليه، وإنه ليتحجب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبت، وإذا سألتني أعطيت))^(١).

فيكون حاكياً لصفات المؤثر، فيكون هذا النور من القريبين العالين وهو في مرتبته، والعكس صحيح من جحد أو امره وارتكب نواهيه، اظلم وانتكس على عقبه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٢).



(١) المحاسن لأحمد بن خالد البرقي ١ / ٢٩١.

(٢) سورة السجدة، آية (١٢).

ما ينظر إلى أشعة السراج التي هي في آخر مراتب الأشعة، التي وراؤها الظلمة إذا جعلت مكانها صيقلياً وصافياً، أو تجعل فيه مرآة يزداد نوره، وربما يظهر فيه مثال السراج أيضاً وهو في أسفل مراتب الأشعة، وإلى الأشعة القريبة للسراج بحيث لا أقرب منها إليه، إذا كان مكانها كثيفاً حجراً أسود، يكون ظهور النور فيه قليلاً جداً، بحيث يتخيل لك أن الشعاع الذي هو في آخر المراتب، بسبب صيقلية مكانه ومحلّه وظهور مثال السراج، فيه أقرب إلى السراج من هذا الشعاع القريب إليه، فالصقالة هي قبول التكليف والكثافة إنكاره، فظهر أن التكليف له ثمرات كثيرة، لا أنه لا معنى له.

• ثمرة التكليف

لما ذكر المصنف رضوان الله عليه، أن ثمرة التكليف إنما هو قبول أوامر المولى تعالى، واجتناب نواهيه، وهو في مكانه الذي اختاره في أول إيجاده، وأن قرب الأشعة إلى السراج وبعدها عنه، لا معنى لها إلا بالطاعة للسراج أو المعصية له، وذلك مثال الشعاع البعيد للسراج الذي وراؤه الظلمة، لو يصفى نفسه عن الكدورات والحجب بحيث يكون صيقلياً صافياً، يكون ظهور النور فيه أكثر وأجلى، والعكس أيضاً النور القريب للسراج إذا أدبر عنه، واحتجب بالحجب والكثافات، يكون نور السراج فيه قليلاً أو معدوماً.

كمثال أنك إذا أشعلت المصباح، ووضعت بجانبه حجراً أسود كثيفاً، فإن النور فيه يكون معدوماً على قربه من السراج، والعكس ما لو وضعت مرآة على بعد خمسة أو عشرة أمتار عن السراج، وهذه المرآة صافية صيقلية، يكون ظهور النور فيها أكثر وأجلى من ذلك الحجر القريب للسراج، وذلك لأن المرآة لما كانت صافية وصيقلية وقابلة لنور السراج، وحاكية له ومطبعة لأمره وهو قبول النور، ومجتنبة عن مخالفته

وهي الظلمة، صارت نورانية جلية، عكس ذلك الحجر الأسود الكثيف القريب من السراج، لأنه مخالف لحكاية النور، محتجب بالحجب والكثافات، مدبر عنه مطيع لضده وهي الظلمة، لذا أصبح ظلمانياً مخالفاً على قربه.

لذا آية الله الميرزا علي الإحفاقي قدس الله نفسه المباركة، ذكر مثلاً للقريب من السراج بالقرب الظاهري الكوني، والبعيد عن السراج بالبعد الظاهري الكوني، مثل أبي لهب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فإنه مع قربه في النسب إلى النبي ﷺ، إلا أنه بعيد عنه في الإيمان به وإتباعه، والبعيد الظاهري هو سلمان الفارسي رضوان الله عليه، فإن بلدته في الفرس شرق الحجاز، ولغته مخالفة، فإنه مع بعده الظاهرة ولغته، إلا أنه أقرب الصحابة إلى النبي وأمير المؤمنين وأهل البيت ﷺ، حتى قال النبي ﷺ في حقه: ((سلمان منا أهل البيت)) قال المقدس آية الله الميرزا علي الإحفاقي ((كأبي لهب عم النبي ﷺ مع قربه الظاهري بعيد عن ابن أخيه بعداً لا يوصف حتى نزل في حقه (تبت يدا أبي لهب) وسلمان المحمدي مع بعده الظاهري قريب منه ﷺ قريباً يأتيه السلام من الحق سبحانه توأمًا مع سلام النبي ﷺ ويكون حاملاً لعلم المنايا والبلايا))^(١).

فالمراد من التكليف إنما هو على حسب القبول وشرح الصدر والصيقلية والصفاء لقبول نور التكليف الشرعي، والإمتثال لأوامره تعالى، والإنهاء على نواحيه، وإن كان بعيداً في السلسلة الطولية، فالجماد آخر المراتب في الوجود، في السلسلة الطولية، فهو في نهاية قوس النزول في نهاية البعد عن المبدأ من جهة الطول، ولكنه مع بعده قد يكون أسعد وأفضل من بعض المقربين في الطول من المبدأ، ككفار الإنس، فإن الحصى الذي هو من الجماد الذي سبغ في كف النبي ﷺ، وحنين الجذع الذي كان يتكأ عليه النبي ﷺ.

معجزة حنين الجذع

لذا روي أن نبي الله ﷺ ((لما بنى مسجده، كان فيه جذع نخل إلى جانب

(١) الكلمات المحكمات لآية الله الميرزا علي الإحفاقي ١٢٠.

المحراب يابس عتيق، إذا خطب يستند إليه، فلما أتخذ له المنبر وصعد، حن ذلك الجذع كحنين الناقة إلى فصيلها، فنزل رسول الله ﷺ فاحتضنه فسكن من الحنين))^(١).

معجزة تسبيح الحصى

روي عن الأصبع بن نباته، عن ابن مريم، عن سلمان قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فناوله حصاة، فما استقرت في كف علي عليه السلام حتى نطقت، وهي تقول: ((لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبعلي بن أبي طالب ولياً، ثم قال النبي ﷺ: من أصبح منكم راضياً بالله، وبولاية علي بن أبي طالب، فقد أمن خوف الله عقابه))^(٢).

وأيضاً روي عن ابن عباس قال: قدم ملوك حضرموت على النبي ﷺ: كيف نعلم أنك رسول الله؟، فأخذ كفاً من حصى فقال: ((هذا يشهد أنني رسول الله، فسبح الحصى في يده وشهد أنه رسول الله))^(٣).

فالحصى والجذع من مرتبة الجماد والنبات، وهو آخر مراتب السلسلة الطولية، يقع في نهاية الوجود، ومع ذلك لما قبل التوحيد والرسالة والولاية لأمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام، كان من الموحددين المؤمنين.

فالجماد على بعده من المبدأ أقرب بالإيمان، وفي المقابل أبولهب عم النبي ﷺ من رتبة الإنس، ويلتقي مع النبي في جد واحد وهو عبد المطلب عليه السلام، لم يقر برسالة النبي ﷺ.

إذن البعد والقرب في الطول ليس عليه المدار، فكم من جماد وحيوان يدخل الجنة، وبعض الإنس يدخل النار، مثل المنافقين والكافرين خذلهم الله تعالى.

فالمعول في الصيقلية والصفاء لإنعكاس نور السراج، أي نور الولاية والتوحيد، وإن كان بعيداً في نهاية البعد في الطول.

(١) البحار للشيخ المجلسي ١٧ / ٣٦٥.

(٢) البحار لابن المجلسي ١٧ / ٣٧٢.

(٣) البحار للشيخ المجلسي ١٧ / ٣٧٣.

الحاصل إذا تأملت في هذا المثال، عرفت أن الله سبحانه خلق الخلق لإدراك الحقائق والمعارف.*

* خُلق الخلق لإدراك الحقائق

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لإدراك الحقائق والمعارف، لأن الخلق كلهم آثار فعله جلّ جلاله، والآخر يشابه صفة المؤثر، فالمؤثر وهو الله سبحانه وتعالى هو العليم القدير السميع البصير الحكيم، فهذه الصفات تظهر صفة المؤثر، كما أن الشمس يظهر أثر نورها في الأشعة، فتكون الأشعة حاكية لمؤثرها وهي الشمس، فكما أن الشمس منيرة وحارة، كذلك أثرها وهي الأشعة منيرة وحارة، لقاعدة الأثر يشابه صفة المؤثر.

لذا روي في المحاسن، عنه، عن عبد الرحمن بن حماد، عن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: ((ما تحب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وإنه ليتحب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبت، وإذا سألتني أعطيت))^(١).

فمعنى هذا الحديث أن العبد أعني الأثر إذا تحبب، وفي رواية تقرب إليّ بالنافلة أو بالنوافل على رواية، أي قبل تكليفه وصقّى نفسه، عندها تظهر عليه آثار المؤثر من النورانية، ويفعل كفعله بأمره تعالى.

كما أن الشعاع يفعل كفعل المنير بأمر المنير وهو المؤثر، حيث لولا المؤثر لا نور ولا وجود للشعاع أصلاً.

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٩١، الكافي للشيخ محمد الكليني ٢ / ٣٥٢.

وعرفت كيفية الإيجاد*، وأن القابليات والمقبولات وجدا معاً**،
وأن الأشعة مطلقاً ليس لها وجود قبل إشراق السراج، لا القابليات ولا
المقبولات***، وأن ليس شيء من الأشعة في رتبة ذات السراج، بل
كلها مخلوقة للسراج، وموجودة في رتبة أنفسها****.

• كيفية الإيجاد

أي إذا تأملت السراج في إحداثه للأشعة لا من شيء، عرفت كيف أوجد الوجود
لا من شيء، يعني قبل إيجاد السراج للأشعة لا وجود للأشعة أصلاً، فأوجدها لا من
شيء، أي أوجد الأشعة لا من مادة سابقة، ولا من مادة ذات السراج، لأنه يلزم أن
يكون المؤثر أثراً وهذا باطل، فالصحيح أنه أوجد الأشعة لا من شيء سابق مطلقاً،
ويأتي التفصيل عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

** القابليات والمقبولات معاً

تقدم الكلام في الفصل الثامن أن القابل وهو الهيئة أو الصورة، والمقبول وهو
المادة وجدا معاً لا تقدم لأحدهما على الآخر في الظهور، وإن كان هناك تقدم رتبي
للوجود على الماهية، كتقدم الكسر على الإنكسار.

*** لا وجود للأشعة قبل السراج

أيضاً تقدم الكلام أنه قبل اشتعال السراج لا وجود للأشعة أصلاً، فالأشعة كما
قال الشيخ أحمد الأحساني ((إنها لا توجد بدونها ولا تفقد عند ظهوره))^(١)، فالأشعة
أثر، والأثر لا يوجد إلا بالمؤثر، سواء منها القابل أي الصورة، أو المقبول أي
المادة.

(١) حياة النفس للشيخ أحمد الأحساني ٩٦.

●●●● الأشعة ليست في ذات السراج

أي أن الأشعة ليست موجودة في رتبة ذات السراج، لأن السراج علة والأشعة معلول، فلا يمكن للمعلول أن يصل إلى رتبة العلة مطلقاً، فصقع العلة أو المؤثر غير صقع المعلول والأثر بالبداهة، وإلا لانقلب العلة معلولاً والمعلول علة، والأثر مؤثراً، والمؤثر أثراً وهذا خلف.

وأن حدوث الأشعة من السراج حدوث ذاتي لا حدوث زمني، يعني أن الأشعة دائماً في مراتب الحدوث موجودة، ولم يفقد السراج خلقه وأشعته أبداً، لا أن السراج يكون وقتاً من الأوقات ولا يكون له أشعة أبداً. ●

● حدوث الأشعة من السراج ذاتي

يذكر الفلاسفة للحدوث قسمين هما:

الأول: الحدوث الزمني

((وهو مسبوقية وجود الشيء بالعدم الزمني، كمسبوقية اليوم بالعدد في أمس، ومسبوقية حوادث اليوم بالعدم أمس))^(١).

الثاني: الحدوث الذاتي

((وهو مسبوقية وجود الشيء بالعدم في ذاته، كجميع الموجودات التي لها الوجود بعلة خارجة من ذاتها))^(٢).

أي إن حدوث الأشعة بالنسبة للسراج حدوث ذاتي، حيث إن وجودها وإحتياجها دائماً من السراج، لأنه ليس لها حال غير حال الإحتياج كما الشيخ أحمد الأحساني رحمته الله ((إنها لا توجد بدونه، ولا تفقد عند ظوره))^(٣) فدائماً هي في رتبة الإحتياج المطلق ورتبة الحدوث، لكونها محتاجة وفقيرة إلى السراج.

والسراج أيضاً في نفس الوقت لا يمكن أن يفقد أشعته في رتبة الأثرية والمعلولية، حيث لا يمكن لسراج بلا شعاع في رتبة الشعاعية والأثرية، وقول المؤلف

(١) محاضرات في الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني ٣٠ - ٣١.

(٢) محاضرات في الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني ٣٠ - ٣١.

(٣) حياة النفس للشيخ أحمد الأحساني ٩٦.

إن حدوث الأشعة حدوث ذاتي لا زماني، لأن الحدوث الزماني مسبوق بشيء قبله من الأمس مثلاً، بيد إن وجود الأشعة غير مسبوق بشيء قبلها، وهذا الأمر واضح في إنارة السرج للأشعة، حيث أوجدها لا من شيء كان قبلها، كما نصت على ذلك الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام ((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها))^(١).

فالحق تبارك وتعالى لم يكن في زمن من الأزمان الحادثة في خلو من خلقه، أي في خلو من أثره جلّ جلاله، لذا قال آية الله العظمى الميرزا حسن كوهر: ((ولا يقال إن مادة الجنة والنار، لو كانت هي الأعمال، للزم عدم وجود الجنة والنار الآن، بالنسبة إلى زيد الذي سيوجد بعد حين، فإذا تحقق عدم كونه، فيتحقق عدمية أعماله بالطريق الأولى، فيلزم منها عدم وجود الجنة والنار الآن، وهذا مخالف لما نص عليه الشرائع الإلهية.

لأنا نقول: إن الله سبحانه لم يفقد شيئاً من الأشياء في ملكه ولا يسبقه الحالات] لذا روي عن أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام ((ولا كان خلواً من الملك قبل إنشائه))^(٢).

وإن زيدا الذي هو معدوم عندنا، ليس معدوماً عند الله، بل هو موجود متعين متميز عن غيره في ملكه سبحانه))^(٣).

فقول آية الله الميرزا حسن كوهر ((متميز عن غيره في ملكه سبحانه)) دلالة أن الله جلّ جلاله لم يكن خلواً من الملك، أي لم يكن زمن من الأزمان لم يكن عنده مُلك، وإنما ذلك في ملكه، وهي الإمكان والتكوين الحادث، لا أن المُلك كامناً في ذاته والعياذ بالله تعالى كما ذهب إليه المتصوفة، كما ذكر من قبل فراجع.



(١) البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٢٩ / ٢٢٠.

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١ / ٨٩، البحار للشيخ المجلسي ٤ / ٢٩٩.

(٣) المخازن واللمعات للميرزا حسن كوهر ١٥٥.

وأن السراج خلق الأشعة لا من شيء ●

● خُلِقَتِ الأشعة لا من شيء

أي أن الأشعة لما أحدثها السراج وأوجدتها من حالة العدم إلى الوجود أحدثها لا من شيء، أي لا من مادة سابقة، فلو أن السراج أحدث الأشعة من مادة سابقة، للزم أن تكون المادة السابقة، أيضاً مخلوقة من مادة أخرى سابقة ويلزم التسلسل، إلى ما لا نهاية وهذا باطل عقلاً ونقلًا ولم يقل به أحد مطلقاً، لذا قالت الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها في خطبتها العصماء: ((ابتدع الأشياء لا من شيء تكان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة أمثلها))^(١).

فتنص الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام أنه تعالى ابتدع أي خلق الأشياء وهي الموجودات لا من شيء كان قبلها، يعني لم تكن من مادة سابقة على تكوينها، يعني كونها وأوجدتها لا من شيء مطلقاً، ولم تكن الموجودات أيضاً موجودة من مادة العدم، بحيث يكون العدم مادة للوجود، لأن العدم عند الشيخ أحمد الأحساني رضوان الله عليه هو شيء، وإطلاق العدم إطلاق نسبي فقط، لذا يقال إن المضغة عدم عند النطفة، والعظام عدم عند المضغة، وهكذا عدمية الأشياء التي لم تحدث ثم حدثت، فعبد الله الذي لم يُخلق بعد ليس عدماً بحتاً مطلقاً، بل العدم هنا من جهة التكوين مشروح العلل، مبين الأسباب، تام الأعضاء، أما ذكره فهو موجود في خائن الله تعالى غير معدوم، لذا النفي شيء وهو من مصاديق العدم، كما روي عن حمدويه، عن محمد بن عيسى، عن جعفر بن عيسى، عن علي بن يوسف بن بهمن قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك إن أصحابنا قد اختلفوا، فقال: ((في أي شيء اختلفوا؟، فتداخلمي من ذلك شيء، فلم يحضرني إلا ما قلت جعلت فداك من ذلك ما اختلف فيه زرارة وهشام بن الحكم، فقال زرارة: النفي ليس بشيء وليس بمخلوق، وقال هشام: إن النفي شيء مخلوق، فقال لي: قل في هذا بقول هشام،

(١) البحار للشيخ المجلسي ٢٩ / ٢٢١.

ولا تقل بقول زرارة^(١) فالنفي عند الفلاسفة من مصاديق العدم، مثل الماهية عندهم من مصاديق العدم، لذا ذكر الشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته على أن العدم هو شيء، كما نص عليه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وللکلام تنمة إن شاء الله فيما بعد.

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤ / ٣٢٢، نور البراهين للسيد نعمة الله الجزائري ١ / ١٠٩، مُسند الإمام الرضا عليه السلام للشيخ عزيز الله العطاردي ٢ / ٤٥٣. اختيار معرفة الرجال للشيخ التوسلي ٢ / ٥٤٤.

أما كيفية الإيجاد فلأنك ترى للسراج فعلاً واحداً وهو النور الساطع المنبسط، وليس فيه اختلاف وتفاوت أصلاً وقطعاً، وإنما هذا الاختلاف من القرب والبعد، بإعتبار الحدود والهيئات، وهذه الأشعة وجدت دفعة واحدة بفعل واحد، بتقدم بعض على بعض بالذات، وهذا معنى قوله تعالى ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾^(١) بل فعله واحد ومقتضاه واحد، والاختلاف بحسب الحدود والهيئات والقابليات ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٢)، ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٣)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٤) وأمثال هذه الآيات والروايات كثيرة، ولسان حال السراج يقول دائماً مضمون هذه الآيات لأشعته، وفي كل آن من الآيات يخاطبها، بأن فعلي بالنسبة إليكم واحد، ولا أرى تفاوتاً بينكم في أصل الإيجاد، ولكن لما أردتم الاختلاف خلقتكم مختلفين، فالاختلاف منسوب وعائد إليكم ومنكم، لكن قوامه وتحققه بي ومني.

● فعل السراج للأشعة واحد

إننا حينما ندقق في إحداث وإيجاد السراج للأشعة، نجد أن السراج أوجد الأشعة دفعة واحدة وبفعل واحد وبقوة واحدة، لا اختلاف فيها، يعني لم يخلق ويوجد الشعاع القريب أكثر قوة من الشعاع البعيد وكذا العكس.

ففعل السراج واحد لا خلاف فيه، وإنما الخلاف من كون بعض الأشعة قريبة أكثر نورانية، وبعضها متوسطة متوسط النورانية، وبعضها بعيدة مختلطة بالظلمة من نفس قوايل النور وحدوده وهيئاته، فالقوايل التي قبلت النور هي التي أحدثت

(١) سورة الملك آية (٣).

(٢) سورة القمر آية (٥٠).

(٣) سورة لقمان آية (٢٨).

(٤) سورة النساء آية (٨٢).

الإختلاف من القرب والبعد، وإلا في حقيقة النور واحد لا خلاف فيه، وهذه القابليات أو القوابل هي التي اختار بعضها قريباً، والبعض الآخر متوسطاً وبعيداً وهكذا.

فالجليل جلّ جلاله خلق الخلق بأمر واحد، وهو فعله، وهذا الوجود المنبسط على جميع الموجودات العلوية والسفلية، الغيب والشهادة، بمادة واحدة وهي الوجود، مثل نور السراج بالنسبة للأشعة.

واختار كل من الخلائق مقداراً من ذلك الوجود أو النور أو المقبول على حسب اختياره في القرب والبعد، وعلى ذلك أوجدت السلسلة الطولية من الأنبياء والرسل إلى مؤمن الإنس إلى الملائكة إلى مؤمن الجن، إلى الحيوان إلى النبات إلى الجماد، وإلى عكوسات هذه السلسلة من كافر الإنس والجن والحيوان والنبات والجماد.. الخ.

فبإمكان الجماد وقبل أن يتخصص أن يكون إنساناً، أو ملكاً أو سماءً أو أرضاً أو حيواناً إلى آخره، لأن المقبول واحد وهو الوجود، فبإمكان كل شيء أن يكون كل شيء، وإلا يحصل الجبر والعياذ بالله تعالى، لذا قال تعالى مخاطباً جميع الموجودات حين إيجادهم ﴿وَأَتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾^(١).

يعني إن الله جلّ جلاله أعطى جميع الخلائق على حسب سؤالهم وقابلياتهم، فالذي يريد السماء كان سماءً، والذي يريد إنساناً كان إنساناً، والذي يريد حيواناً كان حيواناً، وكذا الجماد.

وقوله تعالى: ((من كل)) من للتبويض كما تقول: صغت الخاتم من فضة، أي مادة الخاتم من الفضة، يعني أن الخاتم جزء وبعض من الفضة، والفضة يمكن أن يعمل منها خاتماً أو عقداً أو سيفاً أو غير ذلك.

فقوله تعالى: ((من كل ما سألتموه)) أي أن الوجود العام المنتشر في جميع الموجودات المعبر عنه بالوجود أو النور أو المقبول، يمكن أن يكون منه إنساناً أو

حيواناً أو سماءً أو أرضاً أو جماداً، كما يمكن أن يصاغ من الفضة الخاتم والعقد والكرسي، وشباك مراقد المعصومين عليهم السلام، ونفس الوقت يمكن أن يصنع منه صنماً يعبد من دون الله تعالى والعياذ بالله.

علية الوجود ومعلوليته

إنه ذكرنا في إيجاد الأشعة بالسراج، صار بعض الأشعة قريباً شديد النورانية، والبعض بعيداً قليل النورانية، فكذلك الموجودات بعضها قريب نهاية القرب، وبعضها متوسط، وبعضها بعيد نهاية البعد، وبعضها مظلم نهاية الظلمة.

فكل قريب للسراج أو لفعل الله تعالى يكون علة لما بعده، والذي بعده يكون علة للذي بعده، إلى آخر مراتب السلسلة الطولية انتهاءً إلى الجماد.

فعلة العلل من المخلوقين هم محمد وآل محمد عليهم السلام، وما سواهم آثارهم أو آثار آثارهم، أو آثار آثار آثارهم وهكذا، لذا روايات متظافرة صدرت عن المعصومين عليهم السلام، أنهم أول الموجودات وأفضل الموجودات وعلة الموجودات، قال مولانا الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام: ((بكم فتح الله وبكم يختم))^(١)، يعني بهم فتح الله الوجود، لكونهم علة لجميع الموجودات أجمع، لذا قال مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء: ((ونحن صنائع ربنا، والخلق بعد صنائع لنا))^(٢).

انظر إلى قول مولانا الحجة عجل الله فرجه في صراحته، أن الخلق أجمع صنائع لهم عليهم السلام، أي أنهم عليهم السلام علة لوجودات الخلائق أجمع بإذن الله تعالى.

وقد البعض لما يسمع هذا الحديث يقول: هذا حديث فيه مغالاة للمعصومين عليهم السلام، لذا الإمام الحجة عجل الله فرجه رفع هذا الإشتباه من البعض، من

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي ٢٨٥ - ٢٨٧، البحار ٥٣ / ١٧٨، الأنوار البهية للشيخ عباس القمي

كونهم آلهة من دون الله تعالى والعياذ بالله، بقوله: ((نحن صنائع ربنا)) أي نحن مخلوقون مربوبون، وقول الإمام علي الهادي عليه السلام: ((بكم فتح الله وبكم يختم)) الباء هنا للسببية فقط، أي بسببهم، كما أن الأبوين سببان لإنجاب المولود، والشمس سبب للحياة، فالمعصومون سبب أعظم لإيجاد الوجود بإذن الله سبحانه لا غير، أي أنهم مخلوقون مربوبون لكن الله تعالى فضلهم على عباده وخلقهم أجمعين.

الخلاصة

إن فعل الله تعالى واحد كفعل السراج واحد، ونوره واحد وهو النور المنبسط، فيمكن أن يكون كل من الأشعة كل شيء، وكذلك أمر الخلق ففعله واحد لا خلاف فيه، لذا قال تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾^(١)، أي من جهته وفعله ليس فيه تفاوت بعض على بعض للخلائق، بل فيضه ووجوده واحد، يمكن أن يتخصص منه كل شيء بكل شيء، لذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٢) فليس بين الله تعالى وبين خلقه تفاوت، أي هذا أشرف من هذا، أو هذا أثقل من هذا، أو هذا ألطف من هذا في أصل الإيجاد، بل القرب بينه وبين وخلقته في التكليف التشريعي، فمن كان أتقى وأعبد وأورع هو القريب له تعالى دون سواه.

لذا قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

فالإختلاف في التكوين على حسب السلسلة الطولية، وفي التشريع هذا أقرب من هذا، إنما ذلك من نفس الخلائق، ولكنه به سبحانه وتعالى، أي اختيار المطيع الطاعة بالله تعالى، وكذا اختيار العاصي المعصية بالله تعالى.

قال الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه: ((يعني أن العبد هو الفاعل لفعله على جهة الإختيار من غير إكراه ولا إجبار، ولكن بتقدير الله سبحانه الساري في فعل

(١) سورة الملك آية (٣).

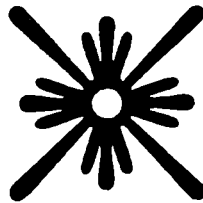
(٢) سورة القمر آية (٥٠).

(٣) سورة الحجرات آية (١٣).

العبد، فبدون القدر لم يتم فعل العبد ولم يمض))^(١).

معناه أن الإختيار من العبد للخير والشر، القرب والبعد، لا يكون بدون قدر الله تعالى وأمره، وإلا يحصل التفويض الباطل، ولا يكون أيضاً بدون اختيار العبد، أي إن العبد هو المختار لأفعاله لكن بقدر الله عزَّ وجلَّ وإلا يلزم الجبر والعياذ بالله تعالى، بل هو أمر بين أمرين كما نص عليها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين))^(٢).

فالإختلاف عائد ومنسوب إلى نفس الخلائق، ولكن قوام الإختلاف وإيجاده وتحققه بالله تعالى، ولو لم نقل قوامه وتحققه بالله تعالى يلزم استقلال المخلوق عن الجليل سبحانه، وإذا كان كذلك يلزم قدمه واستغناؤه عن الله تعالى وهذا خلف.



(١) حياة النفس للشيخ أحمد الأحساني ١٣٧.

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٦٠.

وأما أن القابليات، والمقبولات وجدا معاً، فلأنا قلنا إن المقبول هو مادة الأشعة، وهو فعل واحد للأشعة، نسبته إليها على السوية، وقابلها الهيئة والصورة، التي بسببها اختلفت كل حصة من المادة وعينتها بصورة خاصة، ولا شك أن قبل إشراق السراج لم يكن شيء موجوداً لا المادة ولا الصورة أي القابل والمقبول. ❀

ولا يقال إن قابلية الأشعة هي الأرض، إذ القابلية عين ذات الشيء، والبداهة تحكم بأن الأرض ليست عين ذات الأشعة، ولا جزءها، بل بإنطفاء السراج تنطفئ الأشعة، والأرض باقية فلا يصح أن تكون الأرض قابلية، بل القابلية نفس الأشعة، وهي حدود وهيئات وتعينات وتشخصات ذلك النور، ولا شك أن هذه الحدود لم تكن موجودة قبل ذلك النور، بل وجدت حال وجود النور، وكذلك النور لم يكن موجوداً قبل الحدود وهيئات، يعني كان النور في الخارج ثم وجدت الهيئة وطرت وعرضت، بل وجد النور والهيئة كلاهما معاً دفعة واحدة، بكمال الإختلاف كما مر عليك ❀❀.

❀ لا وجود للأشعة قبل السراج

هنا إيضاح ما ذكر من قبل، وهو أن القابل وهي الصورة والمهية، والمقبول وهو المادة أو النور وجدا معاً، لا تقدم لأحدهما على الآخر، وأن مواد الأشعة من النور، وفي الخلائق هو الوجود الذي خلق منه جميع مراتب الموجودات باختلافاتها، وأن الإختلاف ليس من النور أو الوجود، إنما من القابليات للوجود أو للنور في القرب والبعد والإيمان والكفر، كما أنه لا شك قبل اشتعال السراج لا قابل ولا مقبول، ولا مادة ولا صورة أصلاً، يشير هنا إلى أنه لا وجود للأشعة غير

وجودها، حين وجود السراج منوراً بالأشعة، رداً على من زعم من الصوفية أن الماهيات موجودة في الأزل تعالى ربي عن ذلك علواً كبيراً.

❁❁ الأرض ليست القابلية للأشعة

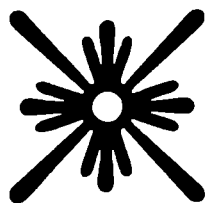
من المعروف أن النور والشعاع ما يظهر إلا في حاجز كثيف، وإلا لا يمكن رؤيته كضوء الشمس بالنسبة للأرض والقمر، فلولا انعكاس ضوء الشمس على الأرض والقمر، لما ظهر نورها، فقد البعض يشبه ويقول إن القابلية للشعاع أو النور هي نفس الأرض أو القمر أو الجدار، لكونها مظهرين لنور الشمس، فالسيد كاظم الرشتي رضوان الله عليه رفع هذا الإشتباه، حيث قال إن عدم ظهور نور الشمس إلا بالأرض أو القمر أو الحاجز هذا لا يعني عدم وجود نور في الخارج، فالنور في الخارج موجود، سواء وجود العاكس أم لا!!.

والدليل الآخر لو كانت الأرض أو القمر هي القابلية للنور، للزم زوالها بزوال النور وهذا خلف.

أضف إلى أن الأرض ليست عين ذات الأشعة ولا جزءها، بل إذا أطفئت السراج تنطفى الأشعة، مع بقاء الأرض.

إذن القابلية هي نفس الأشعة، وهي عبارة عن حدود الشعاع وهيئته وتشخصه من القرب والبعد، وفي شدة النورانية وقلتها.

فكما أن القابل والهيئة للشعاع لا يوجد بدون النور، كذلك النور لا يوجد بدون القابل والهيئة والصورة، وذلك مثال المادة والصورة، فلا يمكن للمادة بدون صورة تظهرها، ولا يمكن للصورة بدون مادة تتقوم بها.



فالنور الذي هو المقبول يعبر عنه تارة بالوجود، وعن الهيئة التي هي القابل بالماهية، ومرة بالأب، وعن الثاني بالأم، وعليه يحمل كلام الإمام عليه السلام : ((الشقي من يشقى في بطن أمه، والسعيد من يسعد في بطن أمه))^(١) والمراد ببطن الأم هي الصورة والقابلية، إذ الأشياء تختلف ويحكم عليها بحكم باعتبار الصور، أما ترى الخشبة قبل تصورها ليس لها حكم، وبعد ما صورتها وجعلتها ضريحاً أو صنماً تحكم بالسعادة والشقاوة، وبالإحترام والتعظيم، والتقبيل في الأول، والحرمة والإهانة والحرق في الثاني، مع أن مادة كليهما واحدة.

وذكر الفقهاء أنه إن تولد من بين الكلب والغنم حيوان يشبه الكلب فهو حرام اللحم ونجس العين، وإن شابه الغنم فهو طاهر العين وحلال اللحم، فالشقي شقي بإنكاره وهو صورة الشقاوة، والسعيد سعيد بإقراره وهو صورة السعادة، وأما أنه لم يكن قبل إشراق السراج شيء من الأشعة موجوداً، لا القابليات ولا المقبولات فظاهر بين لا يحتاج إلى البيان ❀.

❀ الأب المادة والأم الصورة

إنه بعدما ذكر المؤلف رضوان الله عليه القابل والمقبول، والمادة والصورة، بالنسبة للسراج أو للفيض النازل من سحب المشيئة، من قابل ومقبول أو مادة وصورة، عرج هنا إلى أنه يمكن أن يقال للمقبول أي المادة الأب، وللقابل أي الصورة الأم، لملازمة تشكل الصورة في رحم الأم لا في صلب الأب، واستدل بقول النبي ﷺ : ((الشقي من شقى في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه))^(٢).

حيث ذكر من قبل أن تحديد النور الواحد المنبسط في الأشعة من القرب

(١) التبيان للشيخ الطوسي ٦ / ٦٧، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ٩.

(٢) التبيان للشيخ الطوسي ٦ / ٦٧، والبحار للشيخ المجلسي ٥ / ٩.

والبعد، وشدة النور وتوسطه وقلته مع اختلاطه بالظلمة، إنما ذلك بسبب الصورة والهيئة المخصصة للنور الواحد.

فاستدل بالواح الخشب الخام الغير محكومة بشيء، فإذا صنع من نصف لوح الخشب منبر للإمام الحسين عليه السلام، أو ضريح للمعصومين عليهم السلام أحترم وقبل وتبرك به، و من النصف الثاني من نفس اللوح صنم أو آلة موسيقية، أو هينت وأحرقت.

مع العلم أن المادة واحدة وهي نفس اللوح الخشبي، فمدار الإحترام والإهانة إنما هو من نفس الصورة، لذا ذكر الفقهاء أنه لو نزى كلب على شاة فتولد منها حيوان.

فإن شابه الحيوان المتولد منهما الكلب فهو نجس وحرام أكله، وإن شابه الغنم فهو طاهر وحلال أكله.

إذاً فالشقي شقي من جهة تخصص المادة بصور الإنكار والنجاسة، والسعيد سعيد من جهة تخصص المادة بصورة الطاعة والطهارة.

ولا يقال إن الحديث أتى للرجل والمرأة خاصة، نقول: إن كلام القرآن الكريم لم ينزل بسبب الوقائع التي حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، كما ذكر علماء الأصول إن المورد لا يخصص الوارد، فلو كان كذلك لما أمكن الإستفادة منه وهذا خلف.

فالقرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، إلى أن تقوم الساعة، وكذلك روايات المعصومين عليهم السلام ليست خاصة للحاضرين في زمنهم بل إلى أن تقوم الساعة، ولهم في كل كلمة سبعون وجهاً، كما روي في البصائر قال: حدثنا عبد الله، عن الحسن بن الحسين اللؤلؤي، عن ابن سنان، عن علي بن أبي حمزة، قال: دخلت أنا وأبو بصير على أبي عبد الله عليه السلام، فبينما نحن قعود، إذن تكلم أبو عبد الله عليه السلام بحرف، فقلت أنا في نفسي هذا مما أحمله إلى الشيعة، هذا والله حديث لم أسمع مثله قط.

قال: فنظر في وجهي، ثم قال: ((إني لأتكلم بالحرف الواحد لي فيه سبعون وجهاً، إن شئت أخذت كذا، وإن شئت أخذت كذا))^(١).

(١) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار ٣٤٩.

وروي أيضاً عنه قال: حدثنا محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن محمد بن حمران، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إنا لنتكلم بالكلمة بها سبعون وجهاً، لنا من كلها المخرج))^(١).

فقول المعصوم عليه السلام غير محصور بمعنى من المعاني خاصة، بل يوجه على أكثر من وجه مع المطابقة في المعنى.

وأما أن الأشعة ليس شيء منها في مرتبة السراج فظاهر أيضاً، إذ الأشعة آثار ومعلومات السراج، والآخر لا يكون أبداً في مرتبة المؤثر، وإلا لكان المؤثر بدون الأثر وهذا خلف ❁.

❁ الأثر ليس في رتبة مؤثره

إن بين الأثر والمؤثر، والعلّة والمعلول نسبة الصفة والموصوف، مثل صفة القائم لعلي حين تقول علي قائم، فقائم صفة من صفات علي، بمعنى آخر أنها أثر من آثار علي، أو معلول من معلولات علي، لكون علي يتصف بصفات أخرى غير قائم من الجلوس والمشي والكتابة وغيرها.

وكل هذه الصفات آثار ومعلولات لعلي، اتصف بها حين أحدثها لا من شيء، ومما لا شك فيه أن الصفة والأثر والمعلول لا يمكن أن تكون في رتبة الموصوف أو العلة أو المؤثر، لأن الموصوف وهو علي هو الموجد والمحدث لصفة القيام، وكذا العلة هي الموجدة والمحدثة للمعلول، مثل أحداث السراج والشمس للأشعة من حالة العدم إلى حالة الوجود.

وكذا المؤثر هو السبب الوحيد لوجود الأثر، فبقاء الصفة والمعلول والأثر وجوداً وعدمًا على الموصوف والعلّة والمؤثر، لأنها لا توجد بدونه ولا تفقد عند ظهوره كما ذكره الشيخ أحمد الأحسائي وهذا واضح بالبداية.

فإذا كان كذلك لا يمكن للأثر والصفة والمعلول أن يكون بحال من الأحوال في رتبة علته، أو الأثر في رتبة مؤثره، وكذا الصفة في رتبة موصوفها.

فلو فرض أن الأثر في رتبة مؤثره، للزم انقلاب الحقائق، وهو كون الأثر مؤثراً، لأنه وصل إلى رتبة المؤثر، وكون المؤثر أثراً أيضاً لكونه أثر فيه الأثر، فأصبح أثراً وهذا خلف بالطبع والبداية.

وأما ما قاله الصوفية والحكماء: من أن السافل لا بد أن يكون في مرتبة العالي بنحو أشرف، إذ المعطي للشيء ليس فاقداً له، فغلط صرف وباطل محض، إذ المعطي لا بد له من القدرة الكاملة، والعلم حتى بكمال قدرته، ومنتهى عظمته، يخلق الموجودات لا من شيء أي لا من مادة، إذ لو كانت من مادة، فالمادة إما عين الذات المقدسة فهو ظاهر البطلان، لأن الذات لم يلد ولم يولد، وأما غير الذات، ففي هذه الصورة إما حادث أو قديم، إن كان قديماً لزم تعدد القدماء، وإن كان حادثاً فكل حادث مخلوق، والمخلوق على كلامهم لا بد له من مادة، ننقل الكلام إلى المادة أيضاً.

ونقول: إنها إما حادثة أو قديمة، فقلنا فيها ما قلنا إلا أن يقولوا: إن الله سبحانه خلق الأشياء لا من مادة، وهذا بقدرته التامة الكاملة، فلا يكون شيء من السافل في مرتبة العالي بوجه من الوجوه، لا بنحو أشرف ولا غيره كما عرفت، فلم يكن السراج في مرتبة الأشعة بذاته، ولا الأشعة في مرتبة السراج، فالأشعة تسير إلى طرف السراج بلا نهاية ولا تصل إليه أبداً.*

* لا شيء من الخلق في ذات الحق تعالى

أنه بعدما ذكر أنه لا يوجد شيء من الأشعة في مرتبة السراج مطلقاً، وإلا كان المؤثراً أثراً، والأثر مؤثراً وهذا خلف.

بل الأثر مهما بلغ في صفاته وقربه، وشدة انعكاس النور فيه، لا يمكن أن يصعد إلى ما فوقه من الآثار القريبة للسراج، وكذا الأمر بالنسبة للخلق، الذين هم آثار فعل الله جلّ جلاله، كل مرتبة من مراتب الخلق في السلسلة الطولية يترقى في مرتبته، ولا

يمكن أن يصعد إلى الذي فوقه، بل يترقى في مرتبته التي اختارها، مثلاً الجماد يترقى في مرتبة الجمادية، فمهما بلغ في الرقي والعبادة، كتسبيح الحصى في كف النبي ﷺ كما ذكر من قبل، لا يمكن أن يصل إلى رتبة النبات، وكذا النبات مهما بلغ في العبادة والرقي لا يصل إلى رتبة الحيوان، وكذا الحيوان والجن والإنس، وهكذا بقية الموجودات كل يترقى في مقامه، فلا يمكن له أن يترقى إلى ما فوقه من رتبة المخلوق خاصة، بصرف النظر عن رب الأرباب عز وجل.

وحتى الحقيقة المحمدية محمد وآل محمد صلى الله عليهم وسلم، مع علو شأنهم، وعظيم منزلتهم ﷺ، الذي خضع الوجود لهم، وذل كل شيء لهم، كما قال الإمام علي بن محمد الهادي ﷺ في الزيارة الجامعة الكبيرة: ((آتاكم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين، طأطأ كل شريف لشرفكم، وبخع كل متكبر لطاعتكم، وخضع كل جبار لفضلكم، وذل كل شيء لكم))^(١)، الذين هم أفضل الكل في الكل، وعلو العلو، حازوا أعالي رتب الشرف والفضيلة، والكمال والتمام، كما قال الإمام علي الهادي ﷺ في نفس الزيارة الجامعة الكبيرة ((فبلغ بكم أشرف محل المكرمين، وأعلى درجات المرسلين، حيث لا يلحقه لاحق، ولا يفوقه فائق، ولا يسبقه سابق، ولا يطمع في إدراكه طامع))^(٢).

فمع هذا المقام السامي، والشأن العظيم، والرتبة الكاملة، والدرجة العليا، حيث تنحط عنها الرتب والمقامات والشؤون، هم ﷺ عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

فلا يمكن لهم ﷺ أن يكونوا آلهة من دون الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلِنَّكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

فأفضل الخلائق مطلقاً هم محمد وآل محمد ﷺ، ومع ذلك لا يمكن لهم أن

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٣) سورة الأنبياء آية (٢٩).

يصعدوا إلى رتبة مؤثرهم وهو الله جلّ جلاله، فلا وجوداتهم ولا ماهياتهم ولا أعيانهم في ذات الباري سبحانه، بل هم.

أفضل الكل في الكل في رتبة الخلق، لا في رتبة القديم الأزلي، قال مولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام ((اجعلوا لنا رباً نؤب إليه، وقولوا فينا ما شئتم))^(١).

وروي عن كامل التمار قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام ذات يوم فقال لي: ((يا كامل: اجعل لنا رباً نؤب إليه، وقولوا فينا ما شئتم. قال: قلت: نجعل لكم رباً تؤبون إليه ونقول فيكم ما شئنا، قال: فاستوى جالساً ثم قال: وعسى أن نقول: ما خرج إليكم من علمنا إلا ألفاً غير معطوفة))^(٢).

فقول الإمام عليه السلام ((اجعل لنا رباً نؤب إليه)) دليل على عبوديتهم، واحتياجهم إلى ربهم وهو الله تعالى، ولازم ذلك أنه لا يمكن للمعصومين عليهم السلام أن يكونوا في رتبة القديم الأزلي والعياذ بالله تعالى، بل هم دائماً أفضل الكل في رتبة الخلق خاصة، وهذه هي عقيدة مدرسة الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه، بأن يضع محمداً وآل محمد عليهم السلام على النمط الأوسط لا غالي ولا مقالي، أي لا ينزلهم عن مراتبهم ولا يجعلهم أرباباً من دون الله سبحانه.

مقولة الصوفية إن الخلق في الذات

مع العلم بنصوص الكتاب والسنة على أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه تعالى لا يحاط مطلقاً، ولا تدركه الأبصار، وإنه لم يلد ولم يولد.

تجد الصوفية وعلى رأسهم محيي الدين بن عربي يقولون: إن الوجود من السماء والأرض والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد هو عين الله جلّ جلاله تعالى ربي عن ذلك علواً كبيراً، كما قال ابن عربي في الفتوحات المكية ((لما ثبت أن الوجود عين الحق، وأن ظهور تنوع الصور فيه، علامة على أحكام أعيان الممكنات

(١) المحتضر للشيخ حسن بن سلمان الحلبي ٦٥.

(٢) مستدرک سفینه البحار للشيخ علي النمازي الشاهرودي ٧ / ٥٢ - ٥٤ عن بصائر الدرجات.

الثابتة، فسميت تلك الصور الظاهرة بالحكم في عين الحق ظهور الكتاب في الرق
عالمًا^(١).

وقال محمد داوود القيصري تلميذ ابن عربي في شرحه على فصوص الحكم
لابن عربي ((وإنا عينه فاعلم * إذا ما قلت إنساناً) أي، إنا وأعيان العالم عين الله،
لأنها أسماؤه، والأسماء من وجه عين المسمى، وهو من وجه (الأحدية) كما مر
في المقدمات. ومعنى (إذا ما قلت إنساناً) أي إذا جعلت العالم من حيث أحدية
جمعه مسمى بالإنسان الكبير، وإنا عين الله))... إلى أن قال: ((فكن حقاً وكن
خلقاً * تكن بالله رحماناً) أي فكن حقاً بإعتبار روحك، وخلقاً بإعتبار جسدك، أو
فكن حقاً بإعتبار حقيقتك الجامعة للحقائق كلها الإلهية والكونية، وكن خلقاً بإعتبار
تعينك وتقييدك، وكونك مظهراً للصفات الإلهية، تكن بالله عام الرحمة على
العالم^(٢).

أخي العزيز انظر إلى هذه التراهاات والشطحات، التي ما يتفوه بها جاهل بل ولا
مجنون، والعجب العجاب أن بعض علماء الإمامية تبعه في أقواله وآرائه، فإننا لله وإنا
إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهؤلاء يزعمون أنهم عين ذات الباري جلّ جلاله عما يقولون علواً كبيراً،
ويستدلون على مزاعمهم، بأن فاقد الشيء لا يعطيه، أي على زعمهم لو كان الحق
جلّ جلاله فاقداً للخلق في ذاته كيف يوجد لهم، وهذا من أقبح الأقوال وأشنع
الإعتقاد والعياذ بالله.

فحقروا عظمة الحق جلّ جلاله من أن الله سبحانه خلق الخلائق أجمع لا من
شيء، وهذا أقدر وأعظم من أن يخلقهم من شيء كما يزعمون.

لذا أجابهم السيد قدس الله نفسه، وتنزل لهم، وقال: إذا قلت إنه خلق الخلق
من مادة، لا تخلو هذه المادة، إما أن تكون هي عين ذات الواجب جلّ جلاله كما

(١) الفتوحات المكية لابن عربي ٢ / ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٢) شرح فصوص الحكم لمحمد داوود قيصر الرومي ٨٧٢ - ٨٧٤.

يزعمون والعياذ بالله وهذا باطل يكذبه الكتاب والسنة، لأنه يلزم الولادة وقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾^(١).

أو تكون هذه المادة غير الذات.

وغير الذات إما قديمة أو حادثة، فإن قلنا إن هذه المادة قديمة لزم تعدد القدماء المتقدم الذكر على البطلان.

وإن قلنا إنها حادثة كل حادث مخلوق، والمخلوق عندهم على حسب الفرض من مادة، فتكون هذه المادة المفروضة إما قديمة أو حادثة، فإن قلنا بالقدم يلزم تعدد القدماء، وإن قلنا بالحدوث إما التسلسل أي هذه المادة الحادثة من مادة حادثة إلى مادة حادثة إلى ما لانهاية، أو نقول قديمة فيتعدد القدماء، وكلاهما باطل.

الخلاصة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لا من شيء، أي لا من مادة سابقة، بل أوجدهم حين أوجدهم لا من وجود سابق، كما قالت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام: ((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة أمثلها، كونها بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته))^(٢).

فلا يوجد شيء في ذاته تعالى إلا ذاته المقدسة، لا بنحو أشرف ولا غير أشرف، فالسراج الذي هو آية من آيات الله تعالى لم تكن الأشعة في رتبة السراج أي المنير، وإلا لزم انقلاب الحقائق، الأثر مؤثر، والمؤثر أثر وهذا خلف.

فالخلائق كلاً وطراً يسرون في قوس الصعود بعد نزولهم إلى مبدئهم بلا نهاية وحد، فهم يسرون كلاً في مرتبته، ولا يصلون إلى حقيقة ذات الحق سبحانه وتعالى،

(١) سورة التوحيد، آية (٣).

(٢) خطبة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، بحار الأنوار / ٢٩ / ٢٢٠ - ٢٢٧.

وكذلك الأشعة تستمد وتسير في مكانها إلى مبدئها، ولا تصل إلى حقيقة ذات السراج أبداً.

لذا قال تعالى في الحديث القدسي: ((وليس لمحبتني غاية ولا نهاية، كلما رفعت لهم عملاً وضعت لهم علماً))^(١).

فجميع الخلائق يسرون في صعودهم إلى مبدئهم، ولا يصلون إليه أبداً، فلو فرض الوصول إلى المبدأ والعلة، لزم ما ذكر من كون العلة معلول، والمعلول علة وهذا خلف.

(١) الجواهر السنوية للحر العاملي ١٩١.

وأما أن الأشعة ليس لها اتصال بالسراج، ولا لها انفصال منه، فلأن الأمرين إذا اتصلا فلا بد من مشابهة أحدهما بالآخر في الملتقى، يعني في المكان الذي يتلاقيان فيه، وإلا فلا يكون الاتصال لفقدان شرطه، فعلى هذا لا بد أن يكون ملتقى كل من السراج والأشعة كالأخر، فإن كان كذلك لزم كون السراج بما هو سراج شعاعاً، أو كون الشعاع سراجاً والكل باطل، فظهر أن لا اتصال بينهما ❁.

❁ لا اتصال بين السراج والأشعة

بعد ما ذكر أنه لا يوجد من الأشعة في السراج، أعني المنير، وكذا لا شيء من السراج، أعني المنير في رتبة الأشعة، وإلا لانقلبت الحقائق وهذا واضح مما تقدم. عرج هنا المؤلف رحمته إلى أنه أيضاً لا يوجد اتصال بين السراج وأشعته، أي لا اتصال بين المؤثر وأثره وبيانه.

أن الاتصال بين أمرين يقتضي في تحققه تلاقيهما في مكان واحد، وإلا لم يحصل الاتصال، وهذا بديهي، فلما تقول: اتصل عبد الله بمحمد، أو اتصل حسن بحسين، معناه أن عبد الله ومحمد التقيا في مكان واحد، وكذا حسن وحسين، وهذا الكلام على اعتبار اتصال كل منهما في نفس المكان، أما إذا قلنا اتصل عبد الله بمحمد، ونعني بذلك أن عبد الله في الأحساء ومحمد في كربلاء المقدسة مثلاً، فلا يسمى هذا الاتصال اتصالاً حقيقياً، لا واقعاً ولا عرفاً ولا اعتباراً، لأنه قد يقول أحد يمكن أن يكون الاتصال مجاز بين محمد وعبد الله، أما الاتصال الواقعي هو الاتصال بالقلب.

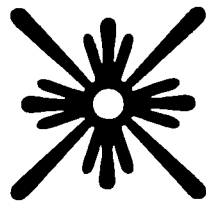
نقول: نعم هذا صحيح، وهو حقيقي لا مجازي، بحيث أن كلاً من قلب محمد وعبد الله اتصلا في مكان واحد، وهو القلب الروحي أو المعنوي.

وعلى ذلك يكون اتصالهما في مكان واحد وهو الاتصال القلبي في مكان

القلب، فيكون الاتصال في نفس المكان، لا في مكانين مختلفين، فلو فرض إتصال الأشعة وهي الأثر بالسراج الذي هو المؤثر، لزم أن يكونا في مكان واحد ورتبة واحدة، لأن شرط الاتصال في مكان واحد المشابهة، أي مشابهة إحداهما بالآخر، وذلك مثال الأمور الجسمية، والأمور الروحية الملكوتية، فلا يمكن للجسد الدنياوي أن يلتقي بعالم الملكوت الروحي، لأن طبيعة هذا غير ذلك، فلا بد من مشابهة في الاتصال في نفس المكان والكائن، فلو فرضنا أنه يوجد اتصال بين الأشعة والسراج يلزم مشابهة أحدهما بالآخر، يعني المؤثر السراج يشابه الأشعة التي هي الأثر وكذا العكس.

بمعنى يكون السراج الذي هو مؤثر يكون شعاعاً الذي هو أثر، وهذا خلف مما أجمع على بطلانه جميع العقلاء والديانات والعرف، لما فيه من انقلاب الحقائق وهذا واضح.

فظهر أنه لا اتصال بين السراج والأشعة بأي وجه من الوجوه، وذلك لعدم اجتماعهما في مكان واحد وفي رتبة واحدة.



وأما أنه لا انفصال بينهما، فلأن الفاصل بينهما، إما سراج أو شعاع أو غيرهما، والثالث باطل إذ لم يكن غيرهما بينهما، والثاني أيضاً باطل إذ الشعاع إن كان متصلاً فهو أيضاً باطل كما ذكر، وإن كان منفصلاً فهو أيضاً باطل، إذ الفاصل أي واحد كان من الثلاثة المذكورة يلزم التسلسل، أو القول بعدم الانفصال، والأول أيضاً باطل، إذ الفاصل إما هو ذلك السراج أو سراج آخر، والثاني باطل بالبداهة، والأول هو عين ذلك السراج، فثبت أنه لا انفصال بينهما أيضاً كما قلنا ❁.

❁ لا انفصال بين السراج وأشعته

بعدهما ذكر لا اتصال بين السراج وأشعته، ذكر هنا أنه أيضاً لا انفصال بين السراج وأشعته، وذلك كالآتي:
أنه لو فرض انفصال بين السراج وأشعته.

نقول: إن هذا الفاصل الذي يفصل ما بين السراج والأشعة، لا يخلو من ثلاث احتمالات وهي: إما أن يكون الفاصل أجنبي غير السراج والشعاع، أو يكون الشعاع، أو يكون السراج.

الاحتمال الأول

أن يكون الفاصل بين السراج والشعاع هو شيء أجنبي غير السراج والشعاع، وهذا الاحتمال باطل، إذ ليس هناك غير السراج والأشعة، أي إما أن يكون سراجاً أو شعاعاً، إذ لا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما.

الاحتمال الثاني

أن يكون الفاصل الذي يفصل بين السراج والأشعة، هو نفس الشعاع أي الأشعة، وهذا الاحتمال أيضاً باطل، إذ لو فرضنا أن الفاصل هو نفس الشعاع فله حالتان:

الحالة الأولى

إما أن يكون هذا الشعاع متصلاً بالسراج وهذا باطل كما تقدم، من كون الاتصال يقتضي اتصال تواجد السراج والشعاع في مكان واحد ورتبة واحدة، وعلى ذلك يستلزم المشابهة في الأثر والمؤثر من كون السراج شعاعاً وكذا العكس وهذا باطل.

الحالة الثانية

أن يكون هذا الشعاع منفصلاً، وإذا كان منفصلاً لا يخلو الفاصل من أحد ثلاث: إما السراج أو الشعاع أو غيرهما، والثالث باطل كما تقدم، ويبقى الاثنان وهما السراج أو الشعاع، وإذا قلنا بوجود الفاصل بينهما أيضاً لزم التسلسل أو الدور، يرجع من حيث انتهى وكلاهما باطلان.

الاحتمال الثالث

وهو أن يكون الفاصل الذي يفصل بين السراج والأشعة هو نفس السراج، فنقول: إذا كان الفاصل السراج فله أمران هما: إما نفس السراج أو سراج آخر غيره.

الأمر الأول

أن يكون الفاصل الذي يفصل بين السراج والشعاع سراج آخر أجنبي غير السراج الأول، فهذا باطل، إذ لا وجود في عالم السراج إلا هو وأشعته، قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: ((وإنما هو الله عز وجل وخلقه، لا ثالث بينهما، ولا ثالث غيرهما))^(١) فلا وجود في عالم السراج إلا السراج وأشعته.

الأمر الثاني

أن يكون الفاصل الذي يفصل بين السراج والأشعة هو نفس السراج الأول الحقيقي المحدث للأشعة، وهذا باطل أيضاً، إذ لا يمكن أن يكون الفاصل هو نفس

(١) عيون الأخبار للشيخ الصدوق ٢ / ١٥٦.

السراج، يعني كيف يمكن أن يقال إن بين عبد الله وبين قيامه فاصل، وهو نفس عبد الله المؤثر، فشرط الفاصلية الغيرية وإلا لم تتم كما ذكر في دليل الفرجة في أدلة التوحيد، فالفرجة والفاصل لا بد لهما من الغيرية، وإذا لم يكن هناك فاصل مطلقاً يكونان واحداً ليس اثنين وهذا خلف، فثبت أنه لا انفصال ولا اتصال بين السراج والشعاع.

وأما معنى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(١) فاعلم أنا قد بينا سابقاً، أن الله لم يجبر الخلائق في الإيمان والكفر، ولم يخلق بعضهم بلا موجب ومرجح من العليين وبعضهم من سجين، بل خلقهم بمقتضى اختيارهم وقابلياتهم واستعداداتهم.

حتى يتحقق التكليف وهو على قسمين:

تكليف وجودي وتكليف شرعي، ونعبر عنهما أيضاً بالشرع الوجودي، وبالوجود الشرعي.

• أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

إن المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه تحدث في الفصل السادس، في اختيار الخلائق التكليف، وعن معنى الإختيار، حيث إن الله جلّ جلاله خلق الخلائق على حسب اختيارهم وذكرهم للوجود، قال تعالى: ﴿بَلْ أَلَبَّيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾^(٢)، فكل من الموجودات أخذ حصته من الوجود في السلسلة الطولية، وأيضاً كما أنه تعالى خلق أفعالهم من الطاعة والمعصية باختيارهم، لا على الطريق الجبر أو التفويض، وقد ذكر بيان هذا المعنى في الفصل السادس فراجع.

فخلق الخلائق على حسب اختيارهم وقابلياتهم للفعل والترك حتى يتحقق التكليف، لأن التكليف لا يتحقق إلا لمن له جهتان، وهي الفعل والترك للمأمور به، إن شاء فعل وإن شاء ترك باختياره لكن بالله سبحانه، والتكليف على قسمين هما:

•• التكليف الشرع الوجودي

أي التكليف الوجودي، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى كلف الخلائق أجمع في إيجادهم، فالذي يختار الوجود على حسب السلسلة الطولية يوجد، والذي لا يريد

(١) سورة الأعراف آية (١٧٢).

(٢) سورة المؤمنون آية (٧١).

الوجود لا يوجد، لعدم توفر الشرائط فيه، كسعادة إبليس اللعين لعنه الله تعالى، وشقاوة الأنبياء ﷺ.

لأنه لو لم يكلف الخلائق بالإيجاد، ويجعل الاختيار لهم في وجودهم، للزم الجبر المنفي عن الذات البات جلّ جلاله.

والمعروف عند الفلاسفة والعرفاء في قسمي التكليف يقولون:

التكليف الوجودي بدون الشرع الوجودي، والتعبير بالتكليف الوجودي، بأنه الشرع الوجودي هذا من اصطلاحات الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي رضوان الله عليه، كما نص على هذا المعنى في كتابه شرح الفوائد بقوله: ((اعلم أن التكليف - في نفس الأمر - هو قابلية الإيجاد، وهو قسمان: طبيعي، واختياري.

فالتطبيعي: يستلزم الشرع الإيجادي، وهو أي الشرع الإيجادي نريد منه الإيجاد على مقتضى الحكمة، كما يفعل البناء في بناء الجدار، بأن يضع اللبنة في الموضع اللائق بها، بحيث لو نقصت تممها، أو زادت كسر منها ما زاد على حجم الدار، فهذا هو الشرع الإيجادي اللازم للصنع، وبدونه لا يقع الصنع، لأنه إن جرى على مقتضى الحكمة لزمه الشرع الإيجادي وإلا فلا))^(١).

معنى كلامه رضوان الله عليه، أن التشريع لأي موجود كان، يعتبر روح للمكون، وبدون الشرع يكون لا قيمة للوجود.

وهو أنك أنت أيها الإنسان إذا أردت أن تصنع كرسيًا ما، فلا بد قبل صنع الكرسي أن تكون عندك علة تشريعية من صناعة الكرسي، هي الجلوس عليه مثلاً، فلولا هذه العلة التشريعية لما صنعت الكرسي، أو يكون عملاً عبثاً، فكذلك الحق تبارك وتعالى، حينما يريد خلق أي مخلوق، لا بد أن تكون هناك مصلحة تشريعية تجوز صنعه، وهي العبادة والمعرفة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) فالعبادة هي العلة التشريعية التي من أجلها خلق الجن والإنس وبقية المخلوقات.

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٣ / ٨١.

(٢) سورة الذاريات آية (٥٦).

لذا الشيخ أحمد الأحسائي يطلق على التكليف الوجودي، بالشرع الوجودي، لأن الشرع هو الذي صوغ ودعا إلى إيجاد هذا الموجود، ولولاه لما خلق هذا الموجود كما ذكرنا في صناعة الكرسي، .

فلولا علة تشريع الجلوس لما صنع الكرسي، أو يكون عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١)، فالشرع روح الكون والوجود لكل شيء موجود.

التكليف الإيجاد الشرعي

المعروف عند الفلاسفة والحكماء بالتكليف الشرعي خاصة، دون ضميمة الإيجاد إلى الشرعي، أما الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه، فيضيف الإيجاد إلى الشرع، ويسمى هذا التكليف الإيجاد الشرعي، بالتكليف الاختياري، لأنه راجع إلى المكلف في اختيار الخير والشر، الطاعة والمعصية، لذا قال الشيخ أحمد في شرح الفوائد ما نصه ((والاختياري: يستلزم الإيجاد الشرعي، وهو أي - الإيجاد الشرعي - نريد منه، إيجاد مقتضى العمل المأمور به، والمنهي عنه، بمعنى أنه إن فعل ما أمر به خلق الله ثوابه، وإن ترك ما أمر به خلق الله عقابه، والثواب مخلوق من مادة وصورة، فمادته نور يحملها إليه الأمر التكليفي، كما أن مادة المكلف نفسه يحملها الأمر الإيجادي وهو كن.

فلما قبل الأمر وهو (كن) خلق الله سبحانه المكلف من الوجود الذي حمله (كن) وهو مادة المكلف، ومن صورة قبوله لتلك المادة، وهي ماهيته.

وهذا هو الكون الإيجادي، فكما أن مادته - أي وجوده - حمله إليه (كن)، فكان منه، ومن ماهيته، وهي قبوله.

كذلك المدلول عليه بقوله: (فيكون)، كذلك خلق ثواب عمله الصالح من مادته التي حمله اليه (صل) و (زك) وما أشبههما.

(١) سورة المؤمنون آية (١١٥).

إذا عمل ما أمر به كما أمر، ومن صورة عمله بذلك الأمر، وامتناله له، وهو قبوله للأمر بالامتنال به.

وخلق عقابه على مخالفته للأمر، أو ارتكابه للنهي من المادة الظلمانية، التي حملها النهي إليه، ومن صورة مخالفته للأمر وارتكابه للنهي.

فالثواب مادته النور الذي حمله إليه الأمر، وصورته عمل المكلف ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾^(١) والعقاب مادته الظلمة، التي حملها إليه النهي، وصورته هي ارتكاب المكلف للنهي، ومخالفة الأمر ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(٢).

فالشرع التكليفي، ولازمه الإيجاد الشرعي وهو روح الكون، والإيجاد الكوني ولازمه الشرع الكوني، ظاهر الكون وهو سر التكليف، وثمرته إيصال الأشياء إلى ما خلقت له، من رحمة الله وغضبه، وذلك مما أراد له^(٣).

ومعنى كلامه رضوان الله عليه، أنه كما خلق تعالى وجودات الخلائق وماهياتهم، أيضاً خلق أعمالهم من الخير والشر، أي خلق صورة الصلاة والصيام والحج والصدقة والمعروف والبر للخلائق.

وفي المقابل خلق أيضاً صور أعمالهم الشريرة من القتل بالجور والزنا والغناء والفسق والفجور والظلم والغشم والمعصية الصادرة منهم بطلبهم.

فكما أن الله سبحانه خلق وجوداتهم وماهياتهم، أيضاً خلق الطاعة والمعصية، لذا عبر الشيخ أحمد الأحسائي بالإيجاد الشرعي، أي أن الشرع يفتقر إلى الوجود، كما أن الوجود يفتقر إلى الشرع.

فلو فرضنا أن الشرع لا يفتقر إلى الوجود كما عليه البعض، لزم التفويض الباطل والاستقلال عن أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

(١) سورة الإسراء آية (٧).

(٢) سورة الإسراء آية (٧).

(٣) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٣ / ٨٣.

(٤) سورة الصافات آية (٩٦).

فهذه الآية المباركة صريحة وواضحة، في أنه تعالى كما خلق الخلائق أيضاً خلق أعمالهم، فكما خلق الوجود أيضاً خلق الشرع من الثواب العقاب، فجميع الخلائق مكلفون بهذين التكاليفين الشرع الوجودي، والوجود الشرعي، فكما أنه تعالى خلق الإنسان أيضاً خلق الصلاة التي يصلّيها، والسرقه التي يسرقها وهكذا، وإلا يستلزم التفويض الباطل.

أما التكليف الوجودي: فهو اعطاء الوجود وانبساطه على طريق ونحو قبولهم، وتخصيصهم بالهيئات والحدود والهندسات والتعينات، كالسراج يكلف أشعته بتكليف واحد، وهو الإنبساط الأول بفعله الذي هو النور، يعني خلق وأحدث نوراً واحداً وبسطه ونشره، حتى يتعين كل حصة منه بحدودها وهيئاتها، ويتخصص بكل محل وموضع طلبته من القرب والبعد والوسط، فيقول مثلاً السراج لأشعته: أأست بربكم؟ فتقول الأشعة كلها بلى، ومعنى أأست بربكم: هو إفاضة النور دفعة واحدة، ومعنى بلى هو قبول النور بحسب قابلياته، فبعض منه يقول: بلى بقلبه ولسانه، فيقع قريباً من السراج، وبعض منه يقوله بلسانه وينكره بقلبه فيقع في آخر الأشعة المخلوط بالظلمة، وبعض تبع الأولين فصاروا من الأقربين، وبعض تبع الآخرين فكانوا من الأبعدين، والمتوسطات متوسطات ❁.

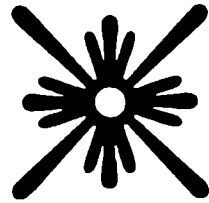
❁ معنى قبول الوجود

ذكر فيما سبق معنى التكليف الشرع الوجودي، وهو عبارة عن إفاضة الوجود لجميع الخلائق لتكون موادهم من الوجود، وتخصص هذه المادة المفاضة بفعل الله تعالى من القرب والبعد والتوسط، تسمى الماهية أو الصورة والقابلية التي قبلت الوجود، وذلك مثال السراج، فإنه حينما يفيض النور المنبسط الموحد من بداية النور إلى نهايته، فهذا يسمى بالتكليف الوجودي، أي كلفهم بالإيجاد، فالذي يريد الإيجاد انوجد، ومعنى انوجد أي قبل الحصة المخصصة له من مراتب الشعاع من القرب والتوسط والبعد المخلوط بالظلمة، وهي المعبر عنها بالماهية والقابلية التي قبلت النور.

فقول الحق تعالى: ((أأست بربكم)) هو عبارة عن إفاضة الوجود، وقول بلى من الخلائق هو عبارة عن اختيار كل من الخلائق رتبة من مراتب الوجود في القرب

والبعد والتوسط، إذ بإمكان أي نور من الأشعة أن يكون في أي محل شاء، لأنها كلها صدرت منه بفعل واحد وهو فعله تعالى، وكذلك السراج أحدث الأشعة بفعل واحد وهو النور الموحد المنبسط، فهذا النور المنبسط يمكن أن يقبله كل أحد وفي أي مكان شاء، فيمكن للشعاع البعيد أن يكون قريباً وكذا العكس، فالبعض يقول بلى بلسانه وقلبه، أي بظاهره وبباطنه، فيكون قريباً، وكونه قريباً لكونه موافقاً للنور أو للمبدأ فلا توجد فيه مخالفة.

والبعض يقول بلى بلسانه وينكر بقلبه، أي يقول بظاهره وينكر بباطنه، فيكون منافقاً أي مخالفاً للنور والمبدأ، فيقع في آخر النور المختلط بالظلمة، وبعض تبع الأولين السابقين في الاتباع والحكيابه، وبعض تبع الآخرين في الإنكار والمخالفة، وبعض احتار لم يقل بلى ولا نعم، ولا يدري ما يعمل وما يقول، لأنه لم تبين له الحجة لموانع فيه، فهنا خمسة أقسام يأتي تفصيلها.



فلك أن تقول إن أشعة السراج على خمسة أقسام:

الأول: المقر بالقلب واللسان، وهو المخلوق طيبته من عليين، الذي هو الشعاع القريب من السراج، والمخاطب بخطاب (للجنة ولا أبالي)^(١).

● القسم الأول المقر بالقلب واللسان

فأول من أجاب ببلى وأقر الله تعالى بالربوبية، وبأوامره واجتناب نواهيه في جميع ما أمر به ونهى عنه، بحيث لم يخالف شيئاً من إرادته أبداً، هم محمد وآل محمد عليهم السلام، لذا روي في بصائر الدرجات، قال: حدثنا علي بن إسماعيل، عن محمد بن إسماعيل، عن سعدان بن مسلم، عن صالح بن سهل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سُئل رسول الله، بأي شيء سبقت ولد آدم، قال: ((أنا أول من أقر ببلى، إن الله أخذ ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم، ألسن بربكم؟، قالوا بلى، فكنت أول من أجاب))^(٢).

وروي أيضاً عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن صالح بن سهل، عن أبي عبد الله عليه السلام، أن بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأي شيء سبقت الأنبياء، وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟، فقال: ((إني كنت أول من آمن بربي، وأول من أجاب، حيث أخذ الله ميثاق النبيين، وأشهدهم على أنفسهم ألسن بربكم؟، فكنت أنا أول نبي قال بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله عزَّ وجلَّ))^(٣).

فأول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو نفس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ((وأنفسنا وأنفسكم))، لذا أول من آمن به كلاً وطراً أمير المؤمنين عليه السلام في الظاهر كما في الباطن، والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والمعصومون عليهم السلام كلهم،

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواري ١

(٢) بصائر الدرجات للشيخ محمد الحسن الصفار ١٠٦.

(٣) الكافي للشيخ محمد الكليني ٢ / ١٠.

نورهم واحد فكلهم محمد ﷺ كما روي عن زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أيما أفضل الحسن أم الحسين؟، فقال: ((إن فضل أولنا يلحق بفضل آخرنا، وفضل آخرنا يلحق بفضل أولنا، وكل له فضل.

قال: قلت له: جعلت فداك وسع عليّ في الجواب، فإني والله ما سألتك مرتاداً.

فقال: نحن من شجرة طيبة، برأنا الله من طينة واحدة، فضلنا من الله، وعلمنا من عند الله، ونحن أمناؤه على خلقه، والدعاة إلى دينه، والحجاب فيما بينه وبين خلقه. أزيدك يا زيد؟، قلت: نعم، فقال: خلقنا واحد، وعلمنا واحد، وفضلنا واحد، وكلنا واحد عند الله تعالى.

فقال: أخبرني بعدتكم، فقال: نحن اثنا عشر، هكذا حول عرش ربنا عز وجلّ في مبتدأ خلقنا، أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد))^(١).

وفي رواية عن جابر عن علي بن الحسين عليه السلام: ((أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد، وكلنا محمد))^(٢).

فهم السابقون الحقيقيون بالذات والأصالة إلى طاعة الله تعالى، فلما كانوا هكذا في عبادتهم وطاعتهم وصفاء قابلياتهم، جعلهم الباري جلّ جلاله أولياءه على خلقه، بل جعلهم كنفسه فيما يأمر وينهى عنه، وأوجب طاعتهم وولايتهم على الجميع، حتى الأنبياء عليهم السلام، عدا نبينا محمد ﷺ لأنه منهم وهم منه.

فكما فرض الحق تعالى توحيدَه وربوبيته على الخلائق، فرض أيضاً طاعتهم ومودتهم وولايتهم على الخلائق قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَدَّعَا اللَّهُ لِكُلِّ قَوْمٍ شُرَكَاءَ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ﴾^(٥)

(١) البحار للشيخ المجلسي ٢٥ / ٣٦٣.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٢٦ / ١٦.

(٣) سورة النساء آية (٨٠).

(٤) سورة الحشر آية (٧).

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾^(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

حتى أنه جلَّ جلاله أقامهم مقامه في سائر وجميع عوالمه، العلوية والسفلية الغيبية والشهودية، ما كان وما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.

كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الغدير، في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله: ((وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، استخلصه في القدم على سائر الأمم، على علم منه، انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس، انتجبه أمراً وناهماً عنه، أقامه في سائر عالمه، في الأداء مقامه، إذ كان لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظن والأسرار))^(٣).

فالقائم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مقامه من بعده أهل بيته وأوصياؤه عليهم السلام قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد ذلك في نفس الخطبة ((وأن الله تعالى اختص لنفسه بعد نبيه صلى الله عليه وآله من بريته خاصة علام بتعليته، وسما بهم إلى رتبته، وجعلهم الدعاة بالحق إليه، والأدلاء بالإرشاد عليه، لقرن قرن، وزمن زمن، أنشأهم في القدم، قبل كل مذروء ومبروء...))^(٤).

فخلق طينتهم من أعلى عليين، وجعلهم علة لمن دونهم مطلقاً، وهي في آية السراج هي الشعلة التي ينتشر عنها النور في أرجاء عالم السراج، فهم الشعلة القريبة للسراج، وغيرهم أشعة صادرة بهم وعنهم، كما روي عن مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه: ((نحن صنائع ربنا، والخلق بعد صنائع لنا))^(٥) لذا خاطبهم العلي الأعلى جل جلاله: ((للجنة ولا أبالي))^(٦) وهنا كلام وكلام لا يسعه هذا المقام والسلام.

(١) سورة المائدة آية (٥٥).

(٢) سورة النساء آية (٥٩).

(٣) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ٧٥٢.

(٤) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ٧٥٢.

(٥) الغيبة للشيخ الطوسي ٢٨٥، ٢٨٧.

(٦) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواري ٣٨١.

الثاني : المنكر بالقلب والمقر باللسان استهزاءً، وهو المجيب بقوله :
نعم، ونعم إجابة المنفي، يعني لما سئل السّراج مثلاً من أشعته بقوله :
ألست بربكم، ومحمد نبيكم، وعلي وليكم وإمامكم، والأئمة من ولده
أولياؤكم وأئمتكم؟

قالت الأشعة : نعم لست بربنا، ومحمد نبينا، وعلي ولينا وإمامنا،
والأئمة من ولده أوليانا وأئمتنا، فخلقت طينتهم من سجين، وهو كمال
البعد من السّراج، وهو الظل الموجود من انعكاس النور، ومثال (الجهل
الكلي) الموجود من انعكاس (العقل الكلي)، والمخاطب بخطاب (وللنار
ولا أبالي)^(١).

❁ القسم الثاني المنكر بالقلب المقر باللسان

القسم الثاني من الخلائق المقر باللسان بالربوبية استهزاءً وسخرية، والمنكر
بالقلب وباطناً بالربوبية والرسالة والولاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب،
والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء، والأئمة المعصومين عليهم السلام.

قال الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي رضوان الله عليه، في هذا القسم لما
خاطبهم رب العزة ألست بربكم ((ومن قالها - أي كلمة الإجابة - بلسانه، وقلبه منكر
مكذب مستهزاء، خلق ظاهره في الدنيا على الصورة الإنسانية، لإجابته بلسانه الذي يدل
على ظاهره، وأما قلبه، فإنه لما كان منكراً مكذباً لما أجاب به بلسانه، فخلقهم في
بواطنهم بصورة التكذيب والإنكار والجحود، وهي الصورة الحيوانية الشيطانية . . .

وهؤلاء هم الكافرون والمنافقون والمشركون، وكل من أنكر الحق من الأولين

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواری ١

والآخرين وأتباعهم، ممن تبين لهم الهدى، فأعرضوا عنه من الاتباع... وهؤلاء - أعني الكفار والمنافقين، الذين أنكروا من بعد ما تبين لهم الهدى، حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) قالوا: بلى، فخلق صورهم الظاهرة من صورة الإجابة، وهي الصورة الإنسانية الظاهرية.

وحين قال لهم: ومحمد نبيكم؟ سكتوا، حيث ظنوا أنه تعالى ما أراد بذلك خصوص طاعته، بل انتقل منها إلى طاعة رسول الله ﷺ، والرسول له ولاية ما، إلا أنه مبلغ، فيرجع أمره وطاعته إلى الخالق سبحانه، ولكن له تفضل، كما حكى الله في كتابه بقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

فسكتوا، ليعلموا ما يستقر طلبه عليه، فإن انتهى إلى المبلغ، ربما يهون الأمر عليهم، فيتداركوا الإجابة، وإن تعدى طلبه إلى أعظم من ذلك أنكروا الكل، لأنه يكون أسهل من أن يكون بعد الإقرار بالكل.

فلما قال لهم: وعلي وليكم!!

أنكروا وقالوا: قد رضينا بما طلب منا أولاً، حتى توصل به إلى أن يولي علينا من يعمل بنا ما يراه فينا من الرأي، ونحن لا نرضى بذلك أبداً، فحكم عليهم بإنكارهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(٣)،^(٤).

فرويت روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام عن هذا القسم.

منها في مختصر بصائر الدرجات، قال: من تفسير القرآن العزيز، تأليف علي بن إبراهيم بن هاشم، وأما قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٥).

(١) سورة الأعراف آية (١٧٢).

(٢) سورة المؤمنون آية (٢٤).

(٣) سورة النساء آية (١٥٥).

(٤) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ٢ / ١٦٥.

(٥) سورة الأعراف آية (١٧٢).

فإنه قال الصادق عليه السلام : ((إن الله تعالى أخذ الميثاق على الناس لله بالربوبية، ولرسوله عليه السلام بالنبوة، ولأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام بالإمامة. ثم قال: الست بربكم، ومحمد نبيكم، وعلي إمامكم، والأئمة الهادون أولياؤكم؟ فقالوا: بلى منهم إقرار باللسان، ومنهم تصديق بالقلب، فقال الله عز وجل لهم: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١).

فأصابهم في الذر من الحسد ما أصابهم في الدنيا، ومن لم يصدق في الدنيا بالله وبرسوله وبالأئمة في قلبه، وإنما أقر بلسانه، إنه لن يؤمن في الدنيا وبرسوله وبالأئمة في قلبه، وإنما أقر بلسانه، والدليل على تكذيبهم في الذر، قول الله عز وجل لنبيه عليه السلام : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾^(٢) إلا أن الحجة كانت أعظم عليهم في الذر، لأن الأمر من الله عز وجل مشافهة^(٣).

فلما أقروا بالسنتهم وانكروا بقلوبهم، خلق ظاهرهم إنسانية وباطنهم صور الحيوانات والشياطين، قال الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه: ((وإنما كانت في الدنيا صور المنافقين والكفار صور الإنسان، لأنهم أجابوا بالسنتهم خاصة، التي هي أدنى آلات المدارك والتبليغ، فإذا كان يوم القيامة، وانتقل الخلق عن الدنيا، تخلف عنهم ما ينسب إليها، فتسلب عنهم الصورة الإنسانية، وتظهر صورهم الحقيقية، التي هم عليها في نفس الأمر والواقع، لأن كل شيء يرجع إلى أصله))^(٤).

لذا من له قلب وألقى السمع وهو شهيد يرى حقائقهم على الطبيعة والواقع بصور الحيوانات والشياطين، كما روي في الخرائج والجرائح عن الصفار، عن أحمد بن الحسين، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن برة، عن إسماعيل بن عبد

(١) سورة الأعراف آية (١٧٢).

(٢) سورة يونس آية (٧٤).

(٣) مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ٢٢٧.

(٤) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٦٣.

العزیز، عن أبان، عن أبي بصیر، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما فضلنا على من خالفنا؟ فوالله إنني أرى الرجل منهم أرخى بالاً، وأنعم عيشاً، وأحسن حالاً، وأطمع في الجنة... قال: ثم مسح يده على وجهي فنظرت، فإذا أكثر الناس خنازير وحمير وقردة، إلا رجل بعد رجل عليه السلام ^(١).

لذا لا يدخل النار من عليه صورة الإنسانية، بل لا يدخل النار إلا بصورة الحيوانات والشياطين، وتسلب منه الصورة الإنسانية، لذا خاطب العزيز جل جلاله أصحاب النار بخطاب الكلاب، بقوله تعالى ﴿قَالَ أَخْسَأُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ عليه السلام ^(٢) فما يوجد في النار إلا الكلاب والخنازير والقردة والدببة والحيات والشياطين والعياذ بالله تعالى من غضبه، وثبتنا بالقول الثابت على ولاية أمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء وأبنائهما الطاهرين عليهم السلام في الحياة الدنيا والآخرة.

خلق طينة المقرين والمنكرين

لما أجاب الأولون ببلى حين قال لهم الرب جل جلاله الست بربكم، وآمنوا بألسنتهم وقلوبهم خلقت طينتهم من أعلى عليين من الجنة، الموافقة لأمر الله تعالى، لأن أمر الله تعالى هو التقوى والطاعة والاجتناب عن معاصيه، وهؤلاء أجابوه، فخلقت طينتهم من أعالي الجنان أعلى عليين، وهم بالأصالة محمد وآل محمد عليهم السلام، وخلقت طينة شيعتهم ومحبيهم من فاضل طينتهم عليهم السلام.

ولما أنكر القسم الثاني بقلوبهم التوحيد والنبوة والولاية للمعصومين عليهم السلام حسداً من عند أنفسهم وتكبراً، خلقت طينتهم أسفل سافلين من سجين، وهي قعر جهنم الذي ليس تحته شيء الموافقة لمعصية الله تعالى، والموافقة للإدبار، لأن الإدبار هو عبارة عن الابتعاد عن المبدأ والإعراض عنه.

فهؤلاء لما أدبروا وابتعدوا ظاهرياً وباطنياً عن أمر الله تعالى بقوله: الست بربكم

(١) الخرائج والجرائح للشيخ قطب الدين الراوندي ٢ / ٨٢١، ٨٢٣.

(٢) سورة المؤمنون آية (١٠٨).

ومحمد ﷺ نبيكم، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب والصديقة فاطمة الزهراء والأئمة أولياؤكم وخلفاؤكم؟ أدبروا نهاية الإدبار، وابتعدوا نهاية البعد، حتى أنهم خالفوا مبدأهم في كل شيء، وغيروا خلق الله الذي خلقهم لأجله، وغيروا فطرتهم التي فطرهم الله عليها، وهي الطاعة والتقوى والإيمان بتوحيده والإيمان برسوله ﷺ، لأنه سيد الأنبياء والمرسلين، حيث لو بعث جميع الرسل في عصره لوجب عليهم التعبد برسالته المباركة، والإيمان بوصيه ووليه أمير المؤمنين والمعصومين ﷺ، لأنهم بقية الله تعالى بعد النبي ﷺ، لأن الولاية العظمى بعد الله تعالى للنبي ثم للولي أمير المؤمنين والمعصومين ﷺ.

فمن أنكر الولي أنكر التوحيد والرسالة، لكون التوحيد والرسالة تامة وكاملة بالولاية، لذا قال تعالى بعد تبليغ النبي ﷺ بولاية أمير المؤمنين ﷺ في يوم الغدير، كما كان في عالم الذر ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) فبدون ولاية الولي يكون الدين ناقص غير تام، وغير مرضي عنه بنص الآية المباركة، فبدون الولي تعطل الأحكام، وتموت السنن، وهذا غير ما أراد الله تعالى من الخلق، من العبادة والطاعة واجتناب المعصية والفحشاء والمنكر والبغي.

وهذا لا يتم بعد النبي ﷺ إلا بالولي، كما كان مع الأنبياء السابقين، كنبى الله موسى صلى الله على نبينا وآله وعليه السلام لما ذهب للمناجاة وهو حي يرزق، لم يترك بني إسرائيل أربعين يوماً بلا خليفة وولي يقوم مقامه، بل أقام فيهم وصيه وأخاه هارون على نبينا وآله وﷺ حيث قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

إذاً القسم الأول لما أجاب ببلى بالإقرار والإيمان والطاعة المطلقة لله تعالى، خلقت طينتهم من أعلى عليين، والقسم الثاني لما أنكروا وجحدوا بعدما عرفوا

(١) سورة المائدة آية (٣).

(٢) سورة الأعراف آية (١٤٢).

الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

أي جحدوا الولاية لأمر المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء والأئمة المعصومين عليهم السلام، بعدما استيقنوها، أي علموا أنها حق غير باطل، وجحدوا وأنكروا الولاية بسبب ظلمهم لآل محمد عليهم السلام وترفعهم عليهم قال فيهم تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أي عاقبة المنكرين الجاحدين أنهم خلقوا من سجين قعر جهنم، وفي الآخرة مصيرهم إلى النار، أجارنا الله تعالى من النار وغضب الجبار.

لذا روي عن المعصومين عليهم السلام عن خلق طينة المقرين وطينة المنكرين، كما ذكر الشيخ محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات قال: حدثني أحمد بن محمد بن خالد عن أبي نهشل، قال حدثني محمد بن إسماعيل، عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((إن الله خلقنا من أعلي عليين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إلينا، لأنها خلقت مما خلقنا، ثم تلا هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿١٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرَقُّونَ ﴿١١﴾﴾ (٢).

وخلق عدونا من سجين، وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه، وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إليهم، لأنها خلقت مما خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿١٠﴾﴾ (٣).

فأبان الإمام جعفر الصادق عليه السلام حقيقة ما خلق منه المقرون من عليين، وما خلق منه المنكرون من سجين.

(١) سورة النحل آية (١٤).

(٢) سورة المطففين، آية (١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١).

(٣) سورة المطففين، آية (٧ - ٨ - ٩).

(٤) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار المتوفى ٢٩٠ هـ من أصحاب الإمام الحسن

حقيقة عليين وسجين

حقيقة عالم عليين وعالم سجين فوق عالم الدنيا والكثافات، فهما عالمان مجردان عن المادة الدنيوية والكثافات الشديدة، فهما شبيهان بعالم الخيال والتصوير، عند تصورك لمكان ما بخيالك، لذا قال الشيخ أحمد الأحسائي فيهما ((وهذه الصورة التي خلق منها هؤلاء - أعني أهل القسم الثاني - وهم الكافرون والمنافقون والمشركون، وأتباعهم الذين تبين لهم الهدى، وهي طينة خبال، وهي سجين، التي تكتب فيها أعمال الفجار، وهي أمثالهم في أعمالهم.

ومعنى كون كتاب الفجار في سجين، أنهم إذا عمل أحدهم شيئاً من المعاصي في السوق مثلاً، فإنك إذا شاهدته لا تزال صورته ومثاله في غيب ذلك المكان من السوق، ووقته قائماً كل ما التفت بخيالك إلى ذلك المكان، وذلك الوقت، رأيت بخيالك صورة ذلك العامل للمعصية، ومثاله عاملاً بتلك المعصية أبداً.

ولو رأيت آخر في ذلك المكان ووقته، أو قبله، أو بعده، عاملاً لشيء من الطاعات، فإنك كلما التفت بخيالك إلى ذلك المكان، وذلك الوقت، رأيت مثال ذلك الآخر يعمل تلك الطاعة، في غيب ذلك الوقت، وذلك المكان.

ومثال عامل المعصية، في غيب ذلك الوقت، وذلك المكان، الذي هو السوق، هو مكان من سجين، يعني أن المكان الذي فيه مثال عامل المعصية من غيب السوق، هو مكان من سجين، الذي هو كتاب الفجار، والمكان الذي فيه مثال عامل الطاعة، من غيب السوق، هو مكان من عليين، الذي هو كتاب الأبرار.

فالأول هو تحت الظلمة، التي هي تحت جهنم، التي هي تحت الريح العقيم، التي هي تحت البحر، الذي هو تحت الحوت، الذي هو تحت الثور، الذي هو تحت سجين، أعني الصخرة التي قال لقمان فيها: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) فهذا الكتاب أصله في الثرى، ووجهه في سجين.

(١) سورة لقمان آية (١٦).

والثاني - أعني الذي فيه مثال عامل الطاعة فوق الطبيعة، التي هي فوق المادة، التي هي فوق المثال، الذي هو فوق الجسم، الذي هو فوق محدد الجهات، الذي هو فوق عليين، أعني باطن فلك البروج، فهذا الكتاب أصله في اللوح المحفوظ، ووجهه في فلك البروج))^(١).

فالظلمة، والريح العقيم، والثور، والحوت، والثرى، كل هذه الاصطلاحات مروية عن المعصومين عليهم السلام في بيان أسفل سافلين وهي سجين.

لذا روى الكليني عليه السلام في الكافي قال: محمد عن أحمد، عن ابن محبوب، عن جميل بن صالح، عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن الأرض وعلى أي شيء هي؟ قال: ((هي على حوت، قلت: فالحوت على أي شيء هو؟

قال: على الماء، قلت: فالماء على أي شيء هو؟، قال: على صخرة، قلت: فعلى أي شيء الصخرة؟، قال: على قرن الثور أملس، قلت: فعلى أي شيء الثور؟، قال: على الثرى، قلت: فعلى أي شيء الثرى؟، فقال: هيهات عند ذلك ضل علم العلماء))^(٢) وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، لما سأله اليهودي عن مسائل منها، سأله عن قرار الأرض على ما هو؟، فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام: ((أما قرار هذه الأرض لا يكون إلا على عاتق ملك، وقدما ذلك الملك على صخرة، والصخرة على قرن الثور، والثور قوائمه على ظهر الحوت في اليم الأسفل، واليم على الظلمة، والظلمة على العقيم، والعقيم على الثرى، وما يعلم تحت الثرى إلا الله عز وجل))^(٣).

فعليين التي هي مصدر الخير والطاعة، والعبادة، والسعادة وغيرها من البر، فالمؤمن في طاعته يستمد من عليين، الموافقة لمراد الله تعالى، والمخالف والكافر في معصيته يستمد من سجين المخالفة لمراد الله تعالى.

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ٢ / ١٦٣.

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ٨ / ٨٩.

(٣) علل الشرائع للشيخ محمد الصدوق ١ / ٢.

والممد في الحالين هو الله جلّ جلاله، لذا قال سبحانه: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) (١).

فالجليل سبحانه يمد المؤمنين من عليين بالخير والتوفيق والطاعة على طلبهم، ويمد الكافرين والمنكرين من سجين بالشر والخذلان والتمكن على المعصية بطلبهم، فلو لم يمد الكافر في كفره في المعصية، لزم استقلاله عن أمر الله تعالى، وهذا يوجب انعزال الله جلّ جلاله عن ملكه، والتفويض إلى الخلق الباطل عقلاً ونقلاً.

فهذا القسم الثاني لما أنكر وجحد بعد المعرفة خلقت طبيئتهم من سجين، وهي في مثال السراج الظل الذي ليس فيه نور السراج، لأن نور السراج له مرتبتان: مرتبة النورانية والإشراق حتى لو كان بعيداً، ومرتبة الظل المخلوط بالظلمة، وهذا القسم مخلوق في نهاية الظل، وهذا الظل ما حدث إلا بالسراج، حيث لو لم يكن السراج موجوداً لا ظل ولا نور موجود أصلاً، وهذا الخلق المتعوس الواقع في نهاية الظل يسمى بالجهل الكلي، وسمى الجهل لأنه مقابل العقل، وسمى الكلي لأنه الأصل للجزئي مثل لما تقول الحيوان كلي والذئب والفرس والبقر جزئي.

فكل أفراد الحيوانات أجزاءه، بل الفرس والكلب والذئب والدجاج ماهياتهم مركبة منه أعني الحيوانية ومن الفصل، كالفرس مركب من الحيوانية والصاهلية، والكلب من الحيوانية والفصل النابحية، فكل حيوان مركب من الجنس وهو الحيوانية والفصل من النابحية والصاهلية والصائحية وغيرها.

كذلك الجهل الكلي كل عاصي أو كافر، أو مشرك أو جاحد فحقيقته وطيبته مركبة من الجهل الكلي، ومن فصله الذي يمتاز به عن غيره، لذا هذه الأفراد من الحيوانات تحن إلى أصلها في الجنسية، وكذا أفراد الكفار والمخالفين لأمر الله تعالى تحن إلى أصلهم وجنسهم وهو الجهل الكلي.

كما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الرواية المتقدمة ((وخلق عدونا من سجين

(١) سورة الإسراء، آية (٢٠).

وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه ، وأبدانهم من دون ذلك ، فقلوبهم تهوى إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه))^(١) .

فلما أنكر هذا القسم نهاية الإنكار والإدبار في كل شيء ، حتى جعل نفسه ضد أمر الله تعالى في كل شيء خاطبهم الجليل عز وجل ((للنار ولا أبالي))^(٢) .

فهذا القسم ذكره تعالى مفصلاً في كتابه العزيز من المتبوعين والتابعين في سورة النساء بقوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا أُضِلُّنَّهُمْ وَلَا أَتَمَنِّيَنَّهُمْ وَلَا آمُرَنَّهُمْ فَلْيُبَيِّئِ لَكُمْ أَنْ تَأْتَمَّرُوا لَهُمْ وَلَا تَكُونُوا لَهُمْ عِبَادًا ﴿١١٩﴾ يَعْبُدُونَنِي وَمَا وَعَدَّكُمْ الشَّيْطَانُ وَلَا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾^(٣) .

وقال تعالى في القسم الأول ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾^(٤) .

فهذه الآيات الشريفة واضحة في بيان صفة المنكرين والمقرين وصفاتهم وصفات رؤسائهم وأئمتهم من الحق والباطل .

فمن تفكر في معاني هذه الآيات المباركات ، وجد الأمر أوضح من الشمس ، وأجلى من الأمس ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثبتنا الله وإياكم على ولاية محمد وآل محمد ﷺ والبراءة من أعدائهم في الدارين آمين رب العالمين .

(١) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار ٣٥ .

(٢) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢ .

(٣) سورة النساء آية (١١٥ - ١٢١) .

(٤) سورة النساء آية (١٢٢) .

الثالث: المقر بالقلب واللسان عن معرفة وبصيرة، لكن بتبعية الأولين وهو الشعاع الذي في كمال الضياء والنورانية، وخلق طينته أيضا من عليين، لكن أنزل من طينة الأولين بسبعين مرتبة، وخوطب بخطاب (للجنة ولا أبالي)^(١) لكن بتبعية الأولين أيضاً ❁.

❁ القسم الثالث التابع للحق

هذا القسم الثالث هو الذي تبع القسم الأول في الإجابة، أي حينما قال القسم الأول في جواب الرب جلّ جلاله ((الست بربكم)) قال بلى أنت ربنا ومحمد ﷺ نبينا وأمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء وأبناؤهما المعصومون أولياؤنا وخلفاؤنا بالقلب واللسان.

تبعهم هذا القسم الثالث في الإجابة بقول بلى، أنت ربنا ومحمد ﷺ نبينا وأمير المؤمنين والصديقة فاطمة الكبرى وأبناؤهما المعصومون أولياؤنا وخلفاؤنا. فلما أجابوا بالإقرار والإيمان خلقت طينتهم أيضاً من عليين، لكن أنزل من رتبة المتبوعين الأولين من القسم الأول، لأنهم الأصل في الإجابة في الإقرار، والتابع أنزل من رتبة المتبوعين بسبعين مرتبة.

الصفة أنزل من رتبة الموصوف بسبعين

فرتبة السبعين عبارة عن رتبة العلة بالنسبة إلى معلوله، أو رتبة الموصوف بالنسبة إلى صفته، كما قال الشيخ أحمد الإحسائي رحمته الله ((وقد أشرنا في تأليفاتنا إلى وجه ذلك العدد من أن كل شيء فهو مربع الكيفيات مثلث الكيان، لأنه حرارة ورطوبة، وبرودة ويبوسة، وجسم ونفس وروح، فكل شيء جوهر أو موصوف ذو سبعة، فإذا نسب إلى الصفة والعرض الذين في الرتبة الثانية كان سبعين، .

(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١/ ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنی لملا هادي السبزواري ٣٨١.

لأن السبعين في المرتبة الثانية سبعون، والصفة والأثر واحد منها لأنه عرض، ولو كان من نوع موصوفه كان واحداً من عشرة فافهم))^(١).

معنى كلامه أن الجوهر والموصوف يتكون من أمرين هما:

الأمر الأول: الطبائع الأربع وهي الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة.

الأمر الثاني: مثلث الكيان من جسم ونفس وروح.

فالمجموع يكون سبعة، هذا بالنسبة إلى الجوهر والموصوف، بما هو جوهر وبما هو موصوف، وإذا نسب الجوهر أو الموصوف إلى أثرهما، وهما العرض بالنسبة إلى الجوهر، والصفة بالنسبة إلى الموصوف، يكون الصفة والعرض أنزل من رتبة الجوهر والموصوف برتبة، والرتبة الثانية للـسبعة هي السبعون، وذلك لأن الواحد إلى التسعة رتبة الآحاد، والرتبة الثانية بعد الآحاد هي العشرات، لأن الأعداد بعد الآحاد كلها آثار للآحاد فليس فيها أعداد زائدة على الآحاد، بل تكررات الآحاد فقط، فلما كان عالم الذر هو أول العوالم المقيدة، وهو علة لمن تحته، وذلك لأن العالي علة للسافل مثل الجوهر علة للعرض، والموصوف علة للصفة، فلأجل هذه العلة كان عالم الذر أكبر وأوسع من العالم الذي تحته بسبعين، وإذا نسب عالم الدنيا الذي هو آخر العوالم الألف، كان نسبة عالم الذر إلى عالم الدنيا بسبعين ألف رتبة.

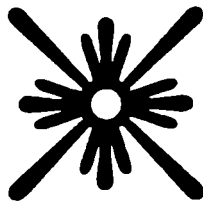
لذا ذكر الشيخ محمد الحسن الصفار في بصائر الدرجات قال حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى، عن أبي الحجاج قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام ((يا أبا الحجاج! إن الله خلق محمداً وآل محمد من طينة عليين، وخلق قلوبهم من طينة فوق ذلك، وخلق شيعتنا من طينة دون عليين، وخلق قلوبهم من طينة عليين، فقلوب شيعتنا من أبدان آل محمد...))^(٢).

فخلق هذا القسم أنزل من رتبة المتبوعين بسبعين مرتبة، لأن المتبوعين مقامهم مقام العلية، وهؤلاء مقامهم مقال المعلولية، ورتبة المعلول أنزل من رتبة العلة

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الإحساني ٢ / ٣٧٤.

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٣٤.

بسبعين مرتبة، وخاطب الحق سبحانه هذا القسم التابعين ((للجنة ولا أبالي))^(١).
لكن بالتبعية لكونهم تابعين للقسم الأول وهم السابقون السابقون، فلولا
الأولون السابقون لما استطاع هذا القسم من الإجابة بالإقرار والتوحيد، لذا يدخلون
الجنة بولائهم ومتابعتهم وحبهم، بل حبهم وبغض أعدائهم كافٍ لدخول الجنة، لذا
روي في المحاسن لأحمد بن محمد البرقي قال عنه، عن القاسم بن يحيى، عن جده
الحسن بن راشد، عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ((من أحبنا أهل
البيت، وحقق حبنا في قلبه، جرى ينابيع الحكمة على لسانه، وجدد الإيمان في قلبه،
وجدد له عمل سبعين نبياً، وسبعين صديقاً، وسبعين شهيداً، وعمل سبعين عابداً عبد
الله سبعين سنة))^(٢) ثبتنا الله وإياكم على حبهم والبراءة من أعدائهم في الدنيا
والآخرة، وزادنا في حبهم ومعرفتهم.



(١) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢، شرح الأسماء الحسنى لملا هادي السبزواري ٣٨١.

(٢) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٦١.

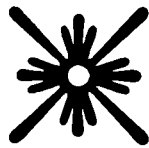
الرابع: المنكر قلباً ولساناً عن معرفته أيضاً، لكن بتبعية الآخرين، وهو الشعاع المختلط بالظلمة، بحيث لا يشخص ويميز شيء عن شيء هناك، وخلقت طبيته أيضاً من سجين وأسفل السافلين، لكن أنزل من طينة الآخرين ❁.

❁ القسم الرابع التابع للباطل

هذا القسم الرابع من المخلوقات، وهو التابع للقسم الثاني المنكر بالقلب واللسان، دعوة الرب لما قال تعالى: أأست بربكم؟ فلما قال القسم الثاني المنكرون الجاحدون عن بصيرة، نعم لست بربنا ومحمد نبينا وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب والصديقة فاطمة الزهراء وأبناؤهما المعصومون وأولياؤنا وخلفاؤنا، تبعهم هذا القسم من الخلائق في الإنكار عن بصيرة ومعرفة، فلما تبعوهم خلقت طبيعتهم من سجين، لكن أنزل من رتبة متبوعهم بسبعين درجة، لأن المتبوعين مقامهم العلية، والتابعين مقامهم مقام المعلولية.

كما قال الإمام الباقر عليه السلام في الرواية السابقة قال: ((وأن الله خلق عدو آل محمد من طين سجين، وخلق قلوبهم من طين أخبث من ذلك، وخلق شيعتهم من طين دون سجين، وخلق قلوبهم من طين سجين، فقلوبهم من أبدان أولئك، وكل قلب يحن إلى بدنه))^(١).

و مقامهم في السراج نهاية النور وهي الظلمة التي لا يميز شيء عن شيء، فلولا المنكرون الأولون لما أنكر هؤلاء التابعون، فالقسم الثاني هم الأصل في الكفر والعصيان والنفاق، وهؤلاء الفرع الذين تبعوهم وعبدوهم من دون الله تعالى.



فصار القسم الثالث أصحاب اليمين، والقسم الرابع أصحاب

الشمال.

• أصحاب اليمين وأصحاب الشمال

اليمين هم القسم الأول من الموحدين الأولين وهم محمد وآل محمد ﷺ، وأصحابهم هم شيعتهم ومحبوهم.

والشمال هم القسم الثاني، وهم أئمة الكفر الذي وصفهم الحق تعالى في كتابه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾ (١).

وأصحاب الشمال هم أتباعهم في الإجابة بنعم، والإنكار لتوحيد الله جل جلاله ولنبوته نبينا ﷺ والولاية للمعصومين ﷺ.

قال تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ (٢).

وفي المقابل قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٤١) فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظَلِّ مِّنْ يَّحْمُورٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ (٣) قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٤).

فالقسم الأول المقرون السابقون لهم ثواب جميع من تبعهم، والقسم الثاني المنكرون السابقون لهم عقاب جميع من تبعهم إلى يوم القيامة، لأنهم السبب الأعظم في غوايتهم، لذا للمنكرين الكافرين السابقين إلى الكفر لهم ضعف ما على التابعين، قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ

(١) سورة القصص آية (٤١).

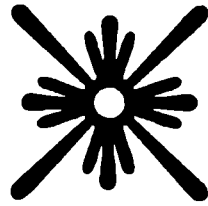
(٢) سورة الواقعة، آية (٢٧-٣٢).

(٣) سورة الواقعة، آية (٤١-٤٤).

(٤) سورة الشورى، آية (٧).

لَعَنَّا أَخْنَبًا حَقَّ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَجْتُهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَتُّؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا
مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ (١).

حينذاك يتلاومون ويتحسرون ولا تنفع الندامة والحسرة إذا قضى الأمر، ثبتنا الله
تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة بمحمد وآله الطيبين الطاهرين آمين رب
العالمين.



الخامس: المقر لا عن معرفة وبصيرة، وهم المستضعفون والجهال وأصحاب الأعراف، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ❁.

❁ القسم الخامس المقر عن جهل

القسم الخامس هم المستضعفون، الذين أقروا بالتوحيد والنبوة والإمامة، لكن عن جهل وعدم معرفة وبصيرة، فهؤلاء لو بقوا على حالهم في الحيرة من الأمر بين الحق والباطل لا يستحقون الجنة ولا النار، لأن دخولهما يقتضي المعرفة الحقة أو المخالفة الحقة، وهم ليسوا كذلك، قال الشيخ أحمد الأحساني في هذا القسم، أعني المستضعفين ((وهم الذين لم يقروا بقلوبهم ولم يجحدوا، سواء أجابوا عن غير معرفة بالكل، أم أجابوا ببعض عن غير معرفة، إلا أنهم مجتمعون على وقف قلوبهم، وهؤلاء عرضت لهم موانع في طينتهم، وهذه الموانع العارضة لها، هي عوارضها الذاتية، والفعلية والنسبية، وهذه العوارض مختلفة في الشدة والضعف.

فمنهم من موانعه ضعيفة، فتضمحل في الدنيا، فيقر في الدنيا بقلبه، ويلحق بالسابقين، أو ينكر في الدنيا به، ويلحق بأضدادهم، ومنهم من موانعه متوسطة في القوة والضعف، فيقر بقلبه في البرزخ، أو ينكر ويلحق كل بنوعه، ومنهم من موانعه شديدة، فيلهى عنه إلى يوم القيامة، حتى تأخذ الأرض ما فيه من موانعه، مع ما تعلق به من الأجسام الظاهرية والتعليمية، فيجدد له الخطاب التكليفي، بمعنى أنه يقع عليه، لا بمعنى أنه انقطع واضمحل ثم حدث، بل لأنه بقى بعد انقطاع المكلفين على انبعاثه، فلم يظهر، لعدم وجود مظهر يتعلق به، فلما قامت القيامة، ووجد المكلفون، وهم الذين لم يتعللوا الخطاب إلا بظواهرهم، إذ لا بواطن لهم.

وحينئذ زالت عنهم الحجب المانعة، وقع عليهم الخطاب الذي لم تظهر صورته في الدنيا، لعدم وجود القابل، ولوجود المانع، فلما زال المانع وجد القابل، ولما وجد القابل وجد المقبول، فإما مؤمن، وإما كافر))^(١).

فمن هذا القسم أولاد المشركين والكافرين والمسلمين، والمجنون والأبلة والأصم، والذي مات بين النبيين، والشيخ الكبير الذي أدرك النبي وهو لا يعقل، أي في حالة الخرف والأبكم.

فكل هؤلاء إذا لم يعرفوا الحق حقاً فيتبعوه في الدنيا ولا في البرزخ، يرجى أمرهم إلى يوم القيامة، ويكلفون بتأجيل نار، فمن دخلها امثالاً لأمره تعالى كانت عليه برداً وسلاماً، وإلا دخل النار.

وروى الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه أيضاً، قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار، عن فضل بن عامر، عن موسى بن القاسم البجلي، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة بن أعين، قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام صلى على ابن لجعفر عليه السلام صغير، فكبر عليه، ثم قال: ((يا زرارة إن هذا وشبهه لا يصل على، ولولا أن يقول الناس: إن بني هاشم لا يصلون على الصغير ما صليت عليه، قال زرارة: فقلت: فهل سئل عنهم رسول الله ﷺ؟، قال: نعم قد سأل عنهم فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم قال: يا زرارة أتدري ما قوله الله أعلم بما كانوا عاملين؟، قال: فقلت: لا والله، فقال: الله عز وجل فيهم المشيئة، إنه إذا كان يوم القيامة، احتج الله تبارك وتعالى على سبعة: على الطفل، وعلى الذي مات بين النبي والنبي، وعلى الشيخ الكبير الذي يدرك النبي وهو لا يعقل، والأبلة، والمجنون الذي لا يعقل، والأصم، والأبكم.

فكل هؤلاء يحتج الله عز وجل عليهم يوم القيامة، فيبعث الله إليهم رسولاً، ويخرج إليهم ناراً فيقول لهم: إن ربكم يأمركم أن تثبوا في هذه النار، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن عصاه سيق إلى النار))^(١).

وفي رواية أخرى أن الله عز وجل يأمر ناراً يقال لها الفلق، قال الشيخ الصوق رضي الله عنه حدثنا الحسين بن يحيى بن ضريس البجلي قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عمارة السكري السرياني، قال: حدثنا إبراهيم بن عاصم بقزوين، قال: حدثنا عبد الله بن هارون الكرخي، قال: حدثنا أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن

يزيد بن سلام بن عبيد الله قال: حدثني أبي عبد الله بن يزيد، قال: حدثني أبي يزيد بن سلام، عن أبيه سلام بن عبيد الله، عن عبد الله بن سلام مولى رسول الله ﷺ أنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني أيعذب الله عز وجل خلقاً بلا حجة؟، فقال: ((معاذ الله، قلت: فأولاد المشركين في الجنة أم في النار؟، فقال: الله تبارك وتعالى أولى بهم، إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله عز وجل الخلائق لفصل القضاء، يأتي بأولاد المشركين فيقول لهم: عبيدي وإمائي من ربكم وما دينكم وما أعمالكم؟، قال: فيقولون: اللهم ربنا أنت خلقتنا ولم نخلق شيئاً، وأنت أمتنا ولم نمت شيئاً، ولم تجعل لنا السنة نطق بها، ولا أسماء نسمع بها، ولا كتاباً نقرؤه، ولا رسولاً نتبعه، ولا علم لنا إلا ما علمتنا، قال: فيقول لهم عز وجل: عبيدي وإمائي إن أمرتكم بأمر أفعلوه؟، فيقولون: السمع والطاعة لك يا ربنا، قال: فيأمر الله عز وجل ناراً يقال لها: الفلق، أشد شيء في جهنم عذاباً، فتخرج من مكانها سوداء مظلمة بالسلاسل والأغلال، فيأمرها الله عز وجل أن تنفخ في وجوه الخلائق نفخة فتنفخ، فمن شدة نفختها تنقطع السماء، وتنطمس النجوم، وتجمد البحار، وتزول الجبال، وتظلم الأبصار، وتضع الحوامل حملها، ويشيب الولدان من هولها يوم القيامة، ثم يأمر الله تبارك وتعالى أطفال المشركين أن يلقوا أنفسهم في تلك النار، فمن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون سعيداً ألقى نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، ومن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون شقيماً امتنع فلم يلق نفسه في النار، فيأمر الله تبارك وتعالى النار فتلقطه لتركه أمر الله وامتناعه من الدخول فيها، فيكون تبعاً لأبائه في جهنم، وذلك قوله عز وجل:

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٥٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١٥٨﴾﴾^(١) لأنه لا بد لدخول الجنة أو النار بتكليف وإلا يستلزم العبث أو الظلم وسبحانه عن ذلك علواً كبيراً.

(١) سورة هود آية (١٠٥-١٠٨).

(٢) التوحيد للشيخ محمد الصدوق ٣٩٠ - ٣٩٢.

قسم آخر للمستضعفين

ومن أقسم هذا القسم، أعني المستضعفين أصحاب الأعراف، وهم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، كما روي في الكافي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ابن بكير، وعلي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن رجل جميعاً، عن زرارة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ((ما تقول في أصحاب الأعراف؟، فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كفرون، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النار فهم كفرون، فقال: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين دخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون، ولكنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم الأعمال، وإنهم لكما قال الله عز وجلّ.

فقلت: أمن أهل الجنة هم أو من أهل النار؟، فقال: أتراهم حيث تركهم الله، قلت: أفرجئهم، قال: نعم أرجئهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته، وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم...))^(١) وفي رواية أخرى في نفس الكافي، عن حمزة بن الطيار في وصف الإمام جعفر الصادق عليه السلام، الناس إلى ستة أصناف، قال الإمام لحمزة بن الطيار: ((واكتب أصحاب الأعراف، قال قلت: وما أصحاب الأعراف؟، قال: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنة فبرحمته))^(٢).

وروي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن زرارة قال: دخلت أنا وحمران أو أنا وبكير على أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: إنا نمد المطمار، قال: ((وما المطمار؟، قلت: الترفمن وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن خالفنا من علوي أو غيره برئنا منه. فقال لي: ((يا زرارة قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله عز وجلّ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا

(١) الكافي للشيخ محمد الكليني ٢ / ٤٠٨.

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ٢ / ٣١٨.

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ (١).

أين المرجون لأمر الله، أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؟، أين أصحاب الأعراف؟، أين المؤلفه قلوبهم... (٢).

وورد في الكتاب والسنة أن المستضعفين وأصحاب الأعراف والمرجون لأمر الله كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣). والمرجون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، هؤلاء الأصناف قد تنالهم شفاعه محمد وآل محمد ﷺ، ويدخلونهم الجنة، ذكر الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه حديثاً عن المعصومين ﷺ قال: كما روي في الحديث ((بأن الله يسكن الأعراف، طائفة من الخلق، لم يستحقوا بأعمالهم الجنة على الثبات من غير عقاب، ولا استحقوا الخلود في النار، وهم المرجون لأمر الله، ولهم الشفاعه، ولا يزالون على الأعراف حتى يؤذن لهم في دخول الجنة، بشفاعة النبي ﷺ، وأمير المؤمنين، والأئمة من بعده ﷺ)) (٤).

وقال تعالى في المستضعفين في استحقاقهم المغفرة منه تعالى بقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ (٥).

فقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ فعسى عند الخلق التقريب للشيء كما تقول عسى أن أسافر إلى زيارة الإمام موسى بن جعفر ﷺ، فعسى عندي وعندك يفيد التقريب لزيارة الإمام موسى الكاظم ﷺ وأرواحنا له الفداء، أما عسى عند الله تعالى الكريم الغني المطلق، فهي تحقيق لا تقريب.

(١) سورة النساء، آية (٩٨).

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١٠ / ٥٣.

(٣) سورة التوبة، آية (١٠٦).

(٤) تصحيح اعتقادات الإمامية للشيخ محمد الصدوق ١٠٧، البحار ٨ / ٣٤٠.

(٥) سورة النساء، آية (٩٨ - ٩٩).

إذا عرفت هذا فاعلم أن أمر الخلق أيضاً هكذا ❁.

❁ مثال السراج ينطبق على الخلق

إن الأقسام الخمسة لمراتب السراج المذكورة سابقاً، هي نفس مراتب الخلائق باعتبار الإقرار للإجابة وإنكارها، والتابع للقسمين والمستضعفين، أي إن السابقين لقبول التكليف الوجودي والشرعي وهم محمد وآل محمد ﷺ والتابعين لهم أولاً الأنبياء عدا نبينا محمد ﷺ ثم الأوصياء ثم المؤمنين ثم الأمثل فالأمثل.

وفي المقابل المنكرون للتكليف عن علم وبصيرة، وهم أول من أحدث الظلمة من المعصية والظلم وكل شر في العالم، ثم تبعهم قسم من الخلائق عن بصيرة وعلم في كفرهم وعصيانهم.

والقسم الآخر الخامس لا يدرون ما الحق وما الباطل؟ وهم المستضعفون كما ذكر من قبل حذو القذة بالقذة.

ثم يشير هنا إلى تفصيل يأتي بيانه فيما بعد، أن كل شيء فيه كل شيء من الخلق، وأصغر الخلائق الذرة، وعلى صغرها فيها كل شيء.

فكل شيء من الكائنات دليلاً لما فوقه، ومدلول لما تحته، مثلاً العلقه هي دليل للمضغة، ومدلول للنطفة، أي النطفة تدلنا على العلقه، فالنتيجة أن العلقه دليل للمضغة التي فوقها، ونفس العلقه هي مدلول للنطفة التي تحتها، وهكذا سائر الخلائق.

فخلق الله سبحانه جميع الموجودات، كل واحد منها مثلاً ودليلاً
للآخر، فكل واحد دليل ومدلول، وفي كل شيء ما في العالم كله، ففي
الذرة ما في كل الموجودات.

فإذا تأمل الإنسان بعين البصيرة في الخلق، وجميع ذرات العالم عرف
هذا المعنى عياناً، ولكن نحن نذكر دليلاً عقلياً في المقام، وإثبات المرام،
حتى لا يبقى لأهل الجدل جدال، وللأفكار مجال، فيكونون مصداقاً
للآية المباركة ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ ثَأْوِيلُهُ﴾^(١).

فنقول: إنا ذكرنا سابقاً أن الحكيم لا بد أن يكون فعله في كمال
الإحكام، ونهاية الإتيان، ومن ادعى الحكمة فلا بد له من أن يضع كل
شيء في محله وموضعه، بقدر وسعه وحسب طاقته، ولو تخلف في أمر
واحد فهو علامة قصوره وعجزه وإلا لما تخلف، ولا شك أن الله حكيم
وعادل وليس لعلمه وقدرته غاية ولا نهاية، وإلا لزم الإمكان والحدوث
والعجز.

✽ الحكيم فعله في نهاية الإتيان

هنا السيد كاظم الرشتي المؤلف رحمته الله، يريد أن يثبت كل فرد من أفراد
الموجودات، كالإنسان والذرة فيهما كل ما في العالم، حذو القذة بالقذة، والنعل
بالنعل، فيبدأ هنا بالدليل العقلي ثم بالدليل النقلي الدال على المدعى.

فكل شيء عده العقل السليم حسناً، لا محالة أن فعله يحمل عليه ويعد حسناً أيضاً، وإلا لزم إما ارتكاب القبيح مع العلم والقدرة، وإما الجهل والعجز، وكله في حق الواجب محال ❁.

❁ الدليل العقلي على حكمة الخالق

يقول إن الله جلّ جلاله من صفاته الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، وأيضاً الحكيم هو الذي يتقن الأمر في التشريع، ويتقن الصنع في التكوين، حيث يكون حكمه في غاية الدقة والحكمة، وصالح لكل زمان ومكان، ويكون صنعه وتكوينه في غاية التقنية والهندسة، بحيث لو استخدم تكوينه فيما خلق له، ولم يتعرض لتخريب من الخارج، يبقى أبد الأبد ودهر السرمد، وأكبر مثال وجود المعصومين الأربعة عشر محمد وآل محمد ﷺ، فلو لم يعتدّ عليهم بالسم أو القتل، لبقوا إلى نهاية العالم، لذا بقية الله الإمام الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه، عنده أهلية أن يعمر أكثر من ترليون من السنين، وما ذلك على الله تعالى بعزيز، فالله هو القادر على كل شيء، فالفلك الذي نراه من الأرض والأجرام السماوية والأقمار والشموس والنجوم والمجرات لها ترليونات السنين، التي لا يعلم بعدتها إلا الله جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

فالأرض والفلك والأجرام السماوية كلها مسخرة للإنسان العادي من الرعية أنا وأنت، كما قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾^(٢).

فالإنسان إذا أطاع الله تعالى يكون أفضل من المسخرات له، وإذا كان الأقل

(١) سورة النمل آية (٨٨).

(٢) سورة إبراهيم آية (٣٢ - ٣٣).

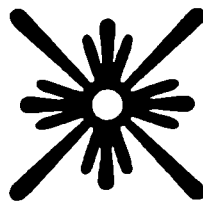
شرفاً من المؤمن العادي، فكيف ببقية الله سبحانه في أرضه مولانا صاحب العصر والزمان عل الله فرجه أرواحنا لغبار نعليه المباركتين الفداء، فالذي يدعي الحكمة من الخلق لا بد أن يضع الأشياء في مواضعها، ويجعلها في نهاية الإتقان والتقنية على حسب وسعه وطاقته.

ولما كان الخالق جلّ جلاله ليس لقدرته وعلمه حد محدود، بل هو القادر المطلق، العالم بكل شيء، كانت حكمته لا نهاية لها ولا نفاذ لأمدها أبد الأبدين، ودهر الدهرين.

والحكيم إذا أخل في جزء من جزئيات الشيء، من التشريع بأن كان صالح لسنين دون سنين، أو في التكوين بأن كانت تقنية الشيء فيها خلل تكوين أو غير مكتمل، اقتضى العجز والقصور في ذلك الحكيم، لعدم وجود القدرة الكاملة التي يجبر هذا العجز والقصور.

ولو فرض هذا العجز والقصور عند رب الأرباب سبحانه وتعالى، لزم إمكانه وحدوثه، لأن العجز والقصور من صفات المخلوقين لا الخالق الغني المطلق عما سواه جل جلاله.

بيد أن الله جلّ جلاله هو القادر على جميع ما سواه، العالم بكل معلوم مطلقاً، حيث ليس لقدرته وعلمه غاية ولا نهاية سبحانه سبحانه من عظيم ما أعظمه.



ولا ريب أن العقل لا يشك في حسن أن الله يخلق أموراً متعددة، تكون في الظاهر أجزاء الكل والمجموع، وفي الباطن يكون كل واحد منها تمام المجموع والكل، يحتوي كل واحد منها ما في الكل ❁.

❁ الدليل العقلي الثاني لحكمته

هو أن كل شيء فيه كل شيء، لا شك أن العقل السليم يرى إيجاد فرد من الخلق، فيه جميع ما في أفراد الخلائق أجمع، كمالاً في هذا الفرد، وإذا عد العقل السليم هذا الفعل حسناً، وجب أن ينسب إلى الحكيم القادر المطلق، لأن هذه الصفة صفة كمال، وكل كمال يجب أن يتصف به الواجب الحكيم القدير، وإلا والعياذ بالله تعالى لزم ارتكاب القبيح في فعله وشرعه، من كونه عالماً قديراً، لأنه خالف الأفضل الأحسن، وفعل دونه الذي هو القبيح، بيد أن الخالق جلّ جلاله لا يفعل القبيح، أو يلزم الجهل والعجز، أي إذا ترك الأحسن الأكمل في الخلق، وهو ما عده العقل السليم حسناً، من كون كل شيء فيه كل شيء يلزمه أمران:

الأول: الجهل والعياذ بالله، لكونه لا يعلم بالأفضل وعمل دونه.

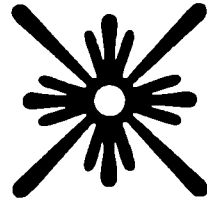
الثاني: العجز والعياذ بالله، لكونه عالماً بالكمال والأفضل، ولكن ليس عنده القدرة أن يعمل الأفضل، والعجز والجهل من صفات المخلوقين لا الخالق القديم جلّ جلاله وتقدس، بيد أن الخالق سبحانه هو القادر المطلق والعالم بكل شيء.

الجزء في الكل والكل في الجزء

يقول المؤلف: لا يشك العقل السليم، في حسن خلق أفراد مختلفين من الخلق، هذا غير هذا، وفي نفس الوقت هم على اختلافهم يكونون كمال الشيء الواحد، بحيث يكونون شيئاً واحداً غير مختلفين، مثال ذلك الإنسان، فإنه مكون من يدين ورجلين، وعينين وأذنين، ورأس وبطن، وقلب وعقل وروح ونفس، ومعدة، وأمعاء دقاق وغلاظ، وكبد وكليتين، وعظام ولحم، وشحم وشعر ومخ وجلد وغير ذلك.

فكل شيء من هذه الأشياء غير الأخرى، بل بينهما تضاد وتنافر في العمل،
والتكوين والتشريع.

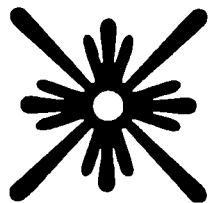
فالمرارة تفرز السوائل المرة لتقضي على الدهون والسكريات، والبنكرياس
يفرز الأنسولين ليعادل نسبة السكر في الدم في الجسم وهكذا، ومع اختلافهم وتضاد
وظائفهم وكثرتها، هم شيء واحد يسمى بعلي الإنسان، المكون من كل هذه الأجزاء
المختلفة المتضادة هي شيء واحد وهو علي، فوجود خلق هكذا مما لا شك فيه من
أن يكون أكمل وأفضل من غيره، وإذا كان كذلك وجب على الحكيم القادر سبحانه
فعله لأنه الأفضل.



إذا نظرت وتأملت في كل واحد واحد تشاهد فيه تمام الأمر، وفي المجموع أيضاً إذا دقت النظر تشاهد تمام الأمر، وكلما دقت النظر أزيد رأيت انطواء الأجزاء على الكل، وجميعها أكثر.*

• انطواء الجزء على الكل

أي إذا دقت النظر في هذا الجزء الواحد من أفراد الكائنات، مثلاً علي فيه جميع ما في العالم الخارجي، العالم الكبير، ففي علي السماوات والأرضون، والبحار والأنهار، والعرش والكرسي، والشيطان والملك، والخير والشر، والحيوان والنبات والجماد، بل فيه كل شيء، مع العلم أنه واحد كما يأتي الكلام عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.



ولذا كان القرآن المجيد أحسن الكلام، وأفصح اللغات احتوت كلمة واحدة منه جميع ما حواه القرآن، وانطوت بكل ما انطوى مجموعه، كما في الخبر المعتبر المعروف بحيث لا ينكره أحد من العلماء: (إن ما في القرآن كله فهو في الحمد وما في الحمد كله في بسم الله وما في بسم الله فهو في الباء)^(١) ج.

فانظر إلى هذا الخبر وأمثاله حتى تعلم سبب عجز الفصحاء والبلغاء من قريش وغيرهم، عن إتيان سورة مثله، فبوجود هذه الخصوصية، وهذه الجهة في القرآن عجزوا مع فصاحتهم التامة، وبلاغتهم الكاملة، عن مقابلته بسورة مختصرة صغيرة.

أما سمعت الخبر الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام، وقال عليه السلام بعد ما بين بعض أسرار حروف الصمد مامعناه: ((إن أردت استخراج من هذا اللفظ جميع الشرائع والسّنن والواجبات والمستحبات وجميع ما يحتاج إليه الخلق))^(٢).

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال ((إن كل العلوم تندرج في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلوم القرآن في الفاتحة، وعلوم الفاتحة في بسم الله الرحمن الرحيم، وعلومها في الباء من بسم الله) نور البراهين للسيد نعمه الله الجزائري ٢ / ٤ .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (جميع القرآن في سورة الحمد، وجميع سورة الحمد في بسم الله الرحمن الرحيم، وجميع بسم الله الرحمن الرحيم في نقطة باء بسم الله، وأنا النقطة الفضائل والردائل للمظاهري ١٠٦ .

وفي رواية عن الشيخ محمد حسين الأصفهاني في مقدمة تفسير القرآن (وأنا النقطة تحتها) ومعنى الرواية موجود في كتاب مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي الشاهرودي ١ / ٢٦٩ .

(٢) قال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير كلمة الصمد (لو وجدت لعلمي الذي أتاني الله عز وجل حملة، لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد) مسترك سفينة البحار للشيخ علي النمازي ٢ / ٣٩٨ .

نعم لو أراد روعي فداه من [الألف] و [اللام] هذا اللفظ، أن يستخرج ما ذكر لفعل بلى إن ربي على كل شيء قدير.

الحاصل إذا كان هذا النوع مستحسناً وعده العقل حسناً، فلا بد أن نحمل فعل الله عليه، وإلا لزم القبح والعجز والجهل، ومن هنا يعلم قول الشاعر:

كل شيء فيه معنى كل شيء فتفطن واصرف الذهن إلي
كثرة لاتتناهى عددا قد طوتها وحدة الواحد طي ❁

❁ كل ما في القرآن في الباء

وأكبر مصداق على هذا الأمر من انطواء الكل في الجزء، والجزء هو تمام الكل، الخبر المشهور المعتبر المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((جميع القرآن في سورة الحمد، وجميع سورة الحمد في بسم الله الرحمن الرحيم، وجميع بسم الله الرحمن الرحيم في نقطة باء بسم الله، وأنا النقطة))^(١).

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((إن كل العلوم تندرج في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلوم القرآن في الفاتحة، وعلوم الفاتحة في بسم الله الرحمن الرحيم، وعلومها في الباء من بسم الله))^(٢).

فهذه الرواية من الروايات المعتبرة عند علمائنا المشهورة، تدل على حرف الباء من بسم الله فقط، فيه جميع ما في القرآن الكريم، والقرآن الكريم فيه كل شيء كما قال تعالى، واصفاً كتابه بقوله: ﴿يَبَيِّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣).

(١) الفضائل والردائل للمظاهري ١٠٦.

(٢) نور البراهين للسيد نعمة الله الجزائري ٤ / ٢.

(٣) سورة النحل، آية (٨٩).

كل شيء مما كان ويكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فيه علوم العرش والكرسي والسموات والأرضين والغيب والشهادة وكل شيء، حتى صفات الحق تعالى وتوحيده كل ذلك في القرآن الكريم.

فكل هذه العلوم في باء بسم الله، والأعجب من ذلك ما روي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير كلمة الصمد قال: ((لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حمله، لنشرت التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع، من الصمد))^(١).

لذا يقول المؤلف: لو أراد الإمام الباقر عليه السلام أن يستخرج كل ذلك من الألف واللام لفعل أن ربي أي سيدي على كل شيء قدير، حيث إن الله تعالى هو الذي علمهم، وهو تعالى العالم بكل شيء.

فمن تتبع العلم الحديث، الذي أظهره البشر الكفار والمشركون، لقضى عجباً من اختراق الفضاء، وتخزين معلومات دول متطورة كاليابان، في قرص لا يتجاوز واحد سنتيمتر في واحد سنتيمتر فقط، والحاسب الآلي الذي يعد طفرة العلم الحديث.

ونعم ما قال الشاعر:

كل شيء فيه معنى كل
شيء كثرة لا تتناهى عددا
فتفطن واصرف الذهن إلى
قد طوتها كثرة الواحد طي
فوجود فرد واحد، بل حرف واحد فيه كل شيء، وهذا الحرف الواحد جزء من الكل، هذا أمر يستحسنه العقل، فيجب على الحكيم القادر أن يفعله وإلا استلزم القبح، والعجز والجهل والعياذ بالله تعالى.

فإذا كان مستوى العلم الحديث، أنك ترى جهازاً واحداً فيه ألف وألف جهاز، وكل جهاز يقوم بوظيفة غير وظيفة الآخر، فكيف بخالق السماوات والأرضين جل جلاله.

(١) مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي ٢ / ٣٩٨.

وفي هذا المقام خطرت ببالي شبهة ، من بعض الغافلين عن مقامات العارفين ، والحقير من جهة استحكام ما ذكرنا من الأساس والبنيان ، أذكر تلك الشبهة وأعرض لجوابها ، حتى تنفسل عن قلوبهم الأدناس ، وتصفى أذهانهم عن الأرجاس ، وتنطبع فيها صورة حقيقة الدعوى ، ويرتسم فيها عكس حقية المدعي وهي هذه :

إن ما ذكر من الدليل والمدعى صحيح ، إن كان سبحانه وتعالى جبر الموجودات في خلقهم ، بحيث جعل كل شيء منطوياً على كل شيء ، فحينئذ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لقضائه ولا مانع لحكمه ، وأما إذا خلقهم بمقتضى اختيارهم وتحمل قابلياتهم كما ذكر ، فكيف يجري هذا الأمر ، إذ بعض الموجودات لضعف قابليته وقلة استعداده لا يتحملة وإلا لتساوت القابليات وهو باطل بالبديهة ، كما يظهر من استقراء حال الوجود ، فلا يمكن أن يقال إن تمام العالم في البرغوث أو البق مثلاً موجود ، وتساوي القابليات أيضاً بديهي الفساد ، فانهدم ما ذكرتم من الأساس والبنيان .

والجواب أنا لم نقل أن اتحاد الإنطواء وتطابقه في الكل على حد سواء ، بل قلنا : إن كل شيء منطو على ما في العالم كله بحسب قابليته وتحمله واستعداده ، مثلاً في العالم الكبير فلك العرش محدد الجهات ، المحيط بالعالم الذي به يعلم ويتعين الليل والنهار ، والفوق والتحت ، واليمين والشمال ، وقدام و وراء وفوق ، لم يكن شيء لا خلا ولا ملاء .

وأما في الإنسان ، الذي هو العالم الصغير عرشه قلبه ، لا الفلك المحيط المذكور ، والأشجار في العالم الكبير ظاهر ، وفي الإنسان شعر

جسده، والعيون التي في العالم الكبير مختلفة، بعضها مالحة، وبعضها مرة، وبعضها متعفنة، وبعضها بلا طعم، وفي الإنسان أيضاً عيون مختلفة، فالمالحة ماء العين، والمرة ماء الأذن، والمتعفنة ماء الأنف، وبلا طعم ماء الفم.

وفي العالم الكبير أنهار وشطوط يجري فيها المياه، وفي الإنسان عروقه وأعضاؤه الجاري فيها الدم، وفي العالم الكبير ثلاثمائة وست وستون يوماً، وفي الإنسان ثلاثمائة وست وستون عرقاً، وفي العالم الكبير أيام الأسبوع سبعة، وفي الإنسان القوى سبعة: العقل، والنفس، والحواس الخمس الظاهرة أو الباطنة.

الحاصل كلما في العالم الكبير موجود في العالم الصغير وهو الإنسان، لكن بحسب وسعه واستعداده، مثلاً: الطبائع منها الحرارة واليبوسة، وفي العالم الكبير كرة النار، ومنها الحرارة والرطوبة، وفي العالم كرة الهواء.

ومنها البرودة والرطوبة، وفي العالم كرة الماء، ومنها البرودة واليبوسة، وفي العالم كرة الأرض، وفي الإنسان أيضاً كذلك مثلاً:

كرة النار في الإنسان المرة الصفراء، وفي الملائكة جبرائيل، وفي الرياح ريح الدبور، وفي الطيور الطاووس، وفي الأفلاك فلك الشمس، وفي المعادن الياقوت، وفي الأنوار النور الأحمر، وفي المجردات الطبيعة، وفي الإكسير الفتى الشرقي وهو كبريت.

وكرة الهواء في الإنسان الكبد، وفي الملائكة إسرافيل، وفي الرياح ريح الجنوب، وفي الطيور الديك، وفي الأفلاك فلك المشتري، و

المعادن الذهب، وفي الأنوار النور الأصفر، وفي المجردات النفس، وفي الألوان الصفرة.

وكرة الماء في الإنسان البلغم، وفي الملائكة ميكائيل، وفي الرياح ريح الصبا، وفي الطيور الحمامة، وفي الأفلاك فلك القمر، وفي المعادن الفضة، وفي الأنوار النور الأبيض، وفي المجردات العقل، وفي الألوان البياض، وفي الإكسير الفتى الغربي، وهو ماء أشبه الأشياء بالزئبق في اللون والغلظة.

وكرة التراب والأرض في الإنسان المرة السوداء، وفي الملائكة عزرائيل، وفي الرياح ريح الشمال، وفي الطيور الغراب، وفي الأفلاك ظاهر فلك زحل، وفي المعادن الرصاص، وفي الأنوار النور الأسود، الذي يقوله الصوفية، وفي المجردات ظاهر النفس، وفي الألوان السواد، وفي الإكسير الأرض المقدسة.

فظهر من هذا المثال أن انطواء كل شيء على كل شيء، لا كما يزعمه الخصم، بل كما ذكرنا بحسب قابلية الشيء كما عرفت، فلا جبر إذ هو إعطاء الشيء ما ليس من سنخه وطوره وخروجه من حيز القبول، كإعطاء فلك محدد الجهات مع عظمته وسعته للإنسان، ووضعه فيه مع صغره وعدم وسعه ولحمه، فهذا جبر ومحال للإنسان قبوله، وأما إعطاء الإنسان ما يمكنه قبوله، ويشمل على خواص محدد الجهات كالقلب مثلاً فقبوله فلا جبر، بل هو أمر ممدوح مستحسن، إذ كل شيء طالب للكمال، وكذا فلك الكرسي مع تلك الثوابت والكواكب لا يتحملة الإنسان ولا يقبله، وأما مثاله الذي هو الصدر لكونه فيه الصور الكثيرة، ويستمد من القلب أيضاً،

كما يستمد الكرسي من العرش فيقبله ويتحمّله، وأما مثال فلك زحل في الإنسان فهو عقله الذي مقره الدماغ، وفلك المشتري علمه، وفلك المريخ وهمه، وفلك الشمس وجوده الجسماني، وفلك الزهرة خياله، وفلك عطارد فكره، وفلك القمر حياته وأمثالها.

إذا عرفت ما ذكر في مادة واحدة، عرفت أن ساير المواد كذلك، ولكن تعرف بعض المواد وتجهل بعضاً، فالذي يشكل علينا في عالم الغيب ننظر إلى عالم الشهادة، ونستدل به على العالم الغيبي، وإليه الإشارة بقول أمير المؤمنين عليه السلام:

وداؤك منك وما تبصر	وداؤك فيك وما تشعر
وفيك انطوى العالم الأكبر	وتزعم أنك جرم صغير
بأحرفه يظهر المضمّر	وأنت الكتاب المبين الذي

يعني دواء جهلك فيك وأنت لا تعلم ذلك، اعرف نفسك و اعلم أن كل الموجودات فيك، من الغيب والشهادة، والبسيط والمركب، والمجرد والمادي، والعالي والسافل، واللطيف والكثيف، والشريف والوضيع، والقوي والضعيف، والظالم والعاقل، والصالح والطالح، والكافر والمؤمن، والجن والملائكة، والعقل والجهل، والعلين والسجين، والسماوات السبع والأرضين السبع، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، ومقام قاب قوسين، ومقام أو أدنى، والمعرفة والإنكار، واليقين والشك، والعلم والجهل، والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، وأحوال العالم من قبيل قيومية العالي على السافل، وإحاطة العالي بالسافل، وقوام السافل بالعالي قيام صدور، مثل قيام القيام بالمشخص، وقيام تحقق كقيام شئونات الشخص به، وقيام ظهور كقيام ظهور الشخص بكلماته وآثاره

وأفعاله، وقيام عروض كقيام الأعراض من الألوان وغيرها بالشخص .
 وكيفية ارتباط العوالم بعضها ببعض، وكيفية التقاء عالم الغيب
 والشهادة، وكيفية صدور الكثرات عن الواحد من جميع الجهات، وكيفية
 الخلق والإيجاد، والآجال والأرزاق، وكيفية البداء ووقوع المحو
 والإثبات، ومعرفة الأركان الأربعة للشيء، من المشية والإرادة والقدر و
 القضاء والإمضاء، وكيفية التراكيب والبساطة، ومعنى كل ممكن زوج
 تركيبى، وكيفية العلم والقدرة، والحياة والإرادة، والسمع والبصر
 والإدراك، وكيفية معرفة الله بمعرفة تامة حقيقية، ومعرفة الصفات الحادثة،
 والصفات القديمة، والصفات الذاتية، والصفات الفعلية، والصفات
 الكمالية، وصفات النقص، ومعرفة العلم والجهل، ومعرفة علم العلم،
 وجهل الجهل، ومعرفة العلم بالجهل، والجهل بالعلم وغيرها .

وجميع هذه الأمور مبين في الإنسان بأتم تفصيل، وأكمل بيان،
 بالإجمال والتفصيل، بمراتب عديدة، نسأل الله عزّ وجلّ من فضله ولطفه
 وكرمه أن يبصرنا، حتى ننظر إلى عوالمه ونجيبه إلى ما دعانا إليه، ونلتفت
 إلى معالجة أمراض الجهل بدوائها الذي جعله فينا، ولذا قال الإمام عليه السلام :
 ((ليس العلم في السماء فينزل إليكم ولا في الأرض فيصعد إليكم بل هو
 مكنون فيكم مجبول في قلوبكم تخلّقوا بأخلاق الرّوحانيين يظهر
 لكم))^(١) .

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ((ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيخرج
 لكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بأداب الرّوحانيين يظهر لكم)) اللمعة البيضاء
 للتبريزي الأنصاري ١٥٨، العلوم والحكمة في الكتاب والسنة لمحمد الريشهري ٣٦ .

فاعرف يا حبيبي ما ذكرناه، فإنه الكبريت الأحمر، ومن مكنونات العلم، ومخزونات السر، لولا تعجيل السفر لتعرضت لبيان بعض المذكورات بأتم بيان وأوضح تبيان، حتى يظهر للناس أن الله في العالم أسراراً عجيبة غريبة، ما اطلع عليها إلا بعض خواصه، وقليل من عباده الممدوحين في كتابه. ❁

❁ شبهة انطواء الكل في الجزء

هنا المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه، ذكر شبهة وردت من البعض وهي: كيف يمكن للإنسان أو للبرغوث أو البق أو البعوضة أو الحشرات التي لا ترى بالعين المجردة، أن يكون فيها كل شيء، من كون السماوات السبع، والأرضين السبع، والعرش والكرسي، والحيوان، والجماد والبحار والأنهار، وبقية الموجودات في هذه الحشرة التي لا ترى بالعين المجردة.

فيقول المعترض نعم، يكون كل ما في العالم في الإنسان وفي هذه الحشرة الصغيرة بأحد أمرين وهما:

الأمر الأول:

تساوي قابليات جميع الخلائق في نسبة واحدة، أي إن قابليات السماوات السبع نفس قابلية الحشرة والبعوضة، وهذا باطل.

حيث ثبت بالعقل والنقل عدم تساوي القابليات، بل عدم تساوي قابليات نفس الطبقة، مثل طبقة الإنسان، فبين الفرد والفرد الآخر كما بين السماء والأرض.

الأمر الثاني:

إلزام الجبر من الخالق والعياذ بالله تعالى، حيث يجبر البعوضة أن يكون فيها العرش أو الكرسي، وهذا أيضاً باطل، حيث ثبت عدله سبحانه لجميع الكائنات، بأن يعطي الخلائق على قدر قابلياتهم.

جواب الشبهة

أجابه السيد بأن الأمر ليس إلى ما ذهبت إليه، من وضع الكرسي والعرش والسموات السبع بكبرهم وسعتهم في نفس البعوضة مثلاً، بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل في الإنسان مثلاً - لأنه أقرب شيء إلينا - العرش في الإنسان هو قلبه، لا العرش الكبير الذي أكبر من الكرسي والسموات والأرضين، فالقلب وظيفته نفس وظيفته العرش، وكذا الكرسي في العالم الكبير، ففي الإنسان صدره، فكما أن الكرسي هو محل الصورة والتفصيل، كذلك الصدر هو محل التصورات، وكما أن الكرسي يستمد من العرش، كذلك الصدر يستمد من القلب، وكذا بقية الموجودات في العالم الكبير، كلها موجودة في الإنسان بما يناسبه، لا بما هي عليه من الكبر والسعة.

الدليل النقلى على الإنطواء

رويت روايات عدة عن المعصومين عليهم السلام على إنطواء الكل في الجزء، وأن الجزء هو تمام الكل، منها ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في شعره.

أتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر
ومنها عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قال: ((ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيخرج لكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بآداب الروحانيين يظهر لكم))^(١).


وهذه القراءة لذات الإنسان تحتاج إلى توفيق من الله تعالى، وتأيد من الإمام الحجة عجل الله فرجه، مع تربية النفس وتهذيبها بالرياضات الشرعية، والآداب الروحانية، المروية عن المعصومين عليهم السلام.

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيخرج لكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بآداب الروحانيين يظهر لكم)) اللمعة البيضاء للتبريزي الأنصاري ١٥٨، العلوم والحكمة في الكتاب والسنة لمحمد الريشهري ٣٦.

لذا روي عن عنوان البصري، وكان شيخاً كبيراً أتى عليه أربع وتسعون سنة، قال: كنت اختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: ((إني رجل مطلوب، ومع ذلك لي أورد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه، فاغتمت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرس فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول وسلمت عليه، ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصليت فيها ركعتين، وقلت: أسألك يا الله يا الله أن تعطف علي قلب جعفر، وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم، ورجعت إلى داري مغتماً ولم اختلف إلى مالك بن أنس، لما أشرب قلبي من حب جعفر، فما خرجت من داري إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري، فلما ضاق صدري تنعلت وترديت وقصدت جعفرأ، وكان بعد ما صليت العصر، فلما حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟، فقلت: السلام على الشريف، فقال: هو قائم في مصلاه، فجلست بحذاء بابه، فما لبثت إلا يسيراً إذ خرج خادم فقال: ادخل على بركة الله، فدخلت وسلمت عليه، فرد السلام وقال: اجلس غفر الله لك، فجلست فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: أبو من؟، قلت: أبو عبد الله، قال: ثبت الله كنيته ووفقك، يا أبا عبد الله ما سألتك؟، فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثم رفع رأسه، ثم قال: ما سألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته. فقال: يا أبا عبد الله ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك، قلت: يا شريف، فقال: قل يا أبا عبد الله. قلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبودية؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة

اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره، هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه، لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس.

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلاً، فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) ^(١) قلت: يا أبا عبد الله أوصني قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها.

ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له. فقال: أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهي فإنه يورث الحماقة والبلاهة، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسم الله، واذكر حديث الرسول: (()) : ((ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، فإن كان ولا بد، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)).

وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرأ، فقال: إن قلت عشرأ لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء.

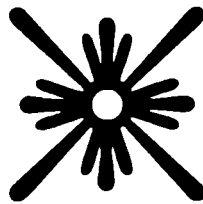
وأما اللواتي في العلم: فأسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً.

قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك، ولا تفسد عليّ وردي، فإنني امرؤ ضنين بنفسي، والسلام على من أتبع الهدى^(١) نقلت الحديث بطوله للإفادة والاستفادة.

وهذا الحديث من عدة أحاديث، تربي الإنسان على السلوك إلى الله تعالى، كما أن هذا الحديث يعد من الأحاديث المروضة للإنسان، بالرياضة المشروعة المأمونة، غير ما يسلك عليه أهل التصوف من العامة.

فالمواظبة على العمل بمعنى هذا الحديث الشريف، يستطيع على معرفة بعض الأسرار المكنونة في باطنه، حتى يتعرف على حكمة الله تعالى في خلقه، وهناك رسالة كاملة في شرح أبيات الشعر لأمير المؤمنين عليه السلام.

أتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر
لآية الله العظمى الميرزا علي الأحقائي في كتابه الكلمات المحكمات، من أراد فليراجع، وفقنا الله تعالى وإياكم لمعرفة أسرارنا المودوعة فينا بحق محمد وآل محمد عليهم السلام.



(١) منهاج الصالحين الشيخ وحيد الخراساني / ١ / ٥٢٧ - ٥٢٩، مشكاة الأنوار علي الطبرسي ٥٦٣، البحار / ١ / ٢٥٥.

الفصل العاشر [الفاعل في السراج النار الغيبي]

اعلم أن المؤثر والفاعل في السراج بإحداث الأشعة هو النار الغيبي الكامنة فيه، وهذه الشعلة فعلها، وبها أحدثت النار الأشعة*.

* المؤثر في السراج النار الغيبي

ذكر المؤلف رضوان الله عليه في الفصل التاسع، كيفية خلق الموجودات، ومثل على ذلك بخلق السراج للأشعة.

على أن السراج هو الذي أوجد وخلق الأشعة لا من شيء، وكلفهم أولاً بالتكليف الوجودي بقوله: ألسنت بربكم؟ ثم بالتكليف الشرعي وهو عبارة عن قبول النور أو الإدبار عنه، حيث بإمكان كل رتبة من الشعاع أن تقع في أي مكان شاءت، فالقريب صار قريباً باختياره، والبعيد صار بعيداً باختياره، إذ بإمكان كل من القريب والبعيد أن يكون غير ما هو عليه، لأن نسبة السراج للأشعة سواء ليس فيها اختلاف وتمايز.

وعلى ذلك قسمت الخلائق أو الأشعة إلى خمسة أقسام، على حسب قربها وبعدها في السلسلة الطولية، وقبولها وإنكارها على حسب السلسلة العرضية كما ذكر من قبل.

فالمؤلف هنا يريد أن يبين من الفاعل للأشعة؟ أي من الموجد لها من حالة العدم إلى حالة الوجود؟

هل الموجد للأشعة السراج مطلقاً مع أشعته؟ أم الشعلة القريبة المسماة بالشعلة؟

بالطبع ليس الموجد هو السراج مطلقاً، أي الشعلة والأشعة، إذ لا يمكن أن يكون الأثر مؤثراً، والمؤثر أثراً، وهذا بديهي البطلان، لأنه ضرورة أن الأشعة هي أثر الشعلة، فلولا الشعلة لما وجدت الأشعة.

والإحتمال الثاني أن الذي أوجد الأشعة هي الشعلة القريبة، ولكن من الذي أوجد الشعلة نفسها؟ لأنها لم تكن ثم كانت، فلا بد من فاعل وموجد أوجد الشعلة أولاً، ثم أوجد الأشعة بالشعلة.

الجواب .

إن النار بما هي نار مشتعلة لها أربع مراحل وهي :

المرحلة الأولى :

النار الغيبي وهي عبارة عن الحرارة واليبوسة الكامنة في الشعلة، والشعلة هي أثر النار لا غير، فحقيقة النار من الحرارة واليبوسة نجدها كامنة في الكبريت والحجر وغيرها، وإذا حرّك الكبريت أو الحجر ظهر أثرها وهي الشعلة، لذا تعريف النار التام المنطقي، هي الحرارة واليبوسة لا غير، وما نشاهده من الشعلة وأشعتها فهي آثار تلك النار الغيبي، لذا حقيقة النار، أعني النار الغيبي، موجودة في كل مكان، مع وجود المقتضى وهو الزيت أو الخشب اليابس، وعدم المانع وهو الرطوبة أو العازل للنار تظهر النار، فإذا تحقق المقتضى ورفع المانع وجدت الشعلة والأشعة، فالنار موجودة في الحجر سواء ضرب به الزناد أم لا، وكذا في الخشب وغيره.

المرحلة الثانية :

مرحلة الزيت الذي يشعل النار، إذ الزيت هو المظهر للنار، وهو المقتضى لوجوده، إذ بدون الزيت لا يمكن للنار الظهور بالنسبة للسراج، وذلك مثل نور الشمس، فلولا الأرض والقمر أو العاكس لما ظهر نور الشمس.

وقد يكون مظهراً للنار غير الزيت من الخشب وغيره، إلا أن الزيت أسرع اشتعالاً من غيره، حتى أن بعض الزيت من صفائه يكاد يشتعل قبل أن تمسه النار،

لصفاء قابليته للإشتعال، فإذا مست النار الزيت تكلس من حرارة النار وصار دخاناً لطيفاً يساوي لطافة النار.

المرحلة الثالثة:

هي الشعلة القريبة للزيت، وهي أول ما تكون من السراج، فهي أول موجود وجد من السراج.

المرحلة الرابعة:

هي الأشعة، وهي عبارة عن النور المنتشر في عالم السراج، على حسب مراتبه في القرب والبعد.

الفاعل هي النار الغيبي

فمن هذا التقسيم لمراحل النار، تبين أن الفاعل للنار من الشعلة والأشعة، هي النار الغيبية الكامنة في الشعلة، إذ لولا الحرارة واليبوسة لما كان شعلة ولا أشعة.

فالنار الغيبية أعني الحرارة واليبوسة، لما مست الزيت الصافي من الشوائب، أخذ الزيت يتكلس، ولما تكلس تحول الزيت إلى دخان، ولما تحول الزيت إلى دخان، اشتعل الدخان بالنار، ووجدت الشعلة القريبة التي هي أول موجود من موجودات الأشعة، ولما وجدت الشعلة القريبة، الشعلة نفسها أوجدت الأشعة.

فبالخلاصة أن الحرارة واليبوسة مست الزيت حتى تكلس وتحول إلى دخان، ثم اشتعل الدخان وحدثت الشعلة، ثم الشعلة أوجدت الأشعة، فالحرارة واليبوسة من الأعراض كما هو المعروف، والأعراض لا بد له من جوهر حتى يقوم به، مثل عرض الألوان يحتاج إلى جوهر مثل الجدار حتى يقوم فيه، فجوهر الحرارة واليبوسة العرضيتين، لا تدرك بأي وجه من الوجوه، فلا سبيل إلى إدراكها من غير صفتها، وهي الحرارة واليبوسة العرضيتان.

فالفاعل الحقيقي هي جوهر النار الغيبي من الحرارة واليبوسة، ولكن المباشر للفعل هي الشعلة التي أوجدت الأشعة وهنا كلام ومعاني لا يسعه المقام.

فليس لهذا السراج الذي هو الشعلة تذوت وتحقق إلا بفعل النار الظاهرة في هذه الشعلة*، فالنار أول ما أحدثته بواسطة الدهن هو الشعلة، ثم أحدثت بواسطتها الأشعة**، فالأشعة مستمدة من الشعلة، إذ النار جعلت جميع ما تحتاج إليه الأشعة عند الشعلة***.

* لا تحقق للشعلة إلا بفعل النار

أي لا تحقق للشعلة التي أول خلق للسراج إلا بفعل النار الغيبي، وفعل النار هي عبارة عن الحرارة واليبوسة العرضيتان بالنسبة إلى جوهرهما، والحرارة واليبوسة العرضيتان بالنسبة إلى الشعلة يعدان جوهرين، لأنه دائماً إذا نسب العلة إلى معلولها وأثرها يعد جوهرًا، وإذا نسبت العلة إلى ما فوقها من علتها تعد عرضاً.

لذا لما كان محمد وآل محمد ﷺ علة تامة عامة لوجود الخلائق أجمع، لأنهم أول موجود أوجدتهم الجليل سبحانه، فكل ما سواهم من آثارهم وآثار آثارهم يعدون أعراضاً لمحمد وآل محمد ﷺ.

كما قال الشاعر في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

يا من قام الوجود به الناس بعدك كلهم عرض.

فلولا فعل النار أعني الحرارة واليبوسة، وهي وإن كانت غائبة ولا تدرك، إلا أن صفتها ظاهرة في الشعلة، وصفتها الظاهرة هي عبارة عن الحرارة واليبوسة الموجودة في الشعلة، فكما أن النار الغيبي حارة يابسة، كذلك الشعلة صفتها حارة يابسة، فتحقق الشعلة إنما ذلك بالنار الغيبي.

** أول موجود بالنار هي الشعلة

فالنار الغيبي أعني الحرارة واليبوسة حينما مست الزيت وتكلس إلى دخان، أول ما صدر منها الشعلة، فالشعلة هي أول صادر من الأشعة، ثم أحدثت النار الغيبي الأشعة، ولكن بواسطة الشعلة، إذ بدون الشعلة تحدث الطفرة الباطلة.

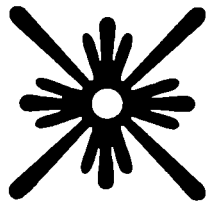
ومعنى الطفرة وجود أثر بلا مؤثر يناسبه ويجانسه، مثل ما نقول اشتعل المصباح بدون كهرباء، فلا بد لإشعال المصباح الكهربائي من مدد وهو الكهرباء.

فبدون الكهرباء تحدث الطفرة الباطلة، وهو أن الشيء يحدث بلا سبب، مثل وجود بنائة بدون بان، أو نور بدون منير، أو طرقة بلا طارق وغيرها، وهذا باطل عقلاً ونقلًا، لأن العالم عالم أسباب ومسببات وهذا واضح.

*** الأشعة مستمدة من الشعلة

فالأشعة وجودها ورزقها وبقاؤها واحتياجها كله من الشعلة، فليس للأشعة حال غير حال الفقر والإحتياج إلى الشعلة، لأن وجودها ما كان إلا بالشعلة، فبالطريق الأولى أن يكون شؤونها واحتياجها من الشعلة.

وذلك أن النار الغيبي جعلت جميع ما تحتاج إليه الأشعة عند الشعلة، من الوجود والرزق والإحياءة والإماتة، بل جميع ما تحتاج إليه كله عند الشعلة، لكونها ليس لها حال غير هذا الحال، وهو الإحتياج والفقر المطلق للشعلة.



وأمرتها أن تمد كلاً من الأشعة بقدرها، وتعطي النور لكل من مستحقي الأشعة بحسب مرتبته وحظه من الوجود❁، فالشعلة وجه النار وبابها الذي به تتوجه الأشعة إليها وتستمد منها، إذ لولاها لما كان للأشعة وجود أبداً❁❁.

❁ الشعلة تمد الأشعة على قدرها

فالشعلة بقاؤها وفناؤها على النار الغيبي، وهي الحرارة واليبوسة، إذ لولاها لما كانت الشعلة، وكذا الأشعة بقاؤها وفناؤها متوقف على الشعلة، لذا النار الغيبي أعطت الشعلة جميع ما تحتاج إليه الأشعة من وجودهم ورزقهم وحياتهم ومماتهم وسعادتهم وشقاوتهم من القرب والبعد، فالقريب من الأشعة تسعده بالنور، والبعيد منها تشقيه بالظلمة وهكذا.

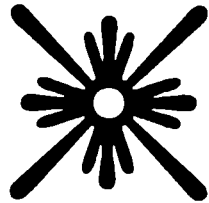
فالشعلة تمد كلاً من الأشعة على حسب استعداده أو قربه من القرب والبعد، فالقريب تمده بالنور أكثر من النور المتوسط، والنور المتوسط تمده بالنور أكثر من النور البعيد المختلط بالظلمة.

وأيضاً الشعلة تمد الظل الحاصل من السراج بالظلمة، لأنه طلب الظلمة والظلية، فلو لم تمد الظل بالظلمة لأصبح السراج ظالماً لها، لأنه أعطاه غير ما طلب وهذا خلف.

❁❁ الشعلة وجه وباب النار

نحن إذا دققنا النظر في إمداد النار الغيبي للشعلة، وإمداد الشعلة للأشعة في خلقها ورزقها وحياتها ومماتها وجميع احتياجاتها، حيث لولا الشعلة لفنت الأشعة، يعلم من هذا أن الشعلة باب ووجه النار الغيبي للأشعة، أما كونها وجه فلأن الوجه هو المعروف للشخص، فلولا الوجه لما يعرف الشخص، كذلك الشعلة لولا الشعلة لما عرفت النار الغيبي.

وأما كونها باباً فلأن الباب هو الوسيلة الوحيدة للدخول إلى البيت، فلولا الباب لما استطاع أن يدخل أحد على أحد، فكذلك الشعلة هي باب لمن أراد من الأشعة حاجة من خلق أو رزق أو حياة أو ممات أو قضاء حاجة، أو غير ذلك من النار الغيبي، فلا يمكن للأشعة الوصول إلى النار الغيبي إلا بواسطة الباب وهي الشعلة، لأنه لا يوجد للأشعة منفذ وباب لحوائجها من النار الغيبي إلا من الشعلة.



فالنار كانت كنزاً مخفياً، فأرادت أن تعرف، وأحبت أن تظهر بالآثار، ألفت في هوية الدّهن وقابليته مثلها، فصار سراجاً وهاجاً، وأظهرت عنه أفعالها، وأمرت السراج بإقباله إلى الأشعة، وإحداثها بنوع اختيارها وقبولها، ثم أمرته بعد إتمام إحداث الأشعة بإدباره عنها وإقباله إلى نفسه، ومحو الموهوم بصحو المعلوم، وأمرت الأشعة أيضاً بتوحيد نفسها أولاً، وبرسالة الأشعة ثانياً.

• النار كانت كنزاً مخفياً

فالنار الغيبي وهي الحرارة واليبوسة الذاتيتان كانت كنزاً، وهذا الكنز مخفي، غير ظاهر للغير، وإن كان هو موجود في مكانه وزمانه الذكري غير العيني، فأحبت النار الغيبي الحرارة واليبوسة أن تظهر ويعرف آثارها من الحرارة والنورانية، لأن الكامل لا يكون كاملاً إلا بظهور كماله، وإلا كان ناقصاً، مثل الشمس كمالها بظهورها لأشعتها، ومن كمال النار الغيبي أن تظهر كمالها، وكمالها هو أثرها، وهو الحرارة والإحراق والإضاءة، فلما أحبت أن تعرف بالحرارة والإحراق والنورانية، ألفت مثالها وهو عبارة عن الحرارة واليبوسة، في قابلية الدهن عندما تكلس الدهن وتبخر، وعند تبخره اشتعلت الشعلة بآثارها وهي الأشعة.

ولما اشتعلت الشعلة سراجاً وهاجاً، حينذاك أظهرت النار الغيبي من الشعلة، آثارها وقدرتها وجميع صفاتها من الصفات الذاتية والفعلية، حتى أصبحت الشعلة فاعلية النار في إيجاد الأشعة وبابها ووجهها، فمن عرف الشعلة عرف النار ومن جهلها جهل النار، حتى إنه لا يفرق بين الشعلة والنار الغيبي في التعريف والتعرف بالأثرية والحرارة والنورانية والإحراق بينها وبين النار، فكما أن النار الغيبي تحرق وتنور كذلك الشعلة تحرق وتنور، إلا أن الشعلة خلق من مخلوقات النار الغيبي وعبد من عبيدها.

❁❁ إقبال الشعلة وإدبارها

إنه ذكرنا من قبل أنه لما ألت النار الغيبي في هوية الزيت مثالها وهي الحرارة واليبوسة، تكلس إلى دخان ثم اشتعلت الشعلة، فالشعلة هي أول موجود وجد من النور، فهي علة لما تحتها كما ذكر من قبل.

فلما اشتعلت الشعلة وأضاءت في عالمها، أمر السراج وهو النار الغيبي الشعلة بالإدبار، أي الإقبال إلى الأشعة في إحداثها، أي قالت النار الغيبي للشعلة أدبري بإظهار آثارك وإيجادهم، وآثار الشعلة هي الأشعة، فأدبرت الشعلة بإيجاد آثارها وهي الأشعة، فأوجدت الأشعة إلى آخر مراتبها وهو النور المختلط بالظلمة، وأوجدت أيضاً الظل المنعكس من النور، لأن الظل وإن لم يكن من الشعلة إلا أنه لا يوجد إلا بها، فلولا الشعلة لا نور ولا ظل، لذا ظل الشاخص من الشمس، هو بالشمس حدث، إذ لولا الشمس لا نور ولا ظل وهذا واضح.

فأدبرت الشعلة بإيجاد الأشعة مع الظل، إلى أن وصلت إلى الثرى، وهو آخر الظل الذي فيه ظلمات فوقها ظلمات، قال تعالى: ﴿أَو كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ مُّظْلِمٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَأَ يَكْذِبَ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (٤٠) (١).

فلما أمرت النار الغيبي الشعلة بالإدبار في إظهار وإيجاد آثارها، أن توجد آثارها على نحو اختيارها على حسب ما يختار النور مكانه من القرب والتوسط والبعد أو الظل والظلمة، لأنه ذكر فيما قبل أن الأشعة هي التي اختارت مكان وجودها، وقبول وجودها من جهة كمية النور وقلته على حسب مراتبها في سلسلة الطول والعرض.

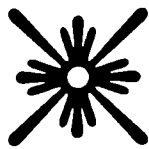
فلما أوجدت الشعلة الأشعة مع الظلمة بأقسامها، إلى أن وصلت إلى نهاية الظلمة الذي هو عكسها، أي عكس الشعلة الموجود لهذا الظلمة، بعدها أمرت النار الغيبي الشعلة بالإقبال إليها والإدبار عن آثارها، فأقبلت الشعلة إلى النار الغيبي مرفوعة الهمة عن الإعتقاد على الآثار، بل تعتمد على النار الغيبي التي أعطتها

وأمدتها بجميع ما عندها، فتمحو الموهوم وهي الآثار من الأشعة، بصحو المعلوم وهي النار الغيبي، لأن المعلوم الحقيقي والمؤثر الحقيقي في الكل هي النار الغيبي وكل ما سواها وهم، قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: ((إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فأرجعني إليك بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن النظر إليها، مرفوع الهمة عن الإعتقاد عليها، إنك على كل شيء قدير))^(١) فقالت النار الغيبي للشعلة تعال إليّ واقبلي وأنت غير معتمدة على آثارك، وهمتك واتكالك على أثرك بل عليّ توكلني، فكل ما عندك مني وبني، فكل ما سواي لا شيء، وهم بالنسبة إلي، وإن كان هو في حد ذاته ولمن دونه شيء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢).

لذا قال الشاعر لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
ثم أمرت النار الغيبي الشعلة أن تأمر الأشعة بتوحيد موجدتها وهي النار الغيبي، أن موجدتها واحد لا شريك له، وإلا لبان التناقض والإختلاف في نظام الأشعة وعمت والفوضى في الأشعة.

ثم أمرت النار الغيبي الشعلة أن تقول للأشعة إنها مرسله من النار، وهي الوجه والباب إلى النار الغيبي، فمن كفر برسالتها وكونها باباً ووجهاً للنار فقد كفر بالنار، لأن النار وإن كانت هي المؤثر الحقيقي في وجود السراج، إلا أنه لا تعرف إلا بالشعلة، فمن أنكرها فقد أنكر النار، واتخذ طريقاً لمعرفة موجد غير النار الغيبي، وهذا كفر بالنار الغيبي.



(١) البحار للشيخ المجلسي ٩٥ / ٢٢٦، مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٢) سورة القصص آية (٨٨).

وقالت لها : إنكم لا تصلون إليّ إلا من هذا الباب وهو الشعلة، فلاشعة كلها أسماء النار، والإسم الأعظم هو الشعلة، وهي باب الفيوضات، لا يصل مدد من النار إلى الأشعة إلاّ بها، فأى مطلب وحاجة طلبتها الأشعة بتوسط الشعلة استجابت قطعاً، فالشعلة عبد مكرم للنار، لا يسبقها في أمر من الأمور وإلاّ لهلك، إذ ليس للشعلة تذوت وتحقق بدون النار، وهو بأمرها يعمل في إمداد الأشعة ومدد الظل ❀.

❀ الشعلة هي الاسم الأعظم للنار

لما أمرت النار الغيبي الشعلة بالإقبال إليها، ومحو كل ما سواها وعدم الالتفات إلى غير النار الغيبي، وأوحت أيضاً النار الغيبي للشعلة أن تقول للأشعة، أيها الأشعة كلكم أسماء لي، أي كل الأشعة أسماء للنار الغيبي، لكونها ينبئون عنها في كونها حارة ومضيئة، لأنها أثر من آثار النار، والأثر يشابه صفة مؤثره، فكل الأشعة أسماء وآثار تدل على النار الغيبي، إلا أن الشعلة لقربها ولسرعة إجابتها في الإنوجاد قبل الأشعة، هي الاسم الأعظم للنار الغيبي، وهذا أمر طبيعي وعادي، لكون الشعلة هي التي أوجدت جميع الأشعة والظل حتى الظلمة، فلولاها لما وجد شيء من ذلك، لذا كانت الاسم الأعظم للنار.

فأوحت النار للشعلة أن تخبر الأشعة بمراتبها مع الظلمة، أنهم لا يمكن الوصول لهم إلى النار الغيبي في المعرفة والعبادة وقبول الأعمال والترقي في الدرجات إلاّ بي، أي بالشعلة، لأنها الوجه والباب.

بل الشعلة هي باب المدد والإمداد والفيوضات النازلة من النار، لا يكون إلاّ عنها وبها، بل أي عمل يصدر من الأشعة لا يقبل ولا يرفع إلاّ عنها، وأي طلب طلبته الأشعة من النار بواسطتها، أستجيب ذلك الطلب قطعاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴿١﴾ .

لكونها الوسيلة إلى النار، لأنها أقرب الأشعة على الإطلاق إلى النار، ومع هذا القرب للشعلة عند النار الغيبي، لكونها باباً ووجهاً وواسطة في إيصال ما ينزل من النار إلى الأشعة، وما يرفع من الأشعة إلى النار الغيبي إلا بها، إلا أنها عبد مكرم فقير لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا يمكن للشعلة أن تتقدم أو تسبق أمر النار، بأمر لم تأمر به النار وإلا هلكت، لأنه لا وجود للشعلة ولا تحقق إلا بمدد وقدرة من النار الغيبي، فلو انقطع المدد آناً ما عن الشعلة لهلكت البتة .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الوجود على هذا القياس، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾^(١). فالنار الغيبي مثل للمشية والدهن مثل للقابلية النبوية، التي أخبر الله عنها بقوله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾^(٢). يعني قرب قابلية محمد المصطفى ﷺ من الظهور والوجود قبل أن تمسها نار المشية، وهذا كناية عن شدة نورانية تلك القابلية ونهاية صفائها، كما أن أول درجة النفط مستعدة للإشتعال قبل وصول النار إليها ❁.

❁ المعصومون هم المظهرون لأمر الله تعالى

الله جل جلاله من لطفه بعباده لمعرفته وعبادته، جعل السافل يدل على العالي، والعالي يربي السافل، كما قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: ((قد علم ذووا الألباب، أن الإستدلال على ما هناك لا يعلم إلا بما هنا))^(٣).

فالإستدلال بالسراج وآثاره من الآيات التي تدلنا أولاً على وجود الجليل عز وجل أنه واحد أحد صمد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأنه غير خلقه في كل شيء مطلقاً، ولا يعرف كنهه وحقيقته إلا هو سبحانه، فالطريق لمعرفة هي الآيات المطروحة في الكون مما نراه ومما لا نراه، ويدلنا السراج أيضاً على الآيات العظمى في الكون، وأعظمها هم محمد وآل محمد عليه السلام، لذا وصف الحق تعالى رسوله ﷺ بالسراج المنير، قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٤).

فنفس ما في السراج مما ذكر من قبل، هو بعينه ما في العالم الكبير، حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل، فالنار الغيبي الحرارة واليبوسة مثل للمشيئة، والدهن الذي

(١) سورة الملك آية (٣).

(٢) سورة النور آية (٣٦).

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق ٤٣٨، البحار للشيخ المجلسي ١٠ / ٣١٦.

(٤) سورة الأحزاب، آية (٤٦).

مسته النار بحرارتها وييوستها حتى كلسته هو عبارة عن حقيقة محمد وآل محمد عليهم السلام.
 كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾^(١) أي يكاد أن ينوجد
 المعصومون الأربعة عشر عليهم السلام في الوجود المقيد قبل أن تمسهم نار المشيئة، وذلك
 لصفاء قابلياتهم وسرعة استعدادهم للوجود، لذا بعض أنواع الغاز يشتعل من مسيرة
 عدة كيلومترات من النار، لشدة قابليته للإشتعال.

وأما الشعلة المتكونة بالدخان المتكلس من الزيت، هو عبارة عن العقل الكلي،
 أي عقل محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو عقل رسول الله صلى الله عليه وآله، لذا قال عليه السلام ((أول ما خلق
 الله عقلي))^(٢).

ولما خلق عقل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عقل محمد وآل محمد عليهم السلام تشعشت العوالم
 من هذا النور والسراج المنير، الذي أنار النور من النور كما قالت الصديقة فاطمة
 الزهراء عليها السلام ((بسم الله النور، بسم الله نور النور، بسم الله نور على نور، بسم الله
 الذي هو مدبر الأمور، بسم الله الذي خلق النور من النور، الحمد لله الذي خلق النور
 من النور...))^(٣).

فلما خلق نور المعصومين عليهم السلام خلق من أثرهم وشعاعهم كل الأنوار المطيعة
 المؤمنة بالله تعالى وبرسوله وبالمعصومين عليهم السلام، وخلق أيضاً من عكوسات
 أنوارهم عليهم السلام المخلوقات الكافرة والجاحدة المنكرة لهم إلى آخر مراتب السلسلة
 الطولية والعرضية، وهناك اصطلاحات لهذا النور، أعني العقل الكلي عند
 المعصومين عليهم السلام وعند غيرهم من الفرق الأخرى إن شاء الله تعالى يأتي عليها البيان.

(١) سورة النور آية (٣٦).

(٢) شرح أصول الكافي للمولى محمد بن صالح المازندراني ١٢ / ٢٢.

(٣) الدعوات لقطب الدين الراوندي ٢٠٨.

والشعلة الحاصلة من تعلق النار ووقوعها على الدهن، مثال (للعقل الكلي) وهو عقل نبينا وروحه ﷺ، كما يسمونه به الإشراقيون، ويسمونه المشائيون بالعقل الأول، وكل طائفة تسميه بحسب اعتقادها واصطلاحها باسم، ومرجع الكل واحد، وهو عقل نبينا ﷺ والأئمة الإثنا عشر والصديقة الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين واحد، ينتقل في كل واحد منهم على سبيل التبادل، وفي لسان الشرع يسمى (بروح القدس) و (الملك المؤيد) و (الملك المسدد) و (عمود من نور).

فأول شيء دخل في دائرة الوجود أي الوجود المقيد هو نور نبينا وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين، وهو المراد بقول النبي ﷺ) أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر^(١) (أول ما خلق الله نوري^(٢) (و) أول ما خلق الله عقلي^(٣) (و) أول ما خلق الله روعي^(٤) .

❁ إطلاق المعصومين ﷺ على أول مخلوق

فورد عن المعصومين ﷺ إطلاقات عديدة عن أول مخلوق وأول إشراقة للوجود من خزائن الله جل جلاله، منها نور النبي ﷺ كما قال ﷺ لجابر بن عبد الأنصار حينما سأله عن أول مخلوق خلقه الله تعالى، فقال ﷺ ((أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر))^(٥) وهذا الحديث من الأحاديث المتفق على روايتها بين الطرفين منا ومن إخواننا السنة.

(١) البحار للشيخ المجلسي ١٥ / ٢٤ .

(٢) البحار للشيخ المجلسي ١ / ٣٥٣، عوال اللآليء لا بن أبي جمهور ٤ / ٩٩ .

(٣) شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١٢ / ٢٢ .

(٤) شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١٢ / ٢٢ .

(٥) البحار للشيخ المجلسي ١٥ / ٢٤ .

أول ما خلق النور

ومنها نوري أي نور النبي ﷺ حيث قال ﷺ ((أول ما خلق الله نوري))^(١).

فنور النبي والمعصومين ﷺ هو نور الله تعالى، لأن الحق تعالى ليس بنور ولا ظلمة ولا شيء كخلقه تعالى، بل ليس كمثلته شيء، فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

إشارة إلى نور المعصومين ﷺ وهو عقلهم الذي أشرقت به السموات والأرض، لذا هذا النور هو الاسم الأعظم الذي قامت أي انوجدت به السماوات والأرضون، لذا روى الشيخ الطوسي رضوان الله عليه في مصباحه هذا الدعاء ((اللهم أني أسألك بنور وجهك المشرق الباقي الكريم، وأسألك بنور وجهك القدوس الذي أشرقت به السموات والأرضون، وانكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تصلي على محمد وآله وأن تصلح لي شأني كله))^(٣)، فلعظم هذا النور نسبه إلى نفسه تعالى، كما نسب الكعبة إليه بأنها بيته، قال تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٤) فهذا النور العظيم هو الدال عليه تعالى المعرف له، الظاهر في نفسه المظهر لغيره من الأنوار، ففي دعاء الجوشن الكبير المروي عن النبي ﷺ ((يا نور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدر النور، يا نور كل نور، يا نوراً قبل كل نور، يا نوراً بعد كل نور، يا نوراً فوق كل نور، يا نوراً ليس كمثلته نور))^(٥).

فهذا النور ليس كالأنوار الأخرى، بل هو الشعلة المنورة لكل الأنوار في عالم الإمكان والتكوين كما في دعاء الجوشن الكبير المتقدم ((يا نور كل نور)).

(١) البحار للشيخ المجلسي ١ / ٣٥٣.

(٢) سورة النور، آية (٣٥).

(٣) مصباح المتعبد للشيخ الطوسي ١٠٢.

(٤) سورة البقرة، آية (١٢٥).

(٥) المصباح الكفعمي ٢٥٣.

لذا آية النور كلها مروية عن المعصومين عليهم السلام لكونهم مظهرين لأمر الله ونهيه، كما روى الشيخ محمد الصدوق في التوحيد قال: وتصديق ذلك ما حدثنا به إبراهيم بن هارون الهيتي بمدينة السلام، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن أبي الثلج، قال: حدثنا الحسين بن أيوب، عن محمد بن غالب، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن أيوب، عن الحسين بن سليمان، عن محمد بن مروان الذهلي، عن الفضيل بن يسار، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟، قال: ((كذلك الله عز وجل، قال: قلت: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾؟

قال: محمد عليه السلام، قلت: ﴿كَيْشْكُورٍ﴾؟ قال: صدر محمد عليه السلام، قال: قلت: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؟

قال: فيه نور العلم يعني النبوة، قلت: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾؟ قال: علم رسول الله عليه السلام صدر إلى قلب علي عليه السلام، قلت: ﴿كَأَنَّهَا﴾؟ قال: لأي شيء تقرأ كأنها، فقلت: فكيف جعلت فداك؟، قال: كأنها كوكب دري، قلت: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؟، قال: ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا يهودي ولا نصراني، قلت: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؟، قال: يكاد العلم يخرج من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به، قلت: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾؟، قال: الإمام في أثر الإمام عليه السلام))^(١).

فهذا النور هو أول شيء خلقه الله تعالى فالشامي لما سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن أول ما خلق الله تبارك وتعالى فقال ((خلق النور))^(٢) فهذا النور هو الاسم الأعظم الأعظم المروي في دعاء السمات عن الباقرين عليهما السلام: ((اللهم أني أسألك باسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم، الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت، وإذا دعيت به على مضائق أبواب الأرض للفرج انفرجت...))^(٣).

(١) التوحيد للشيخ محمد الصدوق ١٥٧.

(٢) العلل للشيخ الصدوق ٥٩٣ / ٢.

(٣) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ١٢٠.

فآية الله السيد كاظم الرشتي مؤلف الكتاب رضوان الله عليه له كتاب مستقل كبير في شرح دعاء السمات، من أراد الإطلاع فليراجع ففيه من الأسرار والكنوز ما يذهل العقل، ويروي النفس.

أول ما خلق الروح

الروح في هذا المقام هو نفس العقل الكلي للمعصومين عليهم السلام، لذا روى الشيخ محمد بن الحسن الصفار قال: حدثنا محمد بن عبد الحميد، عن منصور بن يونس.

عن أبي بصير قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾^(١).

قال: يا أبا محمد خلق والله أعظم من جبرئيل وميكائيل، وقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة يخبرهم ويسددهم^(٢).

فآية الله العظمى الميرزا علي الإحقاقي قدس الله نفسه له شرح على هذه الآية في كتابه الكلمات المحكمات يقول ((وقد يطلق ويراد منه الروح الكلي الأولى، وهو العقل الكلي، الذي ركن أيمن العرش الأعلى، الساطع منه النور الأبيض، وهو المصباح في عالم الكون، وهو السراج المنير، وما سوى الله مخلوق من أشعته، وأشعة أشعته، المعبر عنه بالحجاب الأبيض، وعمود النور في الأخبار، وبروح القدس قال الإمام العسكري عليه السلام ((روح القدس في الجنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة))^(٣) وهو المسدد لأشرف الخلق، والنازل عليه أو عنده بكليته وبرمته، والمسدد لسائر الأنبياء بوجه من وجوهه لا بكليته))^(٤).

(١) سورة الشورى، آية (٥٣).

(٢) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٤٧٥.

(٣) البحار للشيخ المجلسي ٢٦ / ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٤) الكلمات المحكمات لآية الله الميرزا علي الإحقاقي ١١٣.

وهذه الروح الآن موجودة عند مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب
نعليه المباركتين الفداء، لما روى عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ((منذ أنزل الله
ذلك الروح على نبيه ما صعد إلى السماء، وأنه لفينا))^(١).

وهنا تفسير وتفسير لمعنى الروح، فلولا الخروج عن المقام لبينا الكلام
والسلام، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الكلمات المحكمات، لآية الله الميرزا
علي الإحقاقي قدس الله نفسه، ففيه بلوغ المرام، وتمام المقام.

أول ما خلق العقل

من الأمور المتفق على روايتها على أن أول المخلوقات العقل، قال رسول
الله ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ((يا علي إن أول ما خلق الله العقل،
فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو
أحب إليّ منك، بك أخذ وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب))^(٢).

وفي رواية آخر في المحاسن قال عنه: عن محمد بن خالد، عن عبد الله بن
الفضل النوفلي، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((قال رسول الله ﷺ خلق الله
العقل فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال: ((ما خلقت خلقاً أحب
إليّ منك)) قال: فأعطى الله محمداً ﷺ تسعة وتسعين جزءاً، ثم قسم بين العباد جزءاً
واحداً))^(٣).

معنى أدبر أي اظهر آثارك من إيجاد الخلائق إلى ما تحت الثرى، وأقبل أي
تعالى إليّ، ومعنى أدبر القوس النزول، ومعنى أقبل قوس الصعود، وهذا هو حقيقة
الإسراء والمعراج للنبي ﷺ.

وهناك كتاب قيم عن أسرار المعراج، لآية الله البحر المحيط، الشيخ محمد بو

(١) بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار ٤٧٧.

(٢) الجواهر السنية للحر العاملي ١٤٥.

(٣) المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ١٩٢.

خمسين رضوان الله عليه الموسوم (ببدره المنهاج في أسرار المعراج) ذكر فيها من الأسرار والمقامات والعوالم التي طواها ﷺ في عروجه، فذكر فيه ما لم يذكر من قبله أحد في الإسراء والمعراج، لأنه ﷺ في الإسراء والمعراج وطأ بنعليه المباركتين كل ذرات الكون مطلقاً، العلوية والسفلية، الغيبية والشهودية، الدنيا والبرزخ والآخرة، حتى شاهد جنان ونيران الآخرة يوم القيامة وهي بعد لم تقم الساعة، لذا قال مولانا الإمام الحجة بن الحسن أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء في دعاء الندبة، متحدثاً عن النبي ﷺ ((إلى أن انتهيت بالأمر إلى حبيبك ونجيبك محمد ﷺ، فكان كما انتجبتة، سيد من خلقتة، وصفوة من اصطفيتة، وأفضل من أجتبيتة، وأكرم من اعتمدته، قدمته على أنبيائك، وبعثته إلى الثقلين من عبادك، وأوطأته مشارقك ومغاربك، وسخرت له البراق، وعرجت [به] بروحه إلى سمائك، وأودعته علم ما كان وما يكون إلى انقضاء خلقك))^(١).

ففي تفسير قوّسي الصعود والنزول رسالتان مستقلتان مفصلتان، أحدهما لآية العظمى الشيخ علي نجل الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليهما، والثانية لآية الله العظمى الميرزا علي الإحقاقي قدس الله نفسه المباركة في ضمن كتاب الكلمات المحكمات.

إطلاق المشائين على أول مخلوق

المؤسس لمدرسة المشائين هو العالم اليوناني أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) تلميذ العالم اليوناني أفلاطون، وسميت هذه المدرسة بالمشائية وهي تعني ((فلسفة أرسطو الفيلسوف اليوناني وأتباعه، سميت بذلك، لأن أرسطو كما يقال: كان يطيب له أن يلقي دروسه فيما هو يتجول في المماشي التي تحيط بمبنى مدرسته التي تسمى اللقيون))^(٢).

وقيل سميت بذلك لأن تلامذته إذا أرادوا الدرس إلى أرسطو، كانوا يمشون

(١) دعاء الندبة مفاتيح الجنان ٦٦٥.

(٢) من موقع شبكة الفصيح لعابر سبيل.

على أرجلهم أجلاً للدرس، فهذه المدرسة تعتمد في اكتشافها للمجهولات على البحث والاستدلال العقلي، بمعزل عن الكشف والتصفية النفسية، عكس أستاذه أفلاطون.

لذا كان أرسطو هو مؤسس ومدون علم المنطق، لذا يقال منطق أرسطو. فهذه المدرسة تسمى أول مخلوق خلقه الله تعالى بالعقل الأول، ثم أوجد العالم بإشراقات العقل الأول.

إطلاق الإشراقين على أول مخلوق

المؤسس للمدرسة الإشراقية قبل الإسلام ((هو أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق م) أستاذ أرسطو.

والمجدد لها بعد الإسلام، هو الشيخ شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ) قتله حكام الدولة الأيوبية في مصر، وهو لم يتعد الأربعين^(١).

ومذهب الإشراقية يعتمد على كشف المجهولات بالكشف، وهو يعتمد على الصفية النفسية والابتعاد عن رذائل الأخلاق، ثم إشراق نور العلم، فيصل إلى المجهولات عن طريق الكشف وهذا لا يعني أنها لا تعتمد على البرهان والاستدلال العقلي، بل تعتمد على البرهان العقلي لكن ليس لوحده، لأن البرهان العقلي لا يكتشف الجنة والنار والبرزخ والمغيبات الأخرى، فالمدرسة الإشراقية هي أيضاً تعتمد على العقل مع ضميمة الإشراق.

فالطريقة عندهم ((أن الطريق لدرك العلوم الإلهية، والمعارف الحقيقية، إنما يكمن بتهديب النفس، والمداومة على الأمور المقربة إلى عالم القدس والطهارة، لكن هذا ليس بمعنى رد النظر والفكر والاستدلال العقلي - كما قد يتوهم بعض من أن هذا الاتجاه لا يختلف عن المسلك العرفاني - بل بالعكس، فإن شيخ الإشراق يصرح بأهمية دور الاستدلال العقلي في المنهج الذي يتبعه للوصول إلى الغاية

(١) مركز كلكامش للدراسات والبحوث الكوردية لأحمد بن خليل.

المطلوبة، فلهذا يقول: ((إنه لا يمكن فهم حقيقة الحكمة الإشرافية ما لم يكن الحكيم ماهراً في العلوم البحثية، والمناهج الاستدلالية البرهانية))^(١).

فهذه المدرسة تسمى أول مخلوق خلقه البارئ جل جلاله بالعقل الكلي، ثم خلقت الخلائق من شعاعه.

عقلهم ينتقل إليهم على سبيل التبادل

أي أن عقل المعصومين عليهم السلام، من رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي هو أشرفهم وأفضلهم، إلى مولانا صاحب العصر والزمان سلام الله عليهم جميعاً، ينتقل من معصوم إلى معصوم على سبيل التبادل، أي كلما غاب معصوم ظهر عند معصوم آخر سلام الله عليهم وذلك: مثال الشاخص الواقع في المرآة، فإذا رفعت المرآة يظهر في مرآة أخرى، فيها صورة مثال ذلك الشاخص.

فإذا مات معصوم عليه السلام انتقل العقل المحمدي صلى الله عليه وآله إلى المعصوم الذي يليه، وتكون إدارة الكائنات بإمر الله تعالى بيده، إلى أن وصل إلى مولانا بقية الله تعالى في أرضه، الإمام الحجة بن الحسن أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء بإذن الله سبحانه.

الناطق والصامت للمعصومين

فمع وجود الإمام علي بن الحسين عليهما السلام إمام، الإمام محمد الباقر عليه السلام صامت، وكذا مع وجود الإمام محمد الباقر عليه السلام إمام، الإمام جعفر الصادق عليه السلام صامت وهكذا، إلى مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء.

لذا روي في بصائر الدرجات قال: حدثنا محمد بن عبد الجبار، عن محمد بن إسماعيل، عن علي بن النعمان، عن عبيد بن زرارة قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام ترك الأرض بغير إمام؟

(١) مدخل إلى مناهج المعرفة عند الإسلاميين للسيد كمال الحيدري ٢٤٣.

قال: ((لا قلنا تكون الأرض وفيها إمامان، قال: لا إلا إمامان أحدهما صامت لا يتكلم، ويتكلم الذي قبله، والإمام يعرف الإمام الذي بعده))^(١).

وفي رواية عن سليم بن قيس الهلالي سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قلت: يا أمير المؤمنين يجتمع إمامان؟، قال: ((لا إلا أحدهما صامت لا ينطق حتى يهلك الأول))^(٢).

فكل زمن المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام فيه ناطق منهم الظاهر فيه العقل المحمدي، أي عقلهم عليهم السلام، وصامت لا يتقدم عليه ويأتمر بأمره، ويأخذ كل ما عنده، إلا زمن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام فكلاهما ناطقان في زمن واحد، كما يذكر هذا الأمر الشيخ أحمد الأحساني في كتابه شرح الزيارة في فقرة (وشاهدكم وغائبكم) ما نصه ((أي مؤمن بشاهدكم أي الأئمة الأحد عشر، وغائبكم الحجة عليه السلام، أو شاهدكم أي الناطق منكم، يعني قطب الوقت، ومحل نظر الله من العالم المسمى بالغوث على اصطلاح أهل التصوف، ويسميه أفلاطون مدبر العالم، وأرسطو إنسان المدينة وهو الفار قليطا، أي مظهر الولاية، أو الموجود المقابل لمن مضى ولمن يأتي، أو الحاضر أو الشاهد على المكلفين، أو لأعمالهم أو العالم بالشهادة، أو المدبر إلى الخلق أو بالملك المحدث المدبر لهم أو عنهم على الاحتمالين، أو القائم على كل نفس بما كسبت، إلى غير ذلك.

وغائبكم أي الإمام الصامت، ولا بد لكل زمان من ناطق وصامت، والصامت موقوف عن الإذن من الناطق، فغيوبته بغيوبة الإذن، فهو ناطق بالناطق، وحاضر شاهد به، أي بإذن الناطق، ويتوقف الإذن على وجود الناطق، إلا في الحسن والحسين عليهما السلام، فإن الحسين عليه السلام ناطق مع وجود الحسن عليه السلام، وإنما هو صامت مع حضوره ومشاهدته، فيتوقف الإذن على حضوره خاصة في حق الحسين عليه السلام)^(٣).

(١) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار ٥٣٦، البحار ٢٥ / ١٠٧.

(٢) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ٢ / ٩٥، البحار ٣٠ / ١٣٣.

(٣) شرح الزيارة للشيخ أحمد الأحساني ٣ / ١٥١.

فمعنى الناطق هو الإمام الذي عنده إدارة ما سوى الله تعالى، وهو صاحب الولاية المطلقة، والخلافة الإلهية الربانية بأمر الله تعالى.

فرسول الله ﷺ مع وجوده هو المتصرف الأوحد بإذن الله تعالى، وهو صاحب العقل المحمدي وحده دون مشاركة أحد غيره، فأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مع كونه نفس رسول الله ﷺ علمه علمه، لكنه لا يتقدم على رسول الله ﷺ، بل يكون عبداً لرسول الله ﷺ، كما روي في الكافي للشيخ محمد الكليني قدس الله نفسه المباركة، عن أحد أحبار اليهود جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: ((يا أمير المؤمنين! أفنبي أنت؟، فقال: ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ))^(١) لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته النورانية لسلمان الفارسي وأبي ذر رضوان الله عليهما: ((وصار محمد الناطق، وصرت أنا الصامت))^(٢)، وفي خطبة أخرى يقول فيها: ((أنا الصامت ومحمد الناطق))^(٣).

فإذا انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، توجه العقل المحمدي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهكذا إذا انتقل أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، توجه العقل المحمدي ب كله إلى الإمام الحسن عليه السلام وهكذا.

فهو الآن عند مولانا وسيدنا بقية الله في أرضه، صاحب العصر والزمان الحجة ابن الحسن أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء، فالعقل المحمدي يكون في واحد واحد من المعصومين عليه السلام، والمعصومون في زمن صاحب العقل المحمدي يعلمون به، كزمن النبي ﷺ، وأمير المؤمنين عليهما وآلهما الصلاة والسلام.

فزمن النبي ﷺ موجود أربعة معصومين، أولهم أمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء، والإمام الحسن والإمام الحسين عليه السلام، فالأربعة يعلمون ويعملون برسول الله ﷺ.

(١) الكافي للشيخ الكليني ١ / ٩٠.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٢٦ / ٤.

(٣) مشارق أنوار اليقين للشيخ الحافظ رجب البرسي ٢٧٠.

وكذا زمن أمير المؤمنين عليه السلام، موجود ثلاثة معصومين، أولهم الحسن والحسين وعلي بن الحسين وعمره ستان سلام الله عليهم، يعلمون ويعملون من أمير المؤمنين، فأمر المؤمنين عليه السلام هو الناطق، والأربعة المعصومون كلهم صامتون في حياته سلام الله عليهم أجمعين.

قال آية الله المعظم الإمام المصلح الميرزا حسن الإحقاقي قدس الله نفسه في أحد خطبه: ((كل ما عند المعصومين عليهم السلام من العقل المحمدي، والولاية المطلقة، والسلطنة العظمى، عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، إلا في جانب واحد، وهو التصدي للقضاء ومواجهة الناس، وما يتعلق بأمر الرجال، لكونها في لباس الأنثى سلام الله عليها))^(١).

فالعقل المحمدي عليه السلام يكون عند المعصومين عليهم السلام على سبيل التبادل من واحد إلى آخر، لا على سبيل الإقطاع، بحيث يكون موجوداً فيهم كلهم في آن واحد، بل يكون في أحدهم عند استلامه الولاية، والباقي يستمد منه، فكل ما عند صاحب العقل عند غيره سلام الله عليهم أجمعين.

العمود من نور

العمود من نور وكذا المحدث كلاهما، إطلاقان يطلقان على نفس معنى العقل المحمدي عليه السلام، لذا روي في بصائر الدرجات قال: حدثنا أحمد بن محمد، عن محمد بن سلمان، عن خالد الجوائي، عند أحدهما عليهما السلام قال: ((إن الإمام لسمع الصوت في بطن أمه، فإذا فصل عن أمه كتب على عضده الأيمن: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) إذا قضيت له الأمور، رفع له عمود من نور، يرى به أعمال الخلائق))^(٣).

قوله عليه السلام: ((فإذا قضيت له الأمور)) أي إذا انتقل الإمام السابق عليه السلام إلى الرفيق

(١) خطب آية الله الإمام المصلح الميرزا حسن الإحقاقي.

(٢) سورة الأنعام، آية (١١٥).

(٣) بصائر الدرجات للشيخ محمد بن حسن الصفار ٤٥٤، البحار ٤٨ / ٢٤٢.

الأعلى، استلم العمود من النور، وقام بالإمامة والولاية على جميع ما دون الله جلّ جلاله بإذن الله سبحانه.

الملك المحدث

أيضاً الملك المحدث من إطلاقات العقل المحمدي ﷺ، سمي المحدث لأنه يحدثهم بما كان وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.

لذا روى الكشي في رجاله قال: وجدت في كتاب محمد بن الحسن بNDAR بخطه: حدثني الحسن بن أحمد المالكي، عن عبد الله بن طاووس، قال: قلت للرضا ﷺ، إن يحيى بن خالد سم أباك موسى بن جعفر صلوات الله عليهما؟ قال: ((نعم سمه في ثلاثين رطبة.

قلت له: فلما كان يعلم أنها مسمومة؟

قال: غاب عنه المحدث، قلت: ومن المحدث.

قال: ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمة ﷺ...))^(١) فالملك المحدث هو عقلهم سلام الله عليهم، لذا قال آية الله العظمى المقدس الميرزا موسى الإحقاقي قدس الله نفسه: ((ولا شك ولا ريب أن تسديد كل أحد وتأيينه لا يكون إلا بعقله كل بحسبه، فيسددهم الله عز وجل بعقلهم لا بغيره، وهو (الروح) الذي نزل في (ليلة القدر) وهو (العمود من النور) المنصوب للإمام ﷺ ينظر فيه، ويرى جميع أعمال الخلائق، وهو أول الوجود المقيد، والسلسلة الثمانية الطول في العرض، وهو الذي يسألون منه كل ما يريدون فيأتيهم به، ولا يغيب عنهم طرفة عين))^(٢) قوله قدس الله نفسه: ((وهو أول الوجود المقيد)) أنه أوجد ما وجد من الخلائق لم يسبقه مخلوق كما ذكر من قبل.

وقوله: ((والسلسلة الثمانية الطول في العرض)) يريد أن جميع طبقات

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤٨ / ٢٤٢.

(٢) أجوبة مسائل لآية الله الميرزا موسى الإحقاقي ٣٢.

الموجودات أولاً فأولاً، فالسلسلة الطولية الثمان هي:

السلسلة الطولية

الحقيقة المحمدية ﷺ .

حقائق الأنبياء .

مؤمن الإنس .

الملائكة .

مؤمن الجن .

الحيوان .

النبات .

الجماد .

السلسلة العرضية

وهي عبارة عن أفراد كل طبقة، فمن الأنبياء آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ويونس ولوط وموسى وعيسى وغيرهم صلى الله على نبينا وآله وعليهم السلام، استثناء رسول الله ﷺ لأنه سيدهم، فالأنبياء في طبقة واحدة، لكنهم يتفاضلون ويتفاوتون بعضهم عن بعض في السلسلة العرضية، على حسب توحيدهم ومعرفتهم للتوحيد للمعصومين ﷺ .

كما قال تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (١).

وكذلك مؤمنوا الإنس كلهم في طبقة واحدة، لكن أين سلمان الفارسي عن غيره من المؤمنين؟ وهكذا بقية أفراد مراتب السلسلة الطولية، كل مرتبة تتفاضل بعضها عن بعض في العرض في قوة الإيمان وضعفه، والسلسلة العرضية أيضاً تطلق على

مقامات كل فرد فرد بالنسبة لقبول التكليف وإنكاره، فقد يكون الحيوان أفضل من بعض المتلبس بالإنسانية وهكذا، لأن بعض الحيوان مؤمن، وبعض الإنسان كافر.

غاب عنه المحدث

في الرواية المتقدمة عن الإمام الرضا عليه السلام: (غاب عنه المحدث)، ظاهر العبارة أن الملك المحدث غاب عن الإمام، والمحدث هو عقلهم وروحهم سلام الله عليهم، فإذا غاب عنهم يلزم الجهل والعياذ بالله تعالى بيد أنهم عيبة علم الله تعالى، لذا الآية الله العظمى الميرزا موسى الإحقاقي تحقيق وتدقيق لهذه الكلمة يجدر أن نذكر تحقيقه وهو ((وأما المراد من غيبوته عنهم، عند قتلهم أو أكلهم السم مع علمهم به، فهو أنه عند أكل السم، وأمر الله لهم بذلك، امتثلوا الأمر لله خالقهم، وسلموا أنفسهم لما قدره لهم، وقضاه في حقهم، ولم يلتفتوا إلى شيء حتى أنفسهم، وتوجهوا إلى الله وإلى امثال أمره، وإنفاذ تقديره، واشتغلوا بلذيق لقائه عن أنفسهم وبقائهم، وقدموا حلاوة الوصال، على الالتفات إلى أنفسهم، والمحافظة عليها، بغيبوبة الملك المسدد حيث قال عليه السلام: (غاب عنه الملك المسدد)) أو (غاب عنه الملك المحدث) كما في خبر عبد الله بن طاووس قال: قلت للرضا عليه السلام: أن يحيى بن خالد سم أباك موسى بن جعفر عليه السلام؟

قال: نعم سمه في ثلاثين رطبة. قلت له: فما كان يعلم أنها مسمومة؟

قال: غاب عنه الملك المحدث.

قلت: ومن المحدث؟

قال: ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة عليهم السلام (١).

ولو لم يكن المراد ما ذكرنا، وكان المراد من الغيبوبة هو المتعارف الظاهر للزمهم الجنون والعياذ بالله عند أكلهم السم وغيبوته.

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤٨ / ٢٤٢.

فظهر أن المراد من الغيبوبة هو ترك علمهم، عند الملك المسدد عند أكله السم، يعني ترك تعقله وعلمه بالسم، وعمل بخلاف عقله وعلمه، فأكل السم القاتل المضر مع علمه به، امثالاً لأمره وشوقاً إلى لقائه، ونفاذ تقديره))^(١).

فالمراد من غيبوبة الملك المحدث عن الإمام عليه السلام الترك، أي ترك الإمام عليه السلام علمه بالموت بالسم، وتوجه إلى أمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٢).

معنى الآية: أن الذي ينسى ذكر الله تعالى وطاعته، الله ينساهم، أي يتركهم في الخذلان والعذاب، مع علمه تعالى بهم، قال آية الله الميرزا موسى الإحقاقي قدس الله نفسه، تعقيب على هذا الكلام: ((لا شك ولا ريب أن المعصومين الأربعة عشر عليهم الصلاة والسلام، يعلمون ما كتب في لوح القدر والقضاء، وهم فوارة القدر، ومما كتب وثبت في اللوح آجالهم وآجال غيرهم، أو ما أخبر أمير المؤمنين عليه السلام بموته وقتله قبل شهادته، وفي الليلة التي ضرب فيها لابن ملجم؟، وفي الليلة التي توفى فيها لأولاده وعياله؟، والحسين عليه السلام عند خروجه من المدينة لأم سلمة؟، ومحمد بن الحنفية وابن عباس وابن عمر؟، والرضا عليه السلام لأبي الصلت؟، وكذلك سائر الأئمة عليهم السلام؟، .

وكيف لا يعلمون عليهم السلام بآجالهم، والحال كان عند بعض شيعتهم علم البلايا والمنايا، كرشيد الهجري، وميثم التمار، وسلمان الفارسي، وغيرهم ممن ظاهاهم في الرتبة والدرجة، فما ظنك بالأئمة عليهم السلام الذين علموهم العلم؟))^(٣).

فهذا واضح لا يحتاج إلى بيان من كونهم سلام الله عليهم لا يلتفتون إلى علمهم، ويلتفتون إلى قدر الله تعالى الجاري عليهم، وعلى سبيل المثال وإن كان لا يقاس بهم شيء، أنصار الإمام الحسين عليه السلام، الإمام علمهم شهادتهم ليلة عاشوراء، وفي صبيحة يوم عاشوراء أقدموا على الشهادة مع علمهم بالموت والقتل، ولكنهم أعرضوا عن الموت والقاتل، وتوجهوا إلى رضا المحبوب جل جلاله.

(١) أجوبة مسائل لآية الله الميرزا موسى الإحقاقي ٣٢.

(٢) سورة التوبة آية (٦٧).

(٣) أجوبة مسائل لآية الله الميرزا موسى الإحقاقي ٢٩.

فالنبي ﷺ أول من قبل تكليف الوجود وهو: ((ألست بربكم؟)) ولذا كانوا أول مخلوق، والنبي ﷺ لما سئل عن سبب تفضيله على كل الخلائق قال (لأنني كنت أول من أجاب دعوة ربه وقبل تكليفه في عالم الذر) ● (١).

● أول من أجاب بألست بربكم

كما ذكر مرارا وتكراراً أن أول المخلوقات أجاب دعوة الرب جل جلاله، لما قال تعالى في العالم الأول عالم العقول (ألست بربكم) هو رسول الله ﷺ والمعصومون عليهم السلام لذا فضل على جميع الأنبياء والمرسلين، وفضل على جميع ما سوى الخالق سبحانه وتعالى، ذكر الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه قال: حدثنا الحسن بن محمد سعيد الهاشمي قال: حدثنا فرات بن إبراهيم ابن فرات الكوفي قال: حدثنا محمد بن أحمد بن علي الهمداني قال: حدثني أبو الفضل العباس بن عبد الله البخاري قال: حدثنا محمد بن القاسم بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: حدثنا عبد السلام بن صالح الهروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن ابن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ ((ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني، قال: علي عليه السلام فقلت يا رسول الله فأنت أفضل أم جبرئيل؟ فقال يا علي، إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين، وفضلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من بعدك، وأن الملائكة لخدامنا وخدام محبيننا. يا علي الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

(١) روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام إن بعض قریش قال لرسول الله ﷺ: بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ فقال إنني كنت أول من آمن بربي وأول من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، فكنت أنا أول نبي قال بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله عز وجل الكافي للشيخ الكليني ٢ / ١٠.

ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا، يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض، فكيف لا تكون أفضل من الملائكة، وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسيحه وتهليله وتقديسه، لأن أول ما خلق الله عز وجل خلق أرواحنا، فأنطقنا بتوحيده وتحميده، ثم خلق الملائكة، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا، فسبحنا لتعلم الملائكة إنا خلق مخلوقون، وأنه منزه عن صفاتنا، فسبحت الملائكة بتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا، فلما شاهدوا عظم شأننا هللنا، لتعلم الملائكة أن لا إله إلا الله وإنا عبيد ولسنا بآلهة يجب أن نعبد معه أو دونه، فقالوا: لا إله إلا الله، فلما شاهدوا كبر محلنا كبرنا لتعلم الملائكة أن الله أكبر من أن ينال عظم المحل إلا به، فلما شاهدوا ما جعله الله لنا من العز والقوة، قلنا لا حول ولا قوة إلا بالله، لتعلم الملائكة أن لا حول لنا ولا قوة إلا بالله، فلما شاهدوا ما أنعم الله به علينا وأوجبه لنا من فرض الطاعة، قلنا الحمد لله، لتعلم الملائكة ما يحق لله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمته، فقالت الملائكة: الحمد لله فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسيحه وتهليله وتحميده وتمجيده، ثم إن الله تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً. وكان سجودهم لله عز وجل عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون؟ وأنه لما عرج بي إلى السماء، أذن جبرائيل مثني مثني، وأقام مثني مثني، ثم قال لي: تقدم يا محمد.

فقلت له: يا جبرائيل أتقدم عليك؟، فقال: نعم، لأن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه على ملائكته أجمعين، وفضلك خاصة. فتقدمت فصليت بهم ولا فخر، فلما انتهيت إلى حجب النور، قال لي جبرائيل: تقدم يا محمد وتخلف عني، فقلت: يا جبرائيل في مثل هذا الموضع تفارقني؟، فقال: يا محمد إن انتهاء حدي الذي وضعني الله عز وجل فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته احترقت أجنحتي بتعدي حدود ربي جل جلاله، فزج بي في النور زجة حتى انتهيت إلى حيث ما شاء الله من علو ملكه، فنوديت: يا محمد، فقلت: لبيك ربي وسعديك تباركت وتعاليت.

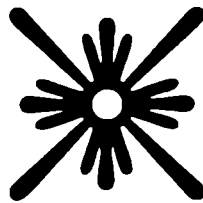
فنوديت: يا محمد أنت عبيدي وأنا ربك فإياي فاعبد وعلي فتوكل، فإنك نوري

في عبادي ورسولي إلى خلقي، وحجتي على بريتي، لك ولمن اتبعك خلقت جنتي، ولمن خالفك خلقت ناري، وأوصياؤك أوجب كرامتي، ولشيعتهم أوجب ثوابي، فقلت: يا رب، ومن أوصيائي؟، فنوديت: يا محمد، أوصياؤك المكتوبون على ساق عرشي، فنظرت وأنا بين يدي ربي جلّ جلاله إلى ساق العرش، فرأيت اثني عشر نوراً، في كل نور سطر أخضر عليه إسم وصي من أوصيائي، أولهم: علي بن أبي طالب، وآخرهم مهدي أمتي.

فقلت: يا رب، هؤلاء أوصيائي من بعدي؟

فنوديت: يا محمد، هؤلاء أوليائي وأوصيائي وحججي بعدك على بريتي، وهم أوصياؤك وخلفاؤك، وخير خلقي بعدك، وعزتي وجلالي لأظهرن بهم ديني ولأعلنن بهم كلمتي، ولأطهرن الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأمكننهم مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخرن له الرياح، ولأذلن له السحاب الصعاب، ولأرقينن في الأسباب، ولأنصرنن بجندي، ولأمدنن بملائكتي حتى تعلقو دعوتي، ويجمع الخلق على توحيدني، ثم لأديمن ملكه، ولأداولن الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة^(١).

ذكرنا الراوية بطولها لما تشتمل عليه من مقامات لرسول الله ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين، على أنهم أفضل الموجودات مطلقاً، ولولاهم ما عرف الله جلّ جلاله.



(١) علل الشرائع - الشيخ الصدوق / ١ / ٥ - ٧، الفصول المهمة للحر العاملي / ١ / ٤٠٩، حلية الأبرار للسيد هاشم البحراني / ٢ / ٣٩٧.

والمراد من التكليف هنا هو التكليف الوجودي، والشرعي منه تابع للوجودي، فالنبي وأهل بيته الطيبون الطاهرون صلى الله عليهم أجمعين هم القسم الأول، من الأقسام الخمس المذكورة، الذين أقروا بالتوحيد، والرسالة، والولاية أول مرة، قبل تنفس كل موجود وذكره، والظل الحاصل حين إنعكاس نور السراج مثال لأعدائهم، وهو الظلمة الصرفة، بحيث لم يكن هناك نور أبداً، فهم عكس وظل الأئمة عليهم السلام.

ولما كان الأئمة عليهم السلام مخلوقين بصورة الإنسانية، بل بحقيقة الإنسانية، فأعداؤهم خلقوا بضد تلك الصورة، وهي الصورة الشيطانية ❁.

❁ أول من أقر بالتوحيد

فأول من وحد الله تعالى وآمن بالرسول وبالولاية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبون الطاهرون عليهم السلام، قبل تنفس كل موجود، لأن المعصومين عليهم السلام الأربعة عشر آمنوا بالله تعالى قبل إيجاد وخلق أي موجود، بل هم عليهم السلام آمنوا بالله تعالى قبل ذكر أي مخلوق في عالم الإمكان، وهو العالم الذكري، وعكس وضد المعصومين عليهم السلام هم الكفار والمنافقون الذين يمثلون الظلمة الصرفة من السراج، فهم عكس المعصومين من كل جهة.

فكما أن المعصومين عليهم السلام خلقوا بصورة الإنسانية، بل حقيقة الإنسان بما هو إنسان لا يصدق إلا عليهم سلام الله عليهم، لذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ((إن الصورة الإنسانية أكبر حجة الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي الحجة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي

الصراط الممدود بين الجنة والنار))^(١) وأعداء الإسلام والنبى وأهل البيت صلى الله عليهم خلقوا بصورة الشيطانية، لذا عبر سبحانه عن الكفار والمنافقين من الجن والإنس بالشياطين، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٢) لكون حقائقهم شياطين، وإن كان ظاهرهم إنساً.

(١) جامع السعادات للشيخ محمد مهدي الذاقي ١ / ١٨٠، شرح الأسماء الحسنی للملا هادي السبزواري ١ / ١٢، مجموعة الرسائل للشيخ لطف الله الصافي ١ / ٥٠.

(٢) سورة الأنعام، آية (١١٢).

ففي الأئمة عليهم السلام الإيمان والتقوى، والورع والعلم، والشجاعة والديانة، والمروءة والإنصاف، والعدل والصدق، والحق والخير، والنور وكل خير، وفي الأعداء الكفر والفسق، والجهل والجبن، والخيانة وعدم المروءة والإنصاف، والظلم والشر وعدم الصدق، والكذب والباطل وجميع الشرور. ❁

❁ الخير منهم والشر من عدوهم

لما سبق محمد وآل محمد عليهم السلام الخلائق إلى طاعة الله تعالى، وعرفوه وعبدوه بآلاف السنين، حيث لا عارف ولا عابد سواهم في ذلك العالم، لذلك الله جلّ جلاله اختارهم لنفسه وفضلهم على جميع خلقه قال سبحانه ❁ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَيَّ عَلَيْهِمُ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) (١) لذا جعلهم أصل الخير ومعدنه، قال مولانا الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة ((إن ذكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه)) (٢)، فحقيقة الطاعة من الصلاة والصوم والحج وبقية العبادات هم سلام الله عليهم، وفي المقابل والعكس حقيقة المعصية من القتل والظلم والزنا هم الكفار والمنافقين وأعداؤهم، لذا روى الشيخ أبو جعفر الطوسي عليه السلام بإسناده إلى الفضل بن شاذان، عن داود بن كثير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أنتم الصلاة في كتاب الله عزّ وجلّ، وأنتم الزكاة وأنتم الحج؟، فقال: ((يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عزّ وجلّ، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبة الله، ونحن وجه الله، قال الله تعالى ❁ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ (٣) ونحن الآيات، ونحن البيئات، وعدونا في كتاب الله عزّ وجلّ الفحشاء، والمنكر، والبغي، والخمر،

(١) سورة الدخان، آية (٣٢).

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٣) سورة البقرة، آية (١١٥).

والميسر، والأنصاب، والأزلام، والأصنام، والأوثان، والجبت، والطاغوت،
والميتة، والدم، ولحم الخنزير.

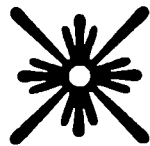
يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا، وفضلنا وجعلنا أمناءه، وحفظته، وخزانه على
ما في السماوات والأرض، وجعل لنا أصدقاء وأعداء، فسمانا في كتابه، وكنى عن
أسمائنا، بأحسن الأسماء، وأحبها إليه، وسمى أصدقاءنا وأعداءنا في كتابه، وكنى
عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه، وإلى عباده
المتقين^(١).

وهذا واضح من كون أهل البيت عليهم السلام هم المطهرون من الرجس، وهم مع الحق
والحق معهم، والعبادات والطاعات والعبادات من الحق، فعدو الحق هو الباطل
ومن مصاديقه الفحشاء والمنكر والبغي والزنا وكل معصية قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ
إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿أَفَنَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا
أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣) لأن حقيقة جميع الطاعات والعبادات التي أرادها الله
تعالى بالوجه الصحيح والأكمل هي ولايتهم عليهم السلام.

ولنعم ما قال أبو الحسن علاء الدين الشيخ علي بن الحسين الحلبي الشفهي في
مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

معنى دقيق صفاته لن يعقلا
شق الحجاب مجرداً وتوصلا
لولا كمالك نقصه لن يكملا
قرنت بذكر فرضها لن يقبلا

يا علة الأشياء والشرف الذي
إلا لمن كشف الغطاء له ومن
يكفيك فخراً أن دين محمد
وفرائض الصلوات لولا أنها



(١) البحار للشيخ المجلسي ٢٤ / ٣٠٣.

(٢) سورة يونس آية (٣٢).

(٣) سورة يونس آية (٣٥).

فكلما رأيت من خير عند كل أحد فهو منهم عليه السلام ، وكلما رأيت من شر من كل نوع عند كل أحد فهو من أعدائهم .

وهذا المعنى في السراج واحد ، إذ النور الذي تشاهده وإن كان بقدر رأس الإبرة فهو من الشعلة ، والظلمة وإن كانت قليلة مقدار رأس الإبرة فهي من الظل .

فعلى هذا فالمعاصي الموجودة في الشيعة والمحبين ، فهي من فروع أعداء الأئمة عليهم السلام ، اكتسبها الشيعة منهم بالمصاحبة والمناسبة والمجاورة ، والسرقه تأخذ منهم يوم القيامة ، وترد وتعطى إلى صاحبها وأهلها ، إذ كل شيء يرد إلى أصله .

ويسمى هذا في لسان الأخبار باللطخ .

وكل طاعة وعمل خير وفعل حسن تشاهده في المنافقين والمشركين والكفار فهو من فروع الأئمة وشيعتهم ، فيؤخذ منهم ويرد إليهم ❁ .

❁ حديث اللطخ

فعلى ما تقدم من كون المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام هم حقيقة الخير وأصله ، والكافرون والمنافقون هم حقيقة الشر وأصله ، فيتفرع على ذلك أنه كلما وجد من خير في العالم فهو من المعصومين عليهم السلام ، وكلما وجد من شر فهو من الكافرين وإبليس الأعظم .

ومثاله في السراج أنه كل نور في الأشعة ولو كان قليلاً بقدر رأس الإبرة فهو من السراج ، وفي المقابل كل ظلمة ولو كانت قليلة بقدر رأس الإبرة فهي من الظل المدبر من نور السراج .

فعلى ذلك كل المعاصي الصادر من بعض المؤمنين ، فهي ليس منهم بل من

الكافرين وأعداء أهل البيت عليهم السلام، وفي المقابل كل الطاعات والخير الصادر من الكافرين وأعداء أهل البيت عليهم السلام فهي ليست منهم بل هي من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم فيوم القيامة يرد كل شيء إلى أصله فترد الطاعات والخير الذي عند الكفار إلى المؤمنين، وترد المعاصي والشرور الذي عند المؤمنين إلى الكفار، لأن الكافر هو الذي سرق الخير من المؤمن، وذلك لأن حقيقة الكافر ظلمة، وحقيقة المؤمن نور، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾ (١).

فروى الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه في العلل حديثاً مبسوطاً مفصلاً عن اللطخ من اكتساب المؤمن من الكافر، واكتساب الكافر من المؤمن قال: حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن الحسين السعد آبادي، عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه قال: حدثنا عبد الله بن محمد الهمداني عن إسحاق القمي قال: دخلت على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقلت له: جعلت فداك اخبرني عن المؤمن يزني، قال: ((لا، قلت: فيلوط، قال: لا. قلت: فيشرب المسكر، قال: لا، قلت: فيذنب، قال: نعم، قلت: جعلت فداك لا يزني ولا يلوط ولا يرتكب السيئات، فأبي شيء ذنبه؟ فقال: يا إسحاق قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (٢) وقد يلم المؤمن بالشيء الذي ليس فيه مراد، قلت: جعلت فداك أخبرني عن الناصب لكم يظهر بشيء أبداً، قال: لا، قلت جعلت فداك قد أرى المؤمن الموحد الذي يقول بقولي ويدين بولايتكم وليس بيني وبينه خلاف، يشرب المسكر ويزني ويلوط، وآتية في حاجة واحدة، فأصيبه معبس الوجه، كالح اللون ثقيلاً في حاجتي بطيئاً فيها.

وقد أرى الناصب المخالف لما آتني عليه ويعرفني بذلك، فآتية في حاجة فأصيبه طلق الوجه، حسن البشر متسرعاً في حاجتي فرحاً بها يحب قضاءها، كثير الصلاة، كثير الصوم، كثير الصدقة يؤدي الزكاة، ويستودع فيؤدي الأمانة، فقال: يا إسحاق

(١) سورة الرعد، آية (١٦).

(٢) سورة النجم، آية (٣٢).

ليس تدرون من أين أوتيتم؟، قلت: لا والله جعلت فداك إلا أن تخبرني، فقال: إسحاق إن الله تعالى لما كان متفرداً بالوحدانية ابتداء الأشياء لا من شيء، فأجرى الماء العذب على أرض طيبة طاهرة سبعة أيام بلياليها، ثم نضب الماء عنها فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين، وهي طينة أهل البيت، ثم قبض قبضة من أسفل ذلك الطين وهي طينة شيعتنا، ثم اصطفانا لنفسه، فلو أن طينة شيعتنا تركت كما تركت طينتنا لما زنى أحد منهم ولا سرق ولا لاط ولا شرب المسكر ولا اكتسب شيئاً مما ذكرت، ولكن الله تعالى أجرى للماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيام ولياليها، ثم نضب الماء عنها، ثم قبض قبضة وهي طينة ملعونة من حمأ مسنون، وهي طينة خبال وهي طينة أعدائنا، فلو أن الله عزَّ وجلَّ ترك طينتهم كما أخذها لم تروهم في خلق آدميين، ولم يقرؤا بالشهادتين ولم يصوموا ولم يصلوا ولم يزكوا ولم يحجوا البيت ولم تروا أحداً منهم بحسن خلق، ولكن الله تبارك وتعالى جميع الطينتين، طينتكم وطينتهم فخلطها وعركها عرك الأديم ومزجها بالمائين، فما رأيت من أخيك المؤمن من شر لفظ أو زنا أو شيء مما ذكرت من شرب مسكر أو غيره، فليس من جوهريته، ولا من إيمانه، إنما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السيئات التي ذكرت، وما رأيت من الناصب من حسن وجه وحسن خلق، أو صوم، أو صلاة أو حج بيت أو صدقة، أو معروف، فليس من جوهريته، إنما تلك الأفاعيل من مسحة الإيمان، أكتسبها وهو اكتساب مسحة الإيمان. قلت: جعلت فداك، فإذا كان يوم القيامة فمه؟، قال لي: يا إسحاق أيجمع الله الخير والشر في موضع واحد؟، إذا كان يوم القيامة نزع الله تعالى مسحة الإيمان منهم، فردها إلى شيعتنا، ونزع مسحة الناصب بجميع ما اكتسبوا من السيئات فردها إلى أعدائنا، وعاد كل شيء إلى عنصره الأول الذي منه ابتداء، أما رأيت الشمس إذا هي بدت، ألا ترى لها شعاعاً زاجراً متصلاً بها، أو بياناً منها، قلت: جعلت فداك الشمس إذا هي غربت بدأ إليها الشعاع كما بدأ منها، ولو كان بياناً منها لما بدأ إليها، قال: نعم يا إسحاق كل شيء يعود إلى جوهره الذي منه بدأ، قلت: جعلت فداك تؤخذ حسناتهم فترد إلينا، وتؤخذ سيئاتنا فترد إليهم؟، قال: أي والله الذي لا إله إلا هو. قلت: جعلت فداك أجدها في كتاب الله تعالى؟، قال: نعم

يا إسحاق، قلت: أي مكان؟، قال لي: يا إسحاق أما تتلوا هذه الآية: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١) فلم يبدل الله سيئاتهم حسنات إلا لكم والله يبدل لكم^(٢).

ففيما تقدم من الشرح بين معنى اللطخ، ومن أراد التفصيل في حديث الطينة واللطخ، فاليراجع حديث الطينة للمؤلف السيد كاظم الرشتي رضوان الله عليه، من مجموعة الرسائل للسيد المؤلف.

(١) سورة الفرقان، آية (٧٠).

(٢) علل الشرائع الشيخ الصدوق ٢ / ص ٤٨٩ - ٤٩١، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ٢٤٦، المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

فهؤلاء الأعداء هم القسم الثاني من الأقسام المذكورة، الذين أنكروا قلباً ولساناً وقالوا في الجواب: نعم، كما ذكرنا، والأشعة القريبة من السراج مثال للشيعة والمؤمنين، الذين تبعوا أئمتهم في الوجود، وقبلوا التكليف الوجودي بالشرائط المذكورة، والأشعة البعيدة المختلطة بالظلمة، بحيث يكاد النور لا يوجد هناك، مثال لأصحاب الشمال، التابعين للمنافقين أعداء الأئمة الظاهرين، المخلوقين بصورة الشيطانية، المنكرين للتكليف تبعاً لأعداء الله ورسوله وأوليائه.

والأشعة المتوسطة، مثال لجهال الشيعة ومستضعفيهم، وجهال الكفار ومستضعفيهم، الذين ليسوا محكومين بحكم، إلى أن يميلوا إلى أحد الطرفين، إما في البرزخ وإما في القيامة، ونذكر تفصيلهم في مبحث المعاد، إن شاء الله فانتظر. ❁

❁ خلاصة الأقسام الخمسة

الشعلة القريبة للسراج هي وجود المعصومين عليهم السلام الذين هم أصل كل خير، والذين هم أصل الشر هم القسم الثاني، الذين أنكروا قلباً ولساناً وقالوا: نعم لست بربنا ومحمد نبينا صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين والصديقة فاطمة الزهراء وأبناؤهما المعصومون أولياؤنا وأئمتنا.

فالأشعة القريبة للسراج مثال لاتباع وشيعة المعصومين عليهم السلام، لكونهم قبلوا التكليف ببلى، وأقروا بالتوحيد والنبوة والإمامة والولاية.

وأما الأشعة البعيدة المختلطة بالظلمة، مثال لاتباع وأصحاب الشمال، لأنهم تبعوا الكافرين والمنافقين وأعداء المعصومين عليهم السلام في الإنكار، فخلقوا لما خلق الأصل بصورة الشيطانية.

وأما الأشعة المتوسطة بين النور والظلمة، مثال المستضعفين من الطرفين من المؤمنين والكافرين، الذين لم يعلموا ما الحق وما الباطل؟ وليس محكومين بحكم إيمان أو كفر، فيؤخرون إلى البرزخ أو القيامة، كما تقدم الكلام عليه من قبل.

الفصل الحادي عشر

[الشعلة هي التي تمد الأشعة بالنور]

اعلم أنه ليس لكل الأشعة قوام ووجود وتحقق إلا بالسراج، إذ لولاه لما كان لها وجود كما هو ظاهر، وكذا الظل ليس له وجود وثبات إلا بالسراج، إذ من البديهي أن ليس قبل إشعال السراج الظل ولا للنور والأشعة وجود، فلما لم يكن لكلي القسمين وجود وثبات إلا بالسراج، فلا بدّ لهما في بقائهما من المدد، فلو لم يمد السراج لهما آناً فآناً لفنياً جميعاً، فهما محتاجان دائماً إلى السراج في بقائهما، بحيث لم يجبرهما، بأن يعطى المدد لمستحقه، يمد الظلمة بالظلمة، والنور بالنور، بحسب اختيارهما، ولو لم يفعل هكذا لفنياً، فيمد الظلمة بالخلاف والعكس والتخلية والخذلان، والنور بالوفاق والتوفيق.*

* الأشعة قائمة بالسراج

من المعلوم أن قوام وبقاء النور والظل بالسراج، إذ لولا السراج لفنت الأشعة والظل والظلمة الصادرة بالسراج بالكلية، وذلك في حالة انطفاء السراج، لا تجد نوراً ولا ظلاً وظلمة مختلطة بقليل من النور ولا كثير.

فإذا كان بقاء الأشعة والظل بالسراج، بحيث لو يقطع مدده عنهما لحظة واحدة

أو أقل لفنت جميعاً، لزم احتياج كل من النور والظلمة والظل إلى المدد المستمد من نفس السراج، فالسراج يمد النور بالنورانية، والوفاق والتوفيق، ويمد الظل والظلمة بالخلاف، أي خلاف النور وهي الظلمة لطلبها لذلك.

فالسراج عادل في حكمه، فكما أنه أوجدها لا من شيء، أيضاً أفاض عليها المدد أناً فأناً، ومن عدل السراج أيضاً أنه يعطي كلاً من النور والظلمة على طلبه، فالنور يعطيه النور، والظلمة يعطيها الخلاف والتخلية عن النور والخذلان عنه.

بحيث لو أعطى الظلمة النور لظلمها، لأنها أعطاهما غير ما طلبت، وكذا لو أعطى النور ظلمة لظلمه، لأنه أعطاه ما لم يطلب، كما تقدم في البحث السابق فراجع.

السراج لا داخل ولا خارج في الأشعة

ذكر من قبل أن السراج يمد كلاً من النور والظلمة كل على حسبه، ولكن في حال إمداد السراج لآثاره من النور والظلمة، لا يعني دخول السراج في أثره من النور، والظلمة والظل، ولا أيضاً خروجه عن أثره، بل السراج يمد آثاره بنفس الأثر، أي يمد النور بنفس النور لكن بالسراج، ويمد الظلمة بنفس الظلمة لكن بالسراج، وذلك مثال الشاخص والمرأة، فإذا وقف شاخص مثل علي مقابل المرأة، فإن شبحه ينطبع في المرأة، والشبح المنفصل عن علي، قائم بعلي قيام صدور، فالمد الحقيقي للشبح هو ذات علي، لكن بظهوره بفعله للمرأة، فعلي يمد الصورة والشبح الموجود في المرأة بفعله، بحيث لو ينتقل عنها لاخفت الصورة التي في المرأة، فعلي في حال إمداده للصورة غير داخل في المرأة، وهو أيضاً غير خارج عن المرأة، بل يمد الصورة الموجودة في المرأة بنفسها، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((تجلى لها بها، وبها أمتنع منها، وإليها حاكمها))^(١).

(١) نهج البلاغة ٢ / ١٥، الاحتجاج للشيخ الطبرسي ١ / ٣٠٥، البحار للشيخ المجلسي ٤ /

شرح حديث أمير المؤمنين عليه السلام

وقوله عليه السلام : ((تجلى لها بها)).

أي إن الله جلّ جلاله تجلى لها، أي لحقائق المخلوقات، وتجلى لهم أي أمدهم وأوجدتهم من حالة العدم إلى حالة الوجود بهم، أي بنفس الحقائق وبنفس الخلائق، فتجلى الحق عزّ وجلّ للخلائق بنفس الخلائق، لا بذاته جل جلاله.

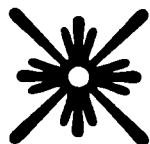
وقوله عليه السلام : ((وبها امتنع منها)).

وبها أي وبالخلائق وحقائق الموجودات امتنع منها، أي امتنعت الذات القدسية القديمة جلّ جلاله من مباشرة الممكنات لها، لكون الحقائق حادثة، وهو سبحانه قديم، وما في القديم لا ينزل إلى الحادث، وما في الحادث لا يصعد إلى صقع القديم، وذلك لعدم وجود مناسبة بين القديم والحادث البتة، فالجليل جلّ جلاله يمد خلقه بخلقه لا بذاته سبحانه، لأن اقتران القديم بالحادث ممتنع، وذلك لعدم وجود نسبة بينهما.

وقوله عليه السلام : ((وإليها حاكمها)).

أي وإلى المخلوقات والموجودات حاكمها بأن التجلي والممدد من جنس الخلق، لا من جنس القديم الأزلي، فحاكمها فقال لها بلسان حالها: أنت حادثه وأنا قديم أزلي لا أدرك، فتجلىّ لك وإمدادي إليك إنما هو بك لا بغيرك، فالله تعالى يتجلى ويمد السماء بالسماء، والأرض بالأرض، والإنسان بنفس الإنسان، والحيوان بنفس الحيوان وهكذا.

فلا يمكن أن يتجلى الخالق القديم للنملة مثلاً بنفس تجليه للإنسان أو السماء، وذلك لأن التجلي إنما يكون على حسب رتبة المتجلي على حسب قوة القابلية وضعفها، وذلك مثل التيار الكهربائي عشرة آلاف فولت، لو يتصل بمصباح قوته ثلاثة فولت، فإنه رأساً يحترق وينفجر من حينه وهكذا.



وعلمت سابقاً أن السراج وهو الشعلة، وجه النار وبابها، وليس له في نفسه وحد ذاته تحقق وثبات، وإنما يعمل بأمر النار الغيبي، فالسراج باب لها باطنه وجهة موافقته رحمة، وظاهره وجهة مخالفته عذاب، فيمد أولاً الأشعة، ثم الأظلة ثانياً.

● الشعلة وجه النار الغيبي

تقدم الكلام أن السراج أو الشعلة ما تكونت إلا بواسطة النار الغيبي، التي هي الحرارة واليبوسة، فلولا الحرارة واليبوسة لما كانت الشعلة أو السراج، إذن السراج أو الشعلة هما علامة وأثر النار، بمعنى أنهما وجه للنار الغيبي، وذلك لكون النار الغيبي لا تعرف إلا بهما، فلولا الشعلة لما عرفت النار الغيبي، والوجه كما هو المعروف للشيء، سواء أكان الشيء إنساناً أو حيواناً أو غيرهما، فتكون الشعلة هي وجه النار وبابها أيضاً، لأنه لا يمكن للأشعة أن تعرف ما عند النار الغيبي إلا بواسطة الشعلة، فهي حينئذ باب للنار، من دخل من الباب لمعرفة النار فقد عرفها تمام المعرفة على قدره، ومن دخلها من غير بابها ما عرفها، بل عرف غيرها، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(١).

فالأشعة إذا أرادت أن تعرف النار الغيبي فليس لها طريق لمعرفة إلا عن طريق الشعلة، لكون الشعلة هي أول صادر عن النار، ولكونها أيضاً هي التي أوجدت جميع الأشعة بالنار الغيبي، فالشعلة هي وجه النار، لكونها معرفة للنار الغيبي، وأيضاً هي باب النار، بمعنى أنه لا يصدر شيء من النار الغيبي إلا عن طريقها، ولا يصعد شيء من الأشعة إلى النار الغيبي إلا بواسطتها.

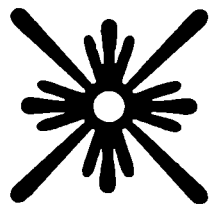
ويمكن أن يقال إن الشعلة باب لها باطن وظاهر، فباطن الباب فيه رحمة وخير،

(١) سورة البقرة آية (١٨٩).

بمعنى أن الموافق من الأشعة للشعلة في نورانيته يكون موافق لباطن الشعلة، لكون الشعلة وجه للنار الغيبي في الحرارة واليبوسة والنورانية.

وظاهر الشعلة عذاب، بمعنى الإدبار عن الشعلة، وهو عبارة عن الظل البعيد عن الشعلة، وكذا الظلمة التي هي في نهاية السراج والشعلة، فالظلمة البعيدة عن الشعلة، هي مخالفة لكوينونة الشعلة من النورانية، فالشعلة نور والظلمة والظل فيه ظلمة مخالف لمبدئه، فالظلمة مخالفة لمبدئها، كما أن الأشعة موافقة لمبدئها.

وعلى كلي الحالين الشعلة تمتد الأشعة بالنور والتوفيق، وتمتد أيضاً الظلمة والظل بالخذلان عن النورانية على حسب طلبها.



إذا عرفت هذا المثال، فقس عليه أحوال الوجود وقل: إن السراج مثال للإمام عليه السلام، والأظلة مثال لأعدائهم، والأشعة مثال لشيعتهم، فالأعداء أيضاً يستمدون منهم عليهم السلام بلسان استعدادهم، كما أن الشيعة يستمدون منهم بلسان حالهم ومقالهم، فيمد الأعداء بالكفر والنفاق والشريرية والشيطنة، بمقتضى طلبهم، وطبع الله عليهم بكفرهم، كما يمد السراج الأظلة، ويمد الشيعة والمحبين بالنور والإيمان والإسلام. ❀

❀ السراج مثال للمعصوم

السراج آية من آيات الله تعالى، فيه كل شيء من بدء الوجود إلى نهايته، من العلة والمعلول والإيمان والكفر والغيب والشهادة وعليين وسجين، والعرش والكرسي، والسموات السبع والأرضين، وكل شيء موجود في هذه الآية وهو السراج.

فلما كان النبي صلى الله عليه وآله هو أول المخلوقات وهو الأصل في الوجود، مثله الجليل جل جلاله بالسراج المنير، كما قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦) (١) فالداعي الحقيقي إلى الله تعالى والنذير الأول قبل كل أحد، هو رسول الله صلى الله عليه وآله، لذا قال تعالى متحدثاً عن نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى﴾ (٥٦) (٢).

أي الذي بلغ عن الله تعالى في عالم الذر الأول، بتوحيد الله تعالى، والنبوة والرسالة له صلى الله عليه وآله، والولاية لابن عمه أمير المؤمنين، والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء وأبناهما المعصومين عليهم السلام، هو رسول الله صلى الله عليه وآله، لذا لما بعث صلى الله عليه وآله قال: قولوا لا إله إلا الله وأنني محمد رسول الله تفلحوا.

وكما أنه هو المبلغ والمنذر بولاية أمير المؤمنين عليه السلام يوم غدیر خم بقوله: ((فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه)) (٣) وهو المنذر للأمة إلى أن تقوم الساعة بحديث

(١) سورة الأحزاب، آية (٤٦).

(٢) سورة ١- حم، آية (٥٦).

(٣) المقنعة للشيخ المفيد ٢٠٣.

الثقلين، كتاب الله وعترته المباركة بقوله: ((إني مخلف فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))^(١).

كما أنه ﷺ هو المنذر بالأحكام التشريعية من الصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات والمعاملات إلى أن تقوم الساعة، كما ذكر آية الله الميرزا عبد الله الإحفاقي حفظه الله: ((حديث الثقلين وصية رسول الله ﷺ لأمة إلى أن تقوم الساعة)).

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ((حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، ولا يجيء غيره))^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي أن وجوده المبارك الشريف في عالم الإمكان والتكوين مثل وجود السراج المنير، من كون السراج وهو الشعلة هي أول ما وجدت من النار الغيبي، والأشعة كلها من آثاره وآثار آثاره ﷺ، فلا يشاركه في هذه الدعوة إلى الله تعالى، وكونه سراجاً منيراً في الإمكان والتكوين إلا ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وابنته الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء وأبناؤهما المعصومون عليه السلام، لكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نفس رسول الله ﷺ كما هو منطوق آية المباهلة: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو نفس رسول الله ﷺ بإجماع المسلمين قاطبة، وما حصل لأمير المؤمنين يحصل لأهل البيت عليهم السلام جميعاً.

فلما كان النبي ﷺ عبد مخلوق يجري عليه الموت، لزم تعيين من يقوم مقامه في ولاية الله تعالى بالولاية العامة المطلقة الثابتة له سبحانه ولرسوله ﷺ، والولي المطلق بعد النبي ﷺ هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بنص آية الولاية المجمع على نزولها في حقه، حينما تصدق بخاتمه بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ

(١) الانتصار للشريف المرتضى ٨٠.

(٢) مجمع الفوائد للشيخ المحقق الأردبيلي ٨ / ٢.

(٣) سورة آل عمران، آية (٦١).

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ (١).

فالسراج الذي به قوام كل ما سوا الله جلّ جلاله بعد رسول الله ﷺ، هو أمير المؤمنين ثم الأئمة من ذريته إلى مولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء.

إذن السراج هو الإمام ﷺ بعد النبي ﷺ، والأشعة المنورة مثال لشيعه أهل البيت ﷺ، والأظلة والظلمة في نهاية السراج مثال لأعدائهم، وكل من الشيعة المنورين، وأعدائهم الجاحدين يستمدون من الإمام ﷺ بأمر الله تعالى.

كما أن السراج لو يقطع مدده أنا ما لفتت الأشعة والأظلة، كذلك الإمام ﷺ بأمر الله تعالى لو يقطع مدده لفنى العالم وساخت الأرض بأهلها، كما روي عنهم ﷺ: ((لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها)) (٢).

روي عن الإمام جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين ﷺ قال: ((نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيب وينشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض منا، لساخت الأرض بأهلها، ثم قال: ولم تخلُ الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة الله، ولولا ذلك لم يعبد الله)) (٣).

فالإمام ﷺ يمد كلاً من المؤمنين وغيرهم على حسب طلبهم، فيمد المؤمنين بالتوفيق والإيمان والتسديد والنور، ويمد الكافرين والأعداء بالكفر والخذلان والنفاق لطلبهم لذلك.

(١) سورة المائدة، آية (٥٥).

(٢) مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي / ٥ / ٢٧٨.

(٣) الاحتجاج للشيخ الطبرسي / ٢ / ٤٨.

فقد البعض يتعجب ويقول: كيف الإمام يمد الكفار والمنافقين بالكفر والنفاق والخذلان عكس المؤمنين .

أقول لهذا المتعجب: أنت في وقتك الحاضر سنة احدى وثلاثين وأربعمئة بعد الألف هجرية، لو سألت الكافر هل تريد أن يشرح الله صدرك بالإسلام والإيمان؟ أم تريد أن تزداد في عقيدتك وكفرك، فالجواب واضح وهو البقاء على عقيدته وكفره، ويتمنى الزيادة في ذلك .

عكس المؤمن الموالى بأنك لو تعطيه ما شئت من مال الدنيا بل الدنيا كلها، لا يترك الإيمان بل يدعو الله تعالى الزيادة في محبة أهل البيت عليهم السلام والزيادة في العبادات والإيمان والنور .

فالممدد الحقيقي للمؤمنين وغيرهم هو الله تعالى ولكن عن طريق الإمام عليه السلام، لكون الله جلّ جلاله قديم أزلي ليس كمثل شيء، والإمام عليه السلام مخلوق مجانس ومشابه للمخلوقات فيمدهم بأمر الله تعالى .

فالسبب المتصل بين الأرض والسماء، في إيصال الممدد من الله تعالى ورفع العمل من الخلق إليه تعالى هو الإمام عليه السلام، لذا قال مولانا الإمام الحجة بن الحسن عجل فرجه في دعاء الندبة ((أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء))^(١) .

فالإمام الحجة أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء هو السبب بين الأرض والسماء، الذي عن طريقه ينزل الفيض من الله تعالى إلى الخلق، وهو السبب أيضاً الذي يصعد العمل من الخلق إلى الله تعالى .

وقول الإمام عليه السلام هو السبب، أي أن المسبب لهذا السبب هو الله تعالى، كما تقول لمحمد مثلاً أنت السبب لوجود ابنك علي مثلاً، والمسبب الحقيقي لوجود علي هو الله تعالى لا غيره، فالعالم عالم أسباب ومسببات، والمسبب الحقيقي الذي لا مسبب له هو الله جلّ جلاله .

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ٦٦٧ .

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : ((أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب، فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل شيء شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن))^(١).

فأعظم سبب في العالم وأكبر آية لله تعالى هم محمد وآل محمد عليهم السلام، روي في زيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : ((اللهم بلى شهدنا بمنك ولطفك، بأنك أنت الله لا إله إلا أنت ربنا، ومحمد عبدك ورسولك نبينا، وعلي أمير المؤمنين والحجة العظمى، وآيتك الكبرى والنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون))^(٢).

فإجماع المسلمين قاطبة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله سيد الأنبياء والمرسلين وأفضل المخلوقات، وثبت أيضاً بإجماع المسلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء يوم المباهلة بأهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وعبر عن أمير المؤمنين عليه السلام ((بأنفسنا وأنفسكم))^(٣) بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله عدا النبوة، أي لا تشريع ولا دين بعد شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وما ثبت لأمر المؤمنين من الولاية والوصاية يثبت للمعصومين من أهل البيت عليهم السلام، لكونهم الإمتداد الطبيعي لإيصال التكليف للمكلفين، فالإمام عليه السلام يمد المؤمنين بالنور والتوفيق والإيمان لطلبهم، ويمد الأعداء والكفار بالنفق والكفر والشيطنة بطلبهم أيضاً، وكلا القسمين يخلق على حسب طلبه وعمله، من انشراح الصدر أو ضيق الصدر.

لذا قال شيخ المتألهين الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي في فوائده: ((ولأجل أنه تعالى لا يخلقهم إلا على عملهم الاختياري، كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(٤) خلقهم على ما هم عليه، ولو خلقهم على غير ما هم عليه - أعني

(١) بصائر الدرجات للشيخ محمد الحسن الصفار ٢٦، الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٨٣.

(٢) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ٣ / ١٤٦.

(٣) سورة آل عمران، آية (٦١).

(٤) سورة النساء آية (١٥٥).

بغير أعمالهم - لما كانوا إياهم، بل يكونون غيرهم، لأن صورهم غير صورهم، بل هي صور غيرهم، فهم غيرهم.

كما لو خلق السعيد بصورة الشقي، والشقي بصورة السعيد، لم يكن السعيد سعيداً، والشقي شقياً، حيث أثبت للسعيد الشقاوة، وللشقي السعادة، فيمتنع الإيجاد لعدم جريانه على مقتضى الحكمة، ولجريان عدمه حيثئذٍ على مقتضى الحكمة.

والصنع على غير مقتضى الحكمة، إنما يكون للحاجة إليه، أو الظلم، وإذا انتفيا عن الغني المطلق عزَّ وجلَّ لم يحسن الإيجاد إلا على خلقهم على ما هم عليه، لا على غير ما هم عليه^(١).

فلو يخلق حقيقة المؤمن كافراً، ويخلق حقيقة الكافر مؤمناً، لخلقهم على غير ما هم عليه من اختيارهم الكفر أو الإيمان، وهذا خلاف تصرف الحكيم، الذي يضع الأشياء في مواضعها، ولو فعل ذلك الفعل، للزم إما الحاجة، أو دعاه لذلك الظلم والعياذ بالله تعالى وكلا الاحتمالين ممنوع في حق الواجب الغني المطلق سبحانه وتعالى.

فالإمام باب باطنه و موافقته الرحمة، و ظاهره و مخالفته العذاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بِابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(١). فالسور في الباطن هو رسول الله ﷺ، وبابه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كما قال ﷺ (أنا مدينة العلم وعلي بابها)^(٢) فهو رحمة لشيعةه والمقرين بولايته، ونقمة وغضب للكفار والمنكرين لولايته، ولذا سمي: (بقسيم الجنة والنار)^(٣) وقال سبحانه وتعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارة)^(٤). والمراد من القرآن في الباطن هو رسول الله ﷺ، وما هو شفاء ورحمة هو أمير المؤمنين ﷺ.

● النبي المدينة وعلي الباب صلى الله عليهما

فالنبي ﷺ هو الخزانة، وهو مدينة العلم وهو الأصل في كل شيء، وهو سور مدينة الحكمة وهو العبد الحقيقي لله تعالى، وهو المعلم الأول والنذير الأول، أما باب هذا، الخزانة وحاملها ومبينها ومظهرها هو نفسه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل صلاة المصلين، ومن بعده أئمة الهدى ﷺ، وأما الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء ﷺ فهي أمهم وهي أم أبيها الحاوية لجميع علومهم وأسرارهم وظاهرهم وباطنهم وأولهم وآخرهم، لذا قال الرب جلّ جلاله: ((هم فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها))^(٥)، لكون فاطمة الزهراء ﷺ تساوي الجميع، بل لولاها لما خلقوا جميعاً كما في الحديث القدسي مخاطباً رسوله ﷺ: ((يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك،

(١) سورة الحديد آية (١٣).

(٢) الأمالي للشيخ الصوق ٤٢٥، التوحيد للشيخ الصدوق ٣٠٧.

(٣) قال رسول الله ﷺ (يا علي أنت قسيم الجنة والنار) الأمالي للشيخ الصوق ١٠١، الخصال للشيخ الصدوق ٤٩٦.

(٤) سورة الإسراء آية (١٥).

(٥) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما))^(١) فالنبي ﷺ هو سور مدينة الحكمة والعلم، وباب المدينة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهذا الباب له باطن وظاهر كما تقدم، باطنه أي موافقته وطاعته فيها الرحمة والجنة، وظاهره أي مخالفته وجحوده فيها العذاب والنار والعياذ بالله تعالى.

لذا هذا الأمر نجده واضحاً في هذه الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُوْرًا لَّهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٢).

وروى عن النبي ﷺ بإجماع المسلمين قاطبة بقوله ﷺ: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))^(٣) فأمر المؤمنين هو نعمة ورحمة وجنة للمؤمنين، و عذاب وغضب ونقمة للكافرين والمعاندين والنواصب.

وروى أيضاً بإجماع المسلمين عن النبي ﷺ بقوله: ((يا علي أنت قسيم الجنة والنار))^(٤).

وفي تأويل هذه الآية: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٥).

فالقرآن في التأويل في هذه الآية كما يذكر السيد كاظم المؤلف هو رسول الله ﷺ، وقوله تعالى: ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارة، هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فهو شفاء ورحمة للمؤمنين وخسارة وعذاب للظالمين، قال رسول الله في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ((حبه إيمان وبغضه كفر أو نفاق))^(٦).

(١) الأسرار الفاطمية للشيخ محمد فاضل المسعودي ١٨، مستدرك سفينة البحار للشيخ علي التمازي الشاهرودي ٨ / ٢٤٣ وهذا الحديث ذكره الوحيد البهبهاي كما يذكر ذلك الشيخ أبو الحسن المرندي في كتاب مجمع النورين.

(٢) سورة الحديد آية (١٣).

(٣) الأماي للشيخ الصدوق ٤٢٥، التوحيد للشيخ الصدوق ٣٠٧.

(٤) الأماي للشيخ الصدوق ١٠١، الخصال للشيخ الصدوق ٤٩٦.

(٥) سورة الإسراء، آية (٨٢).

(٦) الأماي للشيخ الصدوق ٦٥.

لذا هو أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء ما قام الدين إلا بسيفه، وهو العذاب على عتبة والوليد وشيبة، وهؤلاء الثلاثة هم أئمة الكفر وأعمدة الضلال، ما ضل ما ضل إلا بهم وبإغوائهم، فهم قادة جهنم إلى النار وبئس القرار، ومن تبعهم واتبعهم من مشركي مكة يكون معهم، وساعد هؤلاء الثلاثة في الكفر والطغيان والحرب على الإسلام والمسلمين عمرو بن ود، ومرحب، وهذان واصلا ما أسس الثلاثة من حربهم على الإسلام.

لذا الله تعالى حكى تخاصم التابعين للمتبوعين في النار، عن ضلالة التابعين لهم، وتبرأ كل منهم للآخر بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْمَكَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَا كَرِهًا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْهَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ (١).

فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب أرواحنا لتراب نعليه المباركتين الفداء بإجماع المسلمين وغير المسلمين والمفسرين، أنه ما قتلهم ولا حاربهم ولا نصر الإسلام إلا هو عليه السلام فأمير المؤمنين عليه السلام هو عذاب على هؤلاء وعلى أتباعهم، لذا لما عيى المسلمون عن مبارزة مرحب يوم خيبر، وأجفلوا والبعض هرب، وأصاب المسلمين الضعف والذلة، هذا ومرحب يفتخر ويتغطرس ويتخايل أنه لم يك في المسلمين كفو لمبارزته أخذ يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أنني مرحب
شاكى السلاح بطل مجرب
حينذاك صرخ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسلمين وقال لهم وهو غضبان: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه)) (٢).

فبرز له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يرتجز:

(١) سورة البقرة آية (١٦٦ - ١٦٧).

(٢) الكافي للشيخ الكليني ٨ / ٣١٥.

أنا الذي سمتني أمي حيدرہ
ليث لغابات شديد القسورة
أكيلكم بالسيف كيل السندره
إلى أن ضربه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على رأسه، ولما قتل مرحب
دخل الذل في بيوت اليهود، وانتصر الإسلام والمسلمون بعلي عليه السلام.
فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو بحق قسيم الجنة والنار، من والاه
دخل الجنة ومن عاداه دخل النار بإجماع المسلمين، على أنه لا يدخل الجنة إلا
بصك من علي عليه السلام.

وورد في أحاديث الأئمة عليهم السلام أن زحل سعد أكبر، وهو كوكب أمير المؤمنين عليه السلام، واتفق أهل النجوم على أنه النحس الأكبر، وكذلك المريخ، وجمع أهل الصنّاعة بين القولين وقالوا: إن الحديد متعلق بالمريخ ظاهره ذهب، وباطنه فضه، فيشيرون بالذهب إلى الحرارة واليبوسة، وبالفضة إلى البرودة والرطوبة، ولا شك أن الثاني رحمة، إذ طبعه طبع الماء، الذي به حياة كل شيء، وطبع ريح الصبا، وأن الأول عذاب، إذ طبعه طبع النار، وغضب الجبار، وطبع ريح الدبور، الذي هلك به قوم [هود] لوط عليه السلام، فزحل والمريخ كوكبا أمير المؤمنين علي عليه السلام، ظاهرهما نحس، وباطنهما رحمة، فافهم ما ذكرت الذي هو أحد من السيف، وأدق من الشعرة ❀.

❀ زحل والمريخ نجما أمير المؤمنين عليه السلام

لما كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الميزان لأعمال الخلائق، من تولاه دخل الجنة، ومن عاداه دخل النار، وهو قسيم الجنة والنار، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول للنار ((خذي هذا وذري هذا))^(١) فخذي هذا لبغضه، وذري هذا لمحبه لنا، أجمع المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لأmir المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((حبه إيمان وبغضه كفر أو نفاق))^(٢) فحبه الجنة وبغضه النار، فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام هكذا وافق أن يكون نجمه موافق لمقامه سلام الله عليه، وأوفق النجوم لأmir المؤمنين عليه السلام هو نجم زحل والمريخ، حيث إن طبيعتهما توافق مقام أمير المؤمنين عليه السلام، فظاهرهما نحس وعذاب وباطنهما رحمة وفضل، لذا روى الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه وغيره، عن أبان بن تغلب رضوان الله عليه، عن

(١) البحار للشيخ المجلسي ٢٦ / ٤ .

(٢) الأمالي للشيخ محمد الصدوق ٦٥ .

الإمام الصادق عليه السلام حينما قدم عليه رجل يمني عنده بعض العلم في النجوم فسأله الإمام الصادق عليه السلام بعد ما أخبره عن اسمه سعد وعن لقبه المولى قبل أن ينطق ((ما صناعتك يا سعد؟ فقال: جعلت فداك أنا من أهل بيت ننظر في النجوم...))

فقال أبو عبد الله عليه السلام: كم ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟

فقال اليماني: لا أدري.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: صدقت، فكم ضوء القمر على ضوء الزهرة درجة؟

فقال اليماني: لا أدري.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: صدقت.

فكم ضوء الزهرة على ضوء المشتري درجة؟

فقال اليماني: لا أدري.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: صدقت.

فكم ضوء المشتري على ضوء عطارد درجة؟

فقال اليماني: لا أدري.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: صدقت... إلى أن قال له الإمام عليه السلام: فما زحل

عندكم في النجوم؟

فقال اليماني: نجم نحس.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: مه لا تقولن هذا. فإنه نجم أمير المؤمنين عليه السلام، وهو نجم

الأوصياء عليهم السلام، وهو النجم الثاقب، الذي قال الله عز وجل في كتابه.

فقال له اليماني: فما يعني بالثاقب؟

قال: إن مطلعته في السماء السابعة، وإنه ثقب بضوئه حتى أضاء في السماء

الدنيا، فمن ثم سماه الله عز وجل ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ^(١) ^(٢).

(١) سورة الطارق آية (٣).

(٢) الخصال للشيخ الصدوق ٤٨٩ - ٤٩٠، الاحتجاج للشيخ الطبرسي ٢ / ١٠١، البحار للشيخ

المجلسي ٥٥ / ٢١٩.

فنجم زحل عند أهل النجوم أنه نحس وعند أهل البيت عليه السلام أنه السعد الأكبر، لأنه نجم أمير المؤمنين عليه السلام، فأهل الصناعة وهم أهل معرفة الفلك وتركيب الأشياء بعضها ببعض، يقولون إن الحديد متعلق بالمريخ، أي مربى الحديد وهو في الأرض، حيث إن الأفلاك العلوية من زحل والمشتري والزهرة وعطارد، والشمس والقمر، سخرها الله جلّ جلاله ووضعها لتربية السفليات من الإنس والجن والحيوان والنبات، حتى الجماد كالحديد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها.

لذا لو تنعدم الشمس عن كوكب الأرض لماتت الحياة، وكذا الأمر للقمر وبقية الأفلاك والنجوم وهذا أمر معروف عند الكل، بل في حال خسوف القمر أو كسوف الشمس مع وجودهما لها آثار سيئة على السفليات، كما روي عن المعصومين عليهم السلام بمنع أمور تصدر من الإنسان في حال الخسوف والكسوف.

فالحديد من ضمن السفليات التي تربيتها العلويات وهو المريخ، وطبع المريخ طبعان أحدهما ظاهر والآخر باطن، فأما ظاهره فالحرارة واليبوسة، طبع النار وطبع الذهب، وباطنه بارد رطب طبع الفضة وطبع الماء الذي به حياة كل شيء.

والمريخ يربي الحديد لما بينهما من المناسبة والمشابهة، إذ الحديد له طبعان أيضاً كما ذكر الشيخ داود الأنطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب قال: ((الحديد أصل المعادن المطبوعة، وأصله زئبق كثير جيد، وكبريت قليل رديء، باطنه فضة، وظاهره ذهب))^(١).

فيشير إلى باطنه فضة إلى البرودة والرطوبة طبع الماء الذي به حياة كل شيء، وإلى ظاهره ذهب إلى الحرارة واليبوسة طبع النار، فلما كان طبع الحديد نفس طبع المريخ، أصبح المريخ مربياً له.

فيقول السيد المؤلف: لا شك أن طبع الفضة والماء الذي به حياة كل شيء رحمة، وهذا الطبع نفس طبع ريح الصبا، التي تأتي من المشرق.

والثاني أي طبع الذهب الحرارة واليبوسة طبع النار والعياذ بالله، هي عذاب

(١) تذكرة أولي الألباب للشيخ داود الأنطاكي / ١ / ١٢٠.

ونقمة وهي طبع ريح الدبور التي تطلع من المغرب .

قال الشيخ أبو الفتح الكراجكي في كتابه كنز الفوائد: ((والجهة التي تطلع الشمس والكواكب منها هي المشرق، وريحها يقال له الصبا، والجهة التي تغرب منها هي المغرب، ويقال لريحها الدبور، وإذا توجه القائم إلى جهة المشرق، كانت الجهة التي عن يمينه الجنوب، وريحها تسمى باسمها، والجهة التي عن شماله، الشمال وريحها تسمى باسمها، وكل ريح أتت بين جهتين، فهي نكباء، وتسمى أيضاً النعامي))^(١).

فطبع الفضة أو الماء طبع ريح الصبا، التي تهب من المشرق وهي ريح رحمة ورخاء، وهي الريح التي نصر رسول الله ﷺ بها، والمقابل لها ريح الدبور التي عذب الله بها قوم عاد لما عصوا نبيهم هود على نبينا وآله وﷺ، سلط الله جلّ جلاله عليهم ريح الدبور.

لذا روي عن نوادر الراوندي بإسناده عن الإمام جعفر بن محمد، عن آبائه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور))^(٢).

قال تعالى في وصف ريح الدبور التي أهلك بها قوم عاد ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾^(٣).

حكاية الله تعالى لقولهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حيث بلغ منهم من القوة، كما ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله ((أناهم الله، فقد كان سخر لهم من قطع الجبال والصخور والعمل والقوة على ذلك والعمل به شيئاً لم يسخره لأحد، كان قبلهم ولا بعدهم، وإنما سميت ذات العماد، من أجل أنهم يسلخون العمد من الجبال، فيجعلون طول

(١) كنز الفوائد للشيخ أبو الفتح الكراجكي ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ١١ / ٣٦٣.

(٣) سورة فصلت، آية (١٥-١٦).

العمد مثل طول الجبل، الذي يسلكونه منه من أسفله إلى أعلاه، ثم ينقلون تلك العمد فينصبونها، ثم يبنون فوقها القصور، وقد كانوا ينصبون تلك العمد أعلاماً في الأرض على قوارع الطريق، وكان كثرتهم بالدهناء وبيبرين وعالج، إلى اليمن إلى حضرموت.

لذا لما أُنذِرهم نبي الله هود على نبينا وآله وﷺ بالريح العقيم التي هي الدبور قالوا له أتخوفنا بالريح؟

فجمعوا ذراريهم وأموالهم في شعب من تلك الشعاب، ثم قاموا على باب ذلك الشعب، يردون الريح عن أموالهم وأهاليهم، فدخلت الريح من تحت أرجلهم بينهم وبين الأرض حتى قلعتهم فهبت بهم صعداً، ثم رمت بهم في الجو، ثم رمت بهم الريح في البحر^(١).

لذا روي عن الإمام جعفر الصادق ﷺ عن أعمار قوم عاد، قال ﷺ: ((كانت أعمار قوم هود ﷺ أربعمئة سنة))^(٢).

قال الشيخ الصدوق: ((وكان طول الرجل منهم مائة وعشرين ذراعاً بذراعهم، وعرضه ستون ذراعاً، وكان أحدهم يضرب الجبل الصغير فيقطعه))^(٣).

فالذين عذبهم الله تعالى بالريح العقيم أعني الدبور هم قوم عاد أصحاب الأحقاف، ونبیهم هود على نبينا وآله وﷺ على حسب ما راجعت من كتب الحديث وقصص الأنبياء والتفسير، فالسيد كاظم المؤلف رضوان الله عليه ذكر الذين أهلكوا بريح الدبور هو قوم لوط على نبينا وآله وﷺ، مع العلم أن قوم لوط عذبوا بالخسف جعل عاليها سافلها وبالجملة من سجين منضود، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِهِم بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

(١) البحار للشيخ المجلسي ١١ / ٣٥٨.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ١١ / ٣٥٩.

(٣) البحار للشيخ المجلسي ١١ / ٣٦٢.

عَلَيْهَا سَافَلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ
الْقَلِيلِ يَبْعُدُ ﴿٨٣﴾ (١).

فلعل المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه ذكر عذاب ريح الدبور لقوم لوط على
نبينا وآله وعلية لرواية وقف عليها لم نرها، أو سهو من النساخ والكتاب والله أعلم.
فزحل والمريخ كما ذكرهما كوكبا مولانا أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن
أبي طالب عليه السلام، ظاهرهما نحس وعذاب، وباطنهما رحمة.
فكذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كما تحدث عنه أخوه وابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله
بقوله ((حبه إيمان وبغضه كفر)) (٢).

ولنعم ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
قال: ((حب علي بن أبي طالب حسنة لا تضر معها سيئة، وبغضه سيئة لا تنفع معها
حسنة)) (٣) وقال صلى الله عليه وآله: ((لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب، لما خلق الله
عز وجل النار)) (٤).

فالجنة جبههم، والنار بغضهم، ولنعم ما قال الفرزدق في مدح الإمام علي بن
الحسين السجاد عليه السلام:

كفر وقربهم منجا ومعتصم
ويسترد به الإحسان والنعم
في كل يوم ومختوم به الكلم
أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

من معشر جبههم دين وبغضهم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم

(١) سورة هود، آية (٨١ - ٨٢ - ٨٣).

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ٦٥.

(٣) البحار للشيخ المجلسي ٢٩ / ٢٤٨، الفضائل للشيخ العلامة شاذان بن جبرئيل القمي ٩٦.

(٤) أمالي الشيخ الصدوق ٧٥٥، الجواهر السنوية للحر العاملي ٢٣٦، البحار للشيخ المجلسي

وكيف لا يكونون كذلك وقد أجمع المسلمون قاطبة على مذاهبهم، أن أهل
القربة في القرآن هم عليهم السلام، ومودتهم هي أجر رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿تَدَلَّ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١) فمن لم يؤدِّ أجره الأجير فقد ظلمه وبخسه حقه.

(١) سورة الشورى آية (٢٣).

الفصل الثاني عشر [درجات النور بالنسبة للشعلة]

اعلم أن النور الموجود في الخارج لا يخلو من الظلمة، لكنها تتفاوت بالنسبة إلى قرب النور من المبدأ وبعده، كلما قرب من المبدأ لم يكن فيه ظلمة إلا القليل مقدار رأس الإبرة، وكلما بعد عنه كثرت الظلمة فيه، فالقريب من المبدأ فيه من الظلمة بقدر النقطة وكلما بعد منه يقل النور وتكثر الظلمة، إلى حد يكون النور فيه بقدر النقطة والظلمة محيطة بالفضاء، فكما أن الأمر في السراج حقيقة ظاهرة، فالقريب للسراج من الأشعة منتهى القرب في كمال النورانية، إلا أن نوره أقل من السراج، وليس قلة نوره إلا لإختلاطه بالظلمة، وإلا فالنور بما هو نور على نسق واحد وطريقة واحدة، لكن الظلمة فيه بقدر النقطة، وهي مستهلكة في جنب ذلك النور الكثير الوافر، والجزء الثاني من الأشعة نوره أقل من الأول، لإختلاطه بالظلمة أكثر من الأول، وهكذا إلى أن يصل النور إلى محل لا يرى فيه شيء لقلته، والظلمة تحيط به، والنور يكون في هذا المقام بقدر النقطة ❁.

❁ مراتب النور

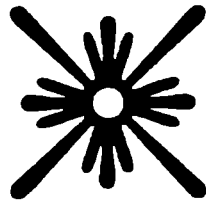
ذكر مما سبق أن النور صادر بالسراج، والسراج كله نور ليس فيه ظلمة، والظلمة

الموجودة في النور إنما ذلك بسبب بعدها عن السراج أعني الشعلة، فبالتالي كلما بعد الشعاع عن الشعلة كلما قل نوره وكثرت ظلمته، إلى أن يصير النور ظلمة لا نور فيه إلا بقدر رأس الإبرة هذا أولاً.

وثانياً

إن النور القريب للشعلة في غاية النورانية، إلا أنه إذا قُرِنَ بالشعلة نفسها نجده أقل من الشعلة في النورانية، وهذه القلة في النور للشعاع القريب إنما ذلك بسبب الظلمة، وإن كانت بقدر رأس الإبرة، وكلما بعد يقل النور وتكثر الظلمة، إلى أن يصل إلى ظلمة لا نور فيها إلا بقدر رأس الإبرة.

وللشيخ أحمد بن زين الأحسائي قدس الله نفسه المباركة رسالة مفصلة في السراج وآثاره في المجلد الثاني لكتاب جوامع الكلم^(١) فالحقير كاتب هذه السطور عمد إلى إعداد لوحة مستقاة من أفكار الشيخ أحمد الأحسائي رَحِمَهُ اللهُ من هذه الرسالة، أعني رسالة السراج، فبينت فيها العقل المحمدي ﷺ ثم صدور السلسلة الطولية والعرضية ومراتب النور بالنسبة للشعلة والجهل الكلي وآثاره، وبينت سمع وبصر وقدرة وحياة السراج عن طريق مدد السراج للأشعة.



(١) جوامع الكلم للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ٨٠.

وظهر من هذا المثال صور خمس :

الصورة الأولى : النور القريب من المبدأ كمال القرب ، بحيث لم تكن فيه ظلمة زائدة على ذاتها ، بحيث تترتب عليها الآثار ❁ .

❁ قرب النور وبعده

إنه إذا لاحظنا الشعاع بما هو نور نجده ينقسم إلى ثلاث صور هي :

الصورة الأولى للنور

وهو النور القريب للسراج ، وهي الشعلة النور البحت الذي لا يوجد فيه شيء من الظلمة يعتد بها ، إلا ما يمسك وجودها وهو بقدر رأس الإبرة ، بحيث هذه الظلمة لا يمكن أن تترتب عليها آثار ، أي لا يمكن للظلمة أن تحدث ظلمات أو تقدم أو تؤخر قبال نور الشعلة ، بل هذه الظلمة وهي بقدر رأس الإبرة ما يمسك الشعلة عن الفناء ، وهي عبارة عن ماهية الشعلة إذ لا يمكن أن ينوجد شيء من الأشياء إلا بوجود و ماهية ، وهذه الظلمة هي الماهية التي تظهر وتمسك الوجود ، وهذه الصورة في السراج كوجود المعصومين عليهم السلام وهذه الظلمة هي عبارة عن ماهيتهم عليهم السلام وهي عبارة عن قبولهم للوجود ، ولولاها لما ظهروا للغير والعيان سلام الله عليهم .

وهذه الظلمة أعني الماهية هي الحجاب أو الزبرجد الذي يخفق عندما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله عند مقام قاب قوسين أو أدنى ، كما ذكر الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليه في كتبه ، كما روي في حديث المعراج عن أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال له أبو بصير : جعلت فداك ما قاب قوسين أو أدنى ؟ ، قال : ((ما بين سيتها إلى رأسها فقال : كان بينهما حجاب يتلألأ يخفق ولا أعلمه إلا وقد قال : زبرجد))^(١) .

فهذا الحجاب الذي يتلأأ أو الزبرجد هو عبارة عن ماهيتهم سلام الله عليهم، وهذا الحجاب ما يمسك ويظهر وجودهم، وإن كان وجودهم يكاد يضيء ولو لم تمسه نار، لأنهم نور على نور سلام الله عليهم.

وهذه الظلمة التي هي الماهية أو الحجاب الذي يخفق، هي نفس حقيقة محمد وآل محمد ﷺ، فهي ليست غيرهم بأن تكون زائدة عن ذاتهم، أي لا تكون الماهية غير ذاتهم النورانية بل هي هم سلام الله عليهم، لذا قال المؤلف السيد كاظم هذه الظلمة ليست زائدة على ذاتها، أي ليست هذه القابلية أو الماهية شيئاً غيرهم بل هي هم ﷺ.

فالمعصومون ﷺ لما كانوا مستغرقين في محبة الله تعالى وطاعته، وامثال أمره واجتناب نواهيه، كأنه لم تكن عندهم ماهية تذكر سلام الله عليهم، بحيث لا يعملون ما يخالف أمره تعالى مطلقاً حتى ترك الأولى، فأعمالهم كلها أعمال الله سبحانه، من هنا كانت قلوبهم أوعية لمشيئة الله تعالى، كما روى الشيخ محمد الطوسي رضوان الله عليه في كتاب الغيبة، عن كامل بن إبراهيم يسأل الإمام الحجة أرواحنا لتراب نعليه الفداء، عن المفوضة، قال ﷺ: ((وجئت تسأله عن مقالة المفوضة، كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا))^(١).

فكون قلوبهم أوعية لمشيئة الله تعالى لاتباعهم أمر الله تعالى مطلقاً، بحيث لا يلتفون إلى أنفسهم مطلقاً، كأنه لم تكن عندهم ماهية، وما عندهم عمل غير عمل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾^(٣) فأعمالهم كلها أعمال الله تعالى، وبه وعنه، لذا في الحديث القدسي كما في المحاسن عنه، عن عبد الرحمن بن حماد، عن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال رسول

(١) الغيبة للشيخ محمد الطوسي ٢٤٧.

(٢) سورة الأنفال آية (١٧).

(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٦ - ٢٧).

الله ﷻ : ((قال الله : ما تحب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وإنه ليتحب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبتة، وإذا سألني أعطيته...))^(١).

فالمؤمن العادي من أمثال عوام الناس يكون سمعه وبصره ويده، بل كل حركاته وسكناته هي أعمال وحركات الحق جلّ جلاله، فكيف بحمّال المشيئة، وألسن الإرادة، ومعادن العلم، وأعمدة الإسلام، ودعائم الإيمان، وأصحاب القربى، ومخصوص الطهارة، وذووا الأبواب، وحفظة الكتاب، وأركان التوحيد، وهم محمد وآل محمد ﷺ.

الصورة الثانية: الظلمة التي ليس فيها نور يعني زائداً على ذاته، بحيث يترتب عليه الآثار ❁.

❁ الصورة الثانية للنور

هذه الصورة عكس الأولى في كل شيء، فهذه الصورة هي نهاية السراج، أعني الظلمة التي لا نور فيها، إلا بقدر رأس الإبرة ما يمسك وجودها، لأنه كما ذكر لا بد لكل موجود من وجود وماهية، فالوجود هو النور والماهية هي الظلمة، وزيادة النور أو الظلمة على حسب إيمان المكلف أو كفره والعياذ بالله تعالى.

وهذا القسم هو الوجه الآخر المنكوس من السراج، المدبر نهاية الإدبار عن النور وهي الظلمة، فوجود النور فيها كأنه معدوم، لإحاطة الظلمة على هذه الصورة من كل جهة، فهي شر لا خير فيها، وظلمة لا نور فيها، بل هي مصدر الظلمات والشور، وهذه الصورة من السراج مثال للكفار والمشركين والمنافقين الذي وصفهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١).

فكل معصية وشر وظلمة في العالم فهي بسببهم وعنهم وبهم، فالنور فيهم ما يمسك ماهياتهم لا غير، فالنور ليس زائداً على ذاتهم، أي ليس النور الذي يمسك ماهياتهم فيه شيء من آثار الخير والطاعة، بل النور الذي فيهم، الذي بقدر رأس الإبرة هو من حقيقة ذاتهم الخبيثة، فيمدهم الله به، أي بهذا النور الذي بقدر رأس الإبرة في فعل الشر والكفر باختيارهم، فلولا مدد الله تعالى لهؤلاء ما استطاعوا من عمل شيء من الشر، أو يلزم التفويض الباطل كما ذكر من قبل.

(١) سورة النساء آية (١٤٥).

الصورة الثالثة: المختلفة بالنور والظلمة، وهي على أقسام ثلاثة :
القسم الأول: هو ما يغلب النور الظلمة ويستهلكها، لكن تصدر منها الآثار.

القسم الثاني: هو ما تغلب الظلمة النور عكس القسم الأول.

القسم الثالث: هو ما يتساوى الظلمة والنور.

فالصورة الأولى: هي محمد وأهل بيته الطيبون الطاهرون صلى الله عليهم أجمعين.

والصورة الثانية: هي أعداؤهم من الملحدين والمنافقين والمشركين.

والقسم الأول من الصورة الثالثة هو شيعة الأئمة عليهم السلام، وإن كانت فيهم الظلمة، وهي المعصية لكنها مضمحلة عند نور ولايتهم عليهم السلام، ولذا لا يدخلون النار ولا تمس أجسادهم.

والقسم الثاني منها أصحاب الشمال، التابعين لأعدائهم لعنهم الله.

والقسم الثالث منها أصحاب الأعراف، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم،

إن الله هو التواب الرحيم، فاحفظ على ما ذكر*.

* الصورة الثالثة للنور

القسم الثالث هو النور المختلط بالظلمة، وهو على أقسام ثلاثة وهي:

القسم الأول المختلط

ما يغلب النور الظلمة ويستهلكها، أي النور هو المسيطر على الظلمة، والظاهر عليها، ولكن الظلمة موجودة فيه، وقد تخرج بعض آثارها على النور، وهذا القسم

هم الشيعة لأهل البيت عليهم السلام، وقول المؤلف السيد كاظم، لكن يصدر منها، أي من الظلمة الآثار، وذلك كصدور المعاصي من الشيعة الموالين، ولكن ولايتهم سلام الله عليهم تُكفر عن تلك المعاصي بشفاعتهم في الآخرة، وذلك لأن حبهم حسنة لا تضر معها سيئة كما ذكر من قبل.

فهذا القسم إذا ارتكب المعاصي في دار الدنيا، يصفى في الدنيا بالبلاء والأمراض والمصائب، فإن صفى وإلا يرجئ إلى البرزخ، وإلا إلى يوم القيامة عند الحساب في الميزان والصراط، ثم يدخل الجنة بشفاعتهم سلام الله عليهم، وأما نار الخلد فلا يدخل أحد من الموالين المؤمنين بأهل البيت عليهم السلام فيها.

روى الشيخ محمد الكليني رضوان الله عليه، عن علي بن محمد، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن عثمان بن عيسى، عن ميسر قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال: ((كيف أصحابك؟))، فقلت: جعلت فداك، لنحن عندهم أشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: كيف قلت؟، قلت: والله لنحن عندهم أشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، فقال: أما والله لا يدخل النار منكم اثنان لا والله ولا واحد، والله إنكم الذين قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَاغَبْتَهُمُ الْأَبْصُرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾^(١) ثم قال: طلبوكم والله في النار، فما وجدوا منكم أحداً))^(٢).

فالمراد من النار هي نار الخلد أجازنا الله وإياك عنها، أما نار البرزخ فيدخل فيها كثير المعصية من الشيعة أعاذنا الله منها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين.

القسم الثاني المختلط

وهو ما تغلب الظلمة النور، ويكون النور مستهلكاً في الظلمة، ولكن قد تصدر

(١) سورة ص، آية (٦٢ - ٦٤).

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ٨ / ٧٨، البحار للشيخ المجلسي ٨ / ٣٥٣.

من النور آثار من النورانية وهم أصحاب الشمال، أي أصحاب القسم الثاني أي أصحاب أهل الكفر والفسق والعصيان، فهؤلاء قد تصدر منهم بعض الطاعات بسبب اللطخ، فيجازون ببعض الطاعات في الدنيا وأما في البرزخ ويوم القيامة فيرجعون إلى ما منه بدؤوا من إتباعهم أهل الكفر.

القسم الثالث المختلط

وهو ما تساوى فيه النور والظلمة، لا هذا يغلب على هذا، فهذا القسم هم المستضعفون وأصحاب الأعراف، فهؤلاء إما الله تعالى يتوب عليهم بشفاعه محمد وآل محمد ﷺ أو يعذبهم لكون حقائقهم في الواقع خبيثة، وذلك بتكليفهم يوم القيامة بصعود جبل اسمه صعود من نار، وعند عصيانهم التكليف يدخلون النار، والذي يمثل ويصعد تكون النار جنة ونعيم، ففيما تقدم من الشرح أطنبنا الكلام عن هذه الأقسام كلها فمن أراد التفصيل فليراجع.

الفصل الثالث عشر [كل شيء له ثلاث مراتب]

اعلم أن كل شيء له مراتب ثلاث :

الأولى : مرتبة ذاته وحقيقته ، وهي مجردة من الصورة الجسمية ،
والمثالية ، والنفسية ، والعقلية* .

* كل شيء له ثلاث مراتب

إن كل شيء خلقه الله جلّ جلاله لا يخلو من ثلاث مراتب أو ثلاثة أطوار وهي :

المرتبة الأولى ذاته

هي مرتبة ذات وحقيقة الشيء بما هو هو ، وهي الحد التام للشيء الذي يذكره المناطقة ، فحقيقة علي الإنسان هي الإنسانية التي هي أعلى من الحيوانية ، وحقيقة الفرس الحيوان الصاهل ، والديك الحيوان الصائح ، إلى بقية حدود الحيوانات الأخرى . فإذا نظرنا إلى حقيقة الإنسانية لعلي ، نجد حقيقته تخصه بما هو هو ، بدون ملاحظة لوازمه الأخرى ، فهذه الحقيقة - أي الإنسانية على المثال - هي مجردة عن كل شيء غيرها ، فهي مجردة عن المعاني العقلية ، وعن الصور البرزخية الروحية ، وعن الصور النفسانية ، وعن الصور الجسمية الشهودية ، وهي صور عالم المادة عالم الدنيا ، كما أنه مجرد عن الصور المثالية ، وهي آخر عوالم المجردات وبداية عالم الدنيا عالم الزمان ، فهذه الحقيقة مجردة عن كل ذلك ، فلا يذكر فيها شيء إلا هي .

الثانية: مرتبة العقل، وهو مجرد من الصور الجسمية، والمثالية، والنفسية، وهو عالم المعاني، ليس للأشياء فيه امتياز بعضها عن بعض إلا بالمعنى*.

الثالثة: مرتبة النفس، وهي مجردة من الصور الجسمية، والمثالية، وهي عالم الصور، إذ الخلائق تمتاز بعضها عن بعض بالصور**.

* المرتبة الثانية عقله

المرتبة الثانية للشيء بعد حقيقته وذاته هي عقله أو شعوره في غير الإنسان، فمرتبة العقل موجودة فيها المعاني العقلية والكلية، ولكنها غير متميزة في الظاهر، وإن كانت في نفس الأمر مختلفة، إلا أنها لا تعرف، فمرتبة العقل وإن كانت فيها معاني عقلية، إلا أنها مجردة عن الصور البرزخية الروحية، والصور النفسية والصور المثالية والجسمية، ففي العقل المعاني الكلية فقط من دون تمايز بعضها عن بعض، لأن مقام العقل مقام الإجمال.

** المرتبة الثالثة نفسه

مرتبة النفس هي مرتبة البيان والظهور والتمايز والكثرة والصور، إذ الأشياء لا تعرف إلا بصورتها.

ولكن هذه الصورة النفسية مجردة عن المادة والصورة المثالية في عالم المثال، وعن المادة والصورة الجسمانية الدنياوية.

وهذه المراتب الثلاث تعد من عالم المجردات، والمجرد هو المنزوع عنه ذلك الشيء كما تقول: تجردت من ثيابي، أي نزع ثيابي.

والتجريد في هذه المراحل والمراتب الثلاث نسبي إلى ما تحته، وأما إلى ما فوقه ليس مجرداً، كما في العقل والنفس، فالعقل مجرداً بالنسبة إلى النفس، وغير مجرد بالنسبة إلى الحقيقة والذات وكذلك النفس مجردة بالنسبة للمثال، وإن كانت

بالنسبة للعقل غير مجردة، حتى النفس الناطقة مركبة في نفس الأمر من المادة والماهية، إي مركبة من جهة الرب وجهة العبد.

لذا قال الشيخ أحمد الأحسائي قدس الله نفسه: ((وما فهم المتأخرون من الحكماء والعلماء غلط، فإنهم يريدون بالمجردات، العقول والنفوس والأرواح، ويريدون بتجردها التجرد مطلقاً، يعني أنه لا مادة لها أصلاً، ولا مدة أصلاً، وهذا التجرد الواجب، حتى أنه بعض العلماء مثل الملا محمد باقر المجلسي رحمته الله في أول البحار، حكم بكفر من قال بإثبات مجرد غير الله، وكذلك غيره، لفهمهم أن المراد بالتجرد التجرد المطلق، وكذلك كثير من المتأخرين فهموا ذلك، حتى أن الملا صدرا في المشاعر قال: ((إن العقل وما فوقه كل الأشياء)) بناء على مذهبه، أن بسيط الحقيقة كل الأشياء، والعقل عنده بسيط الحقيقة، وما فوقه هو الله تعالى))^(١).

معنى كلامه قدست نفسه (وهذا التجرد الواجبي) أي إن التجرد من كل شيء حتى من المادة والصورة، لا يكون إلا لواجب الوجود وهو الله تعالى، فهو المجرد المطلق الذي ليس فيه تركيب مطلقاً، وما سواه من الخلق كله مركب، حتى المشيئة بلحاظها هي مركبة من المادة والصورة، فصورتها الإمكان ومادتها فعل الله تعالى.

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٦.

والصورة على قسمين :

القسم الأول : منها هو المجرد من المادة الجسمية ، لا يحتاج إليها أصلاً وقطعاً .

القسم الثاني : هو المقارن بالمادة لا يتحقق في الخارج إلا بمقارنته بالمادة* .

* الصورة وأقسامها

من عالم العقل إلى عالم الروح إلى عالم النفس إلى عالم المثال إلى عالم المادة الجسم الدنيوي ، كله عالم صور ، ولكن بعضهم مجرد عن صور بعض ، فعالم العقول فيه صور عقلية كلية ، معنوية غير ظاهرة ، لأن العقل عالم إجمالي غير تفصيلي ، وهو مجرد عن الصور الروحية والنفسية والمثالية والجسمانية ، وكذا عالم الروح فيه صور روحية ، وهو مجرد عن الصور النفسية والمثالية والجسمية ، وكذا عالم النفس فيه صور نفسية ، وهو مجرد عن الصور المثالية والجسمانية ، وكذا المثال فيه صورة مثالية ، وهو مجرد عن الصور الجسمانية الدنيوية الكثيفة ، وعالم المثال هو آخر المجردات وبداية الماديات فعالم المثال برزخ بين عالم المجردات والماديات ، كما ذكر الشيخ أحمد الأحسائي أعلى الله مقامه بقوله : ((إن المثال برزخ بين المجردات والماديات ، فله أحكام البرزخ كغيره ، فوجهه أي الذي هو جهة تلقيه ، وهو أعلاه في الدهر الذي هو ظرف المجردات ، وأسفله أي محل حلوله منه ، يعني الذي يحل منه في المحل الجسماني ، وهو تعلقه بالمواد بالزمان ، لأنه ظرف الماديات بالعرض ، يعني أن كونه في الزمان بالعرض ، حيث ارتبط بالمادة الزمانية ، فجذبته إلى الزمان ، ولولا ذلك لم ينحط في الزمان))^(١) .

فصورة عالم المثال هو مجمع الإنسان الحقيقي ، من العقل إلى الجسم والصورة

المثالته، وهو الذي يقع عليه الجزاء في الحساب من النعيم أو الجحيم، .
لذا قال الشيخ أحمد الأحسائي في أجوبة فتحعلى شاه ((وهو الإنسان الحقيقي وأصل وجوده مركب من خمسة أشياء: عقل ونفس وطبيعة ومادة ومثال، فالعقل في النفس، والنفس بما فيها في الطبيعة، والكل في المادة، والمادة بما فيها إذا تعلق بها المثال تحقق الجسم الأصلي، وهو الغائب في العنصري المركب من العناصر الأربعة، النار والهواء والماء والتراب))^(١) فهذه المراتب الخمس هي الإنسان الحقيقي الذي لا يفنى حتى عند الموت، لأن الموت هو انتقال من عالم إلى عالم، وإن تحلل جسده الدنياوي إلى التراب، إلا أن جسده الأصلي الحقيقي يبقى، إما إلى النعيم أو الجحيم والعياذ بالله تعالى .

فخلق الله تعالى عالم الرؤيا مشابه لعالم المثال، شفاف مجرد من المادة الزمانية الدنياوية، لذا قال آية الله العظمى المقدس الميرزا علي الأحقائي رضوان الله عليه: ((اعلم وفقك الله تعالى، قال النبي ﷺ: ((كما تنامون تموتون، وكما تستيقضون تحشرون))^(٢)، إذا نام الإنسان تخرج روحه بجسم مثالي، أي الروح تنتزع من البدن جسماً شفافاً لطيفاً مثالياً، فتطير إلى ما تريد، لأن الروح لا تستقر بلا مركب، فمركبها هو هذا الجسم المنتزع من هذا البدن، فتمضي إلى أي مكان تشاء، أو أي بلد تريد، فتكشف عن الأمور المستقبلية والأمور الماضية، وإذا استيقظ يرى في اليقظة عين ما يرى في الحلم أو تأويل ما رأي فيه بشرط أن لا تكون الرؤيا متولدة من أنجرة المعدة، بل كانت من الرؤيا الصادقة التي هي جزء من سبعين جزءاً من النبوة كما في الأثر، وقد بين في محله شروطاً ووقتاً وحالاً، ولدى الاستيقاظ تأتي تلك الروح في الجسم الشفاف المثالي بواسطة الريح المتصل إليه، فتنتطبق على بدنه فيستيقظ، والموت نظير النوم إذا مات الإنسان تنتزع الروح من جسده جسماً مثالياً شفافاً، كما تنتزع الحية قشرها، والجراد من قشره، فتمضي الروح بالجسم المثالي،

(١) جوامع الكلم للشيخ أحمد الأحسائي ١ / ١٢٩ .

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٧ / ٤٧ .

إلى جنة الدنيا إن كان مؤمناً، فيتنعم هناك إلى نفحة الصور (الصعق) لا إلى يوم القيامة، كما يتنعم في الرؤيا بالجسم المثالي، وإن كان كافراً وفاسقاً تمضي روحه إلى جحيم الدنيا والبرهوت، فتتعذب هناك بجسمه المثالي إلى نفحة الصعق (نفخة الجذب) لا إلى يوم القيامة، كما تتعذب في الرؤيا^(١) عالم الرؤيا طبق عالم البرزخ، كما أن الروح في عالم الرؤيا تخرج بجسم مثالي ترى ما ترى من الأمور الحسنة أو السيئة، كذلك الموت تخرج روحه إلى عالم البرزخ، إما إلى النعيم أو إلى الجحيم بذلك الجسم المثالي الكامن في هذا الجسم.

القسم الأول للصورة

بعد ما ذكر سابقاً أن كل مخلوق لا بد له من صورة ومادة، أو وجود وماهية، أو قابل ومقبول، مهما كان ذلك المخلوق في الكثافة أو اللطافة أو التجريد، فعلى ذلك فالصورة لها قسمان:

قسم مجرد عن المادة بالنسبة إلى ما تحتها، كما ذكر في عالم النفس عالم الملكوت، هو مجرد عن الصورة المثالية والجسمية لكنه متصف بالصورة النفسية.

مثل الملائكة عليهم السلام فإنهم صور مميزة، ولكنهم ليس فيهم مادة جسمانية ترى بالعين المجردة، لأن أجسامهم فوق عالم المادة الدنياوية، بل هم من عالم المجردات العلوية العالم العلوي، من عالم العقول والأرواح والنفوس والطبيعة والهباء لذا قال أمير المؤمنين عن العالم العلوي، ويقصد بالعالم العلوي هو فوق عالم المادة الدنياوية أو الأعم.

بقوله: عليهم السلام ((صور عارية عن المواد، عالية عن القوة والاستعداد))^(٢) أي عارية عن المواد الجسمانية الدنياوية، فهذا القسم لا يحتاج إلى المادة الجسمية أصلاً وأبداً، فالملائكة لا يحتاجون إلى هذه المادة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(١) الكلمات المحكمات لآية الله الميرزا علي الأحقائي ١٢٦.

(٢) البحار للشيخ المجلسي ٤٠ / ١٦٥.

القسم الثاني للصورة

هي الصورة المقارنة بالمادة العنصرية الدنياوية، مثل أجسامنا وصورنا الدنياوية، أو الأعم مثل المادة المثالية بالنسبة للمثال، والنفسية بالنسبة لعالم النفس، والعقلية بالنسبة لعالم العقول، وكذا الصورة العقلية لا تتحقق في عالم العقول إلا بالمادة العقلية، والصورة النفسية لا تتحقق في عالم النفوس إلا بالصورة النفسية وهكذا. فكل من الصور العقلية والروحية والنفسية والمثالية والجسمية المادية، لا بد لها من مادة تجانسها وتشابها.

ونمثل لهذه المراتب الثلاث، بمثل تقريباً للذهن ونقول إن حروف الكتابة مثلاً لها ثلاث مراتب:

الأولى: هي ذوات الحروف والكتابة، وحققتها المجردة من كل صورة المعنوية، و الصورية، وهي الصمغ والسواد مثلاً قبل التركيب، وبعد التركيب يكون مثلاً للعقل، إذ يوجد فيه الصور المعنوية، وأما في الظاهر فهو شيء واحد، الذي هو المركب والحبر في الدواة، وليس فيه ظاهراً وجود شيء من الأسمي والأمور وصور الكتابة الظاهرة، وأما بحسب المعنى والحققة فلها وجود، وإذا وجد وانبسط في الظاهر، وكتب في اللوح، وامتاز اسم زيد من عمرو، وخالد من بكر مثلاً فصار مثلاً للنفس، إذ الصور المعنوية المعينة في العقل امتازت في هذا المقام، وبين العقل والنفس برزخ، ليس كالعقل في الإبهام ولا كالنفس في تمييز الصور، وهو الروح ويسمي أيضاً: «عالم الرقايق»، ومثاله في الحبر شروءك في الكتابة، قبل إتمام الحرف الأول للصورة، فالعقل معنى مجرد من كل صورة إلا المعنوية، والروح رقيقة وهي مبدء والصور، والنفس هي الصورة.

إن شئت قلت: المجردات ثلاث: عالم العقل، وعالم الأرواح، وعالم النفوس.

وان شئت قلت اثنان، والبرزخ يحسب من أحدهما ❀.

❀ تمثيل مراتب الحروف بالإنسان

المؤلف هنا يمثل للمراتب الثلاث للشيء، من حقيقته وعقله ونفسه، بمراتب الحروف الثلاثة وهي:

مرتبة حقيقة الحروف

وهي حقيقة الحروف وهي عبارة عن مواد المداد أي الحبر الذي يكتب به الحروف، فالحبر أعني المداد متكون من مواد أولية وهي كما ذكرها الشيخ أحمد الأحسائي بقوله: ((وهذا هو الهبولي للإنسان وهو بمنزلة المواد المركب من صمغ وسواد وزاج وعفص وملح وحبر ونبات وآس))^(١).

فلمواد الحبر ثمانية أشياء، نفس تركيب الموجود من ثمانية أشياء وهي ((وجود وماهية وكم وكيف ووقت ومكان وجهة ورتبة))^(٢).

ثم شرح الشيخ أحمد الأحسائي فوائد الثمانية الأشياء المكوّنة للحبر المداد، حيث كل مادة من المواد الثمانية لها فائدة، لذا قال قدس الله نفسه: ((من صمغ: ليربط بالقرطاس فلا يمحي.

وسواد: ليكون له جرم لطيف سهل حكه لو احتيج إليه، ويلطف المداد مع زيادة تسويد.

وزاج: ليحصل بحرقه للعفص سواد يزيد المداد ثباتاً.

وعفص: لينحرق منه، فيحصل منه مع الزاج سواد قار.

وملح: ليقطع لزوجته فيعينه على الجريان.

وصبر: بكسر الباء ليمنع الذباب بمرارته من الأكل.

ونبات: ليكون براقاً.

وآس: ليكون شديد الجريان))^(٣).

أشار هنا إلى أن الحروف من الألف والباء والتاء والثاء والكلمات إلى آخرها، قبل تركيب مواد المداد الحبر من المواد الثمانية تمثل ذوات وحقيقة الحروف،

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٥٣.

(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٥٤.

(٣) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٥٥.

المجردة عن الصور المعنوية للحروف، لأنه بعد لم يتركب الحبر، فليس للحروف صور معنوية، وكذا بالطريق الأولى، ألا تكون للحروف صور روحية ونفسية ومثالية وجسمانية، فهذه مرتبة حقيقة الشيء.

مرتبة معاني الحروف

إذا رُكِبَ المداد من المواد الخام الثمانية المذكورة سابقاً، صار للحروف والكلمات معاني، أي صار لحرف الألف معنى ولكلمة اتقوا الله معنى، ولكنه غير متميز، فهذه المعاني لها صور معنوية غير متميزة، مجردة عن الصور الروحية والنفسية والمثالية والجسمانية.

ومعنى الباء والألف والتاء وبقية الحروف والكلمات في المداد بالإجمال، إلا أنها غير ظاهرة متميزة، فالظاهر من المداد لا يرى فيه شيء ممتاز عن الآخر، ففي الظاهر كله حبر ومداد، لا تميز قطرة عن أخرى، ولا حرف عن آخر، إلا بالمعنى والحقيقة والباطن، وهذه مرتبة عقله أو شعوره.

مرتبة صور الحروف.

فإذا كتب بالمداد اسم علي أمير المؤمنين عليه السلام، واسم إبليس اللعين، امتاز اسم علي عليه السلام عن اسم إبليس لعنه الله، فذاك يقدر، وهذا يهان ويحتقر.

فصورة اسم علي أمير المؤمنين عليه السلام امتازت وظهرت للغير، بعد ما كانت مبهمة غير ممتازة في المرتبة الثانية وهي المعنوية، وكذا إذا كتب اسم إبليس لعنه الله تعالى امتاز وظهر للغير بعد ما كان مبهماً من قبل، وهذه مرتبة نفس الشيء.

مرتبة البرزخ بين العقل والنفس

ذكر أن مرتبة العقل، مرتبة المعاني المجردة عن الصور النفسية والمثالية والجسمية، ومرتبة النفس هي مرتبة الصور النفسية، فهي عكس الأولى تلك اجمال وهذه تفصيل.

فيوجد بين المرتبتين مرتبة أخرى، وهي تعد برزخ بين الإجمال والتفصيل، وهي

مرتبة الروح، وهي في الحروف مرتبة الشروع في الكتابة، يعني بداية كتابة حرف الباء من أول نقطة لكلمة بنيت الدار مثلاً هي مرتبة برزخية ليس معنوية ولا نفسية، وتسمى بعالم الرقائق، وسميت بالرقائق، لأنها رقيقة لا لطيفة معنوية كعالم العقول، ولا غليظة صوريه ممتازة كعالم النفوس، فهي شبيهة بورق الآس وهو على شكل مخروطي أعلاه دقيق وأسفله عريض، قال الشيخ أحمد الأحساني رضوان الله عليه في عالم الروح الذي هو عالم الرقائق المسمى بالنور الأصفر قال: ((فلما نزلوا إلى النور الأصفر كانت أعاليهم متوجه إلى العقل في الجهة العليا، وأسافلهم مرتبطة بالنور الأصفر والروح الكلية، فكانت أعاليهم ألطف وأدق من أسافلهم لقربها من العقل والنور الأبيض، وأسافلهم أغلظ وأكثر قربها من النور الأصفر، الذي هو الروح، فانجذبت أعاليها إلى العالي، وأسافلها بالأسفل، فامتدت كالأوراق، فكانت أعاليها أدق وأرق للطافتها ودقتها، وكانت أسافلها أعرض وأغلظ لكثافتها وغلظتها، فكانت في هيئتها أشبه الأشياء بورق الآس المعروف، فأطلقوا عليها ورق الآس، فلما نزلت إلى رتبة النفس تم تمايزها تحت النفس))^(١) فعالم المجردات ثلاثة، عالم العقل مجرد عن كل صورة إلا المعنوية، والروح مجردة عن الصورة النفسية وما تحتها وهي مبدء الصور، والنفس هي الصور النفسية المجردة عن المثالية والجسمية، وإن شئت قلت المجردات عالمان، عالم العقل المعنوي، وعالم النفس الصوري، أما الروح فهي برزخ بينهما أو يحسب على أحدهما، لأن له جهة مشابهة للطرفين.

فعالم الحروف في مراتبه الثلاثة نفس مراتب الإنسان وغيره، فالمرتبة الأولى مرتبة الحقيقة، المعبر عنها بالنفس الناطقة القدسية، والمرتبة الثانية مرتبة عقله فيه معاني الأشياء، والمرتبة الثالثة مرتبة نفسه فيها تمايز الأشياء بعضها عن بعض.

فقد البعض يستنكر على السيد كاظم الرشتي والشيخ أحمد الأحساني رضوان الله عليهما من تمثيل الإنسان والوجود بالحروف فقد يقول أين الإنسان من الحروف؟ الجواب إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق كل شيء فيه كل شيء كما ذكر.

ثانياً: أنه روى الشيخ محمد الصدوق رضوان الله عليه في عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام عن أول المخلوقات هي الحروف، قال: حدثنا محمد بن بكران النقاش رضي الله عنه بالكوفة سنة أربع وخمسين وثلاث مئة قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني مولى بني هاشم، قال: حدثنا علي بن الحسن بن علي بن فضال، عن أبيه، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: ((إن أول ما خلق الله تعالى ليعرف به خلقه الكتابة والحروف المعجم...))^(١).

ويكفي في عظم الحروف أن القرآن العظيم كتاب الله جل جلاله، هو عبارة عن حروف وكلمات نورانية الذي فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فعالم الحروف والكلمات نفس عالم الكبير، والعالم الصغير وهو الإنسان.

وقد عرفت سابقاً أن الله سبحانه لم يجبر الخلاق في إيجادهم، بل خلقهم بحسب اقتضاء قابلياتهم، وكلفهم بالتكليف الوجودي أولاً في عالم العقول وهو الذر الأول، والخلق فيه بحسب الظاهر متساوي النسبة، وإن كان مختلفاً بحسب المعنى، ولذا قال الله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(١). يعني لم يكونوا بحسب الظاهر والصورة محكومين بالسعادة والشقاوة، وإن امتاز السعيد من الشقي بالإجابة و الإنكار، كالمداد المركب ❀.

❀ التكليف في العقول بالمعنى

هنا تفريع على ما تقدم، وهو أن الله جلّ جلاله خلق الخلق باختيارهم، في وجودهم كل على حسب في مراتب السلسلة الطولية، وعلى حسب إجابتهم في السلسلة العرضية في الإجابة والإنكار.

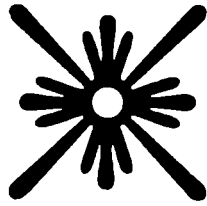
الخلق الأول

فكلفهم بالتكليف الوجودي، وهو الخلق الأول كما ذكره الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره في عالم العقول عالم الجبروت، وهو عالم المعاني، فلما خاطبهم الجليل جلّ جلاله بـ أأست بربكم؟، أجاب من أجاب وأنكر من أنكر في نفس الأمر والواقع المقر والمنكر معروف، ولكنه غير ظاهر ومميز للغير، قال الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره: ((لأن الخلق الأول الذي هو المادة والصورة النوعيتان اللتان هما بمنزلة المداد للكتابة، فيه أيضاً تكليف بشرع وجودي، والخلق فيه مكلفون به، ولكنه في المبادئ مخفي على أذهان المكلفين إدراكه، فوجب أن يخفي عليهم التكليف به، وإلا لكان عندهم تكليفاً بما لا يطاق، ولكنه تعالى حيث أجرى حكمته بإخفائه عليهم، لأنه من المبادئ الوجودية، أخفى التكليف المترتب عليه، وإذا كشف للمكلفين عن أبصارهم الأغطية وجدوا الطينة أي الصورة، ووجدوا الرسل عليهم

(١) سورة البقرة آية (٢١٣).

تتري بتلك التكاليف، ويجري عليهم ما لهم وما عليهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ((٢)) فالخلاق في عالم العقول في عدم تمايزهم، هم في الظاهر شيء
واحد وأمه واحدة، لذا قال جل جلاله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٣).

وإن كانوا بحسب الباطن والواقع ممتاز السعيد من الشقي، مثل كلمة علي أمير
المؤمنين عليه السلام في الحبر المركب من المواد الثمانية في نفسها ممتازة، عن كلمة إبليس
لعنه الله تعالى لكنها غير ظاهرة.



(١) سورة فصلت آية (٤٦).

(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ١٧٣ / ٢.

(٣) سورة البقرة آية (٢١٣).

والتكليف الثاني في عالم الأرواح بالرقائق، وهو ابتداء الحكم، و يسمى بالذر الثاني ❁.

والتكليف الثالث في عالم النفوس، ويسمى أيضا بعالم الأظلة، وفي هذا العالم يحكم بحكم، ويتصور الشيء بالصورة الظاهرية والخارجية ويكمل، وامتاز السعيد من الشقي، والجنة من النار ❁❁.

❁ ابتداء الحكم في الأرواح

كما ذكر من قبل إن عالم الأرواح هو عالم برزخي بين الإجمال والتفصيل، بين العقول والنفوس، وفي هذا العالم البرزخي المعبر عنهم بورق الآس، فيه تكليف وهو التكليف الثاني ويسمى بالذر الثاني، وهذا العالم هو الابتداء والشروع في التمايز والتفصيل.

❁❁ التكليف في النفوس بالتمايز

من باب تأكيد التكليف وإلقاء الحجة على الخلائق، ليحيى من حيى عن بينة، ويموت من مات عن بينة، ألقى الجليل سبحانه على الخلائق التكليف مرة ثالثة في عالم النفوس، وهو تمايز الخلائق بعضها عن بعض، تمايز علي عن محمد، ومحمد عن جعفرأ، والإنسان عن الحيوان، والحيوان عن النبات إلى آخره.

فالكل يعرف نفسه ويعرف غيره في هذا العلم مثل هذه الدنيا، إلا أنه في عالم النفوس عالم الملكوت، يعرف نفسه بما هو من السعادة والشقاوة، ويعرف غيره أيضاً على ما هو عليه من السعادة والشقاوة خلاف عالم الدنيا، فإنه لا يعرف حقيقة الغير بما هو سعيد أو شقي، أما أهل المكاشفة والتوسم يعرفون الأشياء بحقيقتها، وإن كان ظاهر المكلف إنساناً، يعرفونه بحقيقة عمله، لأن الشيء دائماً يتصر بصورة عمله، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة بمحمد وآله الطيبين الطاهرين عليهم السلام، وهذا العالم يسمى.

الخلق الثاني

أي بعدما خلقهم الله تعالى أولاً في عالم العقول بالمعنى، وهم غير ممتازين ظاهرين، خلقهم خلقاً ثانياً في عالم النفوس، عالم الملكوت مرة ثانية ممتازين مشرحين العلل، مبينين الأسباب، من الكم والكيف والمكان والزمان والجهة والرتبة، فألقى عليهم التكليف في هذا العالم مرة ثالثة، لكون هذا العالم عالم التمايز والوضوح ليحيى من حيى عن بينة، ويموت من مات عن بينة، فخلق كلاً من الخلائق في هذا العالم بلسان إجابته من الإقرار أو الإنكار، فالمقر خلق بأحسن صورة بإقراره، والمنكر خلق بأقبح صورة بإنكاره، فخلقهم تعالى بذكرهم من الإقرار والإنكار.

قال جلّ جلاله: ﴿بَلْ أَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾^(١) أي خلقناهم بذكرهم في الإجابة في الإقرار والإنكار، ويسمى هذا العالم.

عالم الأظلة

وسمي بعالم الأظلة، لأن المخلوقات فيه مثل ظل الشاخص، فكما أن الظل المنعكس من الشمس لطيف شفاف، كذلك الخلائق في ذلك العالم لطيفون شفافون، لأنهم مجردون عن المادة المثالية والجسمية، قال الشيخ أحمد الأحسائي قدس الله نفسه الشريفة: ((وأما النفوس فهي في وسط الدهر والممكن، أي المتوسط منهما، بين اللطافة والرقّة وهو الأظلة، يعني أن النفوس هي الأظلة، لأنها جواهر لطيفة كالظل في لطافته، مع أنه جوهر ألبس قالباً كهيئة الإنسان، هو جزء ماهية ذلك الجواهر اللطيف))^(٢) قوله ﷺ (مع أنه جوهر ألبس قالباً كهيئة الإنسان) أي إن هذه الأجسام الظلية ليست خارجة عن حقيقة الشيء أو الإنسان بل هي حقيقة الإنسان، مثل الإنسان لما يرى في عالم الرؤيا بالجسم المثالي هو حقيقته لا غيره، ففي هذا العالم امتاز الأخيار من الأشرار، وعرف الحق من الباطل عند نفسه وعند غيره.

(١) سورة المؤمنون آية (٧١).

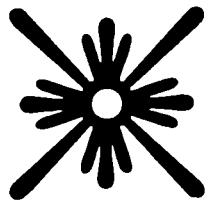
(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحسائي ٢ / ١٩٢.

ولك أن تقول: إن عالم النفوس هو الذر الثاني، وعالم الأجسام الذر الثالث، أو تقول: إن عالم النفوس الذر الأول، وعالم الأجسام الذر الثاني، أو تقول: إن الذرات لا نهاية لها، ففي مرتبة الذات الشقي والسعيد عند الله معلوم، وفي الذر الأول عند نفس الشيء معلوم، وفي الذر الثاني وهو ذر النفوس عند الغير أيضا معلوم*.

* أنواع عالم الذر

إن إطلاق عالم الذر إطلاق نسبي غير محدد بعالم دون آخر، فيمكن أن نقول إن عالم الذر الأول هو العقول ثم الأرواح ثم النفوس ثم المثال ثم عالم الدنيا. أو تقول: إن عالم الذر الأول العقول، والثاني النفوس، والذر الثالث عالم الأجسام عالم الدنيا، لأن الخلائق فيه مثل الذر بالنسبة للعالم الكبير. أو نقول: إن الذر الأول النفوس باعتبار تمايز الخلائق بعضها عن بعض في النفوس، والخلق الثاني الذي خلقوا من إجابتهم للإقرار أو الإنكار فخلقوا من ذكرهم في هذا العالم.

والذر الثاني عالم الأجسام عالم الدنيا، وألقي التكليف عليهم في الدنيا كما ألقي عليهم في النفوس، فألقي عليهم تكليف الإيمان بالتوحيد والرسالة، أنهم رسل الله تعالى، والولاية والوصاية بعد النبي ﷺ من الله تعالى، إلى أن تقوم الساعة، ويأتي بيان هذا فيما بعد إن شاء الله.



فالنفس مستمدة دائماً من الروح، والروح مستمدة من العقل، والعقل مستمد من الفعل، والفعل مستمد من الحق سبحانه، والمستمد منه محيط على المستعد، وكل منها كرة مستديرة على قطبه الذي هو العالي، وعلى هذا القياس ❁.

❁ استمداد السافل من العالي

ذكر فيما سبق أن أول المخلوقات في عالم التقييد هو العقل، ثم الروح ثم النفس ثم الطبيعة ثم المثال إلى آخر المراتب، فأعلى وأول المخلوقات العقل من العالم المقيد، لكونه أول صادر عن المشيئة، والمعروف أن السافل دائماً يستمد من العالي لكون العالي علة للسافل، مثل الشمس فإن الأشعة دائماً تستمد من الشمس لكونها العالي و العلة للأشعة.

فعلى ذلك فالنفس تستمد من الروح، والروح تستمد من العقل، والعقل يستمد من الفعل أي المشيئة، والمشيئة تستمد من الله جلّ جلاله، فهو سبحانه يمدّها بنفسها، كما تمد الشمس الأشعة بنفس الأشعة، فاستمداد السافل من العالي يبدأ من الجماد آخر الوجود إلى أن يصل إلى أشرفها وهو العقل يستمد من المشيئة بالله تعالى.

كل شيء يدور على قطبه

إن كل سافل يستمد من العالي استمداد كروي، أي السافل مثل الكرة المجوفة، والعالي مثل القطب، فالقطب يمد الدائرة من كل جهة ووقت ومكان، فالمستمد منه بفتح الميم على المفعول، أعني العلة، محيط بالمستعد أي المعلول من كل جهة والقطب العلة.

قال الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي روجي فداه في فوائده: ((لما كان فعل الله سبحانه هو مبدأ كل شيء ما سوى الله، وما كان كذلك فإنه يجب له أن يكون في

كل جهة، وكل مكان، وكل وقت، فهو محيط بالأوقات والأمكنة، والجهات والرتب وكل شيء، وما كان كذلك يجب أن يكون أثره قابلاً عنه من كل جهة ووقت، في كل شيء ينسب إليه على حد واحد، فيكون جهات افتقار أثره إليه على السواء.

ولا نعني بالاستداره إلا تساوي الخطوط والنسب والأوقات والجهات إلى القطب الذي هو مبدؤها، وكذلك يعود إلى ما منه بدأ أيضاً، يعني على الاستدارة، إذ البدء كالعود، ويكون في دورانه على علته في بدئه وعوده على حد واحد، في سرعة حركة دورانه وبطنها، وهذا ظاهر إن شاء الله^(١).

فأقرب لك مثلاً لمدد العالي للسافل أو مدد العلة للمعلول، مثل الشمس وأشعتها، فالأشعة مثل دائرة مجوفة، الشمس تمد الأشعة من جميع الجهات، فلو تقطع الشمس مددها عن الأشعة في جهة من الجهات وتترك الجهات الأخرى لفنت الأشعة بالكلية.

ومثل آخر تقريبي الطاقة الكهربائية في مددها لجهاز التلفاز عند إذاعته لنشرة الأخبار مثلاً، فالتيار الكهربائي لو يقطع مدده لبرنامج نشرة الأخبار ثانية واحدة أو يقطع مدده لصورة المذيع لحظة أو أقل لتوقف البرنامج بالكلية، فبرنامج الأخبار مثل الدائرة المجوفة قطبها التيار الكهربائي، وهذا واضح إن شاء الله تعالى.

استمداد المعلول في بدئه وعوده

فاستمداد المعلول من العالي أي العلة في بدئه، أي في قوس نزوله من عالم العقل إلى الروح إلى النفس إلى عالم التراب والجماد آخر المراتب، هو نفس استمداده في صعوده من التراب إلى ما منه بدأ، وحركة سرعة دورانه على قطبه وبطنها يعتمد على قربه من مبدئه وبعده، فكلما كان الشيء قريباً إلى مبدئه كانت حركة استدارته أسرع من غيره البعيد، لذا ترى أصل ريشة المروحة تدور أسرع من أعلاها، وذلك لقربها إلى قطب المحرك للمروحة، قال الشيخ أحمد الأحساني أعلى الله مقامه:

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ٢ / ١٩٦.

((وسرعة حركته في استدارة إقباله وإدباره تكون على حسب كونه، أي على حسب رتبة كونه، أي وجوده ووقته من دهر أو زمان، ومن كونه في أول الدهر أو الزمان، أو في وسطهما أو في آخرهما))^(١).

فالمعلول الذي في عالم العقول يدور أسرع من الذي في عالم الأرواح، وفي الأرواح أسرع من عالم النفوس، والنفوس أسرع من عالم الزمان، فكلما قرب الشيء المعلول إلى علته كان أسرع مما تحته.

مراتب الموجودات في السرعة والبطء

فأسرع الكائنات أجمع هم محمد وآل محمد ﷺ في الدوران على أمر الله تعالى، حتى صاروا أوعية لمشيئته تعالى، ثم الأقرب فالأقرب، لذا قال الشيخ الأوحدي: ((فإن كان كونه، أي وجوده أول فائض عن فعل الله، مثل وجود نبينا ﷺ، فإن استدارته على قطب علته أسرع من جميع ما خلق الله بعد المشيئة، ومن دونه أرض الحُرُز، ومن دونها العقل الكلبي أي عقل الكل، ومن دونه الروح، ومن دونها النفس، ومن دونها الطبيعة، ومن دونها جوهر الهباء، ومن دونه المثال، ومن دونه الجسم المطلق، ومن دونه الأطلس، ومن دونه المكوكب، ومن دونه فلك الشمس، ومن دونه زحل، ثم القمر، ومن دونه المشتري، ثم عطارد، ومن دونه المريخ، ثم الزهرة، ثم النار والهواء والماء والتراب، فكلما قرب من المبدأ كان أطف وأسرع، وكلما بعد كان أبطأ، فكل شيء يحدث كرة مجوفة، يدور على نقطة هي علته لا إلى جهة، فيستمد منها ما لم يصل إليه مما له))^(٢).

ومعنى الدوران الأسرع ليس مجرد دوران، بل معناه الأكثر والأسرع والأقرب في مشابهة العلة في التأثير والتأثر، حتى يكون الأثر مشابهاً للمؤثر يعمل عمله، حتى أنه لا يفرق بين الأثر والمؤثر في التأثير والتعريف والتعرف، ومن هنا أصبح محمد وآل محمد ﷺ أفضل الكائنات، وأعلمهم، وأقدرهم، وأظهرهم لصفات الله تعالى

(١) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ٢ / ١٩٦.

(٢) شرح الفوائد للشيخ أحمد الأحساني ٢ / ١٩٧.

من غيرهم، فهم وجهه وبابه وعلمه وحكمته وسمعه وبصره ويده ولسانه المعبر عنه، وذلك لمتابعتهم لأمر الله تعالى في كل شيء، حتى أنه لا توجد لهم إرادة خلاف إرادة الله تعالى، فكانت إرادتهم هي إرادة الله تعالى في كل شيء.

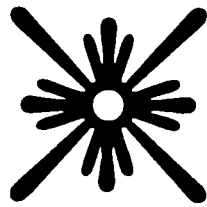
فيوم بدر يوم ناول أمير المؤمنين رسول الله صلى الله عليهما وآلهما السلام قبضة من حصيات فرمى بها المشركين، أنزل الله جلّ جلاله قرآناً: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(١) يعني إن رمى رسول الله ﷺ للمشركين هو عينه رمى الله تعالى بلا فرق، بل كل أفعالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشؤونهم هي آثار الله عزّ وجلّ. فالفضائل والمناقب التي تصدر من أيديهم سلام الله عليهم، خير برهان على أن آثارهم هي آثار الله بإذنه وأمره جلّ جلاله.

(١) سورة الأنفال، آية (١٧).

ثم اعلم أن الموجودات كلاً وطراً في عالم النفوس، الذي هو الذر الثاني باعتبار، والذر الأول باعتبار آخر، والذر الثالث باعتبار ثالث، اختار كل واحد منها مقاماً باختياره، وتصور بصورة مخصوصة ❁.

❁ الاختيار في جميع عوالم الذر

إن المكلف من أول عوالم الذر، عالم العقول إلى الأرواح إلى النفوس إلى آخر العوالم، هو الذي اختار مقامه من السلسلة الطولية من الإنس والملك والجن والحيوان إلى الجماد، واختار أيضاً تشريعه من جهة الإيمان والكفر، على حسب ما فصل من قبل.



والله سبحانه من باب إكمال النعمة على بعض، وإتمام الحجة على الآخرين، أيضا أنزلهم إلى عالم الشهادة والأجسام، وأنزل عليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وليميز الخبيث من الطيب، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، والقبول والإنكار في عالم الأجسام، طبق القبول والإنكار في عالم النفوس، كما أخبر سبحانه وتعالى عنه بقوله ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(١). وثمرة التكليف في هذا العالم، هو إظهار ما كمن في ضمائرهم، واستنطاق طبائع طبائعهم، حتى لا يبقى لإنكارهم مجال، وإن أنكروا شهدت عليهم أعضاؤهم وجوارحهم، كما ورد في الحديث مامعناه: إن جمعا من الناس يوم القيامة ينكرون ما ارتكبوا عليه من المعاصي، فيختم الله على أفواههم فتكلم أيديهم وأرجلهم وأعينهم وأذانهم بما كانوا يرتكبون من المعاصي الكبيرة والصغيرة، كما قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢). فلو لم يكن التكليف في هذا العالم، لما تمت الحجة على الكافر.

الحاصل إن الكلام في المقام طويل الذيل، وإرخاء عنان القلم مع التعجيل، وعدم التمكّن من التطويل غير ممكن، ومع ذلك نحن أدرجنا في هذا المختصر مطالب كثيرة، من أراد الفهم وكان من أهله فليفهم*.

✽ عالم ذر الدنيا

إنه تقدم الكلام عن عوالم الذر، ففي كل عالم ألقى الله تعالى عليهم، بلسان رسوله ﷺ التكليف من عالم المعاني إلى الأرواح إلى النفوس إلى المثال، وكل هذه

(١) سورة الأعراف آية (١٠١).

(٢) سورة يس آية (٦٥).

العوالم عوالم مجردات كما ذكرنا، أي مجردة عن المادة والصورة الجسمانية الدنيوية، وامتيازهم في عوالم الذر وبالخصوص عالم النفوس واضحة لمن اختار الإيمان أو الكفر أو الشرك أو النفاق، لأن ذلك العالم أجلى من هذا العالم وإدراك الخلائق للعلوم والأشياء أكثر من سبعين مرتبة من الدنيا، ولكن كما قال آية الله المعظم الإمام المصلح والعبء الصالح الميرزا حسن الإحقاقي رضوان الله عليه: ((إن عوالم الذر الغيبية المجردة قبولهم التكليف وإنكارهم إياه، إنما ذلك إعتقاد بالقلب، فلم يصدر منهم بالأعمال والأعضاء الجسمانية، وإن كان معلوماً عند الله تعالى المؤمن وغيره، فأعاد التكليف عليهم في الدنيا ليطابق العلم العمل، وتتم الحجة عليهم ليحيى من حيى عن بينة، ويموت من مات عن بينة))^(١).

فالله سبحانه وتعالى من باب إكمال النعمة على المؤمنين، وإتمام الحجة على المنكرين والمنافقين والكافرين، كلفهم في هذه الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لتكون الحجة تامة وكاملة على المؤمنين والكافرين حتى يميز الخبيث من الطيب.

إلى أن وصلت النبوة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، قام صادعاً بالرسالة، بتوحيد الله تعالى والإيمان بنبوته ﷺ ولا نبي بعده، فلما بلغ نهاية رحيله عن الدنيا، بلغ بولاية ابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ بالولاية والخلافة من بعده يوم عيد غدير خم.

خطبة عيد يوم الغدير

ونورد الحديث بتمامه إكمالاً للبحث، وتبركاً بذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، كما روى الشيخ الطبرسي في الاحتجاج معنعناً عن قيس بن سمعان، عن علقمة بن محمد الحضرمي، عن أبي جعفر محمد ابن علي ﷺ أنه قال: ((حج رسول الله ﷺ من المدينة وقد بلغ جميع الشرايع قومه غير الحج والولاية، فاتاه

(١) خطب آية الله الإمام المصلح والعبء الصالح الميرزا حسن الإحقاقي، قلته بالمعنى.

جبرئيل عليه السلام فقال له: يا محمد إن الله جلَّ اسمه يقرئك السلام ويقول لك: إني لم أقبض نبياً من أنبيائي ولا رسولاً من رسلي إلا بعد إكمال ديني وتأكيد حجتي، وقد بقي عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلغهما قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإني لم أخلِ أرضي من حجة ولن أخليها أبداً، فإن الله جلَّ ثناؤه يأمرك أن تبلغ قومك الحج وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلاً من أهل الحضرة والأطراف والأعراب وتعلمهم من معالم حجهم مثل ما علمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، وتوقفهم من ذلك على مثال الذي أوقفتم عليه من جميع ما بلغتهم من الشرائع.

فنادى منادي رسول الله ﷺ في الناس: ألا إن رسول الله يريد الحج وأن يعلمكم من ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم ويوقفكم من ذاك على ما أوقفكم عليه من غيره، فخرج ﷺ وخرج معه الناس وأصغوا إليه لينظروا ما يصنع فيصنعوا مثله، فحج بهم وبلغ من حج مع رسول الله من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألف الذين أخذ عليهم بيعة هارون فنكثوا واتبعوا العجل والسامري، وكذلك أخذ رسول الله ﷺ البيعة لعلي بالخلافة على عدد أصحاب موسى فنكثوا البيعة واتبعوا العجل والسامري سنة بسنة ومثلاً بمثل، واتصلت التلبية ما بين مكة والمدينة، فلما وقف بالموقف أتاه جبرائيل عليه السلام عن الله عزَّ وجلَّ فقال: يا محمد إن الله عزَّ وجلَّ يقرئك السلام ويقول لك: إنه قد دنى أجلك ومدتك وأنا مستقدمك على ما لا بد منه ولا عنه محيص، فاعهد عهدك وقدم وصيتك واعمد إلى ما عندك من العلم، وميراث علوم الأنبياء من قبلك، والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء، فسلمه إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجتي البالغة على خلقي علي بن أبي طالب عليه السلام، فأقمه للناس علماً وجدد عهده وميثاقه وبيعته، وذكرهم ما أخذت عليهم من بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم، وعهدي الذي عهدت إليهم من ولاية وليي ومولاهم ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي بن أبي طالب عليه السلام، فإني لم أقبض نبياً من الأنبياء إلا من بعد إكمال ديني وحجتي وإتمام نعمتي بولاية أوليائي ومعاداة أعدائي، وذلك كمال توحيددي ودينني

وإتمام نعمتي على خلقي بإتباع وليي وطاعته، وذلك أني لا أترك أرضي بغير ولي ولا قيم ليكون حجة لي على خلقي، فالיום أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً بولاية وليي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، علي عبدي ووصي نبيي والخليفة من بعده، وحجتي البالغة على خلقي، مقرون طاعته بطاعة محمد نبيي ومقرون طاعته مع طاعة محمد بطاعتي، من أطاعه فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، جعلته علماً بيني وبين خلقي، من عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً، ومن أشرك ببعته كان مشركاً، ومن لقيني بولايته دخل الجنة، ومن لقيني بعداوته دخل النار، فأقم يا محمد علماً علماً وخذ عليهم البيعة وجدد عهدي وميثاقي لهم الذي واثقتهم عليه، فإني قابضك إلي ومستقدمك علي.

فخشى رسول الله ﷺ من قومه وأهل النفاق والشقاق أن يتفرقوا ويرجعوا إلى جاهلية، لما عرف من عداوتهم ولما ينطوي عليه أنفسهم لعلي من العداوة والبغضاء، وسأل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس، وانتظر أن يأتيه جبرائيل بالعصمة من الناس عن الله جلّ اسمه، فأخر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف، فاتاه جبرائيل ﷺ في مسجد الخيف فأمره بأن يعهد عهده ويقيم علماً للناس يهتدون به، ولم يأت به بالعصمة من الله جلّ جلاله بالذي أراد حتى بلغ كراع الغميم بين مكة والمدينة، فاتاه جبرائيل وأمره بالذي أتاه فيه من قبل الله ولم يأت به بالعصمة، فقال يا جبرائيل: إني أخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلوا قولي في علي ﷺ [فسأل جبرائيل كما سأل بنزول آية العصمة فأخبره ذلك] فرحل، فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال، أتاه جبرائيل ﷺ على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاز والعصمة من الناس، فقال: يا محمد إن الله عزّ وجلّ يقرئك السلام ويقول لك ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك «في علي» وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس))، وكان أوائلهم قريب من الجحفة، فأمر بأن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ليقم علماً للناس ويبلغهم ما أنزل الله تعالى في علي، وأخبره بأن الله عزّ وجلّ قد عصمه من الناس، فأمر رسول الله عندما جاءته العصمة منادياً ينادي في الناس بالصلاة جامعة ويرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر،

وتنحى عن يمين الطريق إلى جنب مسجد الغدير، أمره بذلك جبرائيل عن الله عز وجل، وكان في الموضع سلمات، فأمر رسول الله ﷺ أن يقيم ما تحتهن وينصب له حجارة كهيئة المنبر ليشرق على الناس، فتراجع الناس واحتبسوا آخرهم في ذلك المكان لا يزالون، فقام رسول الله ﷺ فوق تلك الأحجار ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه فقال: الحمد لله الذي علا في توحده، ودنا في تفرده، وجل في سلطانه، وعظم في أركانه، وأحاط بكل شيء علماً وهو في مكانه، وقهر جميع الخلق بقدرته وبرهانه، مجيداً لم يزل، محموداً لا يزال، باري المسموكات، وداحي المدحوات، وجبار الأرضين والسموات، قدوس سبوح رب الملائكة والروح، متفضل على جميع من برأه، متطول على جميع من أنشأه، يلحظ كل عين والعيون لا تراه، كريم حلیم ذو أناة، قد وسع كل شيء رحمته ومن عليهم بنعمته، لا يعجل بانتقامه ولا يبادر إليهم بما استحقوا من عذابه، قد فهم السرائر وعلم الضمائر، ولم تخف عليه المكنونات، ولا اشتبهت عليه الخفيات، له الإحاطة بكل شيء والغلبة على كل شيء، والقوة في كل شيء، والقدرة على كل شيء، وليس مثله شيء، وهو منشئ الشيء حين لا شيء، دائم قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، جل عن أن تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، لا يلحق أحد وصفه من معاينة، ولا يجد أحد كيف هو من سر وعلانية إلا بما دل عز وجل على نفسه.

وأشهد أنه الله الذي ملأ الدهر قدسه، والذي يغشى الأبد نوره، والذي ينفذ أمره بلا مشاورة مشير ولا معه شريك في تقدير ولا تفاوت في تدبير، صور ما أبدع على غير مثال، وخلق ما خلق بلا معونة من أحد ولا تكلف ولا احتيال، أنشأها فكانت وبرأها فبانت، فهو الله الذي لا إله إلا هو المتقن الصنعة، الحسن الصنعة، العدل الذي لا يجور، والأكرم الذي ترجع إليه الأمور. وأشهد أنه الذي تواضع كل شيء لقدرته، وخضع كل شيء لهيبته، ملك الأملاك، ومفلك الأفلاك، ومسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل يطلبه حثيثاً، قاسم كل جبار عنيد، ومهلك كل شيطان مريد، لم يكن معه ضد ولا ند، أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، إله واحد ورب ماجد يشاء

فيمضي ويريد فيقضي، ويعلم فيحصي، ويميت ويحيي، ويفقر ويغني، ويضحك ويبكي، ويمنع ويعطي، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل لا إله إلا هو العزيز الغفار، مجيب الدعاء، ومجزل العطاء، محصي الأنفاس، ورب الجنة والناس، لا يشكل عليه شيء، ولا يضجره صراخ المستصرخين، ولا يبرمه إلحاح الملحّين، العاصم للصالحين، والموفق للمفلحين، ومولى العالمين، الذي استحق من كل من خلق أن يشكره ويحمده.

أحمده على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وأؤمن به وبملائكته وكتبه ورسله، أسمع أمره وأطيع وأبادر إلى كل ما يرضاه، واستسلم لقضائه رغبة في طاعته وخوفاً من عقوبته، لأنه الله الذي لا يؤمن مكره ولا يخاف جوره، وأقر له على نفسي بالعبودية، وأشهد له بالربوبية، وأؤدي ما أوحى إليّ حذراً من أن لا أفعل فتحل بي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته لا إله إلا هو، لأنه قد أعلمني أنني إن لم أبلغ ما أنزل إليّ فما بلغت رسالته، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحى إليّ: بسم الله الرحمن الرحيم ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك «في عليّ» يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام) وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)).

(معاشر الناس) ما قصرت في تبليغ ما أنزل الله تعالى إليّ، وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: إن جبرائيل عليه السلام هبط إليّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن السلام ربي وهو السلام أن أقوم في هذا المشهد فأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي، الذي محله مني محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، وهو وليكم من بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى عليّ بذلك آية من كتابه ((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) وعلي بن أبي طالب عليه السلام أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عزّ وجلّ في كل حال.

وسألت جبرئيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس لعلمي بقلة

المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الأثمين، وختل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، وكثرة إذا هم لي في غير مرة حتى سموني إذناً وزعموا أنني كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك قرآناً ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ﴾ ﴿علي الذين يزعمون أنه أذن﴾ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ولو شئت أن أسمى بأسمائهم لسميت وأن أومئ إليهم بأعيانهم لأومات، وأن أدل عليهم لدلت، ولكني والله في أمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله مني إلا أن أبلغ ما أنزل إلي، ثم تلى ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿في علي﴾ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢).

فاعلموا معاشر الناس أن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين والأنصار وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر، وعلى الأعجمي والعربي، والحر والمملوك، والصغير والكبير، وعلى الأبيض والأسود، وعلى كل موحد ماضٍ حكمه، جائز قوله، نافذ أمره، ملعون من خالفه، مرحوم من تبعه، مؤمن من صدقه، فقد غفر الله له ولمن سمع منه وأطاع له.

(معاشر الناس) إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد فاسمعوا وأطيعوا وانقادوا لأمر ربكم، فإن الله عزَّ وجلَّ هو مولاكم وإلهكم ثم من دونه محمد ﷺ وليكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليكم وإمامكم بأمر ربكم، ثم الإمامة في ذريتي من ولده إلى يوم تلقون الله ورسوله، لا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، عرفني الحلال والحرام وأنا أفضيت بما علمني ربي من كتابه وحلاله وحرامه إليه.

(معاشر الناس) ما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ، وكل علم علمت فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من علم إلا علمته علياً، وهو الإمام المبين.

(١) سورة التوبة، آية (٦١).

(٢) سورة المائدة، آية (٦٧).

(معاشر الناس) لا تضلوا عنه ولا تنفروا منه ولا تستكبروا [ولا تستنكفوا خ ل] من ولايته، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ويزهق الباطل وينهى عنه، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ثم إنه أول من آمن بالله ورسوله، وهو الذي فدى رسوله بنفسه، وهو الذي كان مع رسول الله ولا أحد يعبد الله مع رسوله من الرجال غيره.

(معاشر الناس) فضلوه فقد فضله الله، واقبلوه فقد نصبه الله.

(معاشر الناس) إنه إمام من الله ولن يتوب الله على أحد أنكر ولايته، ولن يغفر الله له، حتماً على الله أن يفعل ذلك بمن خالف أمره فيه وأن يعذبه عذاباً شديداً نكراً أبد الآباد ودهر الدهور، فاحذروا أن تخالفوه فتصلوا ناراً وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين.

(أيها الناس) بي والله بشر الأولون من النبيين والمرسلين، وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين من أهل السماوات والأرضين، فمن شك في ذلك فهو كافر كفر الجاهلية الأولى، ومن شك في شيء من قولي هذا فقد شك في الكل منه، والشاك في ذلك فله النار.

(معاشر الناس) حباني الله بهذه الفضيلة مناً مني علي، وإحساناً مني إلي، ولا إله إلا هو، له الحمد مني أبد الأبدين، ودهر الدهرين على كل حال.

(معاشر الناس) فضلوا علياً فإنه أفضل الناس بعدي من ذكر وأنثى، بنا أنزل الله الرزق وبقي الخلق، ملعون ملعون مغضوب مغضوب من رد علي قولي هذا ولم يوافق، ألا إن جبرائيل خبرني عن الله تعالى بذلك ويقول: ((من عادى علياً ولم يتوله فعليه لعنتي وغضبي)) فلتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله أن تخالفوه فتزل قدم بعد ثبوتها إن الله خبير بما تعملون.

(معاشر الناس) إنه جنب الله الذي ذكر في كتابه فقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(١).

(معاشر الناس) تدبروا القرآن وافهموا آياته وانظروا إلى محكماته ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبين لكم زواجه ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذ بيده ومصعده إلى - وشائل بعضه - ومعلمكم إن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها علي .

(معاشر الناس) إن علياً والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا على الحوض، هم أمناء الله في خلقه، وحكماؤه في أرضه، ألا وقد أدبت، ألا وقد بلغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وإن الله عز وجل قال وأنا قلت عن الله عز وجل، ألا إنه ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا، ولا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره .

ثم ضرب بيده إلى عضده فرفعه، وكان منذ أول ما صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شال علياً حتى صارت رجله مع ركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

(معاشر الناس) هذا علي أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على أمتي وعلى تفسير كتاب الله عز وجل والداعي إليه والعامل بما يرضاه والمحارب لأعدائه، والموالي على طاعته والناهي عن معصيته، خليفة رسول الله وأمير المؤمنين والإمام الهادي، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بأمر الله، أقول ما يبذل القول لدي بأمر ربي، أقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من أنكره واغضب على من جحد حقه، اللهم إنك أنزلت علي أن الإمامة بعدي لعلي وليك عند تبياني ذلك ونصبي إياه بما أكملت لعبادك من دينهم وأتممت عليهم بنعمتك ورضيت لهم الإسلام ديناً، فقلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) (١)

اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً أني قد بلغت .

(معاشر الناس) إنما أكمل الله عز وجل دينكم بإمامته، فمن لم يأت به وبمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة والعرض على الله عز وجل، فأولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار فيها خالدون، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

(معاشر الناس) هذا علي أنصركم لي وأحقكم بي وأقربكم إلي وأعزكم علي، والله عز وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضى إلا فيه، وما خاطب الله الذين آمنوا إلا بدأ به، ولا نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه، ولا شهد بالجنة في هل أتى على الإنسان إلا له، ولا أنزلها في سواه، ولا مدح بها غيره.

(معاشر الناس) هو ناصر دين الله والمجادل عن رسول الله، وهو التقي النقي الهادي المهدي، نبيكم خير نبي ووصيكم خير وصي وبنوه خير الأوصياء.

(معاشر الناس) ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب علي.

(معاشر الناس) إن إبليس أخرج آدم من الجنة بالحسد، فلا تحسدوه فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم، فإن آدم أهبط إلى الأرض بخطيئة واحدة وهو صفوة الله عز وجل، وكيف بكم وأنتم أنتم ومنكم أعداء الله، ألا إنه لا يبغض علياً إلا شقي ولا يتوالى علياً إلا تقي، ولا يؤمن به إلا مؤمن مخلص، وفي علي والله نزلت سورة العصر ((بسم الله الرحمن الرحيم، والعصر إن الإنسان لفي خسر)) إلى آخرها.

(معاشر الناس) قد استشهدت الله وبلغتكم رسالتي، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(معاشر الناس) اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

(معاشر الناس) آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها.

(معاشر الناس) النور من الله عز وجل في مسلك ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي الذي يأخذ بحق الله وبكل حق هو لنا، لأن الله عز وجل قد جعلنا حجة على المقصرين والمعاندين والمخالفين والخائنين والآثمين والظالمين من جميع العالمين.

(معاشر الناس) أنذركم أني رسول الله قد خلت من قبلي الرسل أفان مت أو قتلت انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين، ألا وإن علياً هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه.

(معاشر الناس) لا تمنوا على الله إسلامكم فيسخط عليكم ويصيبكم بعذاب من عنده إنه لبالمرصاد .

(معاشر الناس) إنه سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون .

(معاشر الناس) إن الله وأنا بريثان منهم .

(معاشر الناس) إنهم وأنصارهم وأتباعهم وأشياعهم في الدرك الأسفل من النار، ولبس مثوى المتكبرين، ألا إنهم أصحاب الصحيفة فلينظر أحدكم في صحيفته .

قال: فذهب على الناس إلا شردمة منهم أمر الصحيفة .

(معاشر الناس) إني أدعها إمامة ووراثة في عقبي إلى يوم القيامة، وقد بلغت ما أمرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب وعلى كل أحد ممن شهد أو لم يشهد، ولد أو لم يولد، فليبلغ الحاضر الغائب، والوالد الولد إلى يوم القيامة، وسيجعلونها ملكاً واغتصاباً، ألا لعن الله الغاصبين والمغتصبين، وعندها سنفرغ لكم أيها الثقلان فيرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران .

(معاشر الناس) إن الله عزَّ وجلَّ لم يكن يذركم على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب .

(معاشر الناس) إنه ما من قرية إلا والله مهلكها بتكذيبها، وكذلك يهلك القرى وهي ظالمة كما ذكر الله تعالى، وهذا علي إمامكم ووليكم وهو مواعيد الله والله يصدق ما وعده .

(معاشر الناس) قد ضل قبلكم أكثر الأولين، والله لقد أهلك الأولين وهو مهلك الآخرين، قال الله تعالى: ((ألم نهلك الأولين، ثم نتبعهم الآخرين، كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين)).

(معاشر الناس) إن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته، فعلم الأمر والنهي من ربه عزَّ وجلَّ، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوه تهتدوا، وانتهوا لنهيته ترشدوا، وصيروا إلى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله .

(معاشر الناس) أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم بإتباعه ثم علي من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون، ثم قرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) إلى آخرها وقال: في نزلت وفيهم نزلت ولهم عمت وإياهم خصت، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ألا إن حزب الله هم الغالبون، ألا إن أعداء علي هم أهل الشقاق والنفاق والحادون وهم العادون وإخوان الشياطين الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ألا إن أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه فقال عز وجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢) إلى آخر الآية، ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٣) ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله عز وجل فقال ((الذين يدخلون الجنة آمنين تتلقاهم الملائكة بالتسليم إن طبتم فادخلوها خالدين، ألا إن أولياءهم الذين قال لهم الله عز وجل: يدخلون الجنة بغير حساب، ألا إن أعداءهم يصلون سعيراً، ألا إن أعداءهم الذين يسمعون لجهنم شهيقاً وهي تفور ولها زفير، ألا إن أعداءهم الذين قال الله فيهم: ((كلما دخلت أمة لعنت أختها)) الآية، ألا إن أعداءهم الذين قال الله عز وجل: ((كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جئنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال مبين)) ألا إن أولياءهم الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير.

(معاشر الناس) شتان ما بين السعير والجنة، عدونا من ذمه الله ولعنه وولينا من مدحه الله وأحبه.

(معاشر الناس) ألا وإني منذر وعلي هاد.

(معاشر الناس) إني نبي وعلي وصي، ألا إن خاتم الأئمة منا القائم المهدي،

(١) سورة الفاتحة آية (١).

(٢) سورة المجادلة آية (٢٢).

(٣) سورة الأنعام آية (٨٢).

ألا إنه الظاهر على الدين، ألا إنه المنتقم من الظالمين، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها، ألا إنه قاتل كل قبيلة من أهل الشرك، ألا إنه مدرك بكل ثار لأولياء الله، ألا إنه الناصر لدين الله، ألا إنه الغراف في بحر عميق، ألا إنه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل بجهله، ألا إنه خيرة الله ومختاره، ألا إنه وارث كل علم والمحيط به، ألا إنه المخبر عن ربه عزَّ وجلَّ والمنبه بأمر إيمانه، ألا إنه الرشيد السديد، ألا إنه المفوض إليه، ألا إنه قد بشر من سلف بين يديه، ألا إنه الباقي حجة ولا حجة بعده ولا حق إلا معه ولا نور إلا عنده، ألا إنه لا غالب له ولا منصور عليه، ألا وإنه ولي الله في أرضه وحكمه في خلقه وأمينه في سره وعلانيته.

(معاشر الناس) قد بينت لكم وأفهمتكم، وهذا علي يفهمكم بعدي، ألا وإني عند انقضاء خطبتي أدعوكم إلى مصافقتي على بيعته والإقرار به ثم مصافقته بعدي، ألا وإني قد بايعت الله وعلي قد بايعني وأنا آخذكم بالبيعة له عن الله عزَّ وجلَّ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية.

(معاشر الناس) إن الحج والصفاء والمروة والعمرة من شعائر الله ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية.

(معاشر الناس) حجوا البيت، فما ورده أهل بيت إلا استغنوا، ولا تخلفوا عنه إلا افتقروا.

(معاشر الناس) ما وقف بالموقف مؤمن إلا غفر الله له ما سلف من ذنبه إلى وقته ذلك فإذا انقضت حجته استؤنف عمله.

(معاشر الناس) الحجاج معانون ونفقاتهم مخلفة، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(معاشر الناس) حجوا البيت بكمال الدين والتفقه، ولا تنصرفوا عن المشاهد إلا بتوبة وإقلاع.

(معاشر الناس) أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما أمركم الله عزَّ وجلَّ، لئن طال عليكم الأمد فقصرتم أو نسيتم فعلي وليكم ومبين لكم الذي نصبه الله عزَّ وجلَّ بعدي، ومن خلفه الله مني وأنا منه يخبركم بما تسألون عنه ويبين لكم ما لا تعلمون،

ألا إن الحلال والحرام أكثر من أن أحصيهما وأعرفهما، فأمر بالحلال وأنهى عن الحرام في مقام واحد، فأمرت أن آخذ البيعة منكم والصفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عزَّ وجلَّ في علي أمير المؤمنين والأئمة من بعده الذين هم مني ومنه، أئمة قائمة منهم المهدي إلى يوم القيامة الذي يقضي بالحق.

(معاشر الناس) وكل حلال دللتكم عليه أو حرام نهيتكم عنه فإنني لم أرجع عن ذلك ولم أبدل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه وتواصوا به ولا تبدلوه ولا تغيروه، ألا وإنني أجدد القول: ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر، ألا وإن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تنتهوا إلى قولي وتبلغوه من لم يحضر وتأمره بقبوله وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من الله عزَّ وجلَّ ومني، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا مع إمام معصوم.

(معاشر الناس) القرآن يعرفكم أن الأئمة من بعده ولده، وعرفتكم أنه مني وأنا منه، حيث يقول الله في كتابه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقلت: ((لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما)).

(معاشر الناس) التقوى التقوى، احذروا الساعة كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ اذكروا الممات والحساب والموازين والمحاسبة بين يدي رب العالمين والثواب والعقاب، فمن جاء بالحسنة أثيب عليها، ومن جاء بالسيئة فليس له في الجنان نصيب.

(معاشر الناس) أنكم أكثر من أن تصافقوني بكف واحدة، وقد أمرني الله عزَّ وجلَّ أن آخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقدت لعلي من إمرة المؤمنين ومن جاء بعده من الأئمة مني ومنه، على ما أعلمتكم أن ذريتي من صلبه، فقولوا بأجمعكم ((إنا سامعون مطيعون راضون منقادون لما بلغت عن ربنا وربك في أمر علي وأمر ولده من صلبه من الأئمة، نبايعك على ذلك بقلوبنا وأنفسنا وألسنتنا وأيدينا على ذلك نحى ونموت ونبعث ولا نغير ولا نبذل ولا نشك ولا نرتاب ولا نرجع عن عهد ولا ننقض الميثاق نطيع الله ونطيعك وعلياً أمير المؤمنين وولده الأئمة الذين ذكرتهم من ذريتك من صلبه بعد الحسن والحسين الذين قد عرفتم مكانهما مني ومحلها عندي ومنزلتهما من ربي

عزَّ وجلَّ)) فقد أدبت ذلك إليكم وأنهما سيذا شباب أهل الجنة، وأنهما الإمامان بعد أبيهما علي وأنا أبوهما قبله، وقولوا ((أطعنا الله بذلك وإياك وعلياً والحسن والحسين والأئمة الذين ذكرت عهداً وميثاقاً ماخوذاً لأمير المؤمنين من قلوبنا وأنفسنا وألسنتنا ومصافقة أيدينا من أدركهما بيده وأقر بهما بلسانه ولا نبتغي بذلك بدلاً ولا نرى من أنفسنا عنه حولاً أبداً، أشهدنا الله وكفى بالله شهيداً وأنت علينا به شهيد، وكل من أطاع ممن ظهر واستتر وملائكة الله وجنوده وعباده والله أكبر من كل شهيد)).

(معاشر الناس) ما تقولون فإن الله يعلم كل صوت وخافية كل نفس، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن بايع فإنما يبايع الله يد الله فوق أيديهم.

(معاشر الناس) فاتقوا الله وبايعوا علياً أمير المؤمنين والحسن والحسين والأئمة كلمة طيبة باقية، يهلك الله من غدر ويرحم الله من وفى، ومن ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الآية.

(معاشر الناس) قولوا الذي قلت لكم وسلموا على علي بإمرة المؤمنين، وقولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وقولوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الآية.

(معاشر الناس) إن فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام عند الله عزَّ وجلَّ، وقد أنزلها في القرآن أكثر من أن أحصيتها في مقام واحد، فمن أنبأكم بها وعرفها فصدقوه.

(معاشر الناس) من يطع الله ورسوله وعلياً والأئمة الذين ذكرتهم فقد فاز فوزاً عظيماً.

(معاشر الناس) السابقون السابقون إلى مبايعته وموالاته والتسليم عليه بإمرة المؤمنين، أولئك هم الفائزون في جنات النعيم.

(معاشر الناس) قولوا ما يرضى الله به عنكم من القول، ((فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فلن يضر الله شيئاً)) اللهم اغفر للمؤمنين واغضب على الكافرين والحمد لله رب العالمين.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا،

وتداكوا على رسول الله وعلى علي عليه السلام فصافقوا بأيديهم، فكان أول من صافق رسول الله صلى الله عليه وآله الأول والثاني والثالث والرابع والخامس وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس على طبقاتهم وقدر منازلهم، إلى أن صليت المغرب والعتمة في وقت واحد، ووصلوا البيعة والمصافحة ثلاثاً ورسول الله يقول كلما بايع قوم: الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين. وصارت المصافحة سنة ورسمًا، وربما يستعملها من ليس له حق فيها، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الخطبة رأى الناس رجلاً جميلاً بها طيب الريح فقال: تالله ما رأيت محمداً كالיום قط، ما أشد ما يؤكد لابن عمه وأنه يعقد عقداً لا يحله إلا كافر بالله العظيم ورسوله، ويل طويل لمن حل عقده.

قال: والتفت إليه عمر بن الخطاب حين سمع كلامه، فأعجبته هيئته ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: أما سمعت ما قال هذا الرجل، قال كذا وكذا؟، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا عمر أتدري من ذاك الرجل؟، قال: لا. قال: ذلك الروح الأمين جبرائيل، فإياك أن تحله، فإنك إن فعلت فالله ورسوله وملائكته والمؤمنين منك براء))^(١).

تدبر في هذه الخطبة الشريفة، فإنها بعينها خطبها النبي صلى الله عليه وآله في عوالم الذر الغيبية، وهو القائل عن الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾^(٢).

ففصل لهم صلى الله عليه وآله هناك كما فصل لهم هنا، بل هناك أعظم وأقوى، حيث إن العقول كاملة، وكذا النفوس لا يعترها شك ولا شبهة، فالذي أقر هناك بالتوحيد والرسالة والولاية أقر هنا، والمنكر هناك أنكر هنا، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣).

(١) الاحتجاج للشيخ الطبرسي ١ / ٦٨ - ٧٣، البحار للشيخ المجلسي ٣٧ / ٢١٣.

(٢) سورة الأعراف آية (١٧٢).

(٣) سورة يونس، آية (٧٤).

لذا الآن في هذا الوقت سنة إحدى وثلاثين بعد أربع مائة والألف هجرية، لو تقول لكافر آمن بالله ورسوله ليجحد مهما تعطيه من خير الدنيا والآخرة وكذا العكس للمؤمن لا يكفر مهما أعطى.

معجزة رواية حديث الغدير

فلم يروَ حديث عن معصوم نبي أو وصي نبي من لدن آدم إلى يوم القيامة كحديث الغدير، حيث رواه أكثر من مئة ألف من المسلمين مباشرة عن رسول الله ﷺ، وهذا نادرة من نوادر رواية الحديث، بل معجز.

وثمرة التكليف في عالم الدنيا هو ظهور ما أضمرت نياتهم في عالم الذر، واستنطاق طبائعهم من الخير والشر، وذلك كحال المنافقين إذا كانوا عنده قالوا نحن معك يا رسول الله، وإذا غابوا قالوا إنما نحن مستهزئون، لأن حضرة رسول الله وهيبته تمنعهم من الاجترار والتكذيب ظاهراً، وإظهار ما في قلوبهم من الكفر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزَءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١).

لأنهم لو يظهرون الكفر بعد الإيمان ظاهراً يقتلون، لذا بعد وفاة النبي ﷺ، وصبر أهل البيت ﷺ لبقاء الإسلام ولمصالح كثيرة، أظهروا عداوتهم وكفرهم بقتلهم سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين، وآل الحسين ﷺ، لذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لما استلم الخلافة ظاهراً، حارب القاسطين والمارقين والناكثين، وقد أجمع المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم على قول النبي ﷺ: ((علي مع الحق والحق معه لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض)) (٢).

وقول النبي ﷺ: حتى يردا عليَّ الحوض، دلالة على أنه على الحق في حياة النبي وبعد موته ﷺ إلى يوم القيامة هو مع الحق، والذي يحارب الحق يكون مع

(١) سورة البقرة، آية (١٤ - ١٥).

(٢) الأماشي للشيخ محمد الصدوق ١٥٠.

الباطل، والنبي ﷺ يقول لأmir المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((إن حربك حربي، وسلمك سلمي))^(١).

فالمحارب لأmir المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حياة النبي أو بعد حياته، هو محارب رسول الله ﷺ، وحرب رسول الله ﷺ هو حرب الله تعالى.

لذا أسند الله تعالى حرب رسوله إلى حربه تعالى بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢).

فالله جلّ جلاله لا يحارب ولا يضارب ولا يقاتل، لأن ليس كمثله شيء، فنسب حرب رسوله ووصيه علي بن أبي طالب عليهما وآلهما السلام إلى حربه.

فإذا قامت القيامة ونصبت الموازين وعرف المؤمن من الكافر، بعض الكافرين المنافقين ينكرون ما عملوا ويحلفون أنهم ما عملوا شيئاً من الظلم، كما روى من تفسير القمي رضوان الله عليه قال: ((إذا جمع الله عزّ وجلّ الخلق يوم القيامة، دفع إلى كل إنسان كتابه، فينظرون فيه، فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقولون يا رب ملائكتك يشهدون لك، ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾^(٣) فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم، وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون))^(٤) فشهادة الجوارح ليس لكل الخلائق يوم القيامة بل للمعاندين والمنافقين فقط.

لذا روي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام فقال ((يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥).

وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة

(١) الأماشي للشيخ محمد الصدوق ١٥٦.

(٢) سورة المائدة آية (٣٣).

(٣) سورة المجادلة آية (١٨).

(٤) تفسير الصافي للفيض الكاشاني ٤ / ٢٥٨.

(٥) سورة النور، آية (٢٤).

العذاب، فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(١) ((٢)).

لذا في عالم الدنيا غالباً المجرمون إذا حضروا عند القضاء ينكرون جرائمهم وشرهم، فكذلك في الآخر، خلاف المؤمن إذا أذنب ذنباً على أحد من المؤمنين يعترف بذنبه حتى لو ضر نفسه.

(١) سورة الإسراء آية (٧١).

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ٢ / ٣٢، تفسير الصافي للفيض الكاشاني ٤ / ٢٥٨.

الفصل الرابع عشر

[إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه]

اعلم أن كل ممكن فقير ومحتاج، بحيث لا يملك لنفسه شيئاً أبداً، ولا يتمكن من فعل أمر، ولا يصدر عنه باستقلال، ليس له إلا السؤال والطلب، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١) ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

✽ كل الخلق محتاج إلى الغني

تقدم الكلام في باب التوحيد أن كل ممكن مخلوق محتاج إلى الغني المطلق، الذي لا يحتاج إلى أحد والكل يحتاج إليه.

وهذا الممكن المخلوق فقير صرف في كل شيء من وجوده إلى رزقه إلى حياته إلى موته فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً.

وكما أنه محتاج فقير صرف في تكوينه، كذلك هو محتاج وفقير صرف في أفعاله وأعماله من الخير والشر، فليس له استقلال في أحداث أمر من طاعة أو معصية بدون أمر الله جلّ جلاله، والعقل والنقل والفطرة شاهدة على ذلك، وقد اشبع هذا البحث في فصل التوحيد فراجع.

(١) سورة فاطر آية (١٥).

(٢) سورة الشورى آية (٩).

ولذا قال عزّ من قائل ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

والدعاء على قسمين: دعاء بلسان الاستعداد، ودعاء بلسان المقال، بأي واحد منهما إذا دعا الله سبحانه استجاب له، وكلما طلبه منه أفاض عليه من كرمه وجوده، كما قال ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(٢) وهذه الدعوة دعوة القابلية، والله سبحانه يعطي بنحو السؤال بلسان القابلية، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

❁ قسما الدعاء

لما كان الممكن فقير ومحتاج لا يمكن له الاستغناء عن المدد أنا ما ولا لحظة، كحال الأشعة بالنسبة للسراج، فلو يقطع السراج مدده عن الأشعة لحظة واحدة أو أقل لفنت الأشعة أصلاً، كذلك الخلق لو يقطع الحق عزّ وجلّ مدده عنهم لفنوا جميعاً، فالخلق وكذا الأشعة دائماً يطلبان المدد من الخالق ومن السراج، والطلب من الداني إلى العالي يسمى دعاء، فالخلائق دائماً يدعون خالقهم المدد أنا أنا ولحظة لحظة على الدوام، والدعاء ينقسم إلى قسمين هما:

دعاء بلسان الاستعداد والقابلية

الدعاء الأول هو دعاء بلسان استعداد الخلائق وقابليتهم من الله سبحانه المدد، حيث إن وجودهم وقابليتهم متوقفة على المدد من الله تعالى، فهي دائماً تكويناً تدعو من الله عزّ وجلّ البقاء والوجود، سواء الوجود إلى الخير، أو الوجود للشر.

فدعاء القابلية والاستعداد واضح من الأشعة في طلبها من السراج، فالأشعة دائماً طالبة المدد من السراج، فالأشعة تكويناً دائماً داعية من السراج الممدد،

(١) سورة غافر آية (٦٠).

(٢) سورة النمل آية (٦٢).

والسراج دائماً يمدهم، كذلك الأمر بالنسبة للخلائق فهي دائماً في دعاء، والخالق دائماً يجيب اضطرارهم ويمدهم، لأنهم مضطرون للمدد لو ينقطع المدد عنهم لحظة لفنوا جميعاً، لذا قال عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(١).

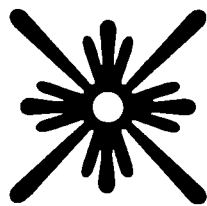
فكل الخلائق مضطرون لإيصال المدد إليهم، وعلى سبيل المثال التقريبي كحال الأجهزة الكهربائية للطاقة الكهربائية، فلو تقطع الطاقة الكهربائية عن الجهاز المدد لحظة واحدة لتعطل الجهاز عن العمل.

الدعاء بلسان المقال

وهذا الدعاء التشريعي، وهو قول المخلوق لخالقه ربي ارزقني من فضلك الواسع، واحفظني وادفع السوء عني، ووفقني للخير، وجنبي الشر آمين آمين.

فإن الداعي بالمقال إذا صدق في دعواه، وأيقن بربه، وآمن بما جاء به، وصدق رسوله وأوصيائه عليهم السلام الله يجيبه في الحال، وهذا قوله سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).

فالفعل المضارع في الآية الشريفة ﴿أَسْتَجِبْ﴾ مجزم بالطلب، وهو الأمر في الآية ﴿أَدْعُونِي﴾، وذلك يدل على حتمية استجابة الدعاء من الله الكريم سبحانه لعبده الفقير.



(١) سورة النمل آية (٦٢).

(٢) سورة غافر آية (٦٠).

فالله سبحانه خلق جميع أفاعيل الخلق والعبيد بطلبهم وسؤالهم، ونحن أثبتنا سابقاً أن نسبة الخلق إلى جميع المفعولات على حد سواء، والترجيح بلا مرجح بحسب مقتضي ذات الشيء السبب لوجوده والباعث له من الحكيم قبيح، فالله سبحانه خالق كل شيء من الخير والشر، كما قال تعالى ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) وقال أيضاً ﴿هُوَ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٢) قال تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) فهو سبحانه يخلق كل شيء بمقتضى الحكمة والنظم الطبيعي، ويضعه في موضعه، فيجعل الأعوج أعوجاً، والعدل المستقيم عدلاً مستقيماً، فلو جعل الأعوج مستقيماً، لما كان على الصراط المستقيم (هذا المثل) عند الغيبي أيضاً معلوم*.

✽ الخير والشر بطلب العبد

تقدم فيما سبق أن الله عزَّ وجلَّ كما أنه خلق الخلائق، خلق أيضاً أفعالهم من الخير والشر بطلبهم وسؤالهم لذلك، ولو فعل خلاف ذلك بأن أعطى الخير لطالب الشر والعكس، لكان جلَّ جلاله غير حكيم وهذا خلف، وذكر سابقاً أيضاً أن نسبة مدد الخالق للخلق على حد سواء، ليس بين الله تعالى وبين خلقه من قرابة إلا بالعمل من خير أو شر، فنسبة أمره على الكافر والمؤمن واحدة، يعني لو يطلب الكافر الإيمان لأعطاه، وكذا العكس لو يطلب المؤمن الكفر والمعصية لأعطاه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾^(٤) فلو يعطى الإيمان للكافر بلا مرجح، أي بلا طلب ورغبة من الكافر للزم محذوران وهما:

(١) سورة فاطر آية (٤٠).

(٢) سورة الأنعام آية (١٠٢).

(٣) سورة النحل آية (٧٦).

(٤) سورة إبراهيم آية (٣٤).

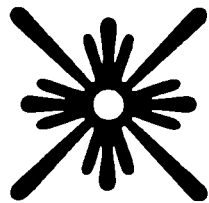
المحذور الأول

السفه والعياذ بالله تعالى وعدم الحكمة، والترجيح بلا مرجح عقلائي، كأن يعطي رجل تاجر كلباً مليار ريال مثلاً، لعد العقلاء عمله سفاهة.

المحذور الثاني

الظلم والعياذ بالله تعالى، لأنه أعطاه غير ما أراد، وهذا الأمر يجري للمؤمن أيضاً لو أعطاه الكفر والعياذ بالله بلا مرجح وطلب ورغبة لذلك.

فكما أنه عزَّ وجلَّ خلق الخير بطلب ورغبة من المؤمن، كذلك خلق الشر من السرقة والقتل الحرام والزنا وكل ظلم بطلب من العاصي أو الكافر ورغبة منه، قال سبحانه: ﴿هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾^(١) فالخير والشر هما شيئان داخلان في هذه الآية المباركة، فالله سبحانه يخلق المدد المناسب لطلب المخلوق، ويضعه في موضعه من الطاعة أو المعصية، فيخلق الأعوج من المنافقين أعوجاً منافقاً، ويخلق العدل المستقيم من المؤمنين على صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) يعني كما أنه خلقكم خلق أعمالكم من الخير والشر.



(١) سورة الأنعام، آية (١٠٢).

(٢) سورة الصافات آية (٩٦).

فالنفس مستمدة دائماً من الروح، والروح مستمدة من العقل ❀ مثلاً الكاتب لا بد له أن يكتب الجيم أعوجاً، والألف مستقيماً، فلو كتب الجيم أيضاً مستقيماً لكان منه غلطاً، ويصدقه تأويل قوله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾^(١) يعني أن كل من يريد الله أن يشرح صدره للإسلام، يجعل قلبه نورانياً حتى يطمئن بالإيمان، وانشرح الصدر مقدم على اطمئنان القلب، إذ الصدر وعاء له ومن أراد أن يضله يجعل صدره حرجاً ضيقاً، حتى لا يرى ولا يفهم شيئاً ❀❀.

❀ لا بد لكل شيء من سبب

هنا استشهاد لما ذكر من قبل من أن الله جلّ جلاله، خلق المؤمن مؤمناً والكافر كافراً، إنما ذلك بطلبهما، فلو خالف للزم العبث والجهل والظلم والعياذ بالله تعالى .
وقوله: ((فالنفس مستمدة دائماً من الروح، والروح مستمدة من العقل)) أراد بهذه الفقرة أن هذا مترتب على هذا، أي لا يمكن للنفس أن تستمد إلا عن طريق الروح، والروح لا يمكن لها أن تستمد إلا عن طريق العقل، والعقل يستمد من الفعل، والفعل يمدّه الله تعالى بنفسه، فمن الحكمة أن يكون بين المستمد والكسر والمستمد منه بالفتح من مناسبة ومشابهة، وإلا حدثت الطفرة الباطلة وهو وجود شيء بلا سبب، كنزول المطر بلا سحاب، وإن كان هذا ممكن مقدور عليه، ولكن من الحكمة أن يكون الشيء بسبب، لأن عالم الخلق عالم أسباب ومسببات، فلو يمد الله تعالى النفس مباشرة من العقل لكان ظلماً للنفس، لأنه لا تتحمل التلقي مباشرة من العقل إلا بواسطة الروح، وذلك مثال محطات الكهرباء الضخمة التي تولد مئات

الآلاف من الفولتات إلى مصباح تحمله ثلاث فولت فإنه ظلم للمصباح لأنه ينفجر رأساً، وكذلك لو يعطي لطالب الإيمان الكفر أو العكس لكان ظالماً تعالى ربي عن ذلك، لأنه أعطي ما لا يتحملة، وهذا الأمر واضح للمؤمن والكافر في الدنيا إذا جبرتهما على خلاف اعتقادهما يعدونك ظالماً وجابراً لهما.

❁❁ كتابة الجيم عوجاء والألف مستقيمة

هنا يذكر مثلاً على خلق الكافر مختوم السمع والبصر وعلى بصره غشاوة، وخلق المؤمن منشرح الصدر سميعاً للموعظة، بصيراً للطاعة، مثال كتابة الجيم والألف، فإن كتابة الجيم لا بد أن تكون معوجة، وإلا لم تكن جيماً، وكذا لا بد للألف أن تكون مستقيمة وإلا لم تكن ألفاً، وكتابة الجيم معوجة بطلبها، فلو كتبت مستقيمة لخولف تكوينها من كونها جيماً، وظلمت لأنها كتبت على خلاف ما طلبت وكونت، وكذا الألف لو كتبت معوجة لخولف تكوينها، لأن تكوينها مستقيم، والاعوجاج يخالف مطلبها، ويظلمها حقها، وكل من الجيم والألف كتبا بطلبهما مع العلم أن الكاتب نسبته إلى كتابة الجيم والألف سواء، فليس بين الكاتب والجيم عداوة ومخاصمة، ولا بينه وبين الألف قرابة وصلة، بل الكاتب أعطى كلاً من الجيم والألف على طلبهما ودعائهما، واستدل المؤلف السيد أعلى الله مقامه بالآية الكريمة: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾^(١).

فالذي يطلب ويدعو أن يكون مؤمناً، الله عز وجل يشرح صدره للإيمان ويحبيه للطاعة ويبغضه للمعصية، والذي يطلب ويدعو أن يكون كافراً منافقاً والعياذ بالله تعالى، الله عز وجل يضيق صدره لقبول الطاعة، حتى قال عمرو بن ود يوم الخندق لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إن نقل الجبال أهون عليه من إعلان الشهادتين والعياذ بالله تعالى، فيختم الله تعالى على قلبه وسمعه وبصره عن رؤية الحق بطلبهم

الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٤٩

وعنادهم، فحكى الله حالهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾^(١) فلو خلقهم خلاف ذلك لكان ظلماً والعباد بالله تعالى.

(١) سورة البقرة آية (٦ - ٧).

بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون، فالإيمان والكفر والطاعة والمعصية خلقها الله كلها لكن بطلب العبد وسؤاله، إذ العبد لا يسبق مشيئة الله، والحق سبحانه لا يكون مغلوباً حتى لا يقع في ملكه شيء بغير إرادته، كما الإمام الرضا روي فداه ((إن الله عز وجل لم يطع بإكراه، ولم يعص بغلبة، ولم يمهل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدروهم عليه))^(١)، وقال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٢) فالعبد فقير ومحتاج لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، بل ليس له وجود إلا بمدد جديد من الله سبحانه وإلا لفنى وبطل وهلك واضمحل.*

❁ الإيمان والكفر مخلوقان لله تعالى

تقدم الكلام سابقاً على أن الله جل جلاله يخلق المؤمن مؤمناً منشرح الصدر، منوراً بالطاعة والمعرفة والتوفيق، عكس الكافر المنافق فإنه يخلقه جاحداً ضيق الصدر عن المعرفة والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٣) فالكافرون عكس المؤمنين في ذكر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤) فاشمئزاز القلب للكافر، ووجل القلب للمؤمن هما مخلوقان لله تعالى، لكن بطلب من العبد نفسه،

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٦١، الإختصاص للشيخ المفيد ١٩٨، الإحتجاج للشيخ الطبرسي ٢ / ١٩٨، البحار للشيخ المجلسي ١٦ / ٥.

(٢) سورة العنكبوت آية (٤).

(٣) سورة الزمر، آية (٤٥).

(٤) سورة الأنفال، آية (٢).

الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٥١

فاشمئزاز القلب هو عبارة عن الطبع على القلب والسمع والبصر كما قال سبحانه .
﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(١) .

فالباء في قوله تعالى (بكفرهم) للسببية أي بسبب كفرهم طبع الله على حواسهم
فالكفار والمنافقون والجاحدون للحق لهم قلوب وأسماع وأبصار لكن لا يستفيدون
بها ، وذلك بسبب كفرهم وعنادهم مع علمهم بالحق ، ولكن العصبية والكفر تمنعهم
عن الحقيقة ، لذا قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا
يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٢) .

فكما أن الطاعة من فعل الصلاة والصيام والحج والزكاة وصلة الرحم وأعمال
البر الأخرى مخلوقة ، كذلك المعصية من شرب الخمر والزنا واللواط والسرقه والقتل
بالظلم ، وغيرها من أعمال الشر أيضاً مخلوقة لله جلّ جلاله .

فلو فرض والعياذ بالله تعالى أن المعصية غير مخلوقة لزم من ذلك انعزال الله عزّ
وجلّ عن ملكه ، وسبق إرادة العبد على إرادة الحق سبحانه ، حيث تكون إرادة الرب
متخلفة ضعيفة ، وإرادة العبد سابقة لإرادة الرب وقوية وهذا باطل عقلاً ونقلاً ، قال
تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣) .

أي يظن العصاة وهم الذين يعملون السيئات ، أن يسبقونا في خلق المعصية وتكون
إرادة العبد سابقة على إرادة الرب سبحانه ، ساء ما يحكمون بهذا الحكم الخاطي .

لذا قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا أرواحنا لتراب نعليهما الفداء : ((إن
الله عزّ وجلّ لم يطع بإكراه ، ولم يعص بغلبة ، ولم يمهل العباد في ملكه ، وهو المالك
لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه))^(٤) .

(١) سورة النساء ، آية (١٥٥) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٧٩) .

(٣) سورة العنكبوت ، آية (٤) .

(٤) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٦١ ، الإختصاص للشيخ المفيد ١٩٨ ، الإحتجاج للشيخ الطبرسي ٢

١٩٨ / البحار للشيخ المجلسي ١٦ / ٥ .

شرح حديث الرضا عليه السلام

قوله عليه السلام ((لم يطع بأكراه)).

أي إن الطاعة باختيار العبد ولكن بمدد وقدر من الله تعالى ، فللعبد القدرة على المخالفة والمعصية ولكنه اختار الطاعة على المعصية ، فلم يكره الله سبحانه العبد على الطاعة بل أطاع باختياره .

قوله : عليه السلام ((ولم يعص بغلبة)).

أي إن العاصي حين يعصي لا يخرج عن قدرة الله ومدده ، بل العبد العاصي يعصي الله تعالى باختياره ومدد من الله تعالى ، فلا تكون معصية العبد والعياذ بالله باستقلال العبد بدون مدد وقدر الله تعالى ، ويكون الرب مغلوباً والعياذ بالله تعالى ، بل العبد العاصي حينما يسرق يسرق بمدد وقدر من الله تعالى ولكن باختيار العبد ، يعني الذي خلق فعل السرقة من كسر القفل وأخذ الأموال والهرب هو الله عز وجل باختيار السارق .

فالمعصية من العاصي لا تكون بالاستقلال من العبد وبالغلبة على أمر الله تعالى ، وتمرداً على قدر ومدد الله تعالى حتى يكون مغلوباً والعياذ بالله والعبد غالباً .

وقوله عليه السلام : ((ولم يهمل العباد في ملكه)).

يعني الله تعالى منذ خلق الخلق إلى أن تقوم الساعة إلى ما شاء الله تعالى لم يستغن الخلق عن قدر ومدد الله أقل من لحظة ولا أقل من لمحة ولا أقل أقل من ذلك ، بل الخلق دائماً في احتياج واضطرار لطلب المدد والقدر ، والخالق عز وجل دائماً في إمداد وإقذار المخلوقات ، وذلك مثل حال السراج والأشعة ، فالأشعة دائماً طالبة المدد ، والسراج دائماً مفيضاً المدد لهم ، حيث لو يقطع السراج المدد أقل من لحظة واحدة لبطلت الأشعة وفنت بالكلية ، فالجليل تعالى لما خلق المكلفين لم يتركهم ويهملهم إلى أنفسهم ، أي لم يهمل ويترك المؤمن حينما يصلي إلى نفسه بدون قدر الله تعالى له ، وكذا الكافر حينما يعبد الصنم إلى نفسه بدون قدر الله تعالى له ،

الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٥٣

فالمؤمن والكافر كلاهما يفعلان بقدر ومدد الله لهما باختيارهما، وإلا يستلزم التفويض الباطل للعبد، واستقلاله عن قدر ومدد الحق سبحانه.

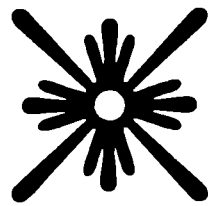
قوله ﷺ: ((وهو المالك لما ملكهم)).

معناه أن كل ما عند العباد من النعم التي لا تعد ولا تحصى، من السمع والبصر والقدرة والحياة والعقل والنفس والروح والوجود والرزق وكل شيء يملكه العبد، من مال أو عقار أو رقية من العبيد والإماء، أو من مركب ودابة أو غيرها كل هذا الملك هو ملك الله عزَّ وجلَّ، ملكهم إياه وأعطاه لهم وسخره لمصالحهم.

قوله ﷺ: ((والقادر على ما أقدروهم عليه)).

أي كل عمل يقوم به العبد، من عمل جسماني أو مثالي أو نفسي أو روحي أو عقلي أو فؤادي، أو تصور أو تخيل أو حركة أو سكون أو غير ذلك، من الأعمال الغيبية أو الظاهرية هو عزَّ وجلَّ الذي أمدهم وأقدروهم عليه من خير وشر.

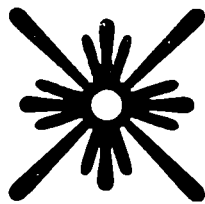
فالعبد وما يملك وما يقدر كله بالله عزَّ وجلَّ ولكن باختيار العبد، فلولا مدد وقدر الله تعالى لفني واضمححل العبد أصلاً كما مثل بالسراج وأشعته.



وقد عرفت سابقاً من تمثيل السراج، أن قوام الأظلة والأشعة كلا بيد قدرة السراج، وليس لهما بقاء بلا مدد من السراج، فيمد النور بما قبله من الضياء والسنا، والظل بما قبله من الظلمة والكدورة، وكذلك فعل الحق بالنسبة إلى عبده، فيمد الكافر منهم بالكفر والتخليّة والخذلان، والمؤمن بالطاعة والتوفيق والإيمان*.

• مثال السراج في الإمداد

مدد وقدّر الله تعالى لخلقه في إيمانهم بالإيمان والتوفيق، وكافرهم بالخذلان والضيق وعدم التوفيق، مثل السراج وأشعته، فالأشعة والأظلة والظلمة كلها بمدد وقدّر السراج، وليس لها حال غير حال الاحتياج إلى المدد، فيمد السراج الأشعة بالنور، لأن الأشعة قبلت النور والسنا (والسنا مقصور ضوء البرق)^(١) وأيضاً يمد السراج الظل بما قبله بالظلمة والكدورة، فكذلك الحق سبحانه يمد المؤمن بالإيمان وانسراح الصدر والتوفيق، ويمد الكافر بالكفر والعياذ بالله بضيق الصدر والخذلان والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة لطلبه لذلك ﴿وَمَارِئِكَ يَظَلُّمٌ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢)، فيمد الرب جلّ جلاله الخلق كل على طلبه من الطاعة أو المعصية.



(١) الصحاح للجوهري ٦ / ٧٣٨.

(٢) سورة فصلت، آية (٤٦).

فخالق الخير والشر، والإيمان والكفر، والمعصية والطاعة هو الله سبحانه، ولكنه أولى بالطاعة من العبد، وهو أولى بالمعصية منه سبحانه، ومن هذه الجهة الطاعة في المثال كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء والمعصية كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، كما أخبر الله بقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾^(١) ومثال الطاعة والمعصية في السراج الأضلة والأظلة، فالشعاع شجرة طيبة أصلها ثابت ومحكم لاستناده إلى شعلة السراج، ومتابعته وموافقته لها، والأظلة شجرة خبيثة مجتثة لعدم استنادها إلى السراج، ومتابعته وموافقته له، وإن كانت مستندة إليه في الصدور ومستمدة منه في كل آن، فالسراج في المقام مثال للفاعل والموجد والمؤثر، والأضلة مثال للطاعة والأعمال والأفعال الحسنة، والأظلة مثال للمعاصي والأفعال القبيحة، والجسم الكثيف من قبيل الجدار وأمثاله، الذي هو سبب ظهور النور وانعكاس الظل مثال للشخص المطيع والعاصي ❀.

❀ أصلية الحسنة واجتثاث السيئة

تقدم الكلام على أن الطاعة والإيمان، والكفر والمعصية كلها مخلوقة بالله عز وجل، فالمؤمن حينما يعمل الطاعة لا يفعلها بالاستقلال عن أمر الله تعالى، وكذا الكافر حينما يعمل السيئة لا يفعلها بالاستقلال عن أمر الله، بل الخالق تعالى كما أنه خلقهم خلق أعمالهم.

ويبقى هنا أمر مهم وهو أن الطاعة والحسنة هي من الله تعالى، والمعصية والسيئة هي من العبد، يعني أن الله تعالى هو أولى بالطاعة من العبد وإن عملها العبد، لأن أصل الطاعة منه جلّ جلاله والمعصية ليست من الله تعالى وإن قامت به عزّ وجلّ، بل هي من العبد.

قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) (١).

أي كما خلقكم خلق أعمالكم من الخير والشر.

فالطاعة مثل الشجرة الطيبة والحسنة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، والمعصية مثل الكلمة الخبيثة السيئة، بالشجرة الخبيثة التي ليس لها أصل في الأرض بل مجتثة (وجثه: قلعها، واجثته اقتلعه) (٢) يعني شجرة مقلوعة من الأرض، فليس لها قرار تثبت فيه وعنه، ومثال الكلمة الطيبة والخبيثة في السراج مثال الأشعة والأظلة، ففي السراج أربعة أمور هي:

الأمر الأول

السراج وهو المؤثر والفاعل والموجد للأشعة والأظلة والظلمة على السواء، أي نسبة خلقه للأشعة والأظلة والظلمة واحدة لا خلاف فيها كما تقدم.

الأمر الثاني

الأشعة وهي المطيعة للسراج في إظهار النور والحرارة حتى حكى السراج في النورانية، فالنورانية في الأشعة مثال للطاعة والحسنة، لأنها لها أصل وهو السراج، فهي تؤتي أكلها في النورانية والمدد في كل حين.

الأمر الثالث

الأظلة والظلمة وهي العاصية للسراج بمخالفتها له في النورانية، وبعدها عنه

(١) سورة الصافات آية (٩٦).

(٢) الصحاح للجوهري ١ / ٧٧٧.

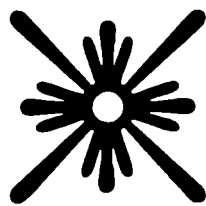
الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٥٧

حتى خالفت حقيقة فطرة وتشريع السراج من النور إلى الظلمة والكدورة، وهي مثال للمعصية والسيئة، فهي ليس لها أصل من السراج بل مجتثة ومقتلعة، لأن السراج ليس فيه ظلمة وظل، والظلمة حدثت من المخالفة والبعد عنه.

الأمر الرابع

وهو المكلف مثل الجدار الكثيف المقابل لنور الشمس، فإن النور الواقع على الجدار ليس من الجدار بل من الشمس، فكذلك الطاعة الصادرة من العبد هي من الله تعالى لكن بالعبد لأنه قبل هذا النور.

والمكلف العاصي مثل ظهر الجدار المدبر عن نور الشمس، فإن الظلمة التي على الجدار ليست من الشمس، لأن نور الشمس ليس فيها ظلمة، بل حدثت الظلمة من نفس ادبار الجدار عن الشمس، فلو قابل الشمس لأشرق بها، فالظلمة الواقعة على الجدار المدبر هي من نفس الجدار لكن بالشمس، أي خلق الظل والظلمة الموجودين في ظهر وخلف الجدار إنما ذلك بالشمس، لا من نفس الجدار، ولكن ظهر وخلف الجدار طلب الظل والظلمة بإدباره.



فالسراج بلسان الحال يقول أيها الجدار أنا أولى بالنور منك، وأحق به منك، إذ هو بدؤه مني وعوده إلي، وإن كان لك مدخل في ظهور هذه العطية، وانبساط هذه الرحمة، وقبول هذه النعمة وأنت أولى بالظل مني، إذ هو عملك وسؤالك طلبت مني الظلمة فلم أمنعك منها، وإلا لجاز أن أمنع منك النور أيضاً، ولزم أن اجبرك على قبول النور، وليس هذا شأن الحكيم، وإن كان لي مدخل في إيجاد وإحداثه، إذ ليس لك شأن وأمر واستقلال بوجه، نعم خلقتك بسؤالك إياه مني.

فقل حينئذ إن الظلمة والنور أحدثهما السراج، وهو المؤثر في هذا العالم ليس غيره، إذ لو أخلي يده لما بقى منهما باق، أما ترى أنه لو ارتفع السراج من المجلس لما بقى من الظل والنور أثر أبداً، لكنه يجب عليك أن تقول إن الظل والظلمة ليسا من السراج، وإن قاما بالسراج والشعاع، والنور من السراج، ومن هنا: نفهم نفي قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(١) واثبات قوله تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ لَأَقْوَمُ وَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٢) ونجمع بينهما وبين قوله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾^(٣) ولاحظ في هذه المقامات كلها، قوله تعالى في الحديث القدسي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال عن الله عز وجل (يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أدبت إلي فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سمياً بصيراً قوياً، ما أصابك حسنة

(١) سورة النساء آية (٧٨).

(٢) سورة النساء آية (٧٨).

(٣) سورة النساء آية (٧٩).

فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني ﴿...﴾^(١).

﴿ الله تعالى أولى بالحسنة منك ﴾

هنا السيد كاظم الرشتي والشيخ أحمد الأحسائي ضربا الجدار المقابل للنور مثال للمكلف المطيع.

و ظهر الجدار المدبر مثل للعاصي للسراج، فنور السراج حينما يقع على الجدار نجد الوجه المقابل للسراج مشرق بالنور ومنور، وظهر الجدار الخلفي مظلم لإعراضه وأدباره عن السراج.

فالوجه من الجدار المواجه للسراج هو مثال المطيع، أي أنه لما قابل النور استنار به، والنور كما ذكر هي الطاعة والحسنة وأصلها من السراج، والظلمة في الجهة الخلفية للجدار هي المعصية والسيئة التي ليس لها أصل من السراج، إذ السراج ليس فيه ظلمة ولا ظل بل حدثا من المخالفة والإدبار ولكن بالسراج.

فكان السراج يقول بلسان الحال للجدار، أيها الجدار إن النور وهي الحسنة والطاعة الواقع عليك ليس منك بل هو مني وإلي، وإنما أنت كنت سبباً في ظهوره لما كنت مواجهاً لي، فلولا لي لما ظهر فيك نور أصلاً، فالنور أنا أولى به منك لأنه مني ويرجع إليّ.

ويقول السراج للظلمة والظل الذي في الجهة الخلفية للجدار، إن هذه الظلمة والظل ليس مني، لأنه ليس عندي ظل ولا ظلمة، فالظل هو منك وأنت سببه، لإدبارك عني ومخالفتك للنور حدثت الظلمة والظل، فأنت أولى بالظلمة مني، فبإدبارك عني أحدثت الظل، ولكن هذا الظل وإن لم يكن مني إلا أنه ما تحقق ولا

تكون إلا بي، لأنه لو لاي لما كان نور ولا ظل، وذلك واضح إذا أطفئ السراج لا ترى نوراً ولا ظلاً أصلاً.

فكان السراج يقول بلسان الحال أيها الجدار إن النور الذي عندك أنا أولى به منك، وهو من خلقي خلقتك فيك بسبب مواجهتك إليّ، وإن الظل الذي خلفك ليس مني لأنه لا يوجد في ظل، ولكن أحدثته فيك بطلبك، لأنني لو أعطيتك النور وأنت معرض عني كنت ظالماً لك، وغير حكيم لأنك لا تريد النور وأعطيتك إياه فيكون جبراً، وفعلي في نهاية الحكمة والإتقان.

لذا الله عزَّ وجلَّ نفى قول المشركين من مكة حينما ينسبون الحسنه وهي ((المطر والخصب إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا أصابهم بلاء أو مصيبة ينسبونه إلى النبي ﷺ يطيروا به))^(١).

يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(٢).

فرد الله سبحانه وتعالى جوابهم الباطل من كون الحسنه من الله والسيئه من النبي ﷺ بقوله جلَّ جلاله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٣). أي إن خالق الحسنه وهي المطر والرشاء والخصب والطاعة والخير، وكذا السيئه والبلاء والمعصية والشر هو الله جلَّ جلاله، لا تدخل لأحد من الموجودات في الخلق، فالله عزَّ وجلَّ هو خالق كل شيء.

ثم تحدث الباري سبحانه عن سبب خلق الحسنه أي الطاعة، وسبب خلق السيئه أي المعصية بقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾^(٤). أي كل ما عند المكلفين وما سوى الله تعالى من حسنة وطاعة وخير وتوفيق فهو

(١) تفسير الصافي لملا محسن الفيض الكاشاني ١ / ٣٧٢.

(٢) سورة النساء آية (٧٨).

(٣) سورة النساء آية (٧٨).

(٤) سورة النساء آية (٧٩).

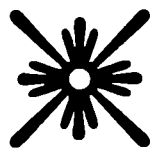
الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٦١

من الله تعالى ، كحال الجدار الذي أشرقت عليه الشمس ، فكل ما عند الجدار من النور من الشمس ، ولكن لما كان الجدار مواجهاً للشمس صار مظهرأ لنور الشمس . وكل ما عند خلف الجدار المدبر من الظل والظلمة فهو من الجدار ، لأنه لا يوجد في الشمس وحقيقتها ظل وظلمة أصلاً ، وهذا الظل الذي في خلف الجدار حدث وخلق بسبب إعراضه عن الشمس .

فالنور الموجود في الجدار الشمس أولى به من الجدار ، والظل الذي خلف الجدار ، الجدار أولى به من الشمس ، ومع ذلك أن النور والظل كليهما بالشمس ، بدليل إذا غابت الشمس فلا نور ولا ظل ولاظلمة أصلاً كما ذكر من قبل . فالمكلف مثل الجدار وما يقع عليه من الخير والحسنة هو بمثابة قبول للتكليف ، وما يصدر منه من الظل والظلمة فهو بمثابة الإنكار للتكليف ، لأنه أنكر النور وابتدع الظل .

فالمكلف في الحقيقة مظهر للطاعة والمعصية على حسب إقباله وإدباره ، من أمر الله تعالى على حسب طلبه واختياره ، فكل عمل يقوم به المكلف من خير وشر فهو بأمر الله وخلقه ، إن كان خيراً فمن الله وإن كان شراً فمن نفس العبد ، كما في الحديث القدسي الموجود في المتن بقوله تعالى : ((وبقوتي أديت الفرائض ، وبنعمتي قويت على معصيتي))^(١) .

كما في دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام بقوله : ((بك عرفتك وأنت دللتني عليك ، ودعوتني إليك ، ولولا أنت لم أدر ما أنت))^(٢) فالحسنات والطاعات والخير كله من الله تعالى وهو أولى بها من العبد ، والسيئات والمعصية والشر كلها من العبد بإدباره لكن بالله سبحانه .



(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٣٨ ، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ٥ .

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ٢٦١ .

فظهر لك من المثال السابق بيان هذه المرتب، وأن الأمر بين الأمرين، والمنزلة بين المنزلتين من مكنونات العلم، ومخزونات السر، لم يطلع عليه إلا أئمة الهدى سلام الله عليهم، وبعض من خواص شيعتهم، ولذا أغمضنا عن ذكره، وأعرضنا عن التعرض لبيانه، واكتفينا بالرمز والإشارة عن التفصيل، حتى ينتفع به العالم ولا يشك ولا يرتاب الجاهل، ويصل المتوسط في عالم القشر والظاهر إلى مطلوبه ومقصوده، إذ الكلام على الحقيقة منهي عنه ونعم ما قيل:

ومستخبر عن سر ليلي أجتبه
يقولون خبرنا فأنت أمينها
بعمياء من ليلي بلا تعيين
وما أن إن خبرتهم بأمين

وفي سائر الرسائل استوفينا هذا المطلب بحسب الوسع والطاقة، بقدر ما يمكن إظهاره بزمانه*.

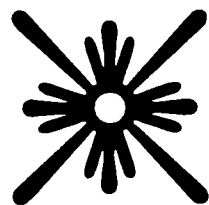
* القدر هو الأمر بين الأمرين

إن قدر الله تعالى في العباد من فعل الخير والشر، الصادر من العباد بقدر الله تعالى هو من مخزونات العلوم التي لم يطلع عليها إلا المعصومون عليهم السلام، ومن علموه، بمعنى أن العبد هو الفاعل بفعله لكن بقدر وأمر الله تعالى، لا جبر للعبد على الفعل، ولا تفويض بدون أمر وقدر الله تعالى، كما قال مولانا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين))^(١).

فمعرفة حقيقة القدر على جهة الحقيقة، يحتاج إلى تصفية الباطن وخلوص النية، والرياضة الشرعية من تهذيب النفس، والعمل بالمستحبات وترك المكروهات، لذا كررنا العبارة مراراً وتكراراً ليتضح المعنى ويرتفع اللبس.

الفصل الرابع عشر [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه] ٤٦٣

والواجب هي المعرفة الإجمالية للقدر، أن الله عزَّ وجلَّ لم يجبر الخلائق على فعل الطاعة والمعصية، ولا فوض إليهم الأمر وانعزل عن ملكه، بمعنى أنهم لا يعملون بالإستقلال بدون مدد وقدر الله تعالى، هذا كافي في الإعتقاد.



تتمة

إن وبخت الجدار بهذا الظل الذي هو لازمه وعذبه بأنواع العذاب، فليس له أن يقول إن هذا الظل ليس مني، بل السراج ألزمه لي، ولست أنا صاحب التّقصير في ذلك، لأنه إن قال فيه وأنكر ذلك الأمر كذبه كل الموجودات، بل ضوعف عذابه، إذ من البديهي أن الظل ليس من السراج، وهو نور بحت صرف، فكيف يوجد الظل ويصدر منه الظل؟ ولا يظلم أحداً كما هو شأن الحكيم القيوم، وإن مدحت الجدار باعتبار النور الذي فيه، وأحسنت إليه كمال الإحسان، فالحري منه أن يقول إنني لست قابلاً للمدح والإحسان، بل المدح والحمد للسراج، الذي أحسن إليّ من فضله وكرمه هذه العطية، لما سألت منه هذا الإحسان، وإن لم يكن لكل سؤال جواب، ولم يجب الإجابة لكل الأسئلة، ولكن فضل السراج وإحسانه وكرمه ألزمه بهذه العطية والمرحمة والتّفضل، ومن هذا البيان تعرف معنى قول رسول الله ﷺ (إنما هي أعمالكم ترد إليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(١). التفت يا حبيبي فقد أعطيتك مفتاحاً يفتح به ألف مشكل مقفل، إن فهمت فاشكر

(١) الحكايات للشيخ المفيد ٨٥، البحار للشيخ المجلسي ١٠ / ٤٥٤.

الله على ذلك، وإلا فاسأل الله التوفيق لمعرفة ما هنالك ❁.

❁ ملحق بمثال الجدار والسراج

هنا يريد أن يقول إذا نظرت بعين الحقيقة ونفس الأمر، إلى الظل الذي خلف الجدار، وعاتبته ووبخته بأنواع العذاب على سبب تخلفه عن النور وعصيانه له، فليس لخلف الجدار أن يقول إن هذا الظل ليس مني بل هذا من السراج هو الذي الزمنى إياه، وليس التقصير مني بل من السراج، إن قال ذلك كذبه جميع الموجودات، لأن الكل يعلم أن السراج ليس فيه ظل ولا ظلمة، وأن هذا الظل والظلمة حصل من إدبار الجدار عنه، لكون السراج نور لا ظل فيه ابداً، حيث لو أقبل هذا الجدار إلى الشمس لأشرق.

وتارة تمدح الجدار المقابل للسراج على نورانيته، فالحري من الجدار أن يقول إن هذا النور ليس مني ولا فضل لي فيه، بل الفضل والشكر والحمد للسراج لأنه السبب الأعظم في حصولي على هذا النور، ولولاه لما كان عندي لا قليل ولا كثير من النور.

قال النبي ﷺ: ((فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))^(١).

ولنعم ما روي عن مولانا ومقتدانا سيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين السجاد عليه السلام في دعائه بقوله: ((إلهي وعزتك وجلالك وعظمتك، لو إنني منذ بدعت فطرتي من أول الدهر، عبدتك دوام خلود ربوبيتك، بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد، بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين، لكنت مقصراً في بلوغ أداء شكر خفي نعمة من نعمك علي، ولو إنني كربت معادن حديد الدنيا بأنيابي، وحرثت أراضيتها بأشفار عيني، وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات والأرضين دماً

(١) الحكايات للشيخ المفيد ٨٥، البحار للشيخ المجلسي ١٠ / ٤٥٤.

وصديداً، لكان ذلك مني قليلاً في كثير ما يجب من حقدك عليّ، ولو أنك يا إلهي عذبتني بعد ذلك بعذاب الخلائق أجمعين، وعظمت للنار خلقي وجسمي، وملأت طبقات جهنم وأطباقها مني حتى لا يكون في النار معذب غيري، ولا لجهنم حطب سواي، لكان ذلك بعدلك عليّ قليلاً في كثير ما أستوجه من عقوبتك»^(١).

تدبر كلمات الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، تجد حقارة الإنسان وغروره بأعماله، ونسيانه فضل الله عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

نسأل من الله تعالى كما قال مولانا الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه: ((اللهم ارزقنا توفيق الطاعة، وبعد المعصية، وصدق النية، وعرفان الحرمة، وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة، وأملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة، وطهر بطوننا من الحرام والشبهة))^(٣) إلى آخر الدعاء آمين آمين.

ملحق

قول المؤلف: ((وإن لم يكن لكل سؤال جواب، ولم يجب الإجابة لكل الأسئلة)) أي وإن لم يكن أعطاني بعض الدعاء، من حوائجي الكثيرة، أو دعوته عشر دعوات ولم يجبني إلا على واحدة، لكن فضله العظيم، وإحسانه الكريم قد غرقني من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وأعظمها توفيقه لنا بولاية محمد وآل محمد عليهم السلام نسأله التوفيق والشكر آمين رب العالمين.

(١) مفتاح الفلاح للشيخ البهائي العاملي ٢٤٦، الصحيفة السجادية ٥٣٥.

(٢) سورة النور آية (٢١).

(٣) المصباح للشيخ الكفعمي ٢٨٠.

الفصل الخامس عشر [كل شيء بمشيئة وإرادة]

لما عرفت أنه ليس لشيء قوام ولا وجود في كل المراتب إلا بالله سبحانه، فاعلم أنه ليس لشيء أيضاً تحقق ووجود في مكان من الممكنة، وزمان من الأزمنة، وظرف من الظروف الذهنية والخارجية إلا بمشيئة الله وإرادته، فلو وقع أمر بغير مشيئة الله وإرادته سبحانه، لزم أن يكون ذلك الشخص مستقلاً في فعله، فيكون إلهاً من دون الله، وهذا كفر وزندقة، لا ينبغي من العاقل أن يتفوه به، وإن كان يظهر من فحوى كلام بعض من العلماء، من حيث لا يشعرون، كما قال الإمام (ليكفرون من حيث لا يشعرون) ❀.

❀ لا يكون شيء إلا بأمر الله تعالى

هنا يريد أن يقول لا يكون شيء من الأشياء ما سوى الحق سبحانه إلا بأمر الله تعالى أي بمشيئته، فكل ما سوى الخالق محدث مخلوق، وكل مخلوق محدث موجود بأمر الله ومشيئته تعالى، فكما هو مخلوق، مخلوق أيضاً مكانه وزمانه وجهته ورتبته وكمه وكيفه، ورزقه وحياته وموته ووجوده، بل كل شيء مرتبط به فهو مخلوق.

بحيث لا يكون لأحد من الخلق له جهة استقلال عن مشيئة الله عز وجل والعباد بالله تعالى، لأنه لو كان لأحد المخلوقات جهة استقلال في جهة من جهات

احتياجه، لزم التفويض الباطل، أي يلزم للمخلوق بجهة من الجهات الاستقلال بنفسه، وعدم احتياجه إلى القديم الأزلي سبحانه، وإذا حصل للمحدث المخلوق جهة من جهات الاستقلال من الله تعالى يلزم استقلاله مطلقاً، لأن استقلاله في جهة دون أخرى يلزم الترجيح بلا مرجح، أي ما المرجح الذي جعل مثلاً جهة الكم مستقلاً دون جهة الكيف مثلاً.

يعني إذا فرضنا أن الممكن يستطيع أن يسد احتياج كنهه أو رزقه أو حياته أو غير ذلك جهة من جهاته يلزم سريان غناه لجميع أحواله، لأنه كنهه محدث وهذا باطل بالبداهة، فأقلها الموت فهو لا يستطيع دفعه عنه، ولا جلب منفعة له، من أن المحدث كنهه فقر واحتياج، أما كون جهة كنهه غنية مثلاً دون غيرها من الجهات المحدثه فهذا ترجيح بلا مرجح، وتحكم بلا دليل.

وعلى بداهة معرفة هذا الأمر أن كل شيء مخلوق، وكل مخلوق فقير محتاج إلى الغني المطلق، إلا أن قسماً كبيراً من فلاسفة المسلمين إلى الآن يعتقدون بأن الماهيات ليست مخلوقة بل هي قديمة أزلية في الأزل والعباد بالله تعالى شأنه.

كما قال بعضهم: ((إن الماهيات غير مجعولة ولا متأثرة لا بالجعل البسيط، ولا بالجعل المؤلف، كما ستطلع عليه))^(١).

فعلى بداهة معرفة خلق كل المخلوقات أجمع، والماهية من الخلق، ترى هذا الفاضل الفيلسوف الكبير يقول: إن الماهيات غير مجعولة أي غير مخلوقة، وفصل هذا المقام في الأبواب السابقة في باب التوحيد والعدل فراجع.

فقول المؤلف عن الإمام: **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** ((ليكفرون من حيث لا يشعرون)) لم أقف على مصدرها ولكن هناك رواية مشابهة لها، كما في المحاسن والكافي عنه، عن أبيه، عن عبد الله بن يحيى، عن عبد الله بن مسكان، عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** عن قول الله: **﴿أَتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**^(٢).

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة ٢ / ١٠١.

(٢) سورة التوبة آية (٣١).

فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون^(١).

لذا كثير من الآراء اليونانية وبعض المخالفين لمذهب أهل العصمة عليهم السلام، أخذ منهم بعض علمائنا كل شيء، أخذ تسليم بدون عرض ما أخذ على الثقلين الذين أوصى بهما النبي صلى الله عليه وآله، نسأل الله العلي القدير العصمة والتسديد وحسن العاقبة بحق فاطمة وأبيها وبعلمها وبنيتها آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

(١) المحاسن لأحمد بن محمد ابرقي ١ / ٢٤٦، الكافي للشيخ الكليني ١ / ٥٣.

ثم اعلم أن لكل أحد خمس مراتب مرتبة بعضها على بعض :

الأول : مرتبة وجوده، وأول تعيينه، من مرتبة العلم إلى مرتبة العين، وتسمى في الأحاديث بالكون والذكر الأول للشيء* .

* كل شيء له خمس مراتب

نحن حينما نرى الكرسي من الخشب لأول وهلة، نراه وجد كرسيًا هكذا من دون ملاحظة مراحل صنعه، من الشجر إلى قطع الشجر إلى ألواح، إلى بيع الألواح إلى أصحاب النجارة، إلى تقطيع الصفائح الخشبية إلى عدة قطع، كل قطعة تصلح لكرسي وأخرى لباب وأخرى لسرير، وأخرى لنافاذة وأخرى لعصى عكاز، وأخرى لطاولة إلى آخر مصنوعات الخشب الكثيرة، وأيضاً للكرسي أنواع وأذواق وهندسات كثيرة من كرسي لآخر.

فنحن حينما نصنع كرسيًا مثلاً له خمس مراتب، وهذه المراتب، العقل يعتبرها ويقرها، وأيضاً الشرع ذكرها لأنها تطورات طبيعية لكل شيء، حتى الكافر يقر أن الطفل لا بد له أن يمر بمراحل، من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى عظام إلى كسو العظام لحماً، إلى إنشاء إنسان كامل الأعضاء والجوارح، فهذه التطورات أمور طبيعية في الكون، وكذا النبات من بذرة إلى شجرة مثمرة إلى بقية الموجودات الأخرى لا بد لها من مراحل وأطوار، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾^(١) وهذه الأطوار خمسة هي:

المرتبة الأولى للشيء وجوده

أول مرتبة من مراتب الشيء هو وجوده، بالوجود العام الغير محدد بأي شيء من الأشياء ويسمى:

(١) سورة نوح آية (١٤).

الهيولي

وهو ((لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية))^(١) فهذه المادة الأولى أو الهيولي على اصطلاح حكماء اليونان، هي المرتبة الأولى للشيء ولكنها مسبقة بالعلم، أي علمك بالشيء قبل صنع المادة لها وهذا أمر واضح، وتسمى هذه الرتبة في روايات المعصومين عليهم السلام بالكون أو الذكر الأول للشيء، قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن: ((يا يونس تعلم ما المشيئة؟، قلت: لا، قال هي الذكر الأول))^(٢).

يعني أول ذكر للشيء وهو وجوده العام القابل لكل شيء، قابل للكروسي والطاولة والباب والشباك والسرير وغيرها من معمولات الخشب مثلاً.

ولكن هذا الذكر على أنه أول ذكر إلا أنه مسبق بالعلم، أي العلم قبل هذا الذكر، إذ علم الإنسان بالشيء قبل صنعه، لذا قال مولانا الإمام موسى بن جعفر الكاظم أرواحنا له الفداء لما سئل عن كيفية علم الله جلّ جلاله، قال عليه السلام: ((وبعلمه كانت المشيئة))^(٣).

فالعلم متقدم على مادة الشيء العامة، فكل أحد حينما يصنع شيئاً، فإن علمه سابق على صنعه، فقول المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه ((من مرتبة العلم إلى مرتبة العين)) المراد من العين هي مرتبة الوجود والتحقق، لا العين التي هي المرتبة الثانية للشيء كما يأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

(١) كتاب التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني ٢٧٩.

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ١٤٩.

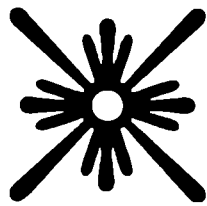
(٣) التوحيد لـ بيخ محمد الصدوق ٣٣٤، الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٤٨-١٤٩، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١٠٢.

الثاني : مرتبة الماهية، التي تسمى بمرتبة العين، وهي كون تعيين تلك الحصة من الوجود بتعين خاص وتشخصها بتشخص مخصوص، وتسمى في لسان الأحاديث بالعزيمة على ما يشاء، إذ بالماهية تتشخص ويتعين الوجود، ويكون قابلاً للإشارة، ومحلاً للعبادة، بل شيئته بها ❁.

❁ المرتبة الثانية للشيء عينه

هذه المرتبة هي التي تعين وتشخص المادة الأولى أو الهيولي، من مرحلة إبهام إلى مرحلة تفصيل، وهي مرتبة الظهور والبروز للغير، وذلك مثل قطعة الخشب العامة الخاصة، إذا صورت بصورة كرسي، تعينت قطعة الخشب بالكرسي وعُرف عن غيره من مصنوعات الخشب، من السرير والنافذة والطاولة إلى آخرها، وهذه المرتبة تسمى عند الفلاسفة بالماهية، أي ماهية الشيء وحقيقته التي تميزه عن غيره، وتسمى هذه المرتبة عند المعصومين عليه السلام بالإرادة والعزيمة على ما يشاء كما قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن: ((فتعلم ما الإرادة؟ قلت: لا، قال: هي العزيمة على ما يشاء))^(١).

ففي هذه المرتبة تميز علي عن حسن وحسين، والحجر عن النبات إلى آخره، ويكون قابلاً للإشارة، ومحلاً للعبادة.



(١) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ١٤٩.

الثالث: مرتبة الحدود والهيئات، ومقادير الأعمال والأفعال والأقوال، والآجال والأرزاق، والسعادة والشقاوة، والأجل والإذن والكتاب، وهذه المرتبة متأخرة عن المرتبة الثانية ومرتبته عليها، إذ الشيء إذا لم يتم ولم يتحقق لا تكون له هذه اللوازم، وتسمى هذه بلوازم الماهية، وفي لسان الأخبار تسمى بالهندسة الإيجابية*.

✽ المرتبة الثالثة للشيء هندسته

المرتبة الثالثة هي من لوازم المرتبتين الأولى والثانية، إذ الشيء إذا تكون من المادة والماهية أي الصورة، كان بالطبع له كم وكيف وجهة ورتبة ومكان وزمان وأجل، إلى كم يبقى ومتى ينتهي، وله سعادة أو شقاوة، إذ كل شيء لا يخلو من السعادة أو الشقاوة حتى الكرسي له سعادة إذا أحسن استخدامه ولم يكسر، وإذا كسر كانت شقاوته في ذلك، وله كتاب وهو الكتالوج مواد الصنع مما يصلحه ويفسده، فهذه المرتبة متأخرة عن المرتبتين الأوليتين، إذ الشيء إذا لم تتم مادته وصورته، لا يمكن إجراء لوازمه من الكم والكيف.

وهذا الأمر واضح في الكرسي إذا بعد ما يفكر في صنع كرسي، لا بد لهذا الكرسي من طول وعرض معينين لا طويل مفرط ولا قصير مفرط، حيث يكون طوله وعرضه يحسن الجلوس عليه، وله ديكور معين وهيئة خاصة، وإذا صنع من الحديد أو الخشب الأوك مثلاً يكون أطول عمراً مما يصنع من البلاستيك وهكذا، وتسمى هذه المرتبة في لسان المعصومين عليه السلام بالقدر، أي التقدير وبالهندسة كما قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن ((فتعلم ما القدر؟

قلت: لا، قال: هي الهندسة ووضع الحدود عن البقاء والفناء))^(١) فالهندسة والحدود للشيء بمثابة الكتالوج للشيء.

(١) نفس المصدر السابق.

الرَّابِع : مرتبة إتمام ما قدر، وترتيبه على الهيئة المقررة، ويعبر عنها في الآيات والأخبار بمرتبة التركيب، كما قال سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ (١).

فالخلق إشارة إلى المرتبة الأولى، والتسوية إلى الثانية، والتعديل بأي صورة تعلق بها مشيئه إلى الثالثة، والتركيب إلى الرابعة، وهي متأخرة عن المرتبة الثالثة ❁.

❁ المرتبة الرابعة للشيء القضاء

إذا تحقق الشيء من المادة والصورة، وفرغ من لوازمها من الكم والكيف والمكان والزمان والجهة والرتبة، والهندسة في طوله وعرضه وأجله وقرر إخراجه إلى الوجود، تأتي المرحلة والمرتبة الرابعة وهي مرتبة القضاء، كما قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الرواية المتقدمة ليونس ((ثم قال: والقضاء هو الإبرام وإقامة العين)) (٢).

وسميت هذه المرتبة بالقضاء، لأنه قضى للشيء بهذه الحدود والهندسات المعينة، وهذه المرتبة بمثابة انتهاء خريطة بناية البيت مثلاً، فلم يبق إلا التنفيذ فقط، فهذه المرتبة تسمى بالقضاء.

الآية المباركة جمعت المراتب الأربع

وفي هذه الآية المباركة جميع هذه المراتب الأربع، بقوله تعالى: ((الذي خلقك ركبك)).

(١) سورة الانفطار آية (٧ - ٨).

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ١٤٩.

((الذي خلقك)) إشارة إلى المادة.

((فسواك)) إشارة إلى الصورة.

((فعدلك)) إشارة إلى الهندسة.

((في أي صورة ما شاء ركبك)) إشارة إلى القضاء، ففي هذه الآية الشريفة

جمعت المراتب الأربع.

الخامس: مرتبة ظهور وبروز الشيء مشروح العلل مبين الأسباب ❁، ولما كان العبد في كل مرتبة من المراتب محتاجاً وفقيراً، ولا يستغني عن المدد في كل فرد فرد من المراتب الخمس، من الله سبحانه حتى يوجد متعلق فعله في مقام الإيجاد، تعلق فعله سبحانه بإيجاد كل مرتبة من هذه المراتب، وفعله سبحانه بالذات واحد، لكن تعدد باعتبار تعلقه بالمفعولات، وسمي باعتبار تعلقه بإيجاد كل مرتبة من المراتب باسم خاص، وإلا فهو في الحقيقة شيء واحد.

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

ولذا نقول كما هو المستفاد والمستنبط من الأخبار، إن مراتب الفعل باعتبار تعلقه بالمفعولات خمس، وإلا فهو في نفس الأمر واحد لا تكثر فيه، لأنه صدر من الواحد من جميع الجهات بلا تكثر، وأثبتنا في سائر مصنفاتنا أن الواحد من جهة الوحدة ما يصدر منه إلا الواحد، وتفصيله بآتم بيان وأوفى تبيان، في ذلك الكتاب الحاصل ❁❁.

❁ المرتبة الخامسة للشيء الإمضاء

إنه إذا تم الشيء من وجوده وصورته وهندسته وقضى وحتم على هندسته بالكم المعين، وبالكيف المناسب والأجل المقرر، حينذاك تأتي آخر مرتبة وهي مرتبة الإمضاء، وهي عبارة عن تحقق الشيء في الخارج مشروح العلل ومبين الأسباب، فانت حينما ركبت الكرسي في عقلك وهندسته وأمضيته حينذاك تشرع في إخراجه للغير، فإذا خرج للغير وتم صار في مرحلة الإمضاء.

❁❁ تعدد الفعل حسب تعلقه

تقدم الكلام على أن المخلوق محتاج في كل شيء في وجوده ورزقه وحياته وموته

وكل شيء، حيث إنه فقير صرف لا غناء فيه مطلقاً، وذكر من قبل أن كل شيء له خمس مراتب لظهوره للعيان، من وجوده إلى صورته إلى هندسته إلى قضاؤه إلى إمضائه.

ولا شك أن كل مرتبة غير الآخر، فكل مرتبة تحتاج إلى ما يناسبها ويشاكلها وإلا لانهدت السماوات والأرضون، فلو كتبت الجيم مستقيمة، والألف عوجاء لاختل النظام، وضاع التكليف، ودب الظلم في العالم، وإن كانت الحركة واحدة لا خلاف فيها، فالحركة التي تكتب الجيم نفس الحركة التي تكتب الألف، ولكن العدل والصواب أن تكتب الجيم عوجاء، والألف مستقيمة.

فالكاتب والفاعل حينما يكتب الجيم لابد أن يعوج الحركة، وفي الألف يجب عليه أن يستقيم في الحركة وإن كان الفعل واحد وهي حركة، فوجود الشيء غير عينه وصورته، وصورته غير هندسته وهكذا، هذا غير ذلك.

فبالتالي وجب أن يكون لكل مرتبة من مراتب الشيء فعل يناسبها، مثل حركة اليد في كتابة الجيم والألف والباء والثاء والقاف والفاء والكاف إلى آخرها، ففعل الله تعالى واحد لا تكثر فيه، لأنه صدر من الواحد الأحد، لأن الأثر يشابه صفة المؤثر.

الواحد لا يصدر منه إلا واحد

يريد العالم العامل الألمي الكامل قدوة العلماء وأستاذ الحكماء السيد كاظم الرشتي أعلى الله مقامه من هذه الكلمة غير ما عليه الفلاسفة السابقون، يريد أن يقول إن الأثر يشابه صفة مؤثره في كل شيء، فالشمس لما كانت مذهباً كانت أشعتها مذهباً، والقمر لما كان فضياً كانت أشعته فضية فلما كان الله عز وجل واحداً وجب أن يكون فعله واحد لا تعدد فيه، حيث إن الله واحد وفعله أيضاً واحد، لأن الأثر يشابه صفة المؤثر، بمعنى أنه لا يوجد لله عز وجل فعلين أو ثلاثة أفعال أو خمسة أفعال إلى آخره غير فعله جل جلاله، ففعل الله عز وجل واحد، ومن هذا الواحد صدر المفعول الأول وهو المصدر واحد لا تعدد فيه قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾^(١) وهي الحقيقة المحمدية ﷺ.

فأول صادر من المفعول الأول هو عقل محمد وآل محمد عليهم السلام، المعبر عنه عند الأشراقين بالعقل الكلي وعند المشائين بالعقل الأول قال الشيخ أحمد الأحسائي رحمته الله ((اعلم إن صدور الموجودات إنما كان من فعل الله تعالى لا منه عزَّ وجلَّ، فينبغي أن يراد بالمبدأ الأول هو فعل الله تعالى وهو مشيته وإرادته فإيجادهم صدوره عن فعل الله، والصادر هو وجوداتهم، وحاصل [أصل] الوجود الذي منه كانت الأشياء أنه العنصر الأولي وهو أول فائض من فعل الله تعالى، وهو الحقيقة المحمدية، وذلك لأن الله سبحانه كان ولا شيء وهو الآن على ما كان ولم يكن ثم سواه تعالى.

تم أحدث الفعل بنفسه لا من شيء، وهو المشية وهو الإمكان الراجح، فأمكن بإمكانه الإمكان المطلق الذي هو العمق الأكبر، فانبسطت مشيته على طبق الإمكان بما فيه من جميع الجزئيات على جهة الكلية الإضافية... ثم أحدث بمشيته الكونية النور الأول الذي به تنورت الأنوار وهو الحقيقة المحمدية، وهو أول موجود، فتعلق هذا النور بأرض الجرز أي أرض القابليات فصار منهما العقل الكلي عقل الكل، ثم تنزل بالروح الكلية، ثم بالنفس الكلية التي هي اللوح المحفوظ، ثم بالطبيعة الكلية، فالعقل هو النور الأبيض، والروح نور أصفر، والنفس نور أخضر، والطبيعة نور أحمر، فهذه الأربعة الأنوار هي العرش وصر العرش خزانة جميع الأكوان))^(١).

روي في الكافي قال: الحسين (عن محمد) بن عبد الله بن محمد بن سنان، عن المفضل، عن جابر ابن يزيد قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ((يا جابر إن الله أول ما خلق خلق محمد عليه السلام وعرته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله...))^(٢).

ثم خلق بهم كل شيء من السموات والأرض والجبال والشمس والقمر إلى نهاية الوجود فكله وجد من آثارهم عليهم السلام مثل السراج، فأول ما أوجد السراج بفعله الشعلة، ثم أوجد بالشعلة جميع الأشعة كما ذكر من قبل مراراً وتكراراً.

(١) جوامع الكلم ٢ / ٦٢٨ - ٦٢٩.

(٢) الكافي للشيخ الكليني ١ / ٤٤٢.

العقول العشرة

ذهب أكثر الفلاسفة الأوائل إلى أنه يستحيل من الله تعالى الواحد الأحد صدور الكثرات من الخلق منه تعالى وقالوا بالعقول العشرة ((العقول العشرة فرضية فرضها المشاؤون لتصحيح صدور الكثير من الواحد، وهي مبنية على وجود الأفلاك التسعة، وكونها ذوات نفوس مريدة))^(١).

وسار على هذا الرأي أكثر الفلاسفة المتأخرين والمتقدمين ((فالحكماء يقولون: أول المخلوقات العقل الأول، ثم العقل الأول خلق العقل الثاني والفلك الأول، وهكذا إلى أن انتهى إلى العقل العاشر فهو خلق الفلك التاسع وهيولي العناصر))^(٢).

ف عند حكماء اليونان ومن تبعهم من المسلمين أن الذي خلق الخلق هو الفلك العاشر الذي يعبر عنه بهيولي العناصر أي أصل المواد للخلائق.

وهذا كما عرفت مخالف لما روي عن أهل العصمة عليهم السلام أن أول المخلوقات هم محمد وآل محمد عليهم السلام وخلق بهم كل شيء، كما روى عن محمد بن الحسن الطوسي عليه السلام في كتابه مصباح الأنوار بإسناده عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((إن الله خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ظلمة ولا نور ولا شمس ولا قمر ولا جنة ولا نار، فقال العباس: فكيف كان بدء خلقكم يا رسول الله؟، فقال: يا عم لما أراد الله أن يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نوراً))، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين، فكنا نسبحه حين لا تسبيح، ونقدسُه حين لا تقديس، فلما أراد الله تعالى أن ينشئ خلقه فتق نوري فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش، ثم فتق نور أخي علي فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور علي، ونور علي من نور الله، وعلي أفضل من الملائكة، ثم فتق نور ابنتي فخلق منه السماوات

(١) البحار للشيخ المجلسي ٥٤ / ٣٠٦.

(٢) نفس المصدر.

والأرض، فالسماوات والأرض من نور ابنتي فاطمة، ونور ابنتي فاطمة من نور الله، وابنتي فاطمة أفضل من السماوات والأرض، ثم فتق نور ولدي الحسن فخلق منه الشمس والقمر، فالشمس والقمر من نور ولدي الحسن، ونور الحسن من نور الله، والحسن أفضل من الشمس والقمر، ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة والحدور العين، فالجنة والحدور العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نور الله، وولدي الحسين أفضل من الجنة والحدور العين))^(١).

وهناك روايات متظافرة من العامة والخاصة على أن أول المخلوقات محمد وآل محمد ﷺ، وبهم فتح الله تعالى الوجود وبهم يختم كما قال مولانا الإمام علي بن محمد الهادي ﷺ ((بكم فتح الله وبكم يختم))^(٢) وكم وكم من الروايات بهذا المعنى ومن أراد الإطلاع فليراجع كتاب البحار المجلد السادس والعشرين للشيخ محمد باقر المجلسي رضوان الله عليه، وكتاب بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار رضوان الله عليه والكافي والعوالم وغيرها من كتب الأحاديث.

(١) البحار للشيخ المجلسي ١٥ / ١٠ - ١١، عن كثر جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة عن محمد بن الحسن الطوسي في كتابه مصباح الأنوار.
(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

المرتبة الأولى: من مراتب الفعل المشيئة، وهي الفعل المتعلق بوجود الشيء خاصة، ولذا قال: الإمام الرضا عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن: أتدري ما المشية المشية هي^(١):

الذكر الأول: وهي مرتبة على العلم الحادث مسبوق به، ولذا قال الإمام عليه السلام بعلمه كانت المشية.

المرتبة الثانية: الإرادة وهي الفعل المتعلق بماهية الشيء، وقبول الفعل الأول، كالانكسار الذي هو في المرتبة الثانية من الكسر، لكن لا يظهر الكسر بدونه، فالكسر قائم بالانكسار قيام ظهور، والانكسار قائم بالكسر قيام تحقق وهو الذكر الثاني للشيء، وقال الإمام الرضا عليه السلام في خبر يونس أتدري ما الإرادة؟ وهي العزيمة على ما يشاء، وهي مرتبة على المشية، كما هو الظاهر، ولذا قال: الإمام عليه السلام، وبمشيئة كانت الإرادة.

(١) علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار، عن يونس بن عبد الرحمن قال: قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام ((يا يونس لا تقل بقول القدرية فإن القدرية لم يقولوا بقول أهل الجنة ولا بقول أهل النار ولا بقول إبليس فإن أهل الجنة قالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وقال أهل النار: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. وقال إبليس: رب بما أغويتني، فقلت: والله ما أقول بقولهم ولكني أقول: لا يكون إلا بما شاء الله وأراد وقضى، فقال: يا يونس ليس هكذا لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى، يا يونس تعلم ما المشيئة؟ قلت: لا، قال: هي الذكر الأول، فتعلم ما الإرادة؟ قلت: لا، قال: هي العزيمة على ما يشاء، فتعلم ما القدر؟ قلت: لا، قال: هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، قال: ثم قال: والقضاء هو الأبرام وإقامة العين، قال: فاستأذنته أن أقبل رأسه وقلت: فتحت لي شيئا كنت عنه في غفله)) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلي ١٤٩.

المرتبة الثالثة: القدر، وهو الفعل المتعلق بالهيئات والحدود والمقادير، وبدو السعادة والشقاوة، كما قال الرضا عليه السلام في الخبر: أتدري ما القدر؟ وهي الهندسة. وهذه المرتبة مرتبة على الإرادة، كما قال الإمام عليه السلام وبالإرادة كان القدر، وتسمى بالخلق الثاني، والوجود الثاني. ج.

وفي هذه المرتبة تقدر الآجال والأرزاق، وكيفية التعيش والأمور المتعلقة بالخلق، (و) في هذه المرتبة أيضا تكون مشروطة ومحتومة، كما في المرتبة الأولى والثانية، لكن بلا ظهور وبروز، وفي هذه المرتبة ظهرت الأمور وبرزت فيما بين الخلق.

المرتبة الرابعة: القضاء، وهو الفعل المتعلق بإتمام الشيء، وهو مترتب على القدر، كما تشهد عليه الأخبار والأدلة العقلية، قال الإمام عليه السلام: وبالقدر كان القضاء، والقول بتقدم القضاء على القدر غلط غير معنى به، وتكذبه الآيات والأخبار.

المرتبة الخامسة: الإمضاء، وهو الفعل المتعلق بإظهار الشيء، وهو لازم للقضاء ومتأخر عنه. ❁

❁ مراتب فعل الله تعالى

تقدم الكلام أن فعل الله تعالى واحد لا خلاف ولا تفاوت فيه، وإنما الخلاف في المتعلق كما في كتابة الجيم والألف في الإعوجاج والاستقامة، وباعتبار متعلقه ينقسم إلى خمس مراتب هي:

المرتبة الأولى للفعل المشيئة

فأول مراتب فعل الله عز وجل هي المشيئة، وهي متعلقة بما يناسبها وهو الوجود، أي وجود الأشياء العام الغير مقترن بالصورة.

كما قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليونس: ((يا يونس تعلم ما المشيئة؟، قلت: لا، قال: هي الذكر الأول))^(١) لأن أول شيء هو وجوده الصلوحى، الذي يصلح لكل شيء، ويسمى الوجود الذكري، أي مذكور فيه كل شيء يمكن أن يكون، وهو عبارة عن عالم الإمكان، وهذه المشيئة التي هي الذكر الأول مسبوقه بالعلم، لأن العلم مقدم على المعلوم، لذا قال مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ((وبعلمه كانت المشيئة))^(٢) أي العلم سابق على المشيئة.

المرتبة الثانية للفعل هي الإرادة

والمرتبة الثانية للفعل هي الإرادة، وهي متعلقة بصور وماهيات الأشياء، وهي عبارة عن انفعال الفعل، بمعنى أنه لولا الإرادة لما ظهرت المشيئة، مثل الكسر والإنكسار، فالكسر مقدم رتبة على الإنكسار، ولكن لولا الانكسار لما ظهر وعرف الكسر، كما تقول كسرت الكأس فانكسر، فالكسر قائم بالإنكسار قيام ظهور، أي لولا الإنكسار لما ظهر الكسر، والإنكسار قائم بالكسر قيام تحقق وركن، أي لولا الكسر لما وجد وتحقق الإنكسار.

فالإرادة المرتبة الثانية للفعل هي الذكر الثاني للشيء، لذا قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ((فتعلم ما الإرادة؟، قلت: لا، قال: هي العزيمة على ما يشاء))^(٣).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٣٤، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٤٨ - ١٤٩، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ١٠٢.

(٣) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ١٤٩.

فالإرادة مسبوقة بالمشيئة ومرتبطة عليها ، لذا قال مولانا الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ((وبمشيئته كانت الإرادة))^(١) .
أي المشيئة سابقة على الإرادة .

المرتبة الثالثة للفعل القدر

هذه المرتبة مختصة بالهندسات والحدود من الكم والكيف والجهة والرتبة والمكان والزمان والأجل للشيء ، كما قال مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليونس ((فتعلم ما القدر؟ ، قلت : لا ، قال : هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء))^(٢) فالقدر مسبوق ومرتب على الإرادة كما قال مولانا الإمام موسى الكاظم أرواحنا فداءه ((وبإرادته كان التقدير))^(٣) .

وتسمى هذه الرتبة بالخلق الثاني ، والخلق الأول في رتبة الإرادة ، وتسمى رتبة القدر أيضاً بالوجود الثاني ، ففي هذه المرتبة تقدر السعادة أو الشقاوة والعياذ بالله تعالى والآجال والأرزاق وكل شيء يتعلق بالخلق ، من الخير والشر والتقدير على قسمين : المحتوم والمشروط .

القسم الأول التقدير المحتوم

التقدير المحتوم هو الذي ليس فيه بدء من حال إلى حال ، لئلا يلزم اخلاف الوعد ، مثل سعادة الأنبياء ودخولهم الجنة ، وشقاوة إبليس اللعين ودخوله النار . وكذلك خروج قائم آل محمد عجل الله فرجه أرواحنا لغبار نعليه المباركتين

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٣٤ ، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٤٨ - ١٤٩ ، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ١٠٢ .

(٢) الكافي للشيخ محمد الكليني ١ / ١٥٨ ، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي ٥ / ١١٧ ، مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلبي ١٤٩ .

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٣٤ ، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٤٨ - ١٤٩ ، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ١٠٢ .

الفداء، وخروج الدجال والسفياي، وقيام القيامة ودخول الجنة للمطيع والنار للعاصي وغيرها، فهذه المذكورات ليس فيها بدء للزومه اخلاف الوعد وهو سبحانه خير الصادقين.

القسم الثاني التقدير المشروط

وهو ما يمكن التغيير والمحو والإثبات والزيادة والنقصان، لأنه مشروط بشرط، فإذا تم الشرط وجد المشروط، كما إذا قدر لبكر عمر ثلاثين سنة فقط، والزيادة على الثلاثين إلى ثلاثين أخرى مثلاً مشروط ببعض الأعمال الصالحة، من صلة الرحم، أو زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وبر الوالدين، فإن فعل ذلك عاش وزيد في عمره إلى ثلاثين سنة وصار عمره ستين سنة، وإن ترك نقص من عمره ثلاثون سنة، فالثلاثون سنة مشروطة بهذه الأعمال وجوداً ونفياً.

قال مولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام ((حدثني أبي عن أبيه عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله: إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي في عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين ثم تلا (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب))^(١).

والتقدير المحتوم والمشروط موجود أيضاً في المرتبة الأولى، المشيئة في المادة والإرادة في الصورة، ولكنه غير واضح وظاهر، لأنه لم تبرز الأشياء بعضها عن بعض، روي في زيارة الإمام الحسين عليه السلام ((أنها تزيد الرزق وتمد في العمر، وتدفع مدافع السوء، وأن أيام زائري الحسين عليه السلام ذهاباً ورجوعاً لا تعد من آجالهم))^(٢) إلى آخرها من التقديرات المشروطة بهذه الأعمال الحسنة التي لها هذه الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة.

فهناك روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام في زيادة العمر لبعض الأشخاص بسبب عمله الصالح كالصدقة، كما روى في الأمالي للشيخ محمد الصدوق رضوان

(١) البحار للشيخ المجلسي ٤٧ / ١٦٣ .

(٢) مرآة الكمال للشيخ عبد الله المامقاني ٣ / ١٦٥ .

الله عليه حدثنا علي بن عيسى رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن محمد ماجيلويه، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه، عن محمد بن سنان المجاور، عن أحمد بن نصر الطحان، عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: ((إن عيسى روح الله مر بقوم مجبلين، فقال: ما لهؤلاء؟، قيل: يا روح الله، إن فلانة بنت فلان تهدي إلى فلان بن فلان في ليلتها هذه. قال: يجبلون اليوم ويبكون غداً. فقال قائل منهم: ولم يا رسول الله؟، قال: لأن صاحبتهم ميتة في ليلتها هذه. فقال القائلون بمقالته: صدق الله وصدق رسوله. وقال أهل النفاق، ما أقرب غداً، فلما أصبحوا جاءوا فوجدوها على حالها لم يحدث بها شيء، فقالوا: يا روح الله، إن التي أخبرتنا أمس أنها ميتة لم تمت، فقال عيسى عليه السلام:

يفعل الله ما يشاء، فذهبوا بنا إليها. فذهبوا يتسابقون حتى قرعوا الباب فخرج زوجها، فقال له عيسى عليه السلام: استأذن لي على صاحبتك. قال: فدخل عليها فأخبرها أن روح الله وكلمته بالباب مع عدة. قال: فتخدرت، فدخل عليها، فقال لها: ما صنعت ليلتك هذه؟، قالت: لم أصنع شيئاً إلا وقد كنت أصنعه فيما مضى، إنه كان يعترينا سائل في كل ليلة جمعة فننيله ما يقوته إلى مثلها، وإنه جاءني في ليلتي هذه وأنا مشغولة بأمرني وأهلي في مشاغيل، فهتف فلم يجبه أحد، ثم هتف فلم يجب حتى هتف مراراً، فلما سمعت مقالته قمت متنكرة حتى أنلته كما كنا ننيله، فقال لها: تنحي عن مجلسك، فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة عاض على ذنبه. فقال عليه السلام: بما صنعتِ صرف الله عنكِ هذا))^(١) هنا كلام طويل في معنى البداء والمحو والإثبات يخرجنا عن الشرح كثيراً والسلام.

المرتبة الرابعة للفعل القضاء

المرتبة الرابعة للفعل هو القضاء، وهو عبارة عن إنهاء هندسة الشيء، واعتمد لإخراجه بدون زيادة ونقص، وهو بمثابة الخريطة للمنزل إذا أتمدت من المالك

(١) الأماشي الشيخ الصدوق ٥٨٩ - ٥٩٠، وسائل الشيعة للحر العاملي ٦ / ٢٧٠، البحار للشيخ المجلسي ٤ / ٩٤.

وقصد تطبيقها في الخارج في بناء المنزل، ورتبة القضاء مسبقة بالقدر كما قال مولانا الإمام موسى الكاظم أرواحنا له الفداء ((وبتقديره كان القضاء))^(١).

وأشار السيد كاظم عليه السلام إلى مقولة يقولها عوام الناس إذا حدث أمر مكروه أجازنا الله وإياكم من كل مكروه، يقولون قضاء وقدر يقدمون القضاء على القدر هذه مقولة لا أصل لها ولا صحة، والأخبار تؤيد تقديم القدر على القضاء.

المرتبة الخامسة للفعل الإمضاء

هذه المرتبة عبارة عن تطبيق ما قضى سابقاً، كما مثلنا بالخريطة للمنزل فإذا بني المنزل فقد أمضى وجف القلم.

روي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم أرواحنا فداه، أن البدء لله تعالى في المراتب الأربع من الفعل وهي: المشيئة والإرادة والقدر والقضاء، وأما إذا أمضى فلا بدء في الشيء، قال عليه السلام: ((فله تبارك وتعالى البدء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بدء، فالعلم في المعلوم قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات...))^(٢).

ومعنى قول الإمام موسى الكاظم عليه السلام: ((فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بدء)) معناه إذا خلق ميثم مثلاً، وخرج للشهود عند الغير مشروع العلل ومبين الأسباب، فهنا لا يمكن إعدامه مرة أخرى، ويكون لا شيء لأنه أمضى.



(١) التوحيد للشيخ الصدوق ٣٣٤، الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٤٨ - ١٤٩، البحار للشيخ المجلسي ٥ / ١٠٢.

(٢) نفس المصدر.

وإن أردت أن أبين لك مثال خلق الله سبحانه، لإدراك حقايق الأشياء، حتى تنكشف لك حقيقة المسألة، فأصغ لما أقول • اعلم أنك إذا أردت أن تصنع سريراً، فأول خطوة تخطر ببالك في صنعه قبل أن يخطر في هذا الباب بخاطرك خطور، فهي مشيتك في الأمور القلبية الباطنية، إذ المشية في العبد على قسمين :

أحدهما : الخواطر القلبية، والإرادات الباطنية، وهو في الحقيقة فعل من أفعال العبد، جامع جميع مراتبه كما يأتي ذكره.

وثانيهما : الأمور الظاهرية الشهودية، الحاصلة بالجوارح والأعضاء، وهو أيضا نوع من مشية العبد، إذ المشية فعل وهو أعم من الذهن والخارج، وقد بين هذه المسألة مولانا الرضا عليه السلام بقوله (الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله سبحانه فإن إرادته إحداثه لا غير) ^(١).

إذا عزمتم وجزمت بصنع السرير البتة بلا تأمل، فعزمك هذا هو الإرادة، وتقديرك هذا السرير في خيالك بحدود وهيئات وأوضاع تريدها هو القدر، وإن ركبت تلك الهيئات والحدود في خيالك بعضها مع بعض فهو القضاء، وإظهارك ذلك السرير في الخارج فهو الإمضاء*.

* مثال السرير على مراتب الفعل

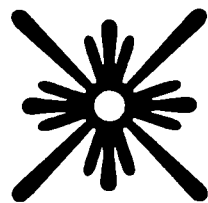
هنا السيد كاظم أعلى الله مقامه أتى بمثال في غاية السهولة لمعنى مراتب الفعل

(١) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٠٩ - ١١٠، أحمد بن إدريس، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام، أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال: فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإن إرادته إحداثه لا غير).

الخمس، فأول مرتبة التي تمثل المشيئة هي الخاطرة العامة للفعل الغير مقيدة بسرير أو غيره، فالمشيئة هي عامة لا تقيد بفعل جسماني خاصة، فقد تكون جسمانية شهودية، وقد تكون قلبية، فالخواطر القلبية هي أيضاً فعل من أفعالنا، فكما أن الإنسان محاسب على أعماله الظاهرية، كذلك محاسب على خواطره ونواياه الباطنية، لذ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(١) وهو حديث النفس.

وكما قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: ((الإرادة من الخلق الضمير...)) فأثبت عليه السلام أن للضمير إرادة وهو الفعل.

وإذا عزمت واشتدت مشيئتك إلى إرادة الصنع للسريير يسمى إرادة، وإذا هندست السريير في كنهه وكيفه ولونه وديكوره يسمى القدر، وإذا انتهيت من تصميمه في ذهنك أو في خريطة يسمى قضاء، وإذا انتهيت من عمله وأخرجته للغير سمي إمضاء.

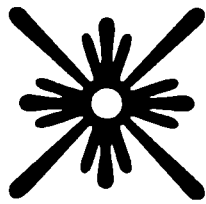


(١) سورة طه، آيه (٧).

فظهر مما ذكرنا أن الإمضاء لازم القضاء، وأن هذه المراتب الأربعة: المشية والإرادة والقدر والقضاء أركان الشيء، يعني لو لم تكن أحد هذه المراتب لما وجد الشيء، وأما الإمضاء فهو بيان هذه المراتب الأربعة، وإظهارها مشروح العلل مبين الأسباب، وإن شئت أن تدخله في هذه المراتب لقلت إن مراتب الفعل باعتبار تعلقه بالمفعولات خمس، وأما كيفية البداء ووقوع المحو والإثبات في فعل الله، وبيان معنى النسخ والبداء والفرق بينهما، وكيفية إخبار الأنبياء والأولياء من الله عزَّ وجلَّ بشيء لم يقع وأمثالها، فالحقير الآن معذور منها، وليس لي فعلاً حالة البيان، إذ الآن أنا في السفر، في وسط البر عين شدة حرارة الشمس، وضيق المجال، لم أتمكن من تحرير أزيد من هذا، من أرادها فليراجع إلى ساير رسائلنا، والسلام على تابع الهدى*.

✽ خلاصة مراتب الفعل

إن كل شيء في دائرة الوجود ما خلا الله عزَّ وجلَّ لا بد له من هذه المراتب الأربع، وهي المشيئة والإرادة والقدر والقضاء، أو المراتب الخمس مع الإمضاء، وهو خروج الشيء للغير في الشهود مشروح العلل مبين الأسباب.



الفصل السادس عشر

[لا يكون شئ في الأرض و السماء إلا بسبع خصال]

لما عرفت أن كل شيء ليس له استقلال وتذوت إلا بفعل الله سبحانه، وأن كل شيء في تحققه ووجوده الخارجي محتاج إلى هذه المراتب الخمس المذكورة، عرفت أنه لم يدخل شيء في دائرة الإمكان، ولم يوجد أبداً إلا بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وأجل وكتاب، ومن هنا تعلم معنى قول الصادق عليه السلام في الكافي قال (فلا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبع بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وأجل وكتاب ومن زعم أنه يقدر على نقص واحد فقد كفر)^(١) انتهى.

وهذا الحكم عام لا أنه يشمل بعضاً دون بعض، فكل شيء في السماوات والأرضين، من الخير والشر، والصلاح والفساد، والمعصية

(١) عنه، عن أبيه، عن فضالة بن أيوب، عن محمد بن عمارة، عن حريز بن عبد الله، وعبد الله بن مسكان جميعاً: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (لا يكون شئ في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبع: بمشيئة، وإرادة، وقدر، وقضاء، وإذن، وأجل، وكتاب، فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة فقد كفر) الكافي للشيخ الكليني ١ / ١٤٩، المحاسن لأحمد بن محمد البرقي ١ / ٢٤٤.

والطاعة، لا يقع إلا بهذه السبعة، لكن بالطور الذي ذكرنا، والنمط الذي بينا الحاصل*.

* وجود كل شيء بسبع خصال

هذا الفصل تفریع على الذي قبله الفصل الخامس عشر، مع بعض التفصیل في الفصل السابق، ذكر أنه لا بد لكل موجود من خمس مراتب وهي: المشيئة والإرادة والقدر والقضاء والإمضاء كما هو منطوق الرواية عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم وعلي بن موسى الرضا عليهما السلام، وهنا أضاف الإذن والأجل والكتاب:

فالمشيئة:

هي عبارة عن وجود الشيء.

الإرادة:

هي عبارة عن عينه وصورته.

القدر:

عبارة عن الهندسة والحدود من الكم والكيف.

القضاء:

إنهاء الحدود ومستلزماته نهائياً.

الإذن:

هو إمضاء هذا الموجود بإذن من الله تعالى، كما قال الله عز وجل حكاية عن نبي الله عيسى بن مريم على نبينا وآله عليهم السلام بقوله: ﴿وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾^(١).

ومعنى الأذن السماح والإجازة للشيء بالحصول والكون، فكل ما سوى الله سبحانه لا يوجود إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ، ولكن هل كل موجود من الموجودات يأخذ الأذن من الله تعالى مباشرة أو بوساطة؟ بالطبع أنه ليس كل البشر عندهم اللياقة والاستعداد أن يأخذوا الأذن مباشرة من الله تعالى، بل عن طريق الرسول والمؤذون في الأذن، كحال الكتب السماوية النازلة للمكلفين، في إرشادهم وهدايتهم وتعليمهم الواجبات وانتهاء المحرمات، عن طريق الرسول والمأذونون من قبل الله تعالى.

المأذون

ولما كان الإذن لكل ما سوى الله تعالى، يجب على كل موجود في وجوده، أن يكون المؤذن الذي يأذن لإيجاد الموجودات واحتياجاتهم من قبل الله تعالى، له ولاية على جميع ما سوى الله تعالى، حيث تكون عنده قابلية أن يأذن لكل من تكوين وتشريع بأمر ووحى من الله، وتكون ولايته وإحاطته عامة شاملة لجميع ما سوى الله تعالى، بيد أنه لا يوجد في الكائنات مطلقاً، من يمتلك تلك الولاية، والقدرة والقابلية لإعطاء الإذن للموجودات أجمع، من الوجود وجميع ما يحتاجون إليه غير محمد وآل محمد ﷺ بشهادة الكتاب والسنة.

قال عزَّ وجلَّ في حق نبيه محمد ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُوذُنٌ قُلْ أُوذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾^(١) يعني أن النبي ﷺ هو الأذن الحقيقية الصادقة التي تسمع عن الله عزَّ وجلَّ الوحي والأمر والنهي، من الواجب والحرام والمكروه والمستحب وما ينبغي وما لا ينبغي في أمور الدنيا والآخرة.

الولاية التشريعية والتكوينية

فالنبي ﷺ ليست ولايته وأذنه عن الله عزَّ وجلَّ، فيما يخص التشريع فحسب، بل ولايته عامة في التشريع والتكوين، فكما أن التشريع يحتاج الرجوع إليه في كل شيء،

(١) سورة التوبة، آية (٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) فكذلك في التكوين، أي في حياة ورزق وإماتة وخلق الموجودات أجمع، يحتاج الرجوع إليه ﷺ بأمر ووحى وإذن من الله تعالى.

الولاية التكوينية للأنبياء ﷺ

إن الله عز وجل أعطى الأنبياء السابقين وأوصياءهم ﷺ ولاية تكوينية على الولاية التشريعية، هاك داوود النبي على نبينا وآله وﷺ، قد ألان الله له الحديد، والجبال والطير يسبحون بتسبيحه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾^(٢).

وعن ابنه نبي الله سليمان بن داوود، سخر له الريح وأذاب له الصفر مثل الماء، في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ آمْرِنَا نُدِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾.

روي في تفسير الصافي ((عن تفسير القمي، عن نبي الله داوود على نبينا وآله وﷺ في قوله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾ أرجعي معه التسبيح، القمي أي سبحي الله والطير أي أرجعي أيضاً..

﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق.

القمي قال: كان داوود إذا مر بالبراري يقرأ الزبور، تسبح الجبال والطير معه والوحوش، وألان الله له الحديد مثل الشمع، حتى كان يتخذ منه ما أحب، وقال: أعطى داوود وسليمان ما لم يعط أحداً من أنبياء الله من الآيات، علمهما منطق

(١) سورة الحشر، آية (٧).

(٢) سورة سبأ، آية (١٠ - ١١).

الفصل السادس عشر [لا يكون شيء في الأرض و السماء إلا بسبع خصال] ٤٩٥

الطير، وألان لهما الحديد والصفير من غير نار، وجعلت الجبال يسبحن مع داوود^(١).

حيث أعطى نبي الله داوود وابنه سليمان لغة الطيور، وأعطيا من العلوم من كل علم باب، وسخر وحشر لسليمان جنود من الجن والانس والطير كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْتُمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾^(٢).

ورد في تفسير الصافي عن تفسير ((أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِ)) دروعاً واسعات ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾.

في نسجها بحيث تناسب حلقها أو في مساميرها في الدقة والغلظة فلا تغلق ولا تحرق.

في قرب الإسناد عن الرضا عليه السلام قال: الحلقة بعد الحلقة، والقمي قال: المسامير التي في الحلقة.

﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ و﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ القمي قال: ((كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به بالغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ القمي: الصفير وقيل أسال له النحاس المذاب من معدنه، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سماه عيناً، وكان ذلك باليمن ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها ﴿وَتَمَثِيلَ﴾ وصوراً.

في الكافي والمجمع عن الصادق عليه السلام: ((والله ما هي تماثيل الرجال والنساء، ولكنها الشجر وشبهه ﴿وَجِفَانٍ﴾ صحاف ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كاحياض الكبار . . . ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمتها))^(٣).

(١) تفسير الصافي لملا محسن الفيض الكاشاني ٤ / ٢١٢ .

(٢) سورة النمل، آية (١٦-١٧).

(٣) تفسير الصافي لملا محسن الفيض الكاشاني ٢ / ٢١٢ .

وكذلك الله تعالى أعطى الولاية التكوينية بقية الأنبياء السابقين عليهم السلام وفي مطلعهم نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام .

الولاية التكوينية عند نبي الله عيسى

ومن أعظم الولاية التكوينية عند الأنبياء، عند نبي الله عيسى بن مريم على نبينا وآله عليهم السلام، حيث ظهرت على يديه من الولاية التكوينية، ما لم يفرق بينه وبين الله تعالى في التعريف والتعرف لا في الحقيقة والذات، أي أن عيسى يفعل بإذن وأمر الله تعالى، وأما الله سبحانه فيفعل بأمره وولايته سبحانه حيث لا ولي عليه جلّ جلاله قال سبحانه في حق ولاية عيسى عليه السلام : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١) .

فهذه الآية المباركة ناصة وصريحة في الولاية التكوينية للأنبياء عليهم السلام، حيث اسند الباري جلّ جلاله الفعل إلى نفس نبي الله تعالى، وجعل عيسى عليه السلام فاعلاً لهذا الفعل بقوله ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾^(٢) أبرئ وأحي وأنبئكم فالفاعل لهذه الأفعال هو عيسى عليه السلام لكن بإذن الله عزّ وجلّ .

والخلق والإحياء والإماتة وعلم الغيب، بإخباره بني إسرائيل ما يأكلون وما يدخرون كلها من صفات الله تعالى جلّ جلاله، لكن أظهرها لنبي الله عيسى عليه السلام .

الولاية التكوينية عند محمد وآل محمد عليهم السلام

ومما لا شك أن رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله هو سيد الأنبياء والمرسلين، بل سيد الكائنات ما سوى الله تعالى، فهو أحق وأولى من عيسى بهذه الولاية من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، والوارث لرسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه ونفسه

(١) سورة آل عمران آية (٤٩) .

(٢) نفس المصدر .

الفصل السادس عشر [لا يكون شئ في الأرض و السماء إلا بسبع خصال] ٤٩٧

هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم من بعده المعصومون عليهم السلام أئمة الهدى آخرهم القائم المنتظر المهدي عجل الله فرجه .

فالمعصومون محمد وآل محمد عليهم السلام هم أولى بهذه الآية من سليمان بن داوود على نبينا وآله و عليهم السلام بقوله : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) (١) .

أي أعطِ يا رسول الله ويا وصي رسول الله الذي هو نفسه بأية المباهلة ﴿ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ من التشريع والتكوين بإذن الله تعالى .

فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأذن ، كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الواعي والعالم والباب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لذا قال تعالى : ﴿ وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ ﴾ (٢) .

فأجمع المفسرون أن الأذن الواعية هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا غير .

لذا قال آية الله العظمى المولى المقدس الميرزا عبد الرسول الإحقاقي أعلى الله مقامه في معنى آية الولاية : ((يظهر أن مقصود الباري جلّ وعلا في الآية الكريمة ﴿ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٥٥) (٣) .

من كلمة (ولي) أولى بالتصرف ، وإن الله تبارك وتعالى بعد ذكر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي هي من أدوات الحصر ، حصر الأولوية للكائنات في ذاته المقدسة ، وفي رسوله الكريم المحبوب ، وفي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأولاده الأطهار عليهم السلام حصراً محدوداً ، وليس لغير هؤلاء الأئمة الأطهار ، والميامين حق التصرف في الأمور التشريعية والتكوينية للخلائق أجمعين ، ولقد ثبت المقصود من آية ﴿ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ ﴾ وآية ﴿ أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٤) أنها ولاية مطلقة ، وعلى هذا الأساس ، عند ما يكون للباري جلّ وعلا حق التصرف في جميع العالم الحي ، وعلى جميع

(١) سورة ص ، آية (٣٩) .

(٢) سورة الحاقة ، آية (١٢) .

(٣) سورة المائدة ، آية (٥٥) .

(٤) سورة الأحزاب ، آية (٦) .

الموجودات والمخلوقات، وأنه يفعل ما يشاء، فقد يكون للرسول الأكرم ﷺ وعلي ﷺ وأولاده الطاهرين حق التصرف في جميع الكائنات، وطبعاً يكون ذلك بإذن من الباري جل وعلا، وأن ولايتهم ولاية تامة كلية عامة ومطلقة، وهذا هو معنى الولاية الكلية والولي المطلق، هو الذي له حق التصرف في شؤون الكائنات بإذن الله تعالى، بعد توضيح هذا المطلب تُحل الإشكالات التي يستشكلها بعض النفوس الضعيفة، في أمر الولاية الكلية المطلقة لمحمد وآل محمد ﷺ^(١).

فآية الله العظمى المولى الميرزا عبد الرسول الإحقاقي رضوان الله عليه له كتاب يقع في مجلدين يبحث فيه عن الولاية بأسلوب بسيط ومعاني عالية، بين فيه معنى الولاية من اللغة وآراء العامة وروايات المعصومين ﷺ.

فالذي يشكل على ولاية محمد وآل محمد ﷺ، يشكل على كلام الله عز وجل النص الصريح في ولاية عيسى والأنبياء ﷺ، حيث إن كل ما يفعل المعصومون ﷺ كله بإذن الله تعالى لا على جهة التفويض وانعزال الله عن ملكه، والعياذ بالله تعالى، فإنه كفر بالله العزيز.

ومن الظلم للشيخ أحمد الأحسائي وتلامذته، أن البعض ينسب هذه المدرسة إلى الغلو والكفر بسبب اعتقادهم للولاية التكوينية للمعصومين ﷺ، مع العلم أن كتب هذه المدرسة واضحة وصارخة بأن المعصومين ﷺ ما يفعلون شيء إلا بأمر وإذن الله تعالى، كعيسى حينما يخلق ويحي الموتى ويعلم الغيب بإذن الله تعالى، ومن وجد كلمة من كتب هذه المدرسة تنفي الإذن عن الله تعالى، في ولاية محمد وآل محمد ﷺ فليأت بها وأنى له ذلك، فمن أراد أن يدرك ويعرف معنى الولاية بأسلوب سلس سهل، فعليه بمراجعة كتاب الولاية للمقدس آية الله الميرزا عبد الرسول الإحقاقي أعلى الله مقامه.

الأجل

الأجل هو مدة بقاء المخلوق إلى فترة معينة، أو فترة دائمة إلى الآخرة إما إلى

(١) الولاية لآية الله الميرزا عبد الرسول الإحقاقي ٢ / ٩٥.

النعيم أو الجحيم، فكل شيء له أجل، أي مدة أو فترة أو صلاحية، وليس الأجل مقصوراً على عمر الإنسان أو غيره في حياته الدنيا، بل الأجل منذ أول خلقته من عالم العقول، ثم الأرواح ثم النفوس ثم الطبيعة ثم المثال ثم العرش محدد الجهات إلى الأرض آخر مراتب نزوله، ثم صعوده من درجة النبات ثم الحيوان ثم الإنسان ثم تنقلاته في رتبة الإنسانية من الطفولة إلى الشباب ثم الهرم إلى الشيخوخة إلى الموت، ثم في عالم البرزخ ثم عالم النفخة ثم يوم القيامة، ثم دخول الجنة رزقنا الله تعالى إياها بحب أهل البيت عليهم السلام، أو النار والعياذ بالله منها، فكل رتبة للمكلف منذ خلقه إلى نهاية قوس الصعود، إما إلى النعيم أو الجحيم له أجل وفترة معينة محددة، مثلاً أنت حينما تكون في رحم أمك لك فترة محددة بقراءة تسعة أشهر، ثم تأتي مرحلة الرضاع لها أجل معين ما يقارب الستين، ثم مرحلة الطفولة إلى ست أو سبع، ثم مرحلة الشباب، ثم المراهقة، إلى الشيخوخة إلى الموت، إلى أن تبقى في القبر فترة محددة ليست دائمة، لذا عبر سبحانه وتعالى المكث في القبر بالزيارة بقوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١) والزيارة غير الإقامة.

وهكذا مراحل المخلوق له أجل إلى يوم القيامة، فالأجل ليس خاصاً بالإنسان أو الحيوان أو النبات بل حتى الجماد، من الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، ووسائل المواصلات من السيارات والقطارات والطائرات، والمعادن والأخشاب والحديد، بل كل شيء له صلاحية معينة في البقاء ثم يفنى، لذا كل مصنع يقدر بكذا سنة لصلاحية عمله، وهذا أمر معروف عند الكل، أن كل شيء له صلاحية في العمل، و له انتهاء المعبر عنه بالأجل، وهو نهاية هذا المصنوع أياً كان.

الكتاب

الكتاب هو عبارة عن معلومات المخلوق، من بداية خلقه إلى نهايته من السعادة والشقاوة، وما عمل وما نوى وما يجري عليه بالتفصيل، من المسرات والمضرات من الخير والشر قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾^(١) ويسمى الكتاب باللوح المحفوظ لهذا المخلوق، وكما للمخلوق الجزئي العادي له كتاب ولوح محفوظ، كذلك العالم الكبير، من العقل والروح والنفس والعرش والكرسي والسموات السبع والأرضين السبع، وما فيهن وما بينهن، وما كان وما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة له كتاب، وهذا الكتاب الذي فيه جميع معلومات الخلائق من أولها إلى آخرها، كما قال فرعون لنبي الله موسى على نبينا وآله وعليه السلام، عن علوم القرون الماضية وأخبارها أجابه موسى عليه السلام بأنها مثبتة في كتابه تعالى، كما تحدث سبحانه عن ذلك بقوله ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾^(٢) فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب ذات الله عز وجل لأنه سبحانه لا يدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء، وليس تعالى محلاً للمخلوقات، فيجب أن يكون هذا الكتاب المكتوب فيه كل شيء من جنس الخلق، حتى يكتب فيه معلومات الخلائق، ويجب أن يكون أشرف وأفضل الخلائق أجمع.

وما نص عليه الكتاب والسنة، أن الكتاب المبين هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾^(٣).

روى الشيخ محمد الصدوق في معانيه قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الصقر الصائغ، قال: حدثنا عيسى بن محمد العلوي، قال: حدثنا أحمد بن سلام الكوفي، قال: حدثنا الحسين بن عبد الواحد، قال: حدثنا الحارث بن الحسن، قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل بن صدقة، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر، عن أبيه، عن جده عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾

(١) سورة يونس، آية (٦١).

(٢) سورة طه آية (٥١ - ٥٢).

(٣) سورة يس، آية (١٢).

الفصل السادس عشر [لا يكون شيء في الأرض و السماء إلا بسبع خصال] ٥٠١

فِي إِمَامِ مُبِينٍ ﴿١﴾ قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا : يا رسول الله هو التوراة؟

قال : لا .

قالا : فهو الإنجيل؟

قال : لا .

قالا : فهو القرآن؟

قال : لا . قال : فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : هو هذا ،

إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه كل شيء (١) .

وأجمع المفسرون من العامة والخاصة أن القرآن الكريم فيه بيان وعلم كل

شيء ، من أول الوجود إلى نهايته ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

وأجمع المفسرون أيضاً أن الذي عنده علم الكتاب كله هو أمير المؤمنين علي بن

أبي طالب عليه السلام ، كما قال سبحانه مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وآله أن يقول للكافرين

وغيرهم ، أن الشهيد عليكم في أعمالكم خيرها وشرها أنا رب العزة ، ومن عنده

جميع علم الكتاب القرآن الكريم ، فالله عزَّ وجلَّ الشاهد الأول ، والشاهد الثاني من

عنده علم الكتاب ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ

الْكِتَابِ ﴾ (٣) فالذي عنده علم الكتاب بإجماع المسلمين هو مولانا أمير المؤمنين علي

بن أبي طالب عليه السلام ، وأجمع المسلمون قاطبة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : ((علي مع القرآن

والقرآن مع علي)) (٤) .

(١) معاني الأخبار للشيخ محمد الصدوق ٩٥ ، الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ١ /

٥٠٩ ، مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني ٢ / ١٢٧ ، البحار للشيخ محمد باقر المجلسي

٣٥ / ٤٢٨ .

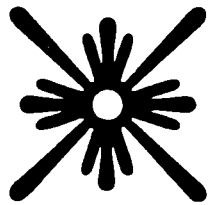
(٢) سورة النحل آية (٨٩) .

(٣) سورة الرعد آية (٤٣) .

(٤) الأمالي للشيخ محمد الطوسي ٤٧٩ .

ومعنى الحديث النبوي أن علياً عليه السلام هو القرآن الناطق عن الله تعالى، لكونه معصوماً عن المخالفة لله سبحانه، لأنه كما قال النبي ﷺ ((علي مع الحق والحق مع علي))^(١)، ومن كان على الحق والحق معه، جدير بأن يُتَّبَعَ لا يتبع أحداً غيره قال تعالى: ﴿أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَأَلَكُمُ الْكَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فالكتاب العام، واللوح المحفوظ الذي فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، هو مولانا أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن طالب عليه السلام، لذا هو صاحب الكلمة التي لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق إلا ابن عمه رسول الله ﷺ حيث قال في مواطن عدة: ((سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض))^(٣) فلا عجب أن يكون كذلك لأنه وصي النبي ﷺ صاحب الولاية العظمى، وباب مدينة العلم والحكمة لرسول الله ﷺ.



(١) الإحتجاج للشيخ الطبرسي ١ / ٩٧ .

(٢) سورة يونس، آية (٣٥) .

(٣) نهج البلاغة ٢ / ١٣٠ .

الفصل السادس عشر [لا يكون شئ في الأرض و السماء إلا بسبع خصال] ٥٠٣

هذا خلاصة الكلام، ومختصر المقصود والمرام في العدل، ولما كانت هذه المطالب بعيدة المنال، عن أفهام الرجال، فضلاً عن أفهام أهل القيل والقال، لعدم الأنس بها، فعليك بالفحص عن التفصيل، وتحقيق الحق بأتم دليل، وأوضح سبيل، عن ساير رسائلنا ومصنفاتنا، وحيث إن الكتابة باستعجال في ضيق المجال، وحال السفر، وفصل الصيف والحر، اكتفيت بالميسور، إذ لا يسقط بالمعسور.

عزيزي قبل أن تدقق النظر، وتستعمل الفكر، لا تستعجل بتفوه ما لا يليق، والقول بخلاف التحقيق، ولا تجعل في بادئ سيرتك البحث والجدل، وتكثير القيل والقال، إذ هو منهي في أحسن المقال، النازل من ذي العز والجلال.

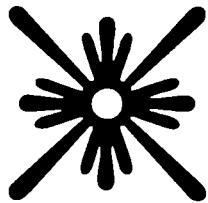
نعم إن دقت النظر، ووقفت على الخطأ والزلل، فاحمله على السهو والنسيان، المساوقين للإنسان، وجد بقلم الإصلاح في الإصلاح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ❁.

❁ موعظه حسنة

هنا المؤلف السيد كاظم أعلى الله مقامه، بعد ما انتهى من باب العدل، وذكر ما ذكر من المقامات والدرجات في مقام الإمامة وكيفية العدل الإلهي، أراد أن يعظ البعض في عدم الاستعجال في الحكم بالغلو أو الخروج عن الجادة، حيث إن المؤلف السيد كاظم رضوان الله عليه نال ما نال من بعض المنافقين في عصره، وبعد عصره الشريف من الأذية والحرب ضده وضد أستاذه الشيخ الأوحى أحمد الأحسائي قدس سره، فرموه بالكفر والغلو في مقامات المعصومين عليهم السلام، والخروج عن عقائد الإمامية، حتى قتلوه مسموماً رضوان الله عليه وهو لم يبلغ الخمسين سنة، ولد سنة

١٢١٢ - وتوفي سنة ١٢٥٩ هجرية، وهذا الكتاب خير ما يقال عن السيد المظلوم السيد كاظم، حيث نزهه الباري جلّ جلاله عن شرك المتفلسفة وغيرهم كما بين في الشرح من قبل، ووضع المعصومين عليهم السلام موضعهم اللائق لهم، من أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ (١) فهنا في هذا المقام، كلمة عظيمة الشأن، كبيرة المعنى، جليلة القدر من آية الله المعظم، الإمام المصلح والعبد الصالح، الميرزا حسن الأحقائي روي فداه حيث قال: ((إن أهل البيت عليهم السلام مثل القلم في يد الكاتب، فالكاتب هو الله عزّ وجلّ، والقلم الذي يكتب به هم محمد وآل محمد عليهم السلام)) (٢).

فكل ما يكتب القلم فهو بأمر الكاتب، فلو ترك الكاتب الكتابة وقف القلم، لا حراك فيه، وهناك كتابان للمؤلف أعلى الله مقامه، يبين فيه ما جرى عليه من بعض المنافقين، أحدهما اسمه ((دليل المتحيرين)) والآخر اسمه ((الحجة البالغة)) أظهر فيهما اعتقاده وسيرته، وبعض الشبهات التي وجهت إليه وإلى أستاذه الشيخ أحمد الأحسائي رضوان الله عليهما.



(١) سورة الأنبياء، آية (٢٦-٢٧).

(٢) من خطب آية الله الإمام المصلح الميرزا حسن الأحقائي.

المحتويات

(الباب الثاني) في العدل و فيه فصول

٧ الفصل الأوّل: [العدل من الصفات الذاتية]
٧ سبب إفراد صفة العدل عن الصفات الذاتية
٧ الأمر الأول
١٠ الأمر الثاني
١٢ عدله القديم عين ذاته سبحانه
١٢ الأمر الأول
١٢ المحذور الأول
١٣ المحذور الثاني
١٤ كل نقص نسليه عن الله تعالى
١٥ الآثار تدلنا على وجود الصانع وكماله
١٦ العدل عين ذاته تعالى
١٦ اللحاظ الأول
١٦ اللحاظ الثاني
٢١ رفع إشكال في نفي علمه تعالى
٢١ الجواب

٢٤	وجود صفات فعلية قبال الصفات الذاتية
٢٦	ليس في ذات الله تعالى إلا ذاته لا غير
٢٧	الصفات الفعلية المتعلقة بالخلق
٢٩	صفة استدلال لا صفة تكشف عنه
٣٠	الفصل الثاني: [العدل اللغوي والإصطلاحي]
٣٠	العدل اللغوي
٣١	العدل الإصطلاحي عند العلماء
٣٣	العدل الإلهي
٣٤	الرحمة العامة
٣٦	الرحمة المكتوبة
٣٩	الفصل الثالث: [الحق تعالى لا يصدر عنه القبيح]
٣٩	كل شيء من الظريف ظريف
٤١	عمل القبيح فعل الناقصين
٤٢	فاعل القبيح لا يخلو من محاذير ثلاثة
٤٢	الأمر الأول
٤٢	الأمر الثاني
٤٣	الأمر الثالث
٤٤	لا ينبغي في حقه تعالى القبيح
٤٤	مصاديق القبيح
٤٤	العقل هو الحاكم على خلاف الحكمة
٤٦	الله تعالى عادل لا يظلم أحداً
٤٧	الظلم الواحد في حقه تعالى كثير
٤٨	القصيدة العلوية لابن أبي الحديد المعتزلي

الفصل الرابع: [اللَّهُ تعالى لم يخلق الخلق عبثاً] ٥١

الحكيم لا يفعل العبث ٥١

الفائدة من خلق الخلق راجعة إليهم ٥٣

حل إشكال العبثية ٥٤

مناقشه في حديث كنت كنتراً مخفياً ٥٦

المعنى الباطن للحديث ٥٧

فهنا ثلاثة أمور وهي: ٥٧

فالخلاصة: ٥٨

عودة إلى بحث كنت كنتراً مخفياً ٥٩

الفصل الخامس: [اللَّهُ تعالى لم يجبر الخلائق] ٦٦

العلة من خلق الممكنات إظهار الرحمة فيهم ٦٦

الرحمة العامة ٦٧

الرحمة المكتوبة الخاصة ٦٨

العدل هو إعطاء طالب الخير والشر ما يريد ٧١

حقيقة الجبر ٧٢

التكليف على جهة الاختيار ٧٤

ثمرة الإيجاد إنتفاع الخلق ٧٥

فمن لا يكلف لا يوجد ٧٦

الأدلة على عدم جبر أحد على إيمان أو كفر ٧٨

الأدلة النقلية على نفي الجبر ٧٨

أفعاله تعالى بمقتضى العدل ٧٩

الدليل العقلي على عدم ظلمه عزَّ وجلَّ ٧٩

إحتمال خلق الخلق مؤمنون فقط ٨١

٨١	المحذور الأول
٨٢	المحذور الثاني
٨٣	لا يدخل المكروه على الطاعة الجنة أو النار
٨٤	لا يدخل المكروه على المعصية النار
٨٥	لا يدخل المكروه على المعصية الجنة
٨٥	على احتمال الإكراه على المعصية يلزم البخل
٨٧	في صورة الجبر ابطال لإرسال الرسل
٨٩	لو خلق البعض مطيعاً والآخر عاصياً
٩٠	في صورة الجبر ينعكس المدح والذم
٩١	الجبر إعطاء المكلف ما لا يريد
٩١	الطاعة والمعصية عرضيتان في الجبر
٩٣	لو كان جبراً لكان المحسن سيئاً
٩٣	الجبر مقولة المعتزلة
٩٥	الفصل السادس: [في إختيار الخلائق التكليف]
٩٥	الحق تعالى لم يخلق إلا بالإختيار
٩٥	الصورة الأولى
٩٦	الصورة الثانية
٩٦	الصورة الثالثة
٩٦	الصورة الرابعة:
٩٧	مقتضى العدل في الشق الرابع
٩٧	خلقهم الحكيم بطور رضاهم
٩٨	شرح حديث ((لو كشف الغطاء...))
١٠١	الخلق الأول في عالم الذر

٥١١	المحتويات
١٠١	عالم الذر
١٠٤	علة الحجر الأسود
١٠٧	عالم الذر أوسع بسبعين ألف مرتبة
١١٠	إنقسام الخلائق في الإقرار والإنكار
١١١	القسم الأول
١١٧	القسم الثاني
١١٩	ولاية المعصومين <small>عليهم السلام</small> عامة لكل الخلق
١٢١	أول من أنكر التكليف
١٢٤	القسم الثاني هم أصل كل معصية
١٢٦	المعصومون <small>عليهم السلام</small> هم الصلاة والصيام و كل خير
١٢٧	قصيدة الشيخ صالح بن العرنديس
١٢٩	أتباع القسم الأول
١٣٣	أتباع القسم الثاني
١٣٧	عموم أتباع القسم الثاني
١٣٨	الولاية هي الأمانة المعروضة
١٤٣	القسم الثالث المستضعفون
١٤٤	خلق طينة القسم الأول
١٤٤	إشكال
١٤٤	الجواب
١٤٥	طينة محمد وآل محمد <small>عليهم السلام</small>
١٤٩	خلق طينة التابعين المؤمنين
١٥٣	درجات الشيعة
١٥٤	المتبوع علة للتابع

- ١٥٧ خلق طينة إبليس الأعظم
- ١٦٢ خلق تابعي إبليس
- ١٦٦ القسم الثالث المستضعفون
- ١٦٩ جدد الخلق في عالم الشهادة
- ١٧١ قصة العبد الأسود
- ١٧٢ الأخبار مشحونة بذكر عالم الذر
- ١٧٢ بيان المؤلف بعض البواطن
- ١٧٣ الفصل السابع: [الماهيات مخلوقة]
- ١٧٣ خلق الخلق بمقتضى قابلياتهم
- ١٧٤ ما هي الماهيات؟
- ١٧٥ ما هي الحقائق؟
- ١٧٦ الجواب.
- ١٧٧ الاختلاف في خلق الماهية
- ١٧٨ أصل البحث.
- ١٨٠ رأي الشرع في الماهية
- ١٨٠ رأي الكتاب في الماهية
- ١٨٢ رأي السنة في الماهية
- ١٨٢ الحديث الأول لخلق الماهية
- ١٨٢ الحديث الثاني لخلق الماهية
- ١٨٣ الحديث الثالث لخلق الماهية
- ١٨٣ الحديث الرابع لخلق الماهية
- ١٨٥ رأي الشيخ أحمد الأحسائي في الماهية
- ١٨٦ رأي ميرزا حسن كوهر في الماهية

١٨٩	هل الماهيات مخلوقه قبل الوجود؟
١٨٩	إشكال على خلق الماهيات
١٩١	الماهيات قديمة عند الصوفية
١٩٢	تقرير شبهة الصوفية
١٩٣	الموضع الأول
١٩٤	الموضع الثاني
١٩٥	دليل الصوفية في التكثر في الذات
١٩٦	رأي ابن عربي في الماهيات
١٩٩	خلاصة قول الصوفية في الماهيات
٢٠٢	الرد على عقائد الصوفية
٢٠٢	جواب مفاصد الصوفية
٢٠٥	لا علم إلا علمه تعالى
٢٠٥	فأجابهم السيد
٢٠٥	الأمر الأول
٢٠٥	الأمر الثاني
٢٠٦	لا يخرج من الواجب شيء
٢٠٧	بطلان كون الماهيات خارجة من الذات
٢٠٩	الإيجاد عند الصوفية الظهور
٢١١	الذات تعالى لا تدرك
٢١٢	الآثار لا تدل على ذات المؤثر
٢١٢	الإشكال
٢١٣	الجواب
٢١٤	الله تعالى بسيط غير مركب

- ٢١٦ علمه تعالى غير علمنا
- ٢١٧ الإعتقاد الحق في العلم
- ٢١٨ لا معلوم حادث في ذاته سبحانه
- ٢٢٠ الفصل الثامن: [كل ممكن زوج تركيبى].
- ٢٢٠ كل موجود مركب
- ٢٢٠ القابل والمقبول
- ٢٢٠ القابل
- ٢٢١ المقبول
- ٢٢٢ الصورة هي مخصصة للمادة الخام
- ٢٢٣ المادة والصورة الشخصية وجدا معاً
- ٢٢٤ المادة والصورة النوعية الكلية وجدا معاً
- ٢٢٥ لا دور في توقف المادة على الصورة
- ٢٢٥ الدور المصرح
- ٢٢٦ الدور المضمّر
- ٢٢٦ حل إشكال الدور الباطل
- ٢٢٧ الدور المعى
- ٢٢٩ القابل والمقبول وجدا معاً
- ٢٢٩ القول بتقدم القابل أوالمقبول
- ٢٣٠ خلاصة القول في المادة والصورة
- ٢٣٠ تقدم المادة على الصورة بالذات
- ٢٣١ القيام الصدوري
- ٢٣١ القيام الركني التحققي
- ٢٣١ القيام الظهوري

٥١٥	المحتويات
٢٣١	القيام العروضي
٢٣٢	الفصل التاسع: [كيفية خلق الموجودات]
٢٣٢	نسبة الفاعل إلى المفعولات واحدة
٢٣٤	تفسير آية ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
٢٣٤	معنى باطن الآية الكريمة
٢٣٨	الإختلاف من القابل
٢٤٠	القرب والبعد من الأشعة
٢٤٢	النور المادة والحدود الصورة
٢٤٢	كل من الأشعة لا يتعدى رتبته
٢٤٣	حل إشكال في القرب والبعد
٢٤٣	الجواب
٢٤٥	ثمرة التكليف
٢٤٦	معجزة حنين الجذع
٢٤٧	معجزة تسبيح الحصى
٢٤٨	خُلِقَ الخلق لإدراك الحقائق
٢٤٩	كيفية الإيجاد
٢٤٩	القابليات والمقبولات معاً
٢٤٩	لا وجود للأشعة قبل السراج
٢٥٠	الأشعة ليست في ذات السراج
٢٥١	حدوث الأشعة من السراج ذاتي
٢٥١	الأول: الحدوث الزماني
٢٥١	الثاني: الحدوث الذاتي
٢٥٣	خُلِقَت الأشعة لا من شيء

- ٢٥٥ فعل السراج للأشعة واحد
- ٢٥٧ عليّة الوجود ومعلوليته
- ٢٥٨ الخلاصة
- ٢٦٠ لا وجود للأشعة قبل السراج
- ٢٦١ الأرض ليست القابلية للأشعة
- ٢٦٢ الأب المادة والأم الصورة
- ٢٦٥ الأثر ليس في رتبة مؤثره
- ٢٦٦ لا شيء من الخلق في ذات الحق تعالى
- ٢٦٨ مقولة الصوفية إن الخلق في الذات
- ٢٧٠ الخلاصة
- ٢٧٢ لا اتصال بين السراج والأشعة
- ٢٧٤ لا انفصال بين السراج وأشعته
- ٢٧٤ الاحتمال الأول
- ٢٧٤ الاحتمال الثاني
- ٢٧٥ الحالة الأولى
- ٢٧٥ الحالة الثانية
- ٢٧٥ الاحتمال الثالث
- ٢٧٥ الأمر الأول
- ٢٧٥ الأمر الثاني
- ٢٧٧ ألت بربكم
- ٢٧٧ التكليف الشرع الوجودي
- ٢٧٩ التكليف الإيجاد الشرعي
- ٢٨٢ معنى قبول الوجود

٢٨٤	القسم الأول المقر بالقلب واللسان
٢٨٧	القسم الثاني المنكر بالقلب المقر باللسان
٢٩٠	خلق طينة المقرين والمنكرين
٢٩٣	حقيقة عليين وسجين
٢٩٧	القسم الثالث التابع للحق
٢٩٧	الصفة أنزل من رتبة الموصوف بسبعين
٣٠٠	القسم الرابع التابع للباطل
٣٠١	أصحاب اليمين وأصحاب الشمال
٣٠٣	القسم الخامس المقر عن جهل
٣٠٦	قسم آخر للمستضعفين
٣٠٨	مثال السراج ينطبق على الخلق
٣٠٩	الحكيم فعله في نهاية الإتيان
٣١٠	الدليل العقلي على حكمة الخالق
٣١٢	الدليل العقلي الثاني لحكمته
٣١٢	الجزء في الكل والكل في الجزء
٣١٤	انطواء الجزء على الكل
٣١٦	كل ما في القرآن في الباء
٣٢٣	شبهة انطواء الكل في الجزء
٣٢٣	الأمر الأول:
٣٢٣	الأمر الثاني:
٣٢٤	جواب الشبهة
٣٢٤	الدليل النقلي على الإنطواء
٣٢٨	الفصل العاشر: [الفاعل في السراج النار الغيبي]

- ٣٢٨ المؤثر في السراج النار الغيبي
- ٣٢٩ الجواب .
- ٣٢٩ المرحلة الأولى :
- ٣٢٩ المرحلة الثانية :
- ٣٣٠ المرحلة الثالثة :
- ٣٣٠ المرحلة الرابعة :
- ٣٣٠ الفاعل هي النار الغيبي
- ٣٣١ لا تحقق للشعلة إلا بفعل النار
- ٣٣١ أول موجود بالنار هي الشعلة
- ٣٣٢ الأشعة مستمدة من الشعلة
- ٣٣٣ الشعلة تمد الأشعة على قدرها
- ٣٣٣ الشعلة وجه وباب النار
- ٣٣٥ النار كانت كنزاً مخفياً
- ٣٣٦ إقبال الشعلة وإدبارها
- ٣٣٨ الشعلة هي الاسم الأعظم للنار
- ٣٤٠ المعصومون هم المظهرون لأمر الله تعالى
- ٣٤٢ إطلاق المعصومين عليهم السلام على أول مخلوق
- ٣٤٣ أول ما خلق النور
- ٣٤٥ أول ما خلق الروح
- ٣٤٦ أول ما خلق العقل
- ٣٤٧ إطلاق المشائين على أول مخلوق
- ٣٤٨ إطلاق الإشراقين على أول مخلوق
- ٣٤٩ عقلم ينتقل إليهم على سبيل التبادل

٥١٩	المحتويات
٣٤٩	الناطق والصامت للمعصومين
٣٥٢	العمود من نور
٣٥٣	الملك المحدث
٣٥٤	السلسلة الطولية
٣٥٤	السلسلة العرضية
٣٥٥	غاب عنه المحدث
٣٥٧	أول من أجاب بأ لست بربكم
٣٦٠	أول من أقر بالتوحيد
٣٦٢	الخير منهم والشر من عدوهم
٣٦٤	حديث اللطخ
٣٦٨	خلاصة الأقسام الخمسة
٣٧٠	الفصل الحادي عشر: [الشعلة هي التي تمد الأشعة بالنور]
٣٧٠	الأشعة قائمة بالسراج
٣٧١	السراج لا داخل ولا خارج في الأشعة
٣٧٢	شرح حديث أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٣٧٣	الشعلة وجه النار الغيبي
٣٧٥	السراج مثال للمعصوم
٣٨١	النبي المدينة وعلي الباب صلى الله عليهما
٣٨٥	زحل والمريخ نجما أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٣٩٢	الفصل الثاني عشر: [درجات النور بالنسبة للشعلة]
٣٩٢	مراتب النور
٣٩٣	وثأ
٣٩٤	قرب النور وبعده

٣٩٤	الصورة الأولى للنور
٣٩٧	الصورة الثانية للنور
٣٩٨	الصورة الثالثة للنور
٣٩٨	القسم الأول المختلط
٣٩٩	القسم الثاني المختلط
٤٠٠	القسم الثالث المختلط
٤٠١	الفصل الثالث عشر [كل شيء له ثلاث مراتب]
٤٠١	كل شيء له ثلاث مراتب
٤٠١	المرتبة الأولى ذاته
٤٠٢	المرتبة الثانية عقله
٤٠٢	المرتبة الثالثة نفسه
٤٠٤	الصورة وأقسامها
٤٠٦	القسم الأول للصورة
٤٠٧	القسم الثاني للصورة
٤٠٨	تمثيل مراتب الحروف بالإنسان
٤٠٩	مرتبة حقيقة الحروف
٤١٠	مرتبة معاني الحروف
٤١٠	مرتبة صور الحروف
٤١٠	مرتبة البرزخ بين العقل والنفس
٤١٣	التكليف في العقول بالمعنى
٤١٣	الخلق الأول
٤١٥	ابتداء الحكم في الأرواح
٤١٥	التكليف في النفوس بالتمايز

٥٢١	المحتويات
٤١٦	الخلق الثاني
٤١٦	عالم الأظلة
٤١٧	أنواع عالم الذر
٤١٨	استمداد السافل من العالي
٤١٨	كل شيء يدور على قطبه
٤١٩	استمداد المعلول في بدئه وعوده
٤٢٠	مراتب الموجودات في السرعة والبطء
٤٢٢	الاختيار في جميع عوالم الذر
٤٢٣	عالم ذر الدنيا
٤٢٤	خطبة عيد يوم الغدير
٤٣٩	معجزة رواية حديث الغدير
٤٤٢	الفصل الرابع عشر: [إن الله سبحانه هو الغني و كل الخلق محتاجون إليه]
٤٤٢	كل الخلق محتاج إلى الغني
٤٤٣	قسما الدعاء
٤٤٣	دعاء بلسان الاستعداد والقابلية
٤٤٤	الدعاء بلسان المقال
٤٤٥	الخير والشر بطلب العبد
٤٤٦	المحذور الأول
٤٤٦	المحذور الثاني
٤٤٧	لا بد لكل شيء من سبب
٤٤٨	كتابة الجيم عوجاء والألف مستقيمة
٤٥٠	الإيمان والكفر مخلوقان لله تعالى
٤٥٢	شرح حديث الرضا <small>عليه السلام</small>

- ٤٥٤ مثال السراج في الإمداد
- ٤٥٥ أصلية الحسنة واجتثاث السيئة
- ٤٥٦ الأمر الأول
- ٤٥٦ الأمر الثاني
- ٤٥٦ الأمر الثالث
- ٤٥٧ الأمر الرابع
- ٤٥٩ الله تعالى أولى بالحسنة منك
- ٤٦٢ القدر هو الأمر بين الأمرين
- ٤٦٤ تنمة
- ٤٦٥ ملحق بمثال الجدار والسراج
- ٤٦٦ ملحق
- ٤٦٧ الفصل الخامس عشر: [كل شيء بمشيئة وإرادة]
- ٤٦٧ لا يكون شيء إلا بأمر الله تعالى
- ٤٧٠ كل شيء له خمس مراتب
- ٤٧٠ المرتبة الأولى للشيء وجوده
- ٤٧١ الهولي
- ٤٧٢ المرتبة الثانية للشيء عينه
- ٤٧٣ المرتبة الثالثة للشيء هندسته
- ٤٧٤ المرتبة الرابعة للشيء القضاء
- ٤٧٤ الآية المباركة جمعت المراتب الأربع
- ٤٧٦ المرتبة الخامسة للشيء الإمضاء
- ٤٧٦ تعدد الفعل حسب تعلقه
- ٤٧٧ الواحد لا يصدر منه إلا واحد

٥٢٣	المحتويات
٤٧٩	العقول العشرة
٤٨٢	مراتب فعل الله تعالى
٤٨٣	المرتبة الأولى للفعل المشيئة
٤٨٣	المرتبة الثانية للفعل هي الإرادة
٤٨٤	المرتبة الثالثة للفعل القدر
٤٨٤	القسم الأول التقدير المحتوم
٤٨٥	القسم الثاني التقدير المشروط
٤٨٦	المرتبة الرابعة للفعل القضاء
٤٨٧	المرتبة الخامسة للفعل الإمضاء
٤٨٨	مثال السرير على مراتب الفعل
٤٩٠	خلاصة مراتب الفعل
٤٩١	الفصل السادس عشر: [لا يكون شيء في الأرض و السماء إلا بسبع خصال]
٤٩٢	وجود كل شيء بسبع خصال
٤٩٢	فالمشيئة:
٤٩٢	الإرادة:
٤٩٢	القدر:
٤٩٢	القضاء:
٤٩٢	الأذن:
٤٩٣	المأذون
٤٩٣	الولاية التشريعية والتكوينية
٤٩٤	الولاية التكوينية للأنبياء ﷺ
٤٩٦	الولاية التكوينية عند نبي الله عيسى
٤٩٦	الولاية التكوينية عند محمد وآل محمد ﷺ

٥٢٤ شرح أصول العقائد (ج ٢)

الأجل ٤٩٨

الكتاب ٤٩٩

موعظه حسنة ٥٠٣